منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

دار الأمان
الرباط

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

بول بولز

PAUL BOWLES

بدون توقُّف

سيرة ذاتية

مكتبة بغداد

ترجمة و تقديم:

توفيق سخان

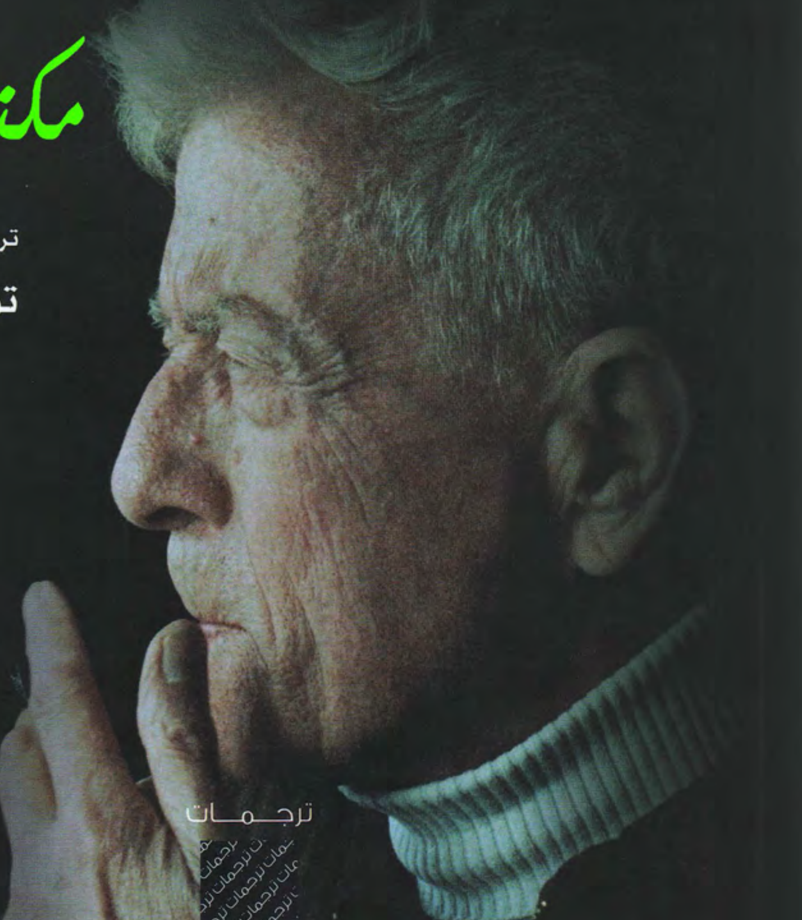

ترجمات

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Without Stopping
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
The Wylie Agency (UK) Ltd
Copyright © Paul Bowles
All rights reserved

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بدون توقُّف

سيرة ذاتية

بــول بــولــز
PAUL BOWLES

ترجمة وتقديم
توفيق سخان

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

دار الأمان
الرباط

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الطبعة الأولى

1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-614-01-0961-2

جميع الحقوق محفوظة

دار الأمان
الرباط

4، زنقة المامونية - الرباط - مقابل وزارة العدل
هاتف: 537723276 212+ - فاكس: 537200055 212+
البريد الإلكتروني: darelamane@menara.ma

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
هاتف الرياض: 966509337722+
هاتف بيروت: 9613223227+
editions.difaf@gmail.com

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على سبيل التقديم

في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ركب الكاتب الأمريكي مارك توين البحر على متن باخرة كوايكر سيتي وستتكرر هذه السيرة كثيرا مع أجيال وأجيال من القادمين من ضفة الأطلسي، لكل واحد مبرراته الخاصة، ولكل واحد أيضا حكاياته، لكنهم متفقون ضمنا أو بالأحرى متواطئون على ما تمثله المدينة من صورة للشرق، وإن كان هذا الشرق "مُلطفا." كان توين رفقة مائة وخمسين مسافرا في طريقهم إلى أوربا لزيارة الأراضي المسيحية. رست الباخرة في طنجة وقد سبقتها إلى ذلك توقعات المسافرين عن هذه المدينة التي لم تكن في سنة 1867 تشبه المدن المغربية الأخرى كثيرا. فقربها من جبل طارق جعلها في تماس مع أوربا وهكذا انشرت القنصليات الأوربية وساد جو من الحرية، حسب مايكل وولف في كتابه *الحج*، لا مثيل له[1]. شكلت المدينة أول لقاء لصاحب *موبي ديك* بمدينة مسلمة وهكذا يكتب: "كنا نرغب في شيء غريب تماما-غريب من عاليه إلى سافله، من مركزه إلى أطرافه، غريب من الداخل والخارج ومن كل جهاته ولا شيء دون ذلك؛ شيء لا يذكرنا بأي شعب آخر أو بأي أرض أخرى تحت الشمس. حمدا لله. في طنجة وجدنا كل ما كنا نبحث عنه."[2]

جاء بول بولز (1910-1999) إلى طنجة بتحريض من الكاتبة الأمريكية المقيمة بباريس جترورد شتاين. فقد بدا لها الشاب مشوش الذهن، حائرا بين النوتات الموسيقية ومسالك الشعر وقد ظنت أن طنجة بما تجمعه من تناقضات ستتيح متسعا للتأمل والتفكير فيما قد يتخذه مستقبله من شكل أو أشكال، لا سيما أن رفيقه في الرحلة كان هو الموسيقار الأمريكي آرون كوبلاند. ومع أن بولز كان يعتبر نفسه

---

(1) Micheal Wolfe, The Hadj. (New York: Grove Press, 1993), pp. 127-128,

(2) Mark Twain, The Innocents Abroad. (Connecticut: American Publishing Co, 1869), p. 76

شاعرا إذ سبق له أن نشر بعض القصائد في مجلة سوريالية باللغة الفرنسية، فإن شتاين كانت تعتبر هذه المحاولات مجرد تفاهات تثير اشمئزازها أكثر من إعجابها. ومع ذلك سيواصل كتابة الشعر وتأليف الموسيقى وستكون طنجة المبتدأ والخبر في سيرة حياة كان عنوانها العريض هو الارتحال بين جغرافيات طبيعية وثقافية مختلفة. سيكتب بولز أيضا نصوصا ابداعية تتراوح ما بين الرحلة والقصة القصيرة والرواية وسيكون المتن هنا كما هي اللحمة في توليفاته الموسيقية أحداثا وشخوصا تمتح من واقع طنجة ومن مدن إنسانية أخرى شدت نظره وهو يحاول إعادة سيرة جده الذي كان في زمن ما ينتقل بين مختلف الولايات الأمريكية ونادرا ما يقضي ليلتين متتاليتين في المكان ذاته. ولعل عناوين من قبيل "السماء الواقية،" و"بيت العنكبوت،" و"دعه يسقط،" و"هناك عاليا فوق العالم،" ومجاميعه القصصية ونصوص الرحلة وترجماته للعديد من النصوص المغربية إلى اللغة الانجليزية كنصوص محمد المرابط ومحمد شكري تشير إلى هذا المنحى وتعبر عن هوسه بفضاءات ثقافية غريبة، ولعلها غرائبية، سيصيغها إبداعا وسيضفي عليها قناعاته الوجودية والجمالية فيبدو كما لو أنه أحد شخوصها أو شخصية انبثقت على حين غرة من عالم ألبير كامو.

وإذا كان بولز مولعا بالرحلة، فإن المغربي يبدو رفيق سفر ممتاز يوفر له إمكانية تحقيق ما يعجز عنه هو في فضاءات غريبة تستدعي جواز سفر من نوع ما. هكذا في نصه المعنون: "لا يجب على المرء أن يكون مسلما جدا،" يقترح بولز اصطحاب عبد السلام، المغربي المسلم، إلى تركيا أمام اعتراض أصدقائه. ودون مواربة يعلن بولز بأن السبب وراء اصطحابه لعبد السلام يكمن في أنه ينوي التوسل به ك "مفتاح" للبلاد التركية. يمكن للمغربي المسلم أن يتعامل مع المسلمين الأتراك دون تحفظ أو حرج. بإمكانه أن يفتري الكذب ويتفوق حتى على نفسه في ذلك. ويمكنه أيضا أن يخوض غمار التجارب والمغامرات نكاية في كل القوانين الوضعية، وأحيانا حتى السماوية التي تحوز لديه على فهم خاص.[1]

في سيرة تحتفي بالكاتب وبتجربة المغتربين الأمريكيين بين باريس وطنجة، تتحدث ميليسنت ديلون، والتي ستكتب أيضا سيرة زوجته جين بولز، في كتابها

---

(1) Paul Bowles, Their Heads Are Green And Their Hands Are Blue. (Harpercollins, 200-), p.69

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المعنون "أنت لست أنا" عن الوجوه المتعددة لبول بولز وعن علاقاته المرتبكة بمحيطه. ولعل التوصيف الأكثر رجاحة لما يمثله بول بولز كحالة ثقافية تعبر عنه ديلون حينما تصفه ب "المشاهد غير المرئي." تتساءل ديلون عن هذا الترحال الدائم بين نسق ثقافي وآخر مع الحفاظ دوما على المسافة ذاتها من الحياد: "من الواجب استحضار-كيف لي أن أنسى ذلك- أنه لحوالي خمسين سنة كان بول يعيش هنا وأن السحر والأشياء الأخرى التي تبدو لي غريبة هي من المسلمات بالنسبة له. هل بإمكانه أن يومن بالشيء وألا يومن به في نفس الآن، أن يبقى على شفا الحدود، دون أن ينتهي به المطاف في الأخير إلى تبني موقف هذه الجهة أو تلك؟"[1]

وإذا كان بولز يقدم نفسه على أنه مجرد آلة تلتقط نبض الأمكنة التي توقف عندها والتي أثارت انتباهه، فإن القارئ لهذه السيرة والتي تبرعمت انطلاقا من قصة قصيرة كان قد كتبها وهو في حالة من العطالة في إحدى المكتبات يلاحظ بأنه لا يحيد كثيرا عن المنطق المانوي الذي طبع الكثير من الكتابات التي تعرضت لموضوع الآخر والمغاير. يعبر بولز عن ولاءاته وقناعاته دون مواربة فيكشف عن طبيعة علاقاته بالمحتل وأهل البلد وكيف أنه لا يرى ضيرا في محاباة السلطات الاستعمارية في أي مكان يحل به. فالسلطات الاستعمارية الفرنسية في المغرب، مثلا، ضمان لراحته واستقراره المادي أما أهل البلد فلا يعنيه من أمرهم سوى حالتهم "الطبيعية" التي تعارض تعارضا تاما ما تركه وراءه من آثار التمدن الموحشة. هكذا يعتبر المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي إرهابا والمقاومين مجرد إرهابيين كما أن زلزالا ضرب مدينة أغادير المغربية سنة 1960 وأتى على كل شيء فيها يعد نعمة إلاهية بالنسبة له وأن منظر البركان الذي غطت حممه إحدى القرى الآسيوية حدثا رائعا. ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا بأنه في هذه الحالة كما في الكثير من الحالات التي مثلت لعلاقة الأنا الغربي بالآخر أو الآخرين تبدو جراب الحاوي ضيقة جدا وإن ما يبرز منها لا يشذ كثيرا عن تلك الثنائيات التي تعرض لها الكثير من النقاد من أمثال إدوارد سعيد وهومي بابا وغاياتري سبيفاك بالنقد.

توفيق سخان

---

(1) Millicent Dillon, You Are Not I. (Berkeley, University of California Press, 1998), p.129

https://telegram.me/maktabatbaghdad

1

جاثياً على كرسي، ويُمناي ممدودة تخاصر العارضة الفوقية المذهبة لمسنده، أخذتُ أتأمل الأشياء المرصوصة على رفوف الخزانة. على يسار الساعة الذهبية، ثمة إبريق قصديري قديم. حينما أطلت التحديق إليه، نطقت بكلمة "كوز" عاليا فبدا شبيها بالكوز الفضي الذي يوجد في بيتنا والذي عادة ما أتناول منه حليبي اليومي. صحت "كوز" مرة أخرى، فأصاب الاسم مني وَتَرا غريبا، وَتَرا جعلني أنطق به المرة تلو المرة إلى أن أدركت أن معناه يكاد ينفرط كحبات عقد. شعرت بالدهشة وداخلني إحساس غريب بالضيق والتبرم إذ كيف يمكن لكلمة "كوز" أن لا تعني كوزا؟

كانت الحجرة قابعة في هدوئها العادي وكنت لوحدي في ذلك الجزء من المنزل. فجأة رنت الساعة الذهبية رنات متتالية، ومع الرنة الرابعة أدركت في ركن قصي في داخلي أن شيئا ما يحدث. كنت في السنة الرابعة، وكانت الساعة المنزلية قد أعلنت الرابعة، كما أن كلمة "كوز" تعني كوزا. لذا، فقد كنت أنا هو أنا، كنت هناك، وكان الزمن لحظتئذ هوَ هوَ ولاغير. تراءت هذه التجربة، تجربة قول كل هذه الأشياء وبكل هذا اليقين، شيئا جديدا يبعث على الراحة والسكينة.

كنا في منزل الخال إدوارد في بلدة إِكْستر، بحِذاء الكنيسة التوحيدية حيث يعمل كاهنا. يغشى المكان طابع أسطوري ذلك أن كلا من أمي وخالي فْريد قد قضيا سنوات تعليمهم الأساسي هناك، هي بمدرسة روبنسون الأساسية للصبايا وهو بمدرسة فيلبس إكستر للأولاد. دأبت أمي كلما أشارت إلى اسم مدرستها أن تنفجر ضحكا، على نحو غير عادي، بينما كانت كلما تحدثت عن أكاديمية فيليبس فغالبا ما يكون ذلك مقرونا بطابع التقدير والاحترام. كانت تخبرني دوما: "لقد وضعت اسمك هناك ضمن قائمة الطلبة المسجلين." وقد كان هذا كفيلا بأن يعكر صفو مزاجي كلما تمعنت في الأمر مليا.

الآن ترقد أمي في المستشفى الذي يقع على بعد أميال قليلة من البلدة. حينما عاد أبـي من نيويورك أخذني جانبا، وعلى نحو يفوق قسوته المعهـودة قـال لي: "أمك مريضة جدا وهذا بسببك. إياك أن تنسى ذلك أيها الشاب!"

أصبت بصدمة كبيرة وانتابني شعور قاهر بالحقد والغبن إذ كيـف يعقـل أن تكون لي علاقة، أية علاقة، بمرض أمي. غير أنني كنت قد سلمت بنقـد أبـي الدائم والمكين. فمع مرور الأيام، بات وجوده لا يمثل بالنسبة لي سـوى الشـقاء والبؤس، وكان هذا من الأشياء التليدة التي باتت تحكم علاقتي به.

ذهبت مع خالتي جين لعيادة والدتي، حاملا قطعتين من الحلـوى اسـتطعتُ إعدادهما بنفسي. ومع أن الحلوى لم تكن في حال جيدة، فان أمي أخذت تلتهمها وتقهقه. لاحقا حينما عدنا إلى نيويورك، سألتها عن علاقتي بمرضها.

"آه عزيزي! أبوك لم يقصد ذلك. فكما تعلم لم تكن ولادتك بالأمر اليسير. معظم الأطفال يولدون الرأس أولا؛ غير أن الأمر كان مخالفا بالنسبة لك. كما أنك كنت تزن ثمانية أرطال ونصف." لم يبدد ذلك الكثير من الإشكال، غير أن شعورا أقل بالذنب غمرني.

بعد مرور سنة على هذا الحادث، وقع شيء شبيه بحادث الكوز؛ غـير أنـني هذه المرة تأهبت مسبقا واستمتعت استمتاعا رائعا بالإحساس بحيث تركت نفسي تنداح في غمرة إحساس كلي باللحظة. حدث ذلك بمزرعة (الثقب السعيد.) كنت جالسا في أرجوحة تحت شجرة من أشجار القيقب الباسـقة تـداعبني النسـائم والأصوات التي تتخلل فترة الظهيرة خلال موسـم الصـيف في ماساشوسـيتس. أخذت أتأرجح إلى الخلف ورأسي الذي يتدلى إلى الوراء يكاد يلامس العشـب. بقيت على هذه الحال لفترة من الزمن. فجأة دقت الساعة الرابعة وانبعث كل شيء من جديد: أنا هو أنا، الزمن هو هذه اللحظة، وأنا هنا. تمايلت الأرجوحة قلـيلا فلاحت الأعماق الخضراء لأوراق أشجار القيقب، ووراء ذلك كلـه ارتسـمت السماء صفحة زرقاء على نحو لا يصدق.

تمتد مزرعة (الثقب السعيد) على مساحة مائة وخمسة وستين هكتـارا مـن التلال الغابوية تخترقها في الوسط ضيعة عرضها حوالي نصف الميل، كمـا يوجـد جدول ماء بارق عميق يشد السمع بقرقرته وهو يتابع تدفقه عبر العشب المستنقعي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قبل أن يفطن المرء لوجوده. يعود تاريخ بناء هذا المنزل وهو عبارة عن بناية مربعة من الطراز التقليدي إلى أواخر القرن الثامن عشر، ويتكون من طابقين من ألواح الخشب البيضاء وخصاصات نوافذ خضراء. ينتصب المنزل على ربوة بعيدا عن الطريق حيث تخفيه جزئيا عن الأنظار أربعة من أشجار القيقب الضخمة. يوجد جناح إضافي عند الطرف الشمالي للمنزل الذي يحتوي على المطبخ والمخازن وحجرة خاصة بالشخص الذي يشتغل في المزرعة. وفي الخلف، يتراءى الجزء المثير من المزرعة، سلسلة من السقيفات المظلمة الريفية التي تمتد على طول الطريق المؤدي إلى المبنى الموجود فوق النبع. تنبعث من المكان روائح الأخشاب التي قطعت للتو والتي تخزن هناك، وكذلك روائح الخيش الندي والتفاح والأرض الرطبة والكثير من الأشياء الغريبة التي تكلست مع مرور الزمن. كلما وُجدت أستطلع هذه الدهاليز، كان يُطلب مني أن أغادر المكان فورا. هناك تحت أشعة الشمس المبهرة أتظاهر بالانشغال. ومن خلال وتيرة الأصوات المنبعثة من داخل المنزل كنت أدرك متى يمكنني أن أتجول في السقيفة بكل أمان وحرية.

يعيش جدي وجدتي آل وينيفر مع ابنيهما في مزرعة (الثقب السعيد.) اشترى جدي هذه الأملاك كنوع من المشاريع التقاعدية بعد أن أقعده حصان جامح عن المشي. حتى ذلك الحين كان جدي يمتلك متجر "الشعبة،" المتجر الوحيد في بيلاوز فُولْز بِفيرمو.

كان اسم جدي الشخصي هو أوغست؛ وقد كان شخصا عنيفا تعتريه على حين غرة حالات مزاجية عاصفة. حينها يرج صوته الجهوري المنزل برمته فيُنزل وابل لعناته التي تكون باللغتين الألمانية والإنجليزية على رؤوس الموجودين حوله. لا يبدي أي ميل نحو الأشياء التي تقتضي التنظيم، كالديانات والمجتمعات والحكومات. فكل مجموعة تدعي بأن لها هدفا أو معتقدا واحدا إنما توجد فقط للتشويش واستغلال أعضائها الآخرين. وحدهم الماسونيون، الاستثناء الملحوظ بالنسبة له، لا يستحقون الإدانة بل الاحترام، ربما لأنه ماسوني هو الآخر. لا زلت أذكر حينما طلبني أنا وأبناء خالتي الثلاثة الصغار بينما كنا نلعب ليسألنا إن كنا نعتقد بوجود الله. أنا، لأنني كنت أعتقد بأن الله من الأشياء التي اخترعها الكبار للتحكم بكل بساطة في مصائر الصغار، امتنعت امتناعا مشوبا بالحذر عن الجواب.

غير أن أبناء خالتي الصغار الذين تم تلقينهم من طرف أمهاهم بأن الله شيء حقيقي أجابوا بنعم. كان هذا مؤشرا لكي ينفجر جدي: "هُراء! لا يوجد إله. هذا فقط هراء. إياكم أن تصدقوا ذلك!"

كان جدي يتكلم على هذا النحو حينما دلفت خالتي أُولا إلى الغرفة. وبالفظاظة المعهودة في الشخص الذي يستصغر استصغارا منتظما قدرة الصغار على الفهم، طفقت تحتج على أبيها: "آه أبي! ليس أمام الصغار من فضلك."

إنه على صواب، اعتقدت آنذاك، إن لم أكن أكثر اقتناعا بذلك. لا يعدو الأمر أن يكون مجرد كذبة. إنهم لا يومنون بذلك. فلماذا علينا نحن الصغار أن نفعل؟

وسواء كان الأمر صائبا أو خاطئا، فقد كان جدي شخصا مخيفا. كان أنفه مشوها جراء عملية غريبة أخضعه لها أبوه حينما كان شابا بحيث هشم العظام عند جسر الأنف بواسطة مطرقة. لم يكن أنفه المشوه هو ما يجعله مخيفا ولكن كونه أخضع كل أبنائه للمصير ذاته. كان هذا مصدر قلق وإزعاج لي، خصوصا أن أمي كانت تقضي بين الحين والحين حوالي العشرين أو الثلاثين دقيقة تحك أنفي بين السبابة والإبهام. كانت تحذرني: "العظام الطرية والغضروف سهلة التشكل، لذا عليك أن تحترس من الشكل الذي قد تتخذه مستقبلا." لطالما ساءلت نفسي إن لم أكن الضحية التالية المبرمجة على مطرقة جدي، قدر سخيف عاتٍ قد يلاحقني إلى الأبد.

على مر السنين انصب اهتمام جدي على متابعة أثمنة المواد الاستهلاكية. بإمكانه أن يعرف أثمنة كل البضائع بدقة، سواء بالجملة أو التقسيط، وكم اختلفت أثمنتها قياسا بالسنوات الماضية. ومادام أنه قضى فترات نشاطه في دراسة لوائح الأثمنة فانه واصل ذلك حتى بعد أن باع متجره.

خلال المناسبات النادرة حينما تقوم شقيقته فاني بالزيارة، يبدو جدي فعلا سعيدا. إذ ينزويان معا في شرنقة لغتهم الخاصة، لغة لا يفهمها أي واحد منا، يسهر الاثنان تقريبا حتى طلوع الفجر وهما يحتسيان الجعة ويتناولان الخبز المزخرف بجبن ليميرغر والبصل. خلال هذه المناسبات يبدو جدي شخصا آخر، شخصا مختلفا تماما، استحال بفضل اللغة الغريبة وما يرافقها من حركات إلى شخص أجنبي مهذب.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يعود اختيار أسماء بناته الثلاث إليه حِكرًا بحيث يلقبهم إمَّا، ورينا وأولا (أشار ذات مرة: 'كلهن تزوجن برجال يحملون أسماء مخنثة.' وبنبرة تحقيرية يتابع: 'كاي! كلود! هارولد!') غير أن الشخص المحبذ لديه من بين أصهاره هو العم هارولد دانر، رجل أعمال شاب وحاذق و، كما يمكن للمرء أن يخمن، فهو الآخر ابن صاحب متجر الدائرة. لم يكن عمي كاي أو أبي يهتمان و لم من بعيد بالتجارة؛ كلاهما عجز تماما عن تقدير موهبة جدي بالنسبة للأرقام والحسابات. في الحقيقة كان أبي يعتبر جدي شخصا معتوها إلى حد ما وكان يغض الطرف عن وجوده بهزة ازدراء من منكبيه، الأمر الذي كان سهلا مادام يتدبر أمور حياته على نحو عملي بعيدا عن سطوة جدي.

مثلت جدتي قوة التوازن الأساس في مواجهة العنف العاطفي الكامن الذي يبدو غالبا على شفا إغراق عائلتها في هوة لا قرار لها. كلما نظرت إليها إلا وشعرت كم كانت ستكون أما رائعة. في حضورها يبدو العالم مقبولا. لا تنال المشاق من إشراق بسمتها ولا من هدوئها كما يحدث مع باقي أفراد العائلة. كان لدي الانطباع بأنهم في ترقبهم للدمار باتوا في بحث دائب عن علاماته. كانت جدتي قوية وهادئة، مشعة كأشعة الشمس، دون أن تكون لديها أية معتقدات دينية. غير أن هرطقات جدي الكئيبة كانت تعكر سماء شعورها. كلما شرع في تجديفاته كانت تصرخ في وجهه: "لماذا تصرخ؟ ألا يمكنك أن تخفت من صوتك؟"

لعل حضور جدتي لم يكن العامل الوحيد الذي خلق لدي شعورا بالراحة، بل إن رنات صوتها كانت تجعلني أحس بأنني في مأمن من كل تصاريف الدهر. غير أن الانكسار الناتج عن تسلط جدي جعلها نهب نوبات آلام الرأس الحادة. إذ تقع فريسة هذه النوبات يصيب الشلل المنزل برمته وتتعطل الحياة. كلما كانت بناتها في زيارة للمزرعة، فإنهن يجلسن بالقرب من سريرها طوال اليوم، مواسين لها. كن يعتبرن جدي قاسيا لسجنها هنا بهذا الشكل في القرية. غير أن جدتي لم تكن حزينة. لم يكن العيش في المزرعة مصدر عذاب بالنسبة لها؛ لقد كانت الحياة بالنسبة لها مجرد عمل شاق، وهي معتادة على هذا النمط من الحياة. كبقية الانجليز الجدد من بنات جيلها، كانت شديدة الإحساس بنبض"الطبيعة"

وكانت سعيدة بالعيش بين أحضانها. حينما قضت نحبها، بعد ذلك بسنوات، كان أبناؤها يتهامسون بأن الذي تسبب في وفاتها هو كونها كانت مجبرة على العيش في المزرعة.

كان أبي يأمل في أن يصبح عازف كمان ضمن فرقة موسيقية، غير أن والديه، وكما كان منتظرا، اعترضا بكل ما وسعها من قوة على ما بدا لهما طموحا عبثياً. فكان رده على ذلك انهيارا عصبيا. كان أخوه الأكبر يدرس طب الأسنان، عامل ساهم بلاشك في إقناعه ما أن تخطى حالة الغضب التي كان يرزح تحتها، أن يحذو حذوه. تزوج في سن الثلاثين، ووُلدْت أنا، سلالته الوحيدة، بعد عامين أو ثلاثة على ذلك. إلى حدود سن الخامسة، كان أبي مشغولا بالتمرس في مهنته الجديدة، وبعد ذلك كان يبدو دائما مشغولا بزبائنه الكُثر.

على العموم تلوح شتاءات تلك السنوات المبكرة متوارية وراء ضباب ذكريات الطفولة المعتمة. كنا نقطن في منزل من الحجر البني من الطراز الكلاسيكي، طُلي بطلاء رمادي، وتتمدد سلالم جانبية من أحد جوانبه حتى الباب الرئيسي. في الطابق الأول يوجد مختبر والدي. أذكر مدخل البهو كمكان مظلم ومُنفر تفوح منه رائحة مواقد الغاز والمعادن المحترقة. كان المختبر مكانا محظورا وكانت أبوابه دائما موصدة. تفضي السلالم إلى المكتب وحجرة الاستقبال. غير أنه يجب ارتقاء سلالم أخرى قبل الوصول إلى المنزل، الشقة التي تتكون من أربعة غرف في الطابق العلوي.

كنت أقضي معظم وقتي في اللعب بمفردي في المنزل، باستثناء المرات التي يطلب مني فيها الذهاب إلى الساحة الخلفية للمنزل. كانت هذه الخلفية عبارة عن بقعة من العشب المترامي يحدها سياج خشبي عال جدا بحيث لا يمكن للمرء أن يبصر أي شيء خارج هذا المدار. غير أنه في أحد جوانب المنزل تلوح تسع نوافذ تحدق فيَّ كما لو كانت تسعة عيون وينبعث من كل واحدة منها صراخ مفاجئ يعبر عن عدم الرضا. إذا ما توقفت وأخذت بمشاهدة الساعة التي كانت دوما منتصبة في النافذة حتى أعلم إذا ما انتهى الوقت المخصص للعب، أسمع نقرات على نافذة في الطابق الثالث وألمح أمي تقوم بحركات مشجعة إياي للدوران واللعب من جديد. لكن كلما شرعت في الجري حوالي الساحة يصرخ أبي من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الطابق الثالث: "هدوءا أيها الشاب!" أو يلوح إلي موظف الاستقبالات بيده ويصرخ: "يطلب منك أبوك أن تتوقف عن إحداث الضوضاء!"

كنت أتوفر في ذلك المنزل على صندوق لعب غير أن تعليمات أبي كانت تقتضي بأن تُرجع كل اللعب إلى مكانها قبل أن يعود إلى المنزل على الساعة السادسة مساء. كل لعبة تبقى خارج الصندوق تصادر ولن أراها مجددا. أشرع في عملية الجمع على الساعة الخامسة؛ ومع حلول الساعة السادسة إلا ربع أكون قد أودعت اللعب في مكانها وأغلقت الصندوق. بعد ذلك يمكنني القراءة حتى العشاء إذا رغبت في ذلك فالكتب يمكن إرجاعها إلى الخزانة بسرعة. غير أن الكتابة والرسم، شكلي المفضل للعب، لا يمكن استئنافها إلا في اليوم الموالي. كانت أمي دائما تزعم بأنني تعلمت القراءة لوحدي، ومن الممكن جدا أن يكون هذا قد حدث فعلا. أعجز عن تذكر أي مرحلة من مراحل حياتي لم يحدث فيها أن كان للكلمة المطبوعة صوت مواز في رأسي عندما أنظر إليها. لازلت أحتفظ بكُراسٍ صغير لقصص سطرتها بقلم الرصاص وهي عبارة عن حكايات متخيلة تمتح شخوصها من عالم الحيوانات. تحمل هذه القصص تاريخا محددا وهو 1915، مما يعني بأني كنت في سن الرابعة حينما كتبت تلك القصص. كانت جدتي بولز تقوم بزيارتنا. ذات مرة سمعتها تخبر أمي، تحديدا كما لو أنني لم أكن موجودا، بأن النضج المبكر شيء يجب الحيلولة دونه؛ كانت تتنبأ بنتائج كارثية إذا لم أدفع بشكل من الأشكال مع الأطفال الآخرين، حتى يمكنني أن "أنمو صوب اتجاهات أخرى." لم أدرك حينها قصدها، غير أنني عقدت العزم حالا على عدم قبول هذه الاتجاهات الأخرى كيف ما كانت. قالت لأمي: "أحذرك يا رينا، ستندمين في يوم من الأيام."حينها لاحت مني التفاتة إليها وفكرت: ها هي تحاول التدخل من جديد.

ضمن اللّعب التي كنت أحتفظ بها في الصندوق كانت هناك لعبة تشمل العديد من البطائق، كل واحدة منها تحمل صورة شبيهة بشخص يمكن للمرء أن يلتقي به في شوارع مدينة كبيرة في أمريكا خلال تسعينيات القرن التاسع عشر. كان يفترض أن تلقب هذه اللعبة "القانون المدني." كلما سحبتَ بطاقة تشبه قسا أو طبيبا، فانك تحصل بالمقابل على ثلاث نقط أما إذا كانت بطاقتك عبارة عن محام أو رجل بنك، فإنك تحصل على نقطتان. وإذا كان نصيبك صورة حلاق

فواحدة؛ غير أنه إذا كانت بطاقتك لشخص يُعنف زوجته أو لمجرم فانك بالمقابل تؤدي ثلاث نقط كجزاء. كل هذا يبدو منطقيا تماما. غير أن اللعبة تتضمن أيضا بطائق أخرى محايدة، لا تنطوي لا على الأداء ولا على الجمع، تبدو لي زائدة وعبثية. لطالما تساءلت عن سبب وجودها ضمن مجموع البطائق. فهي لا تبدو محايدة على الإطلاق؛ على العكس تبدو شريرة (كما أن جميع الشخصيات الأخرى تبدو بالفعل كذلك، ما عدا شخصيات الوجهاء فإنها تبدو كذلك بدرجة أقل قياسا بالشخصيات الأخرى). تتضمن هذه الشخصيات موضوع النقاش شخصيات من قبيل نائب الملك، وصيدلي، وامرأة مرعبة طويلة القامة، تحمل نظارات طبية وتعتمر قلنسوة سوداء تلقب: "المرأة ذات الذهن القوي." كنت أنظر إلى صورتها بتمعن وهي تتقدم مقطبة الجبين على طول الطريق تحت الأشجار. تبدو لي الشخص الأكثر سوءا ضمن مجموع الشخصيات.

– أمي، ما معنى امرأة قوية الذهن؟

– حسنا جدتك بولز امرأة قوية الذهن.

– لماذا يعتبر ذلك سيئا؟

– سيئا؟ لا ليس ذلك سيئا بتاتا. على العكس، ذلك رائع.

– ولكن لماذا لا تمنح أي شيء في المقابل؟ ولماذا تبدو مرعبة؟ أنظري إليها!

أكون سعيدا كلما كانت أمي هي التي تقوم بسحب البطاقة.

ظاهريا للتمييز بين والدي أبي ووالدي أمي تعلمت أن ألقبهم بدادي بابا ودادي ماما إشارة إلى آل بولز، كما لو أن الجو الذي يسود في كل منزل على حدة لا يكفي للتمييز بينهم! كانت المزرعة تعج بالأشخاص بحيث لا يوجد مكان فارغ. غير أن الذهاب إلى منزل آل بولز كان بمثابة التوغل في فيافي غابة. هناك في العتمة والهدوء الساجيين يجلس دادي بابا ودادي ماما منشغلين بقراءة كتبهم: هو في جحره الخاص في الطابق العلوي، وهي في غرفة القراءة في الطابق السفلي. أما المطبخ فيوجد بمعزل عن المنزل. أذهب إلى هناك وأشرع في الحديث مع العجوز ماري التي كانت ولسنوات عديدة تتهادى في مشيتها جيئة وذهابا في المطبخ إضافة إلى ابنة أختها لوسي. كانا يوليان اهتماما لكل ما يصدر عني دون أن يسديا مقترحات قد تسعف على تطوير إمكانياتي. لكن كمصير محتوم يتم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

استدعائي. تنـزع دادي ماما، وهي جالسة بالقرب من المدفأة، نظارتيها وتبتسم لي ابتسامة تمازج بين الحنو وعدم الرضا. كنت أدرك بأها تحبني؛ كما كنت أتفهم تماما بأن عدم رضاها عني لا يرتبط بشخصي، ولكن بشخص أمي الثاوي بين حناياي. كان الأمر يبدو طبيعيا: مادامت أمي ليست من عائلتها، فإنها تحس بالعدوانية اتجاهها. ما كان يثير حنقي حقا هو أن أمي كانت تخشى حماتها، تخشى أن تكون برفقتها، وأحيانا تقع مريضة في حضورها حتى أنها تضطر لملازمة الفراش. غير أن هذه الأمور تبدو ظواهر عادية، كتعاقب الفصول، وبالتأكيد فهي لم تكن لتشغل بالي. كان بإمكاني أن أرى أن عالم الكبار هو عالم عدم الثقة والدسائس. ولطالما شعرت بأنني محظوظ لكوني كنت طفلا لا يَمُت بسبب من الأسباب لذلك العالم.

قبيل الحرب العالمية الأولى بقليل ذهبت دادي ماما إلى باريس وأحضرت معها ملابس فاخرة. أذكر إحساسها بالمتعة وهي تثير انتباه السيدات اللواتي كن يزرنها إلى "الصنعة الراقية". حينما طرحتُ على أمي السؤال الحتمي: "لماذا لا تذهبين أنت الأخرى إلى باريس وتحضرين بعض الأشياء؟" فإنها كانت تكركر. وحينما ألح عليها بالمزيد من الأسئلة، تجيبني: "ياإلهي لا أريد ملابس باريسية! ناهيك عن الوقت الذي سيلزم قبل أن يتمكن أبوك من إرسالي إلى باريس. جدتك كانت محظوظة حينما تمكنت من الذهاب."

كان دادي بابا ودادي ماما كباقي الأشخاص الذين يقطنون في شارع وِيسْت تْشورش بألميرا، باستثناء أنهما لا يُبديان أي ميول نحو المعتقدات الدينية. كان دادي بابا يرى بأن الدين شيء جميل جدا بالنسبة للأشخاص الذين يحتاجون إليه. أما بالنسبة لدادي ماما فإن الدين عبارة عن مسألة شخصية. كانت تقرأ الكتب الروحية. لاشك أن تفكيرها كان متأثرا بأختها ماري وأخيها شارلز اللذين كانا غارقين فيما يسمى بعلوم التنجيم والسحر.

كانت الخالة ماري تقطن بواتكينْزْ كْلين في منـزل قديم يعرف بهُولدْن هُول. أما العم تشارلز فكان يتوفر على ممتلكات كثيرة في كْلينورة التي تبعد بتسعة أميال على نهر سِينْكا. هكذا كان بإمكان الثلاثة أن يكونوا على اتصال دائم وأن يتبادلوا الآراء حول قراءاتهم وتأملاتهم. كان العم تشارلز من أنصار اليوغا، وفي وقت ما

أقنع دادي بابا بأن التنفس الجيد يمكن الإنسان من استنشاق البْرانا[1] مع الهواء. كان ذلك مفاجئا حقا لأن دادي بابا لا يميل إلى التأويلية الروحية. غير أنه، وفورا، قرر بأن ما ينقصني هو المزيد من البرانا (حتى أنه تمادى في ذلك ليقترح بأن البرانا يمكن أن تعوض الأكل حينما يكون الإنسان يتضور جوعا.) كنت مرغما على تعلم التنفس عن طريق إغلاق وفتح خياشيمي بواسطة أصابع يدي؛ بدا لي ذلك اعتباطيا ومنتهى العبث، كبقية الأشياء الأخرى التي تخترع من طرف العائلة لجعل حياتي أكثر تعاسة وتعقيدا.

منذ سن باكرة جدا أدركت بأن الحظر سيطال دوما كل الأشياء التي أرغب فيها وسأرغم في المقابل على القيام بالأشياء التي لا تروق لي. كانت عائلة بولز تأخذ مأخذ المسلمات بأن المتعة خطر مدمر بينما الانخراط في الأشياء التافهة تساعد على تكوين الشخصية وصقلها. هكذا غدوت خبيرا في ممارسة الخداع، على الأقل فيما يتعلق بالمحيا وتعابير الوجه. لا يمكنني أن أكذب، ذلك أن للكلمة ومعناها الحرفي أهمية قصوى بالنسبة لي، غير أنه بإمكاني التظاهر بالحماسة لأغطي عن فتوري و، بشكل أكثر أهمية، أن أداري ما أستشعره من مشاعر مُتعة. بطبيعة الحال لم يكن هذا يؤدي إلى النتائج المرجوة، غير أنه كان في غالب الأحايين يساعد على صرف الانتباه عني، وكان ذلك بالنسبة لي انتصارا كبيرا. فالانتباه معناه "الانضباط." كان كل فرد من أفراد الأسرة متحمسا لتجريب نظامه المحبذ علي ودراسة النتائج. ذات مرة استدعت دادي ماما امرأة فتحدثنا أنا وهي لساعتين. كانت امرأة لطيفة. شعرت في حضرتها بالراحة والطمأنينة وتحدثت بكل تلقائية كأي طفل في السادسة من عمره. في النهاية، ودون أن تنتظر حتى أغادر الحجرة، استدارت نحو دادي ماما وقالت: "من الصعب الوصول إلى ما يدور بداخله. هذا صعب جدا. فقط انتظري وسترين!" يبدو أن طفولتي لم تكد تخلو من الفترات حيث لا أكون أنا وعيوبي مدار أحاديث أفراد عائلة بولز. "هذا ليس طبيعيا،" كانت اللازمة الافتتاحية الأكثر تداولا. "ليس عاديا بالنسبة لطفل في هذه

(1) تشير البرانا في اللغة السنسكريتية إلى الحياة المليئة أو الزاخرة، كما تشير أيضا إلى أحد مبادئ الفلسفة الروحية الهندوسية وتتعلق بعملية التنفس الجيد وما يحدثه ذلك من توازن بالنسبة للذات. (م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

السن أن يقضي كل وقته في القراءة." "ليس عاديا بالنسبة لطفل أن يرغب في البقاء لوحده" حتى أنني سمعت مرة دادي ماما تخبر أمي: "ليس عاديا لطفل في هذه السن أن تكون له هذه الشفاه الغليظة." (أثار هذا حنقي أكثر من انتقاداتها الأخرى، ذلك أنني كنت أعلم بأن فمي يشبه فم أمي. إذا كنت وحشا، فان أمي هي الأخرى وحش، وبالتالي لماذا لا تجاهر جدتي مباشرة برأيها، بدل هذا الغمز الفظ؟)

كانت لدادي ماما ابتسامة معقوفة وساخرة، ابتسامة تعلن من خلالها للشخص الذي تخاطبه بأنها تقبل ما يقوله الطرف الآخر، ولكن مع تحفظات صارمة تحتفظ بها هي لنفسها.

تقول أمي: "من بين كل الأشخاص الذين صادفتهم في حياتي جدتك بولز هي الأكثر ريبة. وأبوك يشبهها كثيرا. حذار أن تصير في يوم من الأيام مثيلا لهما. فذلك مرعب. إنه يفسد طعم كل شيء."

ضمن أجدادي الأربعة، كان دادي بابا الأكثر إثارة لاهتمامي حيث تحف به الأسرار من كل جهة. بشاربيه البيضاوين المتدليين ونظاراته الطبية التي تمتد إلى جسر أنفه، يقبع وحيدا في جحره طوال اليوم منهمكا في قراءاته. بين الحين والآخر تمتد يمناه إلى سكينه الصغير فيقص مقالا من مجلة أو جريدة. كانت لديه خزانة يحتفظ فيها بقصاصاته، أغلبها تتمحور حول "الهندام،" لقب يطلقه على السكان الأصليين للجزء الغربي من أمريكا. كان الجحر يفيض بالكتب التي تغطي رفوف الجدران حتى السقف، ثلث المجلدات باللغة الفرنسية. خلال مرحلة من مراحل حياته قرر دادي بابا أن يتعلم اللغة الفرنسية حتى يتمكن من قراءة هوجو ودوما وبلزاك في لغتهم الأم. لاحقا، حينما كان في السبعينات من عمره، أخذ يتعلم الإسبانية واستمر في دراستها وقراءتها لما تبقى من سنين حياته. كان يحب القطط كثيرا وهكذا زَين مكتبه الكبير بصور مؤطرة، ليس للناس، ولكن للقطط التي عرفها خلال مسيرة حياته.

كلما دخلت إلى جحره، كان يلقي علي تحية رائعة باللغة الفرنسية ويشير إلي بالجلوس عند مكتبه. وهناك أبصر مجموعة كاملة من الصور والأشياء التي يستخرجها من خزانته وأدراجه من أجل أن يبديها لي في المرة القادمة حينما أقوم بزيارته.

شارك دادي بابا في الحرب الأهلية، غير أنه رفض أن يعطيها ذلك الاسم. بالنسبة إليه فهي إما "الحرب" أو "حرب التمرد." كان فخورا بتواجده في جميع ولايات الوحدة. أخبرني ذات مرة: "ثمة سنوات لا أنام فيها في نفس البلدة لليلتين متتاليتين." الحياة المثالية، تبادر إلى ذهني. أنا الآخر سألتقط أشياء هندية غريبة على طول طريقي وحكايات من أي جزء من البلد.

لم يطل بنا المقام أبدا في الألميرا ولكننا واصلنا طريقنا بعد بضعة أيام إلى كلينورة التي تقع على بحيرة سينيكا حيث يمتلك دادي بابا ثلاثة أماكن متفرقة، كل واحد منها يحتوي على منزل جاهز للإقامة. لم يحدث لي أبدا أن تساءلت عن الدافع وراء احتفاظه بثلاثة منازل في مكان واحد؛ افترضت أصلا أنه كان يقصد بأن يخص كل واحد من أبنائه بمنزل ويحتفظ هو بمنزل خاص له. حوالي نهاية الحرب العالمية الأولى أخذ عمي تشارلي عائلته إلى لوس أنجلس وباع دادي بابا الضاحية الحمراء، وترك المنزلين المتبقيين.

تمتد بحيرة سينيكا على مسافة طويلة وتمتاز بضيقها، وهي إلى ذلك بحيرة ثلجية تحدها من ناحية الجنوب تلال عالية. تتشكل العوامة من ثلاثة مستويات: مقصف المركب حيث توجد مزالق المراكب؛ المطبخ والحجرة الخاصة بالخدم؛ وأخيرا المكان المخصص للسكن في الأعلى حيث تكثر سجادات نافاجو وملاءات ومصابيح صينية كبيرة تتدلى من العارضات الخشبية التي تشكل السقف. تُرِك الجدار الغربي لكل طابق على حاله بينما يبدو واضحا الصلصال الخشن في الغرف. للوصول إلى الأرضية الصلبة يجب ارتقاء المزيد من السلالم، وآنذاك تلوح الغابة. كانت الغابة مكانا مظلما يخلو من النباتات والأعشاب ذلك أن نبات الشوكران ظل يرسل إبره إلى الأسفل لسنوات عديدة فتشكل بذلك غطاء كثيف من هذا النبات في كل مكان. خلال ساعات الليل تبرز أشياء غريبة: الفطور النفاثة، مزامير الهولندي، فطور كشرائح من الليمون، مجموعات من الفطور المرقعة، وأفضل هذه الأشياء نبتة الأمانيتا السامة التي تعلمت باكرا كيفية تمييزها عن باقي النباتات. كنت أبحث عن هذه النبتة وأقف مشدوها ومرعوبا أمامها: هناك عند قدمي ينمو الموت، فقط في انتظار لحظة التماس الحاسمة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حينما يرخي الليل سدوله تظهر الظربانات وطيور البوم في الخارج وينداح غناء طائر الجندب الأمريكي الذي يغطي على الهمس المنتظم للأمواج وهي ترتطم بالسفوح. كم كان جميلا أن أستيقظ في الليل على شذى هذه الموسيقى بينما تخبو الجمرات في المدفأة وتنطفئ.

يوجد قاربان راسيان في المقصف: واحد يشغَل بمحرك انطلاقة والثاني مخصص لثمانية أشخاص. كان هذا الزورق والذي يدعى ألوها هو الزورق الذي اشتراه عمي تشارلز بنيويورك وقاده عبر بحيرة هودسون وقناة إيري إلى جنوة. عند قدم البحيرة يوجد في الألوها مرحاض عصري ومطبخ يحتوي على مغسلة وفرن. لذا فان ما كان يقدم من وجبات هو عبارة عن وجبات حقيقية، وليس الوجبات المخصصة للنزهة. وبما أن أفراد العائلة يمتحون من أصول نيو انجليزية صالحة، فإنهم كانوا لا يشعرون بالحاجة إلى مغادرة المنازل في هذه القوارب إلا حينما يكون هناك ضيوف، ومن هنا كان استعمال المركب/المَشرَب للرحلات اليومية والتنزه. لا يشارك دادي بابا أبدا في هذه الخرجات. بالنسبة له هي، كما يسميها، "تمارين المتعة" وكان يكتفي فقط بالجلوس كل اليوم منشغلا بقراءاته وتناول طعامه بمفرده في العوامة. على الشاطئ خارج مقصف المركب هناك مركبان بالمجداف وزورق طويل وضع تحت غطاء. في النهاية سمح لي بالتنزه وحيدا في المركب بالمجداف ذي القعر المسطح وفي الأخير في الزورق الطويل.

ضمن الأشياء التي كنت أجزي بها الوقت ثمة لعبة هي عبارة عن ابتكار لقائمة لأسماء الأماكن: كنت أعتبرها محطات على طريق قطار متخيل. أشرع آنذاك في رسم خارطة لها ووضع برنامج زمني. في كْلينورا خطر لي أن فكرت في ترجمة هذه الإستيهامات جزئيا إلى واقع: كنت أدون الأسماء المناسبة على قطع صغيرة من الورق ثم أضعها: كل قطعة مشدودة بواسطة الصلصال إلى ما يبدو أنه المكان المناسب على طول طريق الغابة. كما توقعت عندما وقع نظر أبي على هذه القطع قصدني وطلب مني أن أذهب حالا وأجمعها. اقترح دادي بابا أن تبقى القطع الورقية في مكانها إلى الغد. وهو يسحب شاربه وعلامة الرضا بادية على محياه، أضاف بأن الاسم الذي كنت قد منحته لحافة الجدول (جاف لعدة أسابيع لأسباب

مثيرة للجدل) هو نوتنينريفو. بشكل مفاجئ، فغر فاه أبـي عن ابتسامة والتفت نحوي: "إذن لقبت الجدول نوتنينريفو؟ هذا جميل حقا!"

سألت أمي: "ماذا يعني ذلك؟"

قال: "لا شيء في البحيرة."

هذا كان اختراعهم هم، اختراع بليد ومضحك. فصحت معترضا: "ليس هذا هو المقصود؟"

الآن امتقع وجه أبـي واستحال عدوانيا: "ماذا تعني ب"أن هذا ليس هو المقصود"؟ ماذا تعني إذن؟"

لذت بالصمت. بدا إخبارهم بأن هذه الكلمة تعني فقط اسم المحطة السابقة ملفوظا بشكل عكسي أمرا مستحيلا. أخيرا أخبرتهم: "لن تفهموا شيئا."

صرخ أبـي وهو يتميز غيضا: "هل ستصغون إلى هـذا المفسد الصغير المتعجرف؟ هيا لنصل إلى قرارة الموضوع! قال إن الكلمة تعني شيئا آخر. أريد أن أعرف ما هو هذا الشيء."

أخذني بكلتي يديه ورجني بعنف. أوغلت في الصمت أكثر.

قالت جدتي: "بالله عليك كلود، دع الصغير وشأنه. لم يقم بأي شيء خاطئ."

فأجاب بحدة: "إنه فقط التصنع. لقد قام بذلك فقط لإثارة الانتباه إليه." ومع أنه كان يقول هذه الكلمات، فقد أدركت المفارقة المرعبة في هذه الوضعية. واصل رجّي. "هيا ماذا تعني هذه الكلمة؟"

حركت رأسي علامة النفي. أردت أن أخبره: "لن أخبرك أبدا."

بدل ذلك، انتظرت للحظة، ثم قلت أخيرا: "لا شيء!"

تركني لحالي، وبه إحساس بالقرف بعد أن تأكد من صحة اعتقاده. بعد ذلك بوقت قصير أطلقت سيقاني للريح وذهبت إلى الغابة وجمعت جميع علامات المحطة، بدءا بالعلامة التي توجد عند نهاية الجسر فوق الجدول الذي يحمل اسم نوتنينريفو والعلامة الأخرى بالقرب من شجرة متعفنة توجد على مسافة قريبة على طول الطريق. تحمل هذه الأخيرة اسما لبلدة تدعى أوفيرنينتو. كان علي أن أتلفها خلسة مخافة أن يكتشف أبـي السر، الشيء الذي يجب ألا يقع بأي حال من الأحوال.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أخذت القطع الورقية إلى حفرة متوارية عند الشاطئ وحرقتها هناك. وبعد ذلك نثرت الرماد فوق الحصى الرطب ثم وضعت العديد من الصخر المسطح فوق مكان الحريق.

خلال مراحل طفولتي الأولى، كان ماكس إيستمان وأخته كريستال يقيمان في كلينوة كل صيف. تُكن أمي لماكس الإعجاب الكبير. فكانت تقول: "وسيم ومشع كأمير!" وكان أبي يرد بمرارة: "و هو يدرك ذلك جيدا." لأكثر من عشرين سنة لم يعد آل إيستمان يأتون إلى كلينوة. (في سنة 1937 عاد ماكس في زيارة قصيرة والتقيته آنذاك. حينها كنتُ متعاطفا مع ستالين، وكان هو من التروتسكيين الأكثر علانية في تلك الأثناء. لذا كان لزاما أن ننخرط في نقاش. تجادلنا حول موضوع كاوتسكي، وكامنييف وزينوفييف. كان واضحا أنني لم أكن أفقه أي شيء ما عدا ما قرأته في كُراسات الحزب. كان أبي ينصت إلينا، ووجهه مزيج من المتعة والاحتقار. بعد لحظة، التفت نحو ماكس قائلا: "لعل من ينصت إلى هذا الحديث سيعتقد بأنه نشأ في أحياء فقيرة في بلدة عمالية." يضحك ماكس ثم يقول: "لا أظن ذلك، كلود. إنه يبدو لي ابن طبيب أسنان بلونغ أيلاند!")

كان لدادي ماما صديقة تدعى دوروتي بالدوين تأتي غالبا إلى غلينورة. كانت دوروتي تستعمل روم الخليج كمعطر مؤكدة بأنها تفضل رائحته على كل العطور المعروضة في الأسواق. بشأنها كانت جدتي بولز تقول: "كانت دائما مضطربة. لكنها الآن انحدرت إلى راديكالية تماما." فتعلن أمي: "ينتابني الأسى اتجاه هذه الفتاة المسكينة. إنها محبطة. هذا ما في الأمر." لم تكن دوروتي تبدو لي متذمرة؛ على العكس تبدو واثقة جدا من نفسها. ذات ظهيرة، اقترحت أن نقوم بجولة. كنت أحبها، وهكذا انطلقنا معا في جولتنا.

لم نكد نقطع مسافة طويلة حتى انعطفت دوروتي باتجاه أحراش تصل إلى البطن وأخذت تشق طريقها عبرها. أخبرتها: "الطريق هناك." فغر فاها عن ابتسامة وقالت: "سنشق طريقنا الخاص. لا متعة إطلاقا في سلك طرق الآخرين." كنا نساعد بعضنا البعض للتخلص من النباتات الشوكية غير أننا لم نتمكن من التقدم كثيرا. في لحظة معينة اندفعتُ إلى الأمام فصرت نهب الزنابير. غادرنا الطريق الذي سلكناه في البداية. حينما عدنا إلى العوامة، وجدت إحدى عشر لسعة.

بعد أن غادرت دوروتي المنـــزل، توجه أعضاء العائلة إلي دفعة واحدة معبرين عن أملهم بأن أكون قد تعلمت شيئا ما من هذه المغامرة. آنذاك استمعت صـــاغرا إلى الدرس: من الأأمن البقاء على الطرق، حرفيا ورمزيا. كان لوعظهم أثره علـــى نفسي، رغم أنه سار في الاتجاه المعاكس لما قصدوا إليه. كنت أعلم بأنني ودوروتي قبلنا بالأخطار الكامنة في مسعانا ذاك و لم يكن الذنب ذنبها إذا كنت قد تعرضت للَسعات الزنابير. بذهن مشوش أدركت بأن القوانين وضعت أساسا لتحـــول دون قيامنا بالأشياء التي نرغب فيها. ناهيك عن أنني أدركت أن المنع بالنسبة للعائلة يعد الخير الأكبر ذلك أنه يتضمن إخضاع الرغبة الشخصية وبالتالي جعلها تتسامى على الواقع بحيث تستعصي على التحقيق. كانت هذه المحاولة لفـــرض هـــذا المفهـــوم إستراتيجية ضمن استراتيجيات أخرى لدعم سلطتهم علي. كان لديهم تصـــورهم حول ما يجب أن أكون عليه. وحتى لا أخيب تصورهم هذا، يجب أن أبقى خاضعا لهم، أو كما بدا لي حينها. هكذا، فبالرغم من رفضي الباطني لكل اقتـــراح فـــإنني كنت أتظاهر بقبوله.

كان لدى أمي كتاب أخضر ضخم تحتفظ فيه بالقصاصـــات وبملاحظاتهـــا. كانت تبقيه دوما إلى جانبها حتى وهي تطرز وكانت تراجعه العديد من المرات في اليوم. عنوان الكتاب هو *سيكولوجية الطفولة*. ولسبب لم أتمكن مـــن إدراكـــه لم تكن ترغب في أن ألقي نظرة عليه، لذا فلم يكن موضوعا في الخزانـــة إلى جانـــب الكتب الأخرى. كان صاحب الكتاب هو الدكتور رايكر الـــذي كـــان أبـــي يزدري آراءه. كانت هناك نقاشات حادة بينهما بخصـــوص قيمـــة وفعاليـــة آراء الدكتور، ذلك أن تصورهم لكيفية تنشئة الأطفال كانت متعارضة. كانت أمـــي تؤمن بالتحلي بالصبر اللامحدود، بينما كان أبـــي مع الحزم الصارم. يعتبر هذا من الأشياء البديهية. يؤكد: "يبدو منطقيا بأن الأطفال يميلون للقيام بأي شـــيء إذا لم يكونوا تحت المراقبة." غير أنهما كانا يغضان الطرف عن حقيقة بسيطة مفادها أنني حتى سن الخامسة لم أتحدث إلى أي طفل آخر أو أشاهد أطفالا يلعبـــون جماعـــة. كانت فكرتي عن العالم لا تزال تتشكل من مكان مأهول فقط بالكبار.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

2

خلال السنوات الأولى من القرن العشرين أعلن طبيب يدعى فليتشر بأنه من الضرورة المطلقة أن يقوم المرء بمضغ الطعام أربعين مرة، بغض النظر عن مدى اتساق هذه العملية. يساعد هذا، حسب زعمه، على تكوين مضغة. دأب أبي منذ أن كنت في الخامسة من عمري أن يشرح لي هذه العملية التي باتت تعرف بالفليتشرية مرات ومرات وكنت مجبرا على القيام بهذه العملية عندما أتناول الطعام على المائدة. كنت أمضغ الطعام بجد وبمثابرة، غير أنني بين الفينة والأخرى أبتلعه دونما قصد، قبل أن أكون قد استوفيت الأربعين مرة.

حينها كان يصرخ بي، بينما تلفح خدي لسعة منديل المائدة الذي يكون قد قذفه إلى وجهي: "امضغ أيها الشاب!" في الغالب، يصيب المنديل عيني فأتألم بينما أشعر بالمهانة تقطع أحشائي. "عليك بالمضغ! عليك بالمضغ! لم تكون مضغتك بعد." خلال هذه اللحظة أصير مشوش الذهن بحيث أعجز عن معرفة ما إذا كنت أمضغ الطعام أو أبتلعه.

-"ماذا قلت لك؟ لم أطلب منك ابتلاع الطعام بعد!"

-"لقد تعبت."

أحيانا تكون المضغة لازالت عالقة في فمي، ذلك أنني تعلمت كيفية إبقائها تحت لساني بينما تكون الحركة اللاإرادية للبلع قد حدثت. حينما أفتح فمي لأريهم بأنني لم أكسر عصا الطاعة كانوا يعتبرون هذا بالشيء "غير اللائق" وكانت سلسلة الاتهامات الجديدة تتوالى.

كنت أتوسل لأمي لكي تتركني أتناول طعامي في المطبخ مبكرا حتى لا أتعرض لعذاب أو محنة الجلوس إلى مائدة الطعام. لا تقبل هذا إطلاقا إلا إذا كنت مريضا. باتت الإصابة بالمرض شيئا مغريا لذا فإن نصف حالات مرضي المبكرة كانت بغرض ملازمة السرير وتناول الطعام بمفردي. ذات ليلة حينما أصبت بحمى

شديدة، انتصب أبـــي عند حافة السرير ويديه في جيوبه. أخبر أمي: "أتعلمــين، يساورني اعتقاد بأنه بات يحب المرض."

"نعم،" فكرت حينها. "نعم أحب هذه الوضعية. وأجمل ما في الأمر هو أنــي مريض ولا يمكنك أن تحول دون ذلك." كنت أقع بانتظام نهب حالات مطولة من المرض وكانت تجتاحني قشعريرة لذيذة وأنا أترقب ما سيحمله الغد من فترات من الخصوصية.

في صيف 1916، حينما كنت في الخامسة من عمري، انتقلـــت العائلـــة إلى منـــزل بشارع ذو كراو. بعد انقضاء موسم كلينورة، ذهبنا إلى مزرعة (الثقـــب السعيد) وبقيت هناك. ذهب جدي إلى نيويورك لقضاء أسبوع معهم في المنـــــزل الجديد. لما عاد أخذ يصف لي المنـــزل وقد اتسعت حـــدقتا عينيـــه مـــن جـــراء الإعجاب. أخبرني: "صبرا وسترى ما لم تقع عيناك عليه من قبل. إنه منـــزل رائع جدا!" ومع أنني آمنت بكل كلمة من كلامه فلم أكن أتطلع للسكن فيه، ذلك أن أبـــي وأمي سيكونان هناك. ورغم ذلك فإن المنـــزل خلف أثرا طيبا في نفســـي. كان كل شيء يلمع ببياض ناصع. كانت الأرضية مشعة صقيلة بحيث كنت حينما أقع على الأرض أحيانا أتخيل بأن الأماكن المشرعة مجرد مياه عميقة. كانت مهمتي إذن تكمن في الانتقال من سجادة إلى أخرى دون أن أقع في الماء.

يربض المنـــزل الجديد فوق "التل" الذي كان عبارة عن مرتفع غابوي يعلـــو بلدة جاميكا، بلونغ آيلاند حيث تنتهي الطرق الجديـــدة في الغابـــة. في البدايـــة حافظت الأراضي التي تحيط بالمنـــزل على عذريتها بحيث أن زقزقة العصافير كانت تتناهى إلى سمعنا في الصباحات الباكرة. بعد ذلك، شيد القاضي توومبلي منـــــزلا بجهة الشرق. سنتين أو ثلاث بعد ذلك جاء رجال وقاموا بقطع الأشـــجار عـــبر الشارع. قررت أمي بأن المكان لم يعد ملائما للإقامـــة وقـــد ردت احتجاجاتهـــا الممضة إلى تدمير الأشجار. غير أن هناك وجوها سلبية أخرى من بينها مثلا أن بنية المنـــزل هي أساسا لعائلتين بينما تبدو لعائلة واحدة، الجزء الآخر يشغله المهنـــدس الشاب الذي صمم المنـــزل. لدى المهندس الشاب زوجة كانت أمي غالبا علـــى خلاف معها. وجه سلبـــي آخر للمنـــزل يتمثل في موقعه حيث بني على مرتفـــع بحيث يحتاج المرء لبلوغه من الشارع إلى ارتقاء خمسة وثلاثين درجة. غير أنـــه في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بداية مقامنا، كانت هناك طيور من نوع أبو الحناء والسمنة وأنواع من السورود وكان للمكان بكل تأكيد متعة أكبر قياسا بالشقة المعتمة ذات الفسحة الأرضية الفارغة.

كانت لدينا خادمة تدعى حَنَّا، وهي امرأة فنلندية هادئة على نحو رائع، تحمل نظارات طبية في سلسلة تلتوي على شكل حلقة حول ياقتها. كان زوج حَنَّا ضابطا في الحزب الاشتراكي، فغدت هي الأخرى أكثر انخراطا في نشاطه حتى أنها في الأخير تركتنا، رغم أنها ولسنوات عديدة كانت تقوم بزيارتنا أحيانا وتبقى معي طوال الليل حينما يكون والدي مدعوين خارج المنزل. لمساعدة حَنَّا كانت هناك أَنَّا، امرأة فنلندية هي الأخرى، جاءت مؤخرا إلى الولايات المتحدة. لم أكن أحبها على وجه الخصوص وذلك بسبب الكلام الذي يقال في حقها. كانت شابة متهورة، كما كانت تغني وتحدث ضوضاء غير لازمة بالسطول والمكانس.

تكتسي عبارة "العمة ديلاييد" سحرا خاصا، ذلك أنها لا تعني الشخص فحسب ولكن أيضا المكان. كانت ديلاييد شقيقة أبي، خِزانية تعمل مع آني كارول مور التي كانت رئيسة الجناح المخصص للأطفال بالخزانة العامة للمقاطعة الخامسة. كان النظر إلى العمة ديلاييد يعني الاعتراف بك كشخص له وجود فعلي بدل النظر إليك كحيوان مكبل تبدو ردود فعله غير متوقعة. كان هذا جميلا ويبعث على الراحة؛ كما أنها كانت تسكن في شقة بنيت على الطراز الياباني ببلدة كرينوبك وتحفل بأشياء غريبة تعبق بروائح رائعة. بين الحين والحين تكون الآنسة مور في الشقة وسط الستائر والقناديل وضوء الشموع المتماوج. كان وجودها يضفي على المناسبة طابعا احتفاليا لا يخطأ، طابع قاتم وغريب، وكانت الجوهر الحي للإحتفائية في إقصائها الواعي للعالم الخارجي. خلال تلك السنين الباكرة كانت الزيارات إلى العمة ديلاييد تشكل علامات الحياة الراقية في المدينة.

كانت جدتي تخبرني: "أبوك شيطان." فتطمئنها خالاتي المرة تلو المرة: "إنه شخص لا يطاق." خلال وجبات الأكل يصل غضبه الأوج. يلح على معرفة مكونات وشكل إعداد أية وجبة، وكلما كان لديه متسع من الوقت كان يقف في المطبخ ويشرف على عملية الطهي بنفسه. إذا لم ينه الأكل كما يشتهي فانه يقع في نوبة مزاجية حيث ينهال بمنديله على الطعام ويسرع إلى الحمام لتناول بعض

الأدوية المساعدة على الهضم. تجعله نوبات الغضب هذه مريضا إلى الغد. كان تصرفه هذا يسبب حالة من عسر الهضم بالنسبة لكل من كان متواجدا على مائدة الطعام. ينزل غضبه كالصاعقة حتى والطعام ينزل عبر حنجرته؛ ويبدو الأمر غير مبرر خصوصا أن أمي درست الطبخ في مدرسة سيمونس ببوسطن ولها خبرة واسعة بإعداد الطعام. خلال طفولتي كانت أمي تعد الخبز الذي نقتات عليه، وأي خبز آخر كان "اصطناعيا"، ولن يلمسه أبي.

وفر لي المنزل الجديد إمكانية الخلو إلى نفسي طويلا، ذلك أنني كنت أشغل الطابق الثالث لمفردي. يمكن أن أصعد إلى الأعلى وأن أغلق باب حجرتي، مخلفا أصوات الشجار ورائي. بسرعة أخذت أبتكر المزيد من استعمالات الزمن. حددت الطرقات وذلك بالمشي وتسمية الصخور والأحراج التي أمر بمحاذاتها، لكن دون أن ألصق بها وريقات تحدد أسماءها كما فعلت في المرة السابقة بكلينورة. كان هنالك أطفال آخرون بالجوار، وكان حدسي يخبرني بأن أخفي كل شيء عن أنظارهم؛ فقد كانوا أعداء محتملين. أطبع لوائح بأسماء الأماكن في كراساتي عندما أعود إلى المنزل: ستركنفيل، شارع 645، ملتقى كليفتون، سناكسبرفيل هيس...

بعد ذلك بقليل ابتكرت كوكبا يضم أراضي وبحارا وكانت قاراته تحمل أسماء من قبيل فرنكولاند، لانتون، زاكانوكوورلد وأراسيليا. كما وضعت خرائط لكل واحدة منها وجعلتها تحتوي على سلاسل جبلية، وعلى أنهار ومدن وطرق سككية. كل هذا توقف بسبب التحاقي بالمدرسة. في خريف 1917 بعَد أن قصصت شعري ذهبت للقاء مدير المدرسة النموذجية. جعلني أقرأ عاليا لما تبدى لي زمنا طويلا. وبعد ذلك، ألحقني بالصف الثاني، ذلك أنه كما قال، فبالرغم من كوني أستطيع أن أكتب بسرعة كبيرة جدا، فأنا لا أعلم لحد الآن كيفية الكتابة بشكل عادي. أما بالنسبة للجبر فأنا لا أفقه فيه شيئا. لحسن الحظ أن الدكتور ماكس لافلين لم يضعني في صف متقدم، ذلك أنني كنت أصغر تلميذ في الصف، وضع سيعقد الأمور بالنسبة لي.

لم يكن عالم المدرسة جيدا. بسرعة تكشف لي عالم الصغار عالما من حروب لا تنقطع. غير أن حدسي المبكر بذلك جعل الأمور تبدو عادية. قبلت ضربات المجموعة كجزء من النسق وصرت أشن أنا الآخر خلسة هجمات انتقامية لمعاقبة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأفراد الذين ينعزلون عن المجموعة. كان هذا عادة ما يؤدي إلى شعور شخصي ودائم بالحنق من طرف الضحية نحوي، ذلك أنني كنت أشحذ الحجارة قبل هجماتي لكي تتسبب في إراقة دماءهم. أن يشارك أي صبي في هجوم جماعي ضدي فذلك أمر مشروع، أما أن أوقع به في كمين لاحقا فذلك يعد بكل وضوح أمرا لا يغتفر.

ذات مرة حينما عدت إلى المنزل معفرا بالغبار وبي كدمات قال أبي لأمي وابتسامة التشفي بارزة على محياه: "الآن هو يدرك كيف هي الحياة. هذا ما يحتاجه لكي تطأ قدماه الأرض."

خلال هذه الأحداث، كنت أكتفي فقط بالتحديق إليه، لكن ما دمت أومن إيمانا راسخا بأن علي أن أفوز في النزاع الذي يدور بيننا أو أن أهزم هزيمة مدوية، فقد كنت أعتقد أن الأمر لا يعدو أن يكون مسألة وقت.

ذات مساء تناهت إلى سمعي أنغام موسيقى في الأسفل وهي تشق طريقها إلى غرفتي في الطابق العلوي. لقد اشتروا فونوغرافا وكانوا ينصتون للمعزوفة الرابعة لتشايكوفسكي. هذه أول مرة أذكر أنني أستمع إلى أي موسيقى من أي نوع. في البدء لم يكن يسمح لي أن ألمس الآلة أو الأسطوانات، لكن بعد مرور بضعة شهور، بت أنصت إليها أكثر. بعد ذلك أخذت أشتري أسطواناتي الخاصة. كانت أولاها "عند حفلة فرقة الجاز" التي كانت تعزفها فرقة ديكيلاند للجاز الأصلية. حينما سمع أبي هذه الأسطوانة، أخذ يوبخ أمي: "لماذا تسمحين له بشراء مثل هذه القاذورات؟"

-إنه يستمع للموسيقى الأخرى أيضا.

-لا أريد لمثل هذه الأشياء أن تدخل إلى المنزل. هل تسمعني أيها الشاب؟

كالعادة، تكفل وجهي بدل كلماتي بالتعبير عن مشاعري. فأجبته باقتضاب: "بالطبع." بعد ذلك أخذت أشتري أسطوانات لفرق عسكرية تعزف قطعا أمريكية لاتينية.

واصل أبي شراء الأسطوانات. كان يتوفر على أسطوانة للدكتور كارل ماك وهو يقود سمفونية بوسطن: (كان أبي يحتج: "لا أعلم لماذا يتركون ذلك المغولي هناك؟") كما كانت لديه أسطوانة لكالي كورسي يغني روسيني وبيليني

(تقول أمي بشأنه: "بسيط كوتد سياج.") كما كانت لديه أسطوانة لجوزيف هوفمان يعزف "البندقية ونابولي" ("مغرور لدرجة أنه يعتقد أنه الوحيد الموجود في العالم.") حضر أبي حفلا موسيقيا أحياه هوفمان.

لم أكن أنا وأستاذتي الآنسة كراين على ما يرام. دب الخلاف بيننا حينما رفضت الغناء بالرغم من كل تهديداتها لجعلي أفتح فمي. كانت الملاحظة "ناقص على مستوى الغناء في الفصل" ترتسم بانتظام على بطاقة تقريري الشهري، ناهيك عن أنني كنت أحتفظ بأدنى نقطة ممكنة بخصوص المجهود. أما بالنسبة للبراعة والسلوك فكنت دوما أحصل على النقط العليا. لحسن الحظ تم تفسير عنادي على أنه نقص للجهد بدل النسف المقصود. حتى أرد الاعتبار لنفسي خطر ببالي خاطر سأبرهن من خلاله للآنسة كراين بأنني أستطيع القيام بعملي على الوجه الصحيح، لكن على نحو سيغيضها في نفس الوقت. كنت أكتب كل شيء بشكل ممتاز، لكن بالعكس. كانت فروضي دائما تحمل علامة الصفر. في الأخير، جعلتني الآنسة كراين أبقى في الفصل. سألتني وصوتها يرتجف من الغضب: "ماذا يعني هذا؟ ماذا تعني بهذا؟"

-ماذا أعني بماذا؟

أخذت تلوح بأوراقي في الهواء.

قلت باغترار: "لا توجد أخطاء."

-سأستدعي أمك. في الأيام الخوالي كانوا سيعرفون كيف يتعاملون مع صبي صغير مثلك، يمكنني أن أخبرك ذلك.

بعد ذلك دفعت بحزمة الأوراق إلى ظرف من نوع المانيلا ثم أغلقت عليها في درج المكتب.

انتهى هذا العداء حينما تحدثت معي أمي بشكل جدي حول الموضوع، مفتعلة الخشية مما قد يقوله أبي إذا ما علم بسلوكي. قالت محتجة: "لا أعلم ماذا دهاك؟" لم أعلم أنا أيضا لكنني أحسست بالتهديد يطوقني من كل جانب.

لاحقا صارت الأمور أكثر بساطة. ما أن خلفت الآنسة كراين ورائي حتى أصبح لدي سجل نظيف، أو كما كنت أتخيل. في الحقيقة، قامت الآنسة كراين بإخبار كل من في المدرسة عن سلوكي، محذرة الأساتذة الذين سأتابع دراستي تحت إشرافهم في السنوات القادمة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في اليوم الذي انتهت فيه الحرب، أغلقت المدرسة أبوابها. طلب منا المسئول العودة إلى منازلنا وإحضار مشطات. حينما التحقنا بالمدرسة جعلنا المعلمون ننشد أغنية "المشي عبر جورجيا" مرات ومرات حتى حفظناها عن ظهر قلب وأعطونا منشفات المراحيض لنضعها حول المشطات وتعليمات بغناء المقطع اللفظي "تا." سادت فوضى عارمة عمل كل طفل جهد المستطاع على تصعيدها واستدامتها، لكننا أخيرا وجدنا أنفسنا نمشي عبر الشارع، دائما نحو "جورجيا" والناس يتسمون ويلوحون لنا بالأعلام. كان كل ذلك ضربا من العبث، غير أني استمتعت بذلك إذ لا أحد لاحظ إذا ما كنت أغني أو لا.

كنت في السابعة من عمري وكانت أسناني تنمو بشكل معوج. أخبرتني أمي: "سيأخذك أبوك إلى المدينة لزيارة الدكتور واف." وهكذا بدأت الزيارات نصف الأسبوعية إلى زاوية الشارع الخامس والشارع الرابع والسبعين حيث توجد مكاتب تقويم الأسنان المعوجة. وما دامت حالتي تتضمن توسيع الفك الأسفل والفك الأعلى، فإن الزيارات توالت تحديدا خلال العشر سنين اللاحقة. حينما تمت إزالة الأشرطة الأخيرة، كان الطلاء قد التصق ببعض الأسنان، ربما كنتيجة للعلاج.

أخبرني أبي: "لقد حقق طب تقويم الأسنان إنجازات عظيمة. لو كانت لأمك أو لي أسنان معوجة، لقاموا باقتلاعها."

فردت أمي وهي ترتجف: "كان الأمر كما لو في العصور المظلمة."

فختم أبي محذرا: "أردتك فقط أن تعلم كم أنت محظوظ، هذا كل ما في الأمر."

لم يكن للحظ أية علاقة بما كان ينتابني من أحاسيس من جراء حمل شريط عريض من البلاتينيوم ملصق بكل سن، وكل واحد يحمل لولبا داخليا وخارجيا ملصقا به، وأربع أقواس مذهبة محكمة هي الأخرى في مكانها بواسطة لوالب. أيام الثلاثاء والجمعة أذهب لزيارة الطبيب فيضيق اللوالب قليلا. يستمر الألم الذي تسببه لي هذه العملية يومين إلى ثلاثة أيام حتى اقتراب موعد التضييق التالي، فلم تكن هناك سوى أيام قليلة يمكنني أن آكل فيها دون أن أجفل. جعلني كل هذا المعدن في فمي أضطر لأخذ احتياطاتي حتى لا تصيبني اللكمات في الوجه. حينما يقع ذلك، فتلك هي الطامة الكبرى. لعل النقطة المضيئة الوحيدة في عملية تقويم

الأسنان هي أنني أصبحت أتخلف عن المدرسة لزوالين لأذهب لزيارة الدكتور واف. في السنة اللاحقة، حينما أصبحت في الثامنة من عمري، صرت أذهب بمفردي لزيارة الطبيب. سرني هذا لأن الجميع كان يرى في السماح لطفل صغير بالحرية المطلقة في السير في شوارع مدينة نيويورك بمفرده صدمة كبرى.

كانت الخالة أولا تحتج: "لكن ألا يساورك القلق؟ ستنهار أعصابي كل مرة إلى أن يعود إلى المنزل."

فترد أمي: "طبعا ينتابني شيء من الضيق أحيانا."

ثم تلتفت الخالة أولا إلي قائلة: "أمك معتوهة."

"لكن ماذا يمكن أن يحدث لي؟ لماذا يجب أن يحدث لي أي شيء؟"

كانت أمي على صواب لحد ما؛ لم يحدث لي أي شيء على الإطلاق. وفي المقابل شاهدت الكثير وتعلمت الكثير خلال ذهابي لوحدي أكثر مما لو كان هناك شخص كبير يرافقني. حوالي مرة في الشهر أتوقف بالخزانة العامة لرؤية الآنسة مور. كانت دائما تجد الوقت لتتبادل معي الحديث لبضع دقائق، وكانت على العموم تمنحني كتابا أضيفه إلى مجموعتي المتنامية. غالبا ما كانت تجعل المؤلفين يكتبون الإهداء لي مسبقا. كتب هوك لوفتين صفحة كاملة في الصفحة المقابلة لقصة الدكتور دوليتل وزخرفها ببعض الرسومات، كما فعل أيضا هنريك فيلم فان لون في كتابه تاريخ موجز للاكتشاف حيث رسم صورة لنفسه وهو يدخن غليونا، كما قام كارل ساندبورغ بكتابة قصص روتوباكا بخط يده من أجلي.

خلال ذلك الشتاء، حينما كنت في الصف الثالث، هجم وباء الانفلوانزا الإسبانية. أصبنا كلنا بالداء، بما في ذلك العمة ديلاييد. غير أنه بينما تماثل كل من أبي وأمي وأنا إلى الشفاء، فإن حالة العمة ديلاييد تدهورت بسبب داء الجنب وداء الرئة ففارقت الحياة في الأخير. نما إلى علمي خبر وفاتها بواسطة أمي على نحو جعل مجرد ذكرى العمة ديلاييد مصدر عار، وهكذا لم أستطع التفوه باسمها لمدة سبع سنوات. قالت أمي: "لقد رحلت عمتك ديلاييد. لن تراها مجددا." وردا على سؤالي اللاإرادي: "إلى أين؟ لماذا لن أراها؟" لم تحر جوابا لكنها التفتت ثم غادرت الحجرة. أدركت بأن العمة ديلاييد قد ماتت وأحسست بغضب أعمى ركز ذاته،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في غياب موضوع حقيقي، على أمي لكونها حاملة الخبر، وخصوصا أنها نقلت لي الخبر بطريقة غير أمينة.

قامت الخالة إيما بزيارتنا حيث علا الشحوب سحنتها وكانت مفاصلها ترتجف. بشأنها يقول الآخرون: "إمَّا هي الشخص المزاجي في العائلة." وذلك لكونها تقضي وقتها في رسم المناظر الطبيعية بصباغة الزيت والعزف على البيانو؛ فكل شخص يبدي ميولا نحو "الفن" يعد دائما مزاجيا. استلقت في السرير حيث بقيت لمدة شهر تنتابها كل أنواع الآلام. حينما صارت بحال أفضل، أخذنا نتناول الفطور في حجرتها. ذات يوم أحد في الصباح الباكر سمعت قهقهات عالية تنبعث مما يلقب "غرفة النوم الصفراء." جريت إلى الغرفة فوجدت أبي في منامته، مستلقيا في السرير إلى جانب الخالة إيمَّا التي كانت تصرخ وتزعق، بينما كانت أمي تتمدد على الكرسي المخصص للأقدام من فرط كثرة الضحك. حينما دخلت الغرفة، انتصب أبي صارخا: "هيا بنا لنتناول تلك الحلويات." وبعد ذلك غادر الغرفة. مباشرة بعد ذلك نادت علي أمي: "أريد التحدث إليك. لا تخبر أيا كان بأنك رأيت أباك ممددا إلى جانب خالتك إمَّا في السرير."

"لن أفعل ولكن لماذا؟"

"قد يظنون بأن ذلك مرعب."

"و ما همهم؟ هذا لا يعنيهم. أليس كذلك؟"

"هذا صحيح. بالطبع هذا لا يعنيهم. لهذا لا تخبر أحدا بما رأيت."

كتبت أنشودة وجعلتها على شكل كراسة حتى أقدمها للخالة إيمَّا. على كل صفحة سجلت نصف المقطع في لون يوازي لون الرصاص الشمعي. كانت الأنشودة لسبب لم أدركه تثير ضحكها، وكانت على الشكل التالي:

مسكينة الخالة إيمَّا

ترقد في السرير

على رأسها قبعة ثلجية

مسكينة الخالة إيمَّا

ترقد في السرير

إنها مريضة جدا لكنها لا تزال على قيد الحياة.

سألتها: "لماذا تضحكين؟"

"لأنني أحببت القصيدة. أنت تحب خالتك أليس كذلك؟"

"بالطبع." أشعرني هذا بالحرج، فغادرت الغرفة.

نشأت على اعتبار اللصوص تهديدا حاضرا باستمرار. فقد كانت أبواب المنزل توصد دوما. وحتى حنًّا وأنّا لم تكن لديهما مفاتيحهما الخاصة ولكن يجب أن يفتح لهما الباب حينما يأتيان في الصباح للعمل. بشكل غريب، كنت أتوفر على مفتاح للباب الأمامي، وكنت أحتفظ به في حافظة للمفاتيح معدة من جلد النعامة. ذات زوال عدت من المدرسة، وأغلقت الباب الأمامي من ورائي، وفورا شعرت بأنني أوجد في المنزل لوحدي. كان الهدوء يغشى المكان. ذهبت إلى المطبخ حيث كان كل شيء يلمع ويبدو فارغا. على مضض، أخذت أزحف من حجرة إلى حجرة، دون الجرأة على مناداة أي أحد. ذهبت إلى حجرة الجلوس وجلست على الأريكة، ورأسي يشتعل باحتمالات مرعبة. لعل لصا يوجد في المنزل ويختبئ في ركن ما من أركان المنزل. عزمت على تفحص كل زاوية، تحت كل سرير، وحتى، لسوء الحظ، في العلية وراء الصناديق، ذلك أنني إذا بقيت جالسا في مكاني وقلقا، فسأصبح أكثر جزعا. انتقلت إلى غرفة نوم والدي وفتشتها عن آخرها. كانت يداي تنهال ضربا على الملابس المعلقة في السترة للتأكد من أن لا أحد يقبع هناك في الظلام. بعد ذلك ذهبت إلى حجرة الضيوف. كان هناك سرير ضخم قديم عالي القوائم. انحنيت لأرى ماذا يوجد تحت السرير وأحسست بقلبي يكاد ينفجر. تحت السرير يوجد شخص ما وقد تكور في مكانه. كنت عاجزا على الوقوف أو الجري؛ كل ما كان بوسعي القيام به هو التحديق فقط.

فجأة أخذ الشيء تحت السرير يتنفس بصوت عال ويتحرك، فبدا رأس أمي يتحرك نحوي. كانت تزحف إلى الأمام، بينما احتقن وجهها وهي تضحك. قالت: "لقد غادرت حنًّا وأنّا، لذا خطرت ببالي فكرة أن أرى ماذا سيحدث لو اختفيت أنا الأخرى." ثم استطردت: "لن تحب ذلك. أليس كذلك؟"

حاولت أن تمازحني بخصوص ما حدث؛ بدا لي أن الحلقة كانت ممتعة بالنسبة لها. غادرت الغرفة وقد استحالت يداي قبضتان من الغضب. صعدت إلى الأعلى، إلى مكاني، ثم أغلقت الباب. يستحيل الخوف عادة إلى الغضب؛ لم يفارقني الغضب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لأيام عديدة. على العموم كانت العلاقة التي تربطني بأمي ممتازة، مبدئيا، كما أفترض، ذلك أنها تستمع إلى ما أقرأه عليها وتمدني برأيها بعد التفكير في الموضوع، حتى لو كان الأمر يتعلق بلائحة لأسماء أماكن مبتكرة أستعملها كإشارات. منذ أن أصبحت في الثانية من عمري كانت تقرأ لي دائما قصصا لمدة نصف ساعة قبل أن أخلد للنوم؛ تواصل هذا التقليد إلى أن أصبحت في السابعة من عمري. ثم أخذنا نتبادل أدوار القراءة. أذكر أنني استمتعت كثيرا بحكايات تنغلوود لهوثورن[1]، كما أذكر أيضا الشعور بالإعجاب الممزوج بالامتعاض الذي شعرت به حين الاستماع إلى قصص إدغار ألان بو[2]. لم يكن بإمكاني قراءتها بصوت مرتفع، لذا كان علي أن أتمثلها. كان صوت أمي الجميل والهادئ وكذا شخصيتها يأخذان مسوحا كئيبة حينما تقرأ الجمل المرعبة. كلما نظرت إليها تبدو شخصا آخر، وهذا يخيفني أكثر. خلال هذه المرحلة أصبحت أصرخ خلال النوم وأقوم بطقوس طويلة لا معنى لها حيث تكون عيني مشرعة بينما أكون فاقدا للوعي. تقف أمي وأبي وهما يحدقان إلي، دون أن يجرؤا على الحديث إلي أو لمسي. في الغد عادة ما أنسى ما جرى في الليلة السابقة. مرة، نمت في سريري لأصحو بعد ذلك بقليل في السرير الكبير الذي يوجد في غرفة الضيوف، وأبي ينحني علي وهو يحرك أصبعه أمام أنفي: "إلزم سريرك أيها الشاب؟"

خلال الشتاء الذي صادف بلوغي سن الثامنة، قرر والدي تلقيني دروسا في الموسيقى. تضمن ذلك شراء جهاز بيانو، وأمام عناد أمي لاقتناء جهاز ضخم تم تعديل الأثاث. بعد محادثات مطولة ومريرة، تم شراء البيانو وإلحاقي بصف الآنسة شايس. تُخصص أيام الثلاثاء للجانب النظري، السولفيج، وتمرين الأذن، أما أيام الجمعة فتذهب لتقنيات البيانو.

كنت أتلقى هذه الدروس بمفردي؛ لذا لم أكن أعيرها بالا. وجدت متعة في التمرن لأن ذلك يضمن لي الاختلاء بنفسي بقدر ما أنا جالس هنا. لا أحد يفكر في مضايقتي ما دمت أعزف على البيانو، أو ما دمت أعزف المقطوعات التي

(1) ناثانييل هوثورن: (1804-1864) كاتب أمريكي.
(2) إدغار ألان بو: (1809-1849) كاتب وشاعر أمريكي تميزت حكاياته بغرابتها وعمقها ويعد رائدا لفن القصة القصيرة.

تعلمتها بحيث أصعد أو أهبط على السلالم الموسيقية بكل حرية. لكنني اكتشفت أنني ما أن أشرع في الارتجال لدقيقة، حتى تظهر أمي عند الباب قائلة: "هل تقوم بواجبك؟ لا يبدو لي الأمر كذلك." هكذا تعلمت أن أنهي تماريني أولا قبل أن أسمح لنفسي بثراء حرية التجريب. لحسن الحظ، كان الجانب النظري في الموسيقى إضافة إلى دروس تمرين الأذن أمرا إلزاميا؛ الشيء الذي مكنني من تعلم النوتات الموسيقية ومن كتابة أفكاري الموسيقية. لو كانت هذه الدروس أمرا اختياريا، لغضضت الطرف عنها؛ ذلك أنه كان هنالك تلاميذ آخرون يحضرون هذه الدروس، وبالنسبة لي كان الاستماع إلى محاولاتهم وأخطائهم مجرد مبعث ضجر ونفس الشيء ينسحب على محاولاتي وأخطائي.

بقدر ما تعلمت أن أنهي واجباتي قبل الاستمتاع بالعزف على البيانو فقد حرصت دائما على إنهاء فروضي المنزلية أولا قبل أن أنتقل إلى مختلف الأشغال اليومية التي أضعها لنفسي: كنت أصدر صحيفة يومية في نسخة واحدة من أربعة صفحات بقلم الرصاص. أضع معلومات إضافية في الأماكن المخصصة كل يوم للعديد من الأشخاص المتخيلين، وأضيف إلى رصيد المعلومات التي تدور حول عالمي الخيالي. كنت أرسم المنازل بهوس (الواجهات الأمامية المغلقة) مع أثمنتها ومشتريها، كما لو أن الأمر يتعلق فعلا بعمل ضخم حقيقي في مجال العقار. تنشر الصحيفة تقريرا يوميا حول رحلة سفينة عجيبة يقوم بها مراسلون: "اليوم نزلنا في كاب كاتوش. احزروا أين سنكون غدا؟" لدي قاموس ضخم خاص بمادة الجغرافية تبدو أوراقه مهلهلة، ووزنه ثقيل بحيث أجد عناء في حمله. عادة ما أحمله إلى وسط الغرفة وأضعه على الأرضية ثم أفتحه وأغرق بين خرائطه. وكلما سقطت الخرائط كان علي فتح الكتاب مجددا ووضعها في مكانها المناسب.

كنت أملأ المذكرات بصيغة الغائب على أساس يومي وفي الزمن الحاضر كما لو كانت عناوين الصحف: "أتى فايبر إلى المنزل يستجدي الدجاجات. غير أن أديل طردته." تُصاب الكثير من الشخصيات بأمراض مختلفة ويهددها الهزال بسرعة مذهلة. في لحظة معينة من المذكرات أغرق في بحر من الأحداث فأشرع بملء العديد من الصفحات مرة واحدة. ما أن تبدأ هذه العملية حتى يصعب العودة إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المذكرات على أساس يومي. تزداد وتيرة الأحداث، وبسرعة تُملأ صفحات الكتاب. ثمة جزءان حول امرأة تدعى بْلوي لابردوزلين تبحر من دولة أوربية مجهولة إلى وين كروي حيث تعثر مباشرة على مبلغ كبير من المال وتشتري سيارة ذات محرك أوتوماتيكي. خلال عامها الأول تصاب بالكثير من الأمراض وتتعافى بسرعة، تتزوج مرات ومرات ثم سرعان ما تفض هذه الزيجات، وتصبح جاسوسة. خلال العام الثاني، تتعلم لعبة الجسر وتدخن الأفيون. الكل يصاب بالإنفلونزا وداء السل وينفق باستثناء بْلُوي التي تتمتع بصحة جيدة وتتمكن من النجاة وآخر مرة شوهدت فيها كانت متوارية في هونغ كونغ عن أنظار خادمة ناقمة جعلها حمقها تطردها من العمل. كنت أضع أيضا أجندات شهرية أزينها برسومات بقلم الرصاص وأبيعها لمن يقوم بزيارتنا من أفراد العائلة كلما استطعت إلى ذلك سبيلا. كانت الأجندات صحيحة وواضحة بقدر الكفاية، غير أن الخطوط الأفقية والعمودية التي تشكل المربعات في إشارة إلى الأيام كانت دائما ملتوية بدل أن تكون مستقيمة. بطبيعة الحال، كان الكل يثير انتباهي إلى هذا العطب. كنت أوضح لهم بأنني أعيد الكرة من جديد وأحاول أن أرسم أسطرا مستقيمة، لكنها غصبا عني تميل انحدارا مهما حاولت. اقترح علي جدي بولز أن أستعين بمسطرة، لكنني لم أعتبر هذا حلا للمشكلة: سيكون الأمر كما لو أنني أستحضر شخصا آخر لمساعدتي. تمرنت جيدا لجعل الخطوط الملتوية تبدو متوازية، غير أنني كنت أحبها كما هي. استمرت أجنداتي تبدو كما لو أنها وضعت لتناسب جانبا آخر من الكرة الأرضية.

خلال هذه الأثناء شرعت في كتابة عملي المطول "المربع"، أوبرا من تسعة فصول. لم تكن بطبيعة الحال أوبرا بالمعنى الحرفي للكلمة، ولكنها مجرد قصة تتخللها أشعار هنا وهناك. لهذه الأشعار وضعت موسيقى. اعتقدت أن مجرد وجود الأغاني سيمنحني الحق في تسميتها أوبرا. تدور أحداث القصة حول رجلين اتفقا على تبادل زوجتيهما. لتحقيق ذلك، كان على كل زوج أن يبدو وضيعا ومنحطا في نظر زوجته حتى تنفصل عنه. لكن حينما يتم التبادل أخيرا، لا ترضى النساء عن هذه الصيغة فينسفانها من الأساس فسترجع كل واحدة منهن زوجها الأول. في الفصل الثاني ثمة معزوفة موسيقية.

قرأت المربع المرة تلو المرة على مسامع الأشخاص الذين يأتون إلى المنزل واكتشفت، وا أسفاه، أن الحماس الذي يظهرونه لا يكمن سوى في جانبها المرح. عندما تيقنت من ذلك تمام اليقين، وضعت الكراسة جانبا، وكلما أراد أي واحد أن يستمع إليها، كنت أخبره بأنني أضعتها.

ذات مرة خلال الهزيع الأخير من الليل، ملأ الجو صوت وقوع مدو لأشياء في غرفة الجلوس. في الصباح، تم اكتشاف أن عارضة البيانو الصوتية قد انغلقت من تلقاء ذاتها وتحطمت. جُنَّ جنون أبي على شركة وانماك للبيانو فأرجع الآلة مؤكدا بأن كل آلات البيانو التي صنعت منذ الحرب رديئة ذلك أن خشبها لم ينضج بما فيه الكفاية. هكذا توقفت دروس البيانو على نحو مفاجئ. لم أهتم للأمر كثيرا، لكن أمي لم تكن سعيدة لعدة شهور.

للترويح على نفسه، كان أبي يمارس رياضة المضرب. كان يبدو أنيقا في سراويله البيضاء. وبقدر ما كانت أمي تكره اللعب فقد كانت دائما تنتهي بأن تذعن لرغباته، مع أنها كانت تدرك بأن خصومة لا بد وأن تلوح في الأفق. كانت أمي تحتج: "لا أستطيع النظر جيدا. إذا كانت حياتي تعتمد على هذه الكرة، فإنني لن أستطيع رؤيتها."

"لا تنظرين جيدا! أنت عمياء كخفاش."

كان أبي يتمتع بنظر حاد، لكنه استيقظ ذات صباح ليكتشف أن عينه اليسرى فقدت بريقها. أخبره طبيب العيون بأنه تعرض لنزيف دموي. ورغم أن الضرر لا يمكن إصلاحه، فقد قام بالعديد من الاختبارات. ونحن نتناول الفطور ذات صباح أخذ أبي وأمي يتداولان حول هذه الاختبارات. تظاهرت بالانشغال بأمور أخرى، بينما كنت في الواقع أتسقط كل كلمة يتفوهان بها. بعد حين غمرني الفضول، فسألت أمي: "لماذا يستعمل الأطباء هذه الإبر؟"

"لأن عليهم أن يأخذوا عينات من الدم..."

حينما شرعت أمي تتحدث على هذا المنوال، رشف أبي قهوته دفعة واحدة ورجَّ الكوب على الطاولة، صارخا: "لا!" وكإجابة على نظرة أمي غير المستوعبة، أخذ يغني بصوت عال.

فردت أمي: "هكذا إذن."

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أحسست بضيم كونه تصور أنه بإمكاني القيام بسلوك وضيع كهذا واستنتجت فقط بأنه لا شك كان هكذا حينما كان في الثامنة من عمره. جعله هذا الحادث يبدو وضيعا في نظري إلى حد كبير.

قرر الأطباء بأن أبي كان يرهق نفسه وبالتالي عليه تقليص برنامجه ولعب كرة الغولف ثلاث مرات في الأسبوع. فجأة أرخى عماه الجزئي بكلكله عليه وبات هاجس صحته شغله الشاغل. لا يبعد نادي هيلكورس للغولف كثيرا عن المنزل. هكذا بدأ روتين جديد حيث يذهب ثلاثتنا إلى النادي بانتظام فأنتظر أنا وأمي دائما تحت الشجر بالقرب من الحفرة الخامسة. أحيانا، إذا كان يلعب بمفرده، فإنه يلح على أن نرافقه ونساعد الغلام للبحث عن الكرات الضائعة. ذات يوم، قرر بأن أصبح أنا مساعده الخاص وأن أجمع الكرات الضائعة. كان واضحا بأنني لن أقدر على حمل الحقيبة ذلك أنها إذا ما وضعت على الأرض فإن جانبها الأعلى يصبح على مستوى كتفي. جعل ارتطامها المنتظم بالأرض أبي منزعجا لدرجة أنه لعب تسع كرات فقط. حينما وصلنا إلى غرفة الملابس قال بانزعاج: "لا أعتقد بأنك تصلح مساعدا للاعب الغولف."

بعد أن التحقت أمي وأبي بنادي الغولف كونا صداقات جديدة، فأخذا يلبيان الدعوات للعب الورق ليلا دون أن يروا هذه المرة ضرورة حضور حنًا لتبقى معي خلال فترات غيابهم. أحيانا، تجري لعبة الورق في منزلنا، وهكذا يستمر الضجيج والجلبة في المنزل إلى حدود الثانية أو الثالثة صباحا. كان منع تناول الكحول واقعا جديدا، لذا فان الناس كانوا يتناولون الخمور بتباه. مثل تناول الكحول طريقة أنيقة للتظاهر بالبسالة.

كان جدي بولز يقوم بزيارتنا بين الفينة والأخرى وقد دأب وفق عادته الممتعة والمحرجة في نفس الآن أن يذهب إلى غرفة الطعام قبل العشاء وأن يدس النقود تحت منديلي. لم أكن أدرك لماذا لا يعطيني النقود حينما نكون أنا وهو لوحدنا حتى لا يعلم أبي وأمي بالأمر. أفترض بأنه كان يحبني أكثر مما كان يحبهم، ذلك أنه كان دائما يشتكي من طريقة عيشهم. كل مرة يلتقط فيها مجلة (فانيتي فير) في غرفة الجلوس، كان يصدر صوتا من أنفه ويقلب الصفحات بضجة، وبعد ذلك يضرب المجلة بقوة على الطاولة، ملاحظا بأنه ليس من الصواب ترك

المجلة في متناولي. لكنني ما دمت أخرجها من مظروفها كلما أتى بها ساعي البريد كل شهر، فإنني أكون قد تصفحتها بقدر ما أشاء. كلما قام جدي بولز بزيارتنا، في الغالب ما تذكرني أمي بأنه ينتمي إلى جيل آخر وهكذا لا يُنتظر منه أن يرضى على ما يجري في منزلنا. لم يكن يتناول الكحول أبدا، وحينما أصبح التعديل الثامن عشر قانونا، بات شغله الشاغل هو إدانة كل من لا يطبق القانون، وكان لا يمتنع عن التعبير عن سخطه كلما كان أبي يقدم مشروبات كحولية في العشاء.

كان يصرخ بغضب: "هذا خطأ كبير."

فيحتج أبي: "أبي، كن منطقيا. لا يمكن تطبيق هذا القانون بأي حال من الأحوال. ألا يمكنك أن ترى ذلك؟

"فقط لأن أشخاصا مثلك اختاروا أن يتجاهلوه. إنه قانون الأمة وهذا يكفي."

اعتادت جدتي أن تقضي معنا مواسم الشتاء. كنا نبدو دائما معا ونحن نحث الخطى عبر المسالك الثلجية. كانت تنتعل أحذية تلقبها "الكالوشات." خلال الأوقات الطويلة والباردة التي كنا نقضيها مشيا، اكتشفت في جدتي خزانا من الحقد نحو أبي. يكفي أن أستمع لحكايتها وأن أتساءل عن السبب بين الحين والحين لينطلق هذا الخزان كدمامل صديدية، حاملا معه تفاصيلا لم يكن بإمكاني تصديقها، رغم حداثة سني، حتى تم إما تأكيدها أو تفسيرها في وقت لاحق من طرف أمي.

"أمك تخشاه، لذا فهي لا تعترض أبدا على ما يقوم به. لكنني أعلم ما كان يدور بذهنه. أبوك أراد أن يقتلك."

أصبت بالهلع. "أن يقتلني؟" كررت المرة تلو المرة. بدا الأمر ممكنا جدا. لا يمكن للمرء أن يتنبأ بما يدور في ذهن أي شخص آخر. الأطفال مخادعون والكبار كتلة من الأسرار.

"حينما كنت في حوالي أسبوعك السادس، حاول أن يقتلك. ذات ليلة كئيبة عاد إلى المنزل بينما كانت الريح تهب بقوة والثلج يتساقط–عاصفة ثلجية حقيقية– فدلف إلى غرفتك مباشرة. فتح النافذة على مصراعيها، ثم ذهب إلى سريرك وسحبك من تحت ملاءاتك الدافئة. جردك من ملابسك وأخذك إلى النافذة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حيث كان الثلج يهمي. وهناك تركك الشيطان في سلة على حافة النافذة بينما كان الثلج يتساقط عليك. لو لم أنتبه لصراخك، لكنت متت خلال ثوان. صرخت في وجهه: "أعلم ما يدور في خلدك. لا يمكنك أن تفعل ذلك. لن يحدث أي مكروه لهذا الرضيع ما دمت على قيد الحياة." أثارتني فكرة هذه المواجهة المؤثرة. فسألت بفضول: "و ماذا كان رده؟"

"كان فقط يغار من العناية التي توليها أمك لك. كان هو الرضيع. كان يحس بأنها لا توليه ما يكفي من العناية. هذا كل ما في الأمر. وهكذا خطر بباله: "سأجعله يتجمد من البرد، وستكون لي وحدي." أعلم كيف يشتغل ذهنه. إنه شيطان، شيطان كالقط العجوز الذي يعود ويلتهم صغاره. إنه يضع أمك حيث يريدها، تحديدا تحت إبهام يده."

كانت جدتي تجد متعة في إخباري كيف أنه بعد ولادتي، ذهبت عند عرافة لتستفسر حول ما ستكون عليه حياتي في المستقبل. زعمت العرافة بأنها رأت أكداسا ثم أكداسا من الأوراق في كل مكان. وهذا كل شيء. "لا شك أن تنبؤها كان في محله. لم أر قط في حياتي مثل هذا الكم من الأوراق الذي تحتفظ به أنت. لا عجب أن أمك تغضب، فمجرد النظر إلى العديد من الأوراق سيدفعني إلى حافة الجنون. ألا يمكنك أن تتخلص من بعضها؟ الأوراق القديمة، مثلا؟"

كان علي أن أرفض هذا الاقتراح فورا. "لا! لا! علي أن أحتفظ بها كلها. لا أريد أن ألقي أيا منها."

"يا لأمك المسكينة!"

"إنها لا تنتبه لوجودها. إنها مرصوصة كلها في الخزانة. أحب أن أنظر إليها كلها."

"لكنها مجرد خربشاتك. لماذا تريد النظر إليها؟"

استنتجت بأنها لا تشاركني اهتمامي بإنتاجاتي الأدبية؛ فلذت بالصمت.

في كانون الثاني 1921 أصيب أبي بداء السل فاستحال المنزل إلى مستشفى حيث تتنقل الممرضات جيئة وذهابا ويقوم الدكتور براش بزيارة والدي مرات عديدة خلال اليوم الواحد. قررت أمي إبعادي عن هذا الجو وذلك بإرسالي إلى بيرينغفيلد لأبقى هناك مع عائلة وينوسير. ذهبت إلى المحطة الرئيسية الكبيرة

لوحدي واتجهت إلى نيويورك، ونيوهافن وهارتفورد. كان صدري يجيش عاطفة من فرط الانفعال. أصابت فكرة ما ينتصب في الأفق من إمكانيات حرية جسدي بالخدر وسكرت من السعادة والنشوة. تراءت لي المتعة شيئا يكمن في الحياة، وراكمت احتراما كبيرا لغياهب الأمور.

لم أكد أقضي أسبوعين في سبرينغفيلد حتى أصيب جدي وجدتي أيضا بداء السل. أتت العمة إيما من نورتامبتون لتقديم العون، ومرة أخرى أبعدت عن مسرح الداء، هذه المرة إلى نورتامبتون لأبقى مع العم كاي. كان للعم كاي والعمة إمّا شقا منفصلة في نفس المبنى. تبدى العم كاي اكتشافا جديدا إذ كان يرتدي ملابس الكيمونو اليابانية ويقضي قدرا كبيرا من الوقت يحرق البخور في العديد من تماثيل التنين وبودا النحاسية. كنت مسرورا بهذه الشقة وكنت أتصورها مكانا لمجريات قصة قتل غريبة. وكما لو كانت هناك نية مسبقة لدعم هذا الإحساس، كانت هناك بعض روايات ساكس رومر على الطاولة إلى جانب سريري. خلال الليالي، تعرفت إلى الدكتور فو-مانشو.

إلى حد الآن لم أتردد على دور السينما إلا للمرة الثالثة. بكل براءة كان عمي كاي يأخذني كل ظهيرة إلى مبنى يشبه خزانا للحبوب يدعى أكاديمية الموسيقى، حيث يتم عرض فيلمين مختلفين كل يوم. شاهدت أفلام ميلز مينتر وتشارلي شابلين وفيولا دانا وويليام هارت. كنت أشاهد هذه الأفلام بينما ينتابني وعي حاد ومبهج بدرجة سخط وعدم رضا أمي وأبي إذا ما علما فقط بما يجري. وعدني العم كاي بأن يبقي الأمر سرا بيننا. كان يعاملني بطريقة خاصة مما جعلني أحس بأنه كان "بجانبي" ولا يحاول ضبط نشاطاتي. لم أحي من قبل مثل هذه الحرية؛ وكان حتميا أن أعتبر العم كاي صديقا. بيد أنه قرر حينها إحياء حفل في شقة العمة إيمّا. كان يخطط لذلك لعدة أيام. مساء يوم السبت، أخبرني بأنه علي أن أتناول طعامي باكرا وأن أخلد إلى النوم. كانت هذه الأنباء حقا تدعو إلى الضيق. خلال الليل وجدت سببا لارتداء رداء الحمام والتسكع عبر الأروقة إلى الشقة الأخرى. كانت أنغام موسيقى الرقص التي تعزف على البيانو تتهادى في الأجواء، وكانت هناك جلبة كبيرة تحدثها الأصوات وقرقعات الضحك. حينما بلغت الباب وتمكنت من فتحه قليلا ألقيت نظرة خاطفة. كان المكان يضيق بشبان جميلي المحيا يرقصون معا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في تلك اللحظة، شعرت بقبضة يد صلبة تمسك بكتفي، ثم تـديرني وتـدفعني إلى الأمام عبر الباب. صعدت نظري إلى الأعلى فرأيت وجه عمي كاي وقد استحال بفعل الغضب إلى تمثال من البرونـز. بيده الأخرى شدني بقوة من رقبتي وهصرني بألم وهو يدفعني عبر الرواق نحو الشقة التي كنت فيها. وهو يكشط على أسـنانه أخبرني: "لقد أخبرتك ألا تأتي، لكنك عصيت أمري. الآن سأحبسك بالداخل."

ما أن عدت إلى حجرتي حتى جلست على السرير يلتهمني الغضب والقهـر. لقد برهن العم كاي على أنه لا يختلف عن بقية الآخرين. أعلى السـرير توجـد صورة مؤطرة كبيرة لفتاة جميلة تبتسم بإغواء. وقفت على السرير وأخذت أضرب بقبضة يدي على اللوحة بكل ما لدي من قوة، حتى كسرت الزجاج وجرحـت مفاصل أصابعي. هذا كان عقابا للعم كاي. بعد ذلك عدت إلى النوم بينما كانت يدي تؤلمني. صبيحة اليوم التالي، حينما استجمعت الشجاعة للاعتراف للعم كاي بأني كسرت لوحته، فتر فاه عن ابتسامة بدل أن تقدح عيناه شررا، الشيء الـذي أثار انـزعاجي. قلت له بأني سأدفع ثمنا مقابلا للوحة، ووافق على الأمر. لم نعد إلى أي جزء من هذا الفصل مرة أخرى، بما في ذلك القاعة المليئة بالشبان؛ الشـيء الذي بدا لي حينها أمرا عاديا. وحتى بعد مرور عشر سنوات على الحـادث وإلى حدود كتابة هذه السطور لم أخبر أي أحد بما جرى.

كان للعم كاي صديق بدين غريب الأطوار كنا نقوم معا بزيارته. كان اسمه السيد بستاني، وكان أكثر انشغالا قياسا بعمي ببخوره حتى أن المرء يجد عنتا كبيرا في استنشاق أي شيء آخر في شقته. تغطي أرضية الغرف والجـدران سـجادات تركية ناعمة يحافظ على تغييرها باستمرار. كان سوريا لديه محل "شرقي" يتخصص في الأشياء المستوردة. كلما قمنا بزيارته كان يلح على إهدائي شيئا ما، ولكن أمام إصرار عمي القوي لرفضه، كنت أجد نفسي في وضع حرج. كان عمـي كـاي ينتزع مني الهدية ويعيدها إلى مكانها، ثم يأخذها السيد بستاني ويضعها من جديـد في يدي مباشرة. عند نهاية مقامي في نورثامبتون، لم نعد نقوم بزيارة السيد بستاني.

حينما توصلت برسالة من أمي تخبرني فيها بأنه علي العودة إلى نيويورك خلال أسبوعين، جلست إلى الطاولة وكتبت رسالة استعطاف أطلب فيها أن تسـمح لي بالبقاء للمزيد من الوقت. بطبيعة الحال، ذهب رجائي أدراج الرياح. حينما وصل

اليوم المحتوم، وُضعت في قطار وتم إرسالي إلى المنـــزل، وكان إحساسي بالحســـرة على نفسي عزائي الوحيد.

لم تمر مدة طويلة على عودتي إلى المنـــزل حتى زارت الآنسة نول أمي مقترحة بأن ألتحق بفصل الآنسة ميلر. ما يعني أن أنتقل من القسم الخـــامس إلى القســـم السادس. تسمى هذه العملية بالتخطي. أن يتخطى تلميذ تلميذ ما قسما فهذا يعني رضا الجهات الرسمية عليه، وأي تلميذ يكون من نصيبه هذا الشرف يعني أن زمـــلاءه في الفصل سيعزلونه.

عند نهاية تلك الدورة، طلبت الآنسة من التلاميذ أن يقفوا ويصفقوا لي نظرا لإنجازي ذلك أنني حصلت على أعلى نقطة في القسم رغـــم التحـــاقي المتـــأخر بالدراسة. كانت لحظة عذاب حقيقية، وكنت أتساءل إن كانت الآنسة ميلر تدرك ما تعرضني إليه وذلك بإثارة الانتباه إلى عيوبـــي. (لأن الصفات التي يعتبرها الكبار فضائل كانت على العموم تعتبر من طرف الأطفال الآخرين مجرد آيات تزلـــف.) السؤال الذي سيلي لا محالة: لماذا سمح له بتخطي القسم؟ والجواب بالرغم من أنـــه غير مشروع وعنيف، لكن دون أن يخلو من عنصر الحقيقة، سيكون حتما: لأنـــه يعتبر نفسه حاذقا.

"حدثيني عن ميلادي."

ترد أمي: "لكنني أخبرتك بذلك آلاف المرات."

كان هذا صحيحا، لكن بشكل من الأشكال، كنت أشعر بأن هذا الحـــدث الهام له من الأهمية ما يجعل ما راكمته من معطيات إلى حد الآن لا يفي بـــالغرض. كان أمل يراودني بأنني بقدر ما أحصل على تفاصيل جديدة بقدر ما ســـأتمكن في النهاية من رسم صورة مكتملة.

تم الوضع بمستشفى ماري الطاهر. (لسنوات عدة كان لدي الإحساس بأن كلمة "طاهر" تعادل كلمة المستشفى وكانت نوعا من الإعلانـــات الإشـــهارية الرخيصة كعلامة "دون ألم" التي كان يضعها أطباء الأسنان الســـيئون في ذلـــك الزمان على لوائحهم الإشهارية.) تقول أمي: "كان المستشفى الأكثـــر ملاءمـــة وجاهزية." وبعد ذلك تابعت: "لكنني لو كنت أعرف ما سيحدث لاحقا لتجنبته ما وسعني الأمر."

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان هذا الجزء دائما مثيرا ما دمت أعلم ما سيلي من أحداث. كانت ولادة قيصرية حينما فشلوا في سحب رأسي إلى الخارج. "حينما استعدت وعيي، كنت هجع هناك وجرح كبير في جانب من رأسك." لكن الفصل الأكثر إثارة سيقع لاحقا. عند الغسق في نفس الظهيرة يبدو أن اثنتين من الأخوات دخلتا إلى الحجرة وأعلنتا عن نيتهما في أخذي وتعميدي. رفضت أمي فحاولتا بالقوة، وذلك بطمأنتها بأنني لن أبقى على قيد الحياة إلى الغد. أخبرهم بأن هذا لا يعنيهم، فهي ستتحمل مسؤولية روحي. واصلا التمسك بقوة. "إذا أخذتم هذا الطفل خارج الغرفة، فسأتبعكم على يدي وعلى ركبتي صارخة." أمام عنادها غادرتا الغرفة.

كلما استرسلت أمي في حكاية هذه القصة، أستشعر بأنها أحرزت انتصارا أخلاقيا مهما، وفي نفس الوقت جنبتني ما سينتج عن ذلك من عملية غريبة قذرة. تدفع بمنكبيها إلى الأمام وترتجف: آخ تلك المخلوقات القذرة بصلبانها القديمة المتمايلة. لقد أصابوني بالرعشة. بالطبع بعض الأخوات نساء رائعات، لاشك في ذلك باستثناء أولائك."

ذات يوم أخبرتني أمي: "لا شيء يبعث أكثر على المتعة من الحيل التي تقوم بها في ذهنك." ثم تواصل: "تظن بأنك أنت من يتحكم بزمام الأمور، لكنك تكتشف بعد حين بأنك إذا لم تحترس فإن ذهنك هو الذي سيأخذك حيث يشاء. مثلا، أراهن أنك لن تستطيع أن تخبرني تحديدا ما هي الحركات التي تقوم بها لخلع معطفك الخفيف. أي الحركات تقوم بها أولا؟ فكرت في الأمر المرة تلو المرة، لكنني بصدق لا أستطيع أن أخبرك. أو لنتأمل هذا الأمر. هل حاولت مرة أن تجعل ذهنك صفحة بيضاء وأن تحتفظ به على هذه الحال؟ لا يجب أن تتخيل أي شيء، أو أن تتذكر أي شيء أو أن تفكر في أي شيء، أو حتى أن تفكر بأنني لا أفكر. مجرد صفحة بيضاء. حاول القيام بذلك. إنه لأمر صعب. يمكنك أن تقوم بذلك للحظة، ولكن شيئا ما يخطر ببالك، وهكذا تفقد لحظة الصفاء الذهني. أقوم بهذه العملية أحيانا حينما أرتاح في الظهيرة، وعلي أن أقوم بذلك حتى تستمر العملية لبعض الوقت. ما أن ألج هذا المكان الفارغ حتى أغلق الباب دوني."

كنت أنتبه لكل كلمة تصدر عن أمي. لم أنبس ببنت شفة. ولكنني في المقابل بدأت القيام بالعملية سرا، وأخيرا تمكنت من الوصول إلى هذه الحالة، رغم أنني

أضطر لقطع التنفس خلال هذه العملية، مما يعجل آليا من عمر التجربة. أنا مـــدين لكل ما أتمتع به من قوى التحكم في الذات إلى ذلك الزمان.

كان للصباحات الباكرة في الربيع والصيف سحر خاص. بطبيعة الحـــال، لم يكن بإمكاني الخروج أو ارتداء ملابسي والهبوط قبل أن يتم المناداة علي، لكنه كان بإمكاني في المقابل الذهاب إلى النافذة والنظر عبرها واستنشاق الهواء والاستماع إلى الطيور وهي تشدو. كان هذا محظورا أيضا. لكنني كنت دائما أنجو بجريمتي هذه. ما كان يبعث على الأسى هو أنني كنت مرغما على الجلوس في السرير في الصباحات الباكرة ورسم المنازل لأضيفها لمجموعتي من العقار الحقيقـــي. ذات صـــباح مـــن صباحات تموز المنعشة، انسحبت من السرير، ثم مشيت إلى البـــاب علـــى رؤوس أصابعي، أغلقته ورجعت إلى السرير. فجأة سمعت خطوات أبـــي على السلم. قبل أن أتمكن من الوصول إلى الباب حاول أن يفتحه وفورا أخذ يرجـــه. ذهبـــت إلى الباب وأدرت المفتاح. ضاقت عيناه من شدة الغضب.

-ماذا تعني بإغلاقك للباب، أيها الشاب؟ ماذا كنت تفعل؟

-لا شيء.

-أجب عن سؤالي. لماذا كان الباب مغلقا؟

-لأنني كنت أقوم بشيء لا أريدك أن تطلع عليه.

-هكذا إذن. ماذا كنت تفعل؟

-أرسم المنازل.

-و لهذا أغلقت الباب؟

لم يبد عليه أنه يصدقني.

-اعتقدت أنك لن تحب أن أقوم برسم المنازل قبل الفطور.

-هكذا. إذن سأجازيك على فعلتك هذه.

أمسكني بقوة، وألقى بـــي على ركبته، وجهي إلى غطاء السرير وأنـــا في ملاءتي، وأخذ يضربني على مؤخرتي. بقيت ممددا هكذا في انتظار أن يتوقـــف. حينما تراجعت وتيرة الضرب، قال لي: "هل هذا يكفـــي؟" لم أجبـــه. واصـــل الضرب بشكل متقطع قبل أن يسألني مجددا: "هل هذا يكفي؟" لم أقدر أبـــدا أن أجيبه بنعم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تعلقت أكثر بالصمت. فنهرني أبـــي: "تكلم." أملت رأســـي إلى جانـــب، واستطعت أخيرا إخراج الكلمات: "كما تشاء." ثم أبرحني ضربا فعلا هذه المـــرة. حينما تعب، توقف وتركني أتدحرج على السرير.

-و الآن أريد كل الكراسات التي تكتب فيها. هيا. أسرع.

أخرجتها من الخزانة ووضعتها على السرير. أخذها ونـــزل السلالم. أخبرتني أمي لاحقا خلال نفس اليوم أنني سأحرم من كراساتي لمدة شهرين، أقـــل عقوبـــة استطاعت أن تحصل عليها من أجلي. تنفست الصعداء لأنني كنت أتوقع أن يـــتم تدميرها مرة واحدة كما أنني شعرت بأنني أقوى مما كنت أتصور، لأنني بتُ أدرك بأن أي قدر من العنف الجسدي يمارس علي لن يدفعني إلى الصراخ؛ كان هذا شيئا جديدا بالنسبة لي. بعد مرور عدة عقود وأنا أتصفح مذكرات أمي وجدت إشارة إلى ذلك الحدث. تبدأ الإشارة على الشكل التالي: "ضرب كلود بـــول. النتيجـــة قضيت يوما بئيسا نهب آلام رأس حادة."

كانت هذه المرة الوحيدة التي يضربني فيها أبـــي. شكلت مرحلة جديـــدة في تطور العداءات بيننا. أقسمت أن أكرس حياتي لتدميره، رغم أن ذلك يعني تدميري أيضا - فكرة طفولية، لكنها استمرت تشغلني لسنوات عديدة.

3

حينما كنت في الصف السابع، قرر أبي أن يبتاع منزله الخاص. مرة أخرى تولى المهندس الذي سبق أن أشرف على المنزل الآخر تهيئة الفضاء الجديد. يقبع المنزل الجديد في نفس الضاحية، لذا فإن الانتقال من المكان القديم إلى المكان الجديد لم يكن صعبا. غير أن إضافة غرف جديدة استدعى شراء أثاث وسجادات أخرى. كانت عربات الشحن من محلات الأثاث المشهورة تصل إلى منزلنا إتباعا، حاملة أشياء رهن الموافقة. كان أقاربنا في نيو هامشاير وفيرمونت يرسلون عبر الباخرة تحفا، بما في ذلك قطع نقدية فضية "من أيام الثورة،" كما أخبرتني أمي بكل ابتهاج.

الآن وقد انكمشت فضاءات الاكتشاف وتزايدت المنازل كالفِطر في كل مكان بوتيرة مرعبة، أخذت الأحراج تتوارى تقريبا عن الأنظار. كرهت التغييرات العنيفة، لكنني حينما تمعنت في الأمر مليا قررت بأنه يجدر بي أن أغض الطرف عن مثل هذه الأشياء وبالتالي التفرغ لعملي بتركيز أكبر. في تلك السنة، كنت منشغلا جدا بكتابة سلسلة من القصص الميلودراماتيكية. كانت تحمل عناوين من قبيل: "القَصاص العادل" و"الصراخ في السحاب." أخذت واحدة من هذه القصص إلى المدرسة وتركتها فوق مكتب السيدة وودسون. على ما يبدو خلفت القصة في نفسها أثرا طيبا ذلك أنها طلبت مني إن كنت أتوفر على قصص أخرى، وحينما أخبرتها بأن لدي قصصا إضافية اقترحت أن أتلوها على حلقات في الفصل. أعتقد بأنها كانت تظن بأنه بعد مرور بضعة أيام سينضب المعين، حيث جعلتني في البداية أقرأ خلال ساعات الدرس. حينما مر أسبوعان أو ثلاثة بات جليا بأنني لن أتوقف (ذلك أنني ما أن أنهي كل ما كان لدي حتى أشرع في الكتابة بحماسة كل ليلة حتى أوفر ما أقرأه في حلقة الغد)، قررت أن تتم الحلقة مباشرة على الساعة الثالثة بعد الانتهاء من الدراسة وحضور التلاميذ اختياري. ما كان مثار دهشتي، مع أنني

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أخذت الأمر مأخذ البداهة، هو أن معظم التلاميذ كانوا لا يبرحون أماكنهم كما لو كان يشدهم خيط سري.

كان من الممكن أن تتواصل القراءات دون انقطاع لو أنني لم أتسبب بغضب السيدة وودسون. فقد نما إلى علمها ملاحظة جارحة تفوهت بها بخصوص تلميذة في الفصل. ذلك المساء، بدل القراءة، كان هناك تحقيق مطول. بدأ الاستجواب بحضور الجميع، وبعد ذلك طُلب من البنات مغادرة القاعة ولم يبق إلا التلاميذ وأخيرا لم يبق إلا أنا وهي في مواجهة لا معنى لها. كان بإمكاني أن أرى أن غضبها كان مفتعلا إلى حد كبير وما كان يهمها حقا هو أن تكتشف مقدار المعلومات الجنسية التي أتوفر عليها ومصدرها. (من الممكن جدا أن معلوماتي الجنسية كانت أقل بكثير من معلومات الجميع، ذلك أنني ظللت أعتقد بأن الأعضاء الجنسية متماثلة عضويا لدى الجنسين، ولم أكتشف عكس ذلك إلا عندما درست علم الأحياء في المدرسة الثانوية.) لكنني بخبرتي في التظاهر، جعلت المرأة المسكينة تصغي إلي بكل اهتمام، حيث أنها لم تجد القدرة في نفسها على قطع حبل الحوار. كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة ومع ذلك استمرت في الحديث.

"ما لم أستطع أن أفهمه حقا هو لماذا، لماذا كان عليك أن تختار أجمل، أرق، أذكى فتاة في القسم؟ هل يمكنك أن تخبرني عن السبب؟"

أفترض أن الجواب كان تحديدا أنها كانت كل هذه الأشياء مجتمعة. ومع ذلك فلم يكن بإمكاني التصريح بذلك علانية حتى لو كنت قادرا على صياغته، لذا فقد اكتفيت بتحريك رأسي. لم تكن لدي أية فكرة.

"برأيك كيف ستشعر أمك إذا علمت بذلك؟"

اعترفت بأنها ستغضب كثيرا. ثم واصلتُ: "لكنني لا أعتقد بأنها ستعير الأمر أية أهمية كما فعلت أنت."

بادرت للتعبير عن هذا الرأي تدعمني ذكرى رد فعل أمي حينما نقلت إليها قول السيدة وودسون بأن الوحدويين ليسوا بمسيحيين ولا يهود ولكنهم يقعون بين الاثنين (أخبرتني أمي: "فقط تذكر بأنها امرأة جاهلة وضيقة الأفق.")

أخبرت السيدة وودسون: "لا أدري سببا لتذمرك. ماذا كنت تتوقعين؟"

انتصبت السيدة وودسون واقفة، وقد اعتلى الشحوب وجهها فغدا صفحة بيضاء. بعد لحظة قالت: "كنت أتوقع شيئا أفضل. يمكنك الانصراف." حينما وصلت إلى المنزل كان الظلام قد حل. لم تكن أمي في المنزل. كانت جدتي تقيم معنا خلال ذلك الشهر. كانت قلقة بسبب تأخري. أخبرتها القصة كاملة. "لكن ماذا قلت بخصوص البنت؟" أرادت أن تعرف.

"قلت أن لديها شارب بين فخديها."

فغر فاه جدتي: "لماذا قلت ذلك بول؟ أنا مندهشة."

"لماذا؟ هل ذلك مرعب؟"

"حسنا إنه ليس يقينا جميلا، هل هو كذلك؟"

"لا، ولكنه ليس سيئا جدا."

توقفت المسألة هناك وتوقفت معها أيضا القراءات.

خلال هذه الفترة كانت أمي نادرا ما تبقى حبيسة جدران البيت. انضمت إلى العديد من النوادي والجمعيات من بينها الجمعية الديلفية وجماعة المسرح وكنتيجة لذلك تعرفتُ على عوالم اسخيلوس والإخوة كرامازوف[1]. كانت ربة المنزل سيدة من فيرمونت إضافة إلى خادمة سوداء تدعى إيدا. هكذا فسواء كانت أمي في المنزل أو خارجه فقد كنت أحصل على طعامي على نحو منتظم.

بجوارنا غربا يعيش الدكتور ليفيل وهو رئيس نقابة الأساتذة الأمريكيين وإلى ذلك فهو اشتراكي بارز. فقد مؤخرا زوجته، وكان أطفاله الأربعة تحت رعاية ربة منزل بولندية تعتني بهم إلى جانب رضيعها. دأبت أمي أن تقول: "يستحيل أن أكون في مكانها. عجبا أن المرأة لم تفقد صوابها. فبالكاد يمكن التحكم بالأطفال الآن، لا شك في ذلك. لم يتلقوا أية تربية كما أنهم لا يملكون أية إجابات. مجرد أطفال عابثين."

وحتى يشيع أبي جوا من المرح فقد تدخل قائلا: "إنهم بالأحرى كالثيران."

حركت أمي رأسها علامة الموافقة وقد اكتست ملامحها طابع الجدية: "اسكندينافيون أقحاح. بطيئو الحركة."

---

(1) الإخوة كارامازوف: رواية للروائي الروسي فيودور دوستوفسكي (1821-1881).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم تكن تربطني علاقات ودية مع أكبر الأطفال الثلاثة سنا نتيجة لحادث وقع منذ سنة أو يزيد حينما تسببت له دونما قصد في جرح في رأسه إثر شجار بالحجارة. لا زال يعتقد بأن ذلك كان متعمدا، وهكذا كنا غالبا ما نتشاجر. كان يذكي هذا العداء أخته الكبرى التي كانت لا تفتأ تخبرني بغضب بأنه لا يزال يحمل آثار الجرح الذي سببته له حجارتي. كان ذلك صحيحا، وكان مرآها يبعث في نفسي ذكريات مؤلمة عن الدماء التي جرت من رأسه حينها. للتخفيف من إحساسي بالذنب كنت أحاول أن أكون وديا معه، لكننا كنا دائما ننتهي إلى الشجار. ثمة خاصية غير منطقية وطفولية بخصوصه تثير اشمئزازي وغضبي في نفس الآن، فقررت في الأخير أن أرتب مصيره وأن أشاهده وهو يعيش ذلك المصير.

بعد جدال طويل تمكنت من انتزاع موافقة والدي لاستعمال الطابق الثالث كناد مرة في الأسبوع. فورا أخرجت آلة الطباعة وهيأت ورقة تحمل العنوان التالي: "نادي الكلب الكريستالي." كما استعملت الورق أيضا لكتابة ثمانية أو عشرة إعلانات عن اجتماع سينعقد في الجمعة المقبلة ليلا وسلمتها لأخوين يعيشان في نهاية الشارع. اقترحت أن يقوما بتوزيع هذه الإعلانات على الأطفال الآخرين في مجموعتنا، وأن يخبروهم بأن هناك من البوظة ما يكفي الجميع. جعلت الأخوان يلتحقان بي أولا، فأعددنا النادي كما نشاء. كان بديهيا بأنه باستثنائنا نحن الثلاثة، الأعضاء المؤسسون، فعلى الآخرين أن يمروا عبر طقس التعميد قبل أن يقبلوا كأعضاء.

حينما حل يوم الجمعة ليلا كان كل شيء على ما يرام. كما توقعنا، أبدى ابن لينفيل اعتراضا حينما اقترحت عفويا اسمه كأول طفل ستُعصب عيناه. بدا للآخرين أن اعتراضاته تنم عن جُبن وغياب لروح التآزر فلم يتعاطف معه أي من الحاضرين. عبثا حاول التملص. أخذ ينتحب قليلا حينما عصبت عيناه. كان ذلك رائعا. لم يكن الطابق الثالث قد اكتمل تماما، حيث لا يوجد سياج حول السلالم. كانت فكرتي تتمثل في أن نوهم ابن لينفيل بأنه يتدلى من النافذة، بينما هو في الحقيقة لا يتعلق سوى من حاشية السلالم، وبعد ذلك، بواسطة تهييء نفسي مناسب، ندعه يسقط. بعد أن شد الأخوان الحبل حول خصره، ذهبت وفتحت

النافذة. أصيب بهلع كبير حينما سمع الأصوات المتصاعدة من الشارع، وكان عليهم أن يتبثوا يديه وراء ظهره. حينما أيقنت بأنه موثوق كفاية، رفعناه عن الأرض. كان أثقل وزنا من أي واحد منا، لكننا دحرجناه قليلا ثم وضعناه على حاشية السلالم. (لحسن الحظ أن أمي وأبي كانا بدورهما يقيمان حفلا في الطابق الأسفل وكان أصدقاؤهم يحدثون فوضى غطت عن الفوضى الصادرة عنا في الطابق الأعلى. كانوا يجلسون على شكل دائرة على الأرض لا يوجد في وسطها سوى النرد والمال.) ما أن دفعنا ابن لينفيل فوق الحاشية حتى انطلق الحبل مشتعلا وسريعا بين أيدينا فاضطررنا إلى أن نفك قبضتنا عليه. انطلق إلى الأسفل ككتلة أسفل السلالم. للحظة ران صمت ثقيل ثم انطلق الصراخ والعويل. انتبه الكبار إلى الصوت وصعدوا السلالم جريا. عاينه كل من أبي وأمي للحظة و لم يجدا به أي ضرر خطير. مجرد جروح وخدوش. ورغم ذلك فقد واصل العويل.

قال أبي: "لا شيء يدعو للقلق. إنها مجرد صدمة بسبب وقوعه على الأرض." ثم اصطحبه إلى منزله حيث كانت ربة المنزل البولندية في استقبالهما. أما نحن البقية فقد وبخنا قليلا بينما كنا نتناول البوظة. على إثر هذا الحادث تم فك النادي بقرار من طرف الدكتور بولز. قررنا بأن لا أحد غير ذلك الصبي كان سيتصرف بذلك الشكل المشين. بعد مدة قليلة التحق الصبي لينفيل بالمدرسة.

لمدة سنة كاملة كان آل كورشبوم يبنون منزلا مزخرفا في الزاوية أسفل الشارع. كان الجميع على علم بأن السيد كورشبوم تاجر كحول ناجح؛ وكانت واحدة من بناته في صفي غالبا ما تتباهى بالكمية الكبيرة من المال التي يجنيها والدها من عمله، أما أخوها بودي فكان يميل للحديث عن السيارات التي يملكها والده وكيف يسوقها ببراعة. بَيد أننا لم نره ولو مرة واحدة يقوم بذلك. كان بودي شخصا فظا على نحو لا يطاق فكان يثير اشمئزاز الجميع. ذات يوم بينما كنت منهمكا في سحب الثلج المتساقط عن ممر الراجلين توجه بودي نحوي وبدأ يعدد الأشياء الخبيثة التي يمكنه أن ينزلها بي إذا ما شاء. حينما أنهيت عملي دخلت إلى المنزل وعبرت لجدتي عن مشاعري إزاء بودي.

أخبرتني جدتي: "سأمنحك دولارا إذا خرجت الآن وأشبعته ضربا."

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان جوابـــي الفوري: "لا أستطيع. إنه يكبرني سنا. أضيفي إلى ذلك أنني لا أعرف كيف أتشاجر."

"و لا هو. هيا أريد أن أرى شجاركما من هنا وسأعطيك دولارا."

كانت تجربتي في الشجار لا تتعدى المقالب الدفاعيـــة. لم أتشـــاجر مـــع أي شخص بشكل إرادي وخصوصا بنية الفوز؛ كانت المسألة لا تتعدى تجنب أكـــبر قدر من الخسائر. كانت جدتي تريد مني شيئا آخر، ولم أكن أعرف كيف ألبـــي رغبتها. غادرت المنـــزل. حينما رأيت بودي توجهت نحوه، ولما صـــرت علـــى مسافة قريبة منه قفزت في الهواء وطرحته أرضا. أخذنا نتدحرج على الثلج لمـــدة. فجأة صارت يداي تحيطان بعنقه. حينما تمكنت من خنقه دحرجته جانبا وجلست فوقه. بعد ذلك واصلت خنقه. كنت أخشى أنني إذا لم أواصل الضغط عليه بكـــل قوتي، فإنه سيكون قادرا على رميي. أخيرا حينما خبطـــت رأســـه علـــى الأرض وتركته لحاله لم يُبد حراكا. انتصبت واقفا ثم ذهبت إلى المنـــزل، يتعاورني شـــعور بالامتعاض والخجل. دون أن ألقي نظرة إلى جدتي قلت لها: "أعتقد أنه ربما يكون مريضا."

ردت: "لا تكن سخيفا. إنه على ما يرام." ثم سحبت الرداء جانبا حتى أتمكن من رؤية بودي وهو يتعثر على الثلج. عقب هذا الحادث لم نعد أنا وبودي نعـــير بعضنا البعض أي اهتمام.

خلال هذه الأثناء استأنفت دروسي الموسيقية. في نهاية صراع مرير ومطـــول مع أبـــي، استسلمت أمي لإرادته، فوصل إلى منـــزلنا بيانو بعثته جدتي من إلميريا. كانت تحتج: "إن مجرد رؤية هذا البيانو تصيبني بالغثيان." بالنسبة لأبـــــي، كـــان النادي الجديد الذي التحق به مؤخرا سببا في عجزه عن شراء بيانو جديد. بـــدا لي الأمر منصفا ذلك أنه بينما يمكنني التمرن على البيانو القديم، فهـــو في حاجـــة إلى النادي للحفاظ على لياقته. كان على صواب إلى حد ما، ذلك أن للبيـــانو نوتـــة جيدة ومن المحتمل جدا أن تكون الممارسة المنتظمة لرياضة الغولف هي التي حالت دون تعرضه لانهيار عصبـــي آخر. فقد كان يعاني من ضغط نفسي كبير إذ كـــان عليه أن يستمر في ممارسة طب الأسنان بعين واحدة وأن يتظاهر بأن نظره سليم لا تشوبه شائبة. فأن تساور الشكوك شخصا ما فمعناه أنه سيخسر لا محالة مهنتـــه.

وأسوأ ما في الأمر أنه كان يتوجس خيفة من أن تصاب عينه السليمة بغتة وأن يفقد رخصة السياقة. كانت أمي تقول: "أصاب بالهلع حينما أفكر فيما قد يقع إذا ما فقد والدك عينه الأخرى. علينا تحمل مزاجه. إنه يعاني من ضغط نفسي رهيب."

كان صديق أبي المقرب هو والتر بنجامين وقد تعرف إليه في حداثة سنه في ألميرا. ترك بنجامين زوجته وكان يعيش مع امرأة ساحرة الجمال تدعى مولي كان زوجها يرفض تطليقها لكنه كان مستعدا في المقابل أن يوفر لها السكن واللباس الفاخر شرط أن يستمتع بتناول العشاء معها مرة واحدة كل شهر. وجدت هذا التدبير مثيرا للغاية وخصوصا أن أمي كانت تجد نفسها مدعوة للدفاع عن وضعية مولي كلما كانت الأخيرة موضوع حديث بينها وبين صديقاتها أو بينها وبين جدتي. لم تكن جدتي تجد مبررا لتردد أبي على تلك "المرأة" مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع وبعد ذلك يهاتفنا ليخبرنا بأنه سيتأخر عن موعد العشاء. كانت جدتي تخبر أمي حينما كنا نجلس حول المائدة ننتظر قدومه:

"لقد نفد صبري. لا يمكنني تحمل هذا ليوم آخر." فتعترض أمي: "آه. ليس الأمر كما تتصورين." ثم تتابع: "يا إلهي! لا أبالي البتة. فكما تعلمين لا بد له من بعض الراحة." حينها تكتفي جدتي بإصدار صوت تعبيرا عن امتعاضها. بعد ذلك، تقول: "لا شك أنك التقطت رائحته وهو يدخل إلى المنزل. إنه يتضوع بعطرها." لمولي عشق غريب للعنبر إذ تنثره على الأثاث والضيوف. لذا فقد كان من المستحيل أن يغادر أي ضيف شقتها دون أن يعبق برائحته.

كان لدى بنجامين منزل على الشاطئ في نابيغ وقد كان هذا المنزل الوحيد من نوعه على امتداد أميال وأميال. أحيانا كنا نقضي أسبوعا هناك فنأخذ المركب ونذهب لاصطياد سرطان البحر بجزيرة بلوك. تكمن المتعة في هذه العملية في أننا قد نتمكن بين الفينة والأخرى من سحب صندوق من الويسكي أو الشمبانيا يكون الأصدقاء الذين يتوفرون على مراكب أكبر قد تركوه موثقا إلى العلامات العائمة بدل الأقفاص الخاصة بالسرطان. ثمة الكثير من المرح الصاخب بالنسبة للكبار في نابيغ؛ بالنسبة لي كانت هناك الطرقات الرملية عبر أحراش شجر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الخوخ والبلوط. لعل الإثارة الثاوية في اكتشاف أرض مجهولة كان كبيرا بما فيه الكفاية ليجعلني أغض الطرف عن أي شيء آخر.

خلال هذه المرحلة اشتريت كتاب أشعار ترجمه عن اللغة الصينية آرتر والي. لم أهتم قط بالشعر؛ في المدرسة أرغمت على حفظ بعض الأشعار لكل من براينت أو وايتير أو لونغفيلو[1] ولكنني سرعان ما كنت أنساها. غير أن مجموعة والي من الكريات الصغيرة توحي بوجود مجموعة كاملة من مقاصد أخرى يمكن للعملية الشعرية أن تقوم بها. أخذت أنظر إلى العالم المادي من حولي من منطلق تحديده في أقل عدد ممكن من الكلمات. هكذا يحدث أحيانا أن أتوقف في منتصف عملي المنزلي وأن أعالج مشكل البوق الذي تستدل به السفن على اليابسة والذي يمكن أن أسمع صوته ينداح على لونغ آيلاند ساوند أو الحفيف الذي تصدره أشجار الحور خارج نوافذي. حينما حافظت على تسجيل مذكراتي الخيالية وطبع الجريدة اليومية بت أعتبر نفسي وعيا مسجلا لا غير. كان عدم وجودي شرطا أساسيا لصلاحية العالم المبتكر. الآن وبواسطة التعريفات الشعرية كان الأمر يشبه كثيرا الآلية النفسية ذاتها وهي تمارس عملها. أستقبل الآخرين وأسجلهم، والآخرون هم أشخاص يحيون حيوات خاصة. حوالي سنتان بعد ذلك، وجدت طريقة تبعث أكثر على الرضا بحيث لا أوجد كذات ومع ذلك أكون في الآن ذاته قادرا على الاستمرار في العمل. كان كل هذا تمويما حيث يبدو العرض الكامل للأحداث كما أعيشه ابتكارا لمحطة إرسال ضخمة. كل ما أشاهده أو أسمعه يعاش في نفس الآن من طرف ملايين المشاهدين المأسورين، هم لا يرونني أو يعلمون حتى بوجودي لكنهم يرون عبر عيوني. مكنتني هذه الطريقة من مشاهدة بدل المشاركة في وجودي الخاص. (بعد ذلك بكثير قرأت كتابا لأندريه جيد وأدركت تماما إحساسه حينما يكتب في مذكراته: "يبدو لي دائما أنني بقدر ما أصور ذاتي بقدر ما أتضاءل. أقبل عن طيب خاطر أن لا يكون لي وجود محدد تحديدا كاملا إن كان الأشخاص الذين أخلقهم والذين أستمدهم من ذاتي لهم هم وجود محدد.")

(1) هنري ووردسورث لونغفيلو(1807–1882): شاعر وكاتب أمريكي يعد أول أمريكي يترجم الكوميديا الإلهية لدانتي إلى اللغة الانجليزية.

حينما كنت في الثانية عشر من عمري، جرت أحداث أخرجتني من شرنقة أوهامي. أولا كان علي أن أنتزع ورما في فكي الأسفل. استغرقت هذه العملية الدموية ساعتين كما استغرقت أيضا زمنا آخر للتعافي. بعد ذلك، ذات يوم بينما كنت أنا وأمي نقطع الشارع الخامس صدمتها حافلة من طابقين كان تهبط عبر شارع موراي هيل. وقعت الحادثة أمام متجر مايلرد. من هناك نقلت إلى مستشفى في الشارع الرابع والثلاثين ولمدة أسابيع عديدة كنت أقوم بزيارتها في المستشفى. في الصيف عدت إلى إكستر وأخذني الخال ادوارد في جولة حول الحرم الجامعي. لم تثر في نفسي إمكانية قضاء السنوات الأربع اللاحقة في مكان كهذا أي حماس. بدا لي أن الذهاب إلى المدرسة هناك سيكون بمثابة التواجد في كنيسة وأعربت لأمي عن إحساسي هذا مرات ومرات. لكنها لم تتعاطف معي: "حسنا ستذهب إلى إكستر." ثم تابعت: "أريد أن أبعدك قليلا عن المنزل." غير أنني لم أبرح مكاني. على نحو غير متوقع شن أبي حملة عنيفة على إكستر على أساس أن المدرسة عبارة عن معمل لإنتاج المتكبرين. قامت أمي بكل جهدها لكنها لم تستطع أن تزعزعه عن موقفه.

خلال إقامتي مع الخال إدوارد كتبت قصة طويلة بعنوان "إلى الجحيم" حيث يختفي الأشخاص فور تناولهم للكحول. إن مجرد تذوقهم للكحول يحولهم إلى كائنات من نار فيُرسلون مباشرة إلى الجحيم. وجد الخال إدوارد القصة ممتعة، لكنه في نفس الوقت سلمني رسائل إيمرسون[1] في طبعة من الجلد الأحمر الفاخر قائلا بأن سني الآن بات يسمح لي بقراءتها. عملت هذه المقاربة الإطرائية عملها فقرأت الرسائل بمتعة خلال الأشهر القادمة.

ذات يوم ونحن في الفصل، تناهى إلي صوت بعض البنات في الصفوف الخلفية وهن يتهامسن. قالت واحدة منهن للأخرى: "لا يمكنني القيام بذلك. علي الذهاب إلى حفل ختان." ثم سمعت ضحكاتهن. في تلك الليلة كان هناك ضيوف على العشاء. شكلت أضواء الشموع والورود الدمشقية والأواني الرهيفة إضافة إلى أواني الفضة السميكة العناصر الضرورية لطقس الضيافة. كان التقليد يقتضي أيضا أن

---

(1) رالف والدو إيمرسون (1803–1882)، أديب أمريكي اشتهر بأشعاره ونصوصه ومحاضراته. يعد رائدا للفلسفة الترنسندتالية في القرن التاسع عشر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أمتنع عن الكلام خلال طقوس الأكل إلا إذا وجه إلي الكلام مباشرة. لكن خلال منتصف الوجبة، اعتراني الفضول فجأة فاستدرتُ نحو أمي قائلا: "ما معنى الختان؟"

بصوت أجش يخلو من كل نبرة أجابت أمي كما لو كانت تقرأ الكلمات من جريدة: "سأخبرك لاحقا." وربما حتى تتجنب المزيد من الأسئلة، دعتني قبل تناول الفواكه إلى حجرة أخرى وقالت: "أردت أن أتعلم ما معنى الختان؟ حسنا حينما يولد طفل صغير، يأخذون قضيبه الصغير ويقطعون قطعة تكون عند نهايته."

أصبت بالصدمة. كانت الفكرة غير متوقعة ومرعبة. "و لكن لماذا؟"

"يعتقد بعض الناس بأن الأمور تكون أكثر طهارة على هذا النحو." هذا كل شيء. غير أن هذه المعطيات لم تبدد حيرتي فازداد ذهني انشغالا بها. أخيرا أخذت إبرة وأجريت التجربة على نفسي. لم يكن الألم حادا كما توقعت كما أن التجربة لم تكن بالأهمية التي كنت أعتقد. ومع ذلك فلم أقو على تصور كيف يمكن للشعوب المتحضرة أن تمارس هذا العمل الوحشي على أطفال لا حول لهم ولا قوة.

في المدرسة شرعت في كتابة المعلومات على شكل شفرة ابتكرتها بحيث إن التلاميذ الذين يتلصصون علي يفشلون في نقلها. كانت شفرة في غاية البساطة. بالنسبة لحرف صامت ما أضع الحرف الصامت الذي يليه، ونفس الشيء ينسحب على الحروف الصائتة. بعد مرور بضعة أشهر، صرت قادرا على أن أكتب شفرتي تقريبا بنفس السرعة التي أكتب بها لغتي الإنجليزية، سواء بسواء. بيد أن الصعوبة تتمثل في قراءتها بالاتجاه المعكوس، عملية أشد بطئا قياسا بعملية الكتابة. انتشرت الإشاعة بأنني أستعمل لغة غريبة لتدوين كل ملاحظاتي.

كان يتم إدارة المدرسة النموذجية لفائدة المئات من الأساتذة المتدربين الذين يحتلون الطوابق العليا للبناية. دأبوا، الخمسون منهم مرة واحدة، على احتلال القاعات، حاملين كراسيهم وكراسات ملاحظاتهم. بين الحين والآخر يقوم أستاذ متدرب بتدريس قسم في غياب الأستاذ الرسمي. كان هذا دائما علامة على تفشي التمرد والفوضى. أذكر أنني مرة خلال فورات الصخب ألقيت بموسى الحلاقة على أستاذة بالنيابة تسمى الآنسة آرونوف وأصبتها في ثديها. كما كان متوقعا أرسلتني إلى مكتب المسؤول حيث أخذت أنتظر لفترة من الزمن. حينما لم يأت ذهبت إلى المنزل. لحسن الحظ أنني لم أر الآنسة آرانوف مرة أخرى.

تعرض منزلنا الذي يوجد على شارع السطح للسرقة مرتين تلك السنة. حدثت السرقة الأولى حينما كنا خارج المنزل خلال عطلة نهاية الأسبوع. تأثرت للفوضى العارمة وكثرة الحركة حول المنزل حينما عدنا إلى المنزل لنجده مقلوبا رأسا على عقب. كانت كل سلاسلي الذهبية إضافة إلى ساعة كانت قد تركتها لي العمة أديلاييد قد اختفت. قضت أمي المساء كله تتأمل الحقيقة الغريبة وهي أن العديد من الأدراج التي كانت مليئة بأواني العشاء الفضية كانت مفتوحة لكن لا شيء منها كان مفقودا. كانت لا تني تقول: "الآن. لا شك أن شيئا ما أزعجهم! لكن ما هو هذا الشيء الذي جعلهم يفرون فزعا؟"

عقب هذا الحادث أذكر حلما ساورني ذات ليلة حيث كنت أقف في الطابق السفلي في حجرة الطعام أحدق عبر النوافذ. اتجهت صوب النافذة وسحبت جانبا الستائر الأولى، ثم الستائر الثانية فبدا لي أن إحدى النوافذ قد تعرضت للكسر وأنها كانت مفتوحة كما أن الإطار في الخارج هو الآخر منزوع ومفتوح. حدقت طويلا. تبدو الصورة بوضوح غير عادي وفي نفس الوقت ثمة إحساس غريب بأن الأمور ليست على ما يرام. (حدث ذلك في اللحظة التي يتوقف فيما الحلم عن أن يكون تجربة محايدة ويستحيل إلى كابوس.) استنتجت بأن شخصا ما لاحظ وجودي وأنا أكتشف النافذة المكسورة ومن الممكن جدا أنه كان يراقبني حتى وأنا أقف هناك. ثمة مخرجان للهروب: يسار الحجرة ثم بعد ذلك عبر باب حجرة كبير الخدم أو مباشرة إلى الأمام عبر الستائر الثقيلة ثم إلى البهو. غير أنني وأنا أنظر إلى الستائر رأيت جزءا من يد تتمايل بينها ثم تنطفئ الأنوار وثمة من يخنقني. وهكذا استيقظت.

في ساعة باكرة من الصباح التالي كنت في عجلة كبيرة من أمري لأتفقد واقع الطابق السفلي. لا تزال ذكرى الحلم ماثلة وصورة مزعجة كنت أسعى للتخلص منها عن طريق رؤية النافذة السليمة الفعلية وإطارها. بيد أن المشكلة هي أنني حينما سحبت الستائر ونظرت إلى النافذة كان الزجاج مهشما فعلا، وكان الإطار مكسرا، كما بدا لي ذلك في الحلم وتحديدا في نفس الأماكن. وقع علي ذلك كالصاعقة لأنني لا "أومن" بتلك الظواهر ومع ذلك فلا يمكنني أن أنكر حقيقة ما شاهدته في الحلم. وبعد فترة من التأمل انتابني شعور ولد لدي قشعريرة: ربما كنت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في الواقع في حجرة الطعام خلال الليل، أمشي وأنا نائم ووقفت هناك أحـدق في النافذة. في هذه الحالة، عندما التفتت فلا بد أنني كنت أنظر فعلا إلى يـد تمسـك بالرداء. ولكن بعد الاختناق والصراخ نهضت وكنت ممددا في فراشي أكاد أختنق وقلبـي يدق كما حدث خلال الكابوس. بطبيعة الحال، صعدت الرقيات مهرولا وأخبرت والدي بما جرى لكنهما كانا مشغولي البال بحقيقة ما جرى أكثـر مـن طريقة اكتشاف ذلك. بالنسبة لي كانت هذه التجربة أمرا مركبا هز مؤقتا اعتقادي الراسخ في عالم محفز منطقيا. كان الحل الوحيد هو تجاهل ذلك الشيء، وقد تمكنت من ذلك بنجاح إلى حد ما.

خلال هذه السنة تعلمت طريقة توالد الحيوانات الثديية. بدا الأمر طبيعيا تماما لكن السؤال التالي بقي عالقا: إذا كانت الأم هي التي تنجب الطفل، فلماذا يقـول الناس بأنه يشبه أباه؟ فكرت في الأمر مليا وقررت أن أسـأل أمـي إذ لا يوجـد شخص آخر يمكنني أن أسأله. لم يبدد جوابها لبس السؤال. فكما قالت، إنه سـر كبير يدعي بعض الناس فهمه، لكن ولا واحد منهم يدرك كنهه.

خلال هذه السنة أيضا أجريت حديثا مع أمي بقي عالقا في ذهـني. كانـت لديها ابنة عمة تدعى مارغري ذهبت في وقت ما إلى ألمانيا لدراسة فـن الأوبـرا. هناك قضت وقتا ممتعا وبقيت لثماني سنوات متصلة دون العودة إلى أمريكا. حينما عادت إلى منـزلها في بروفيدانيس صدمت والدها الذي كان شقيق جدي، قائلـة له: "لماذا لم تخبرني بأننا ننتمي إلى عائلة يهودية؟" فجر هذا فورا صخبا وفوضـى عمد كل أفراد العائلة على إذكائها، بما في ذلك أخت جدتي التي كانـت غاضـبة على وجه الخصوص وكانت تبكي وقد اتخذ نشيجها انجليزيـة متقطعـة: "ثمـاني سنوات هناك وهذا كل مالديها لتخبرنا به."

كانت أمي تسترجع شريط الذكريات: "نعم. قالت إنه اسم يهودي: فينفتـز أو شي ء من هذا القبيل."

"و لكن لماذا قالت ذلك؟"

لم أكن أعرف مارغري معرفة شخصية لكن مجرد قضائها لثماني سـنوات في برلين جعلها تحظى بأهمية خاصة بالنسبة لي. هزت أمي كتفيها علامة اللامبـالاة: "قالت مارغري الغريبة الأطوار: "لو أخبرتموني فقط بالحقيقة لما أعرت الأمـر أي

انتباه." أوه كانت الجدة فين فايسر غاضبة جدا: "الانتهازية الصغيرة! يهودية! ها!" لا زال صوهما يتردد في سمعي."

تساءلت: "لكن ذلك لم يكن صحيحا؟" دون أن أضيف: "أليس كذلك؟"

ضحكت أمي: "إذا كان الأمر كذلك فأنا لم أعلم به قط. كان جد جـــدك مثيرا للفتن والقلاقل. جاءَ إلى أمريكا سنة 1848 و لم يكن الدين ضمن اهتماماتـــه وكذلك الأمر بالنسبة لباقي الرجال في عائلة وين وايزر."

حان وقت تمارين التخرج. كنت على وشك مغادرة المدرسة النموذجيـــة في نهاية كانون الثاني 1924 حيث تم افتتاح مدرسة ثانوية جديدة في فلاشين وتقـــرر بالتالي إلحاقي بها. تضمن هذا قضاء ساعة ونصف الساعة يوميا وأنا أترنح في عربة ترولي قديمة. كان أبـــي يحذرني مرات ومرات من محاولة القراءة أو الكتابة أثنـــاء ركوبـــي لعربة الترامواي، غير أنني كنت أقوم بجزء مهم من الواجبات المنـــزلية في طريقي من وإلى فلاشين. كانت المدرسة الثانوية تستلزم جهدا أكبر قياسا بالمدرسة الإعدادية. دون حسرة هجرت أغلب وسائلي المبكرة لإقناع نفسي بأن العـــالم لا يوجد حقيقة هناك وفي المقابل وطنت نفسي على تعلم اللغة اللاتينية والجبر.

ذلك الشتاء تعرضت أمي التي لم تكن قوية البنيان قط إلى نكسة صحية على غير العادة. كانت لديها خادمة لكن أبـــي ارتأى بأنها تحتاج إلى مديرة منـــــزل تتحمل مسؤولية كل شيء حتى تصبح هي في حل من كل أمر. كانـــت مـــديرة المنــــزل هي فاني فولر، صديقة قديمة لجدتي من بلاوز فالز خـــلال التســـعينيات. خلال هذه الأثناء كانت هيتي كرين التي كانت آنذاك أغنى امـــرأة في الولايـــات المتحدة تقطن هناك أيضا في الشارع المقابل وبطبيعة الحال كانت تربطهـــا علاقـــة بجدتي وجدي. نشأت على حكاياتهم التي ترسم السلوك الغريب لهيت غرين. لقـــد قضت نحبها الآن. مرت سنوات كثيرة على ذلك وكانت لديها ابنة أصبحت فيما بعد تدعى سيلفيا أَستور ويلكس والتي من منـــزلها في كرينويك جاءت فاني. ذات يوم أحد خلال الظهيرة حلوا جميعا في سيارة رولس ضخمة. في المقدمـــة يجلـــس السائق وخادم وفي الخلف هناك امرأتان تمسكان بجوانب من صـــندوق عـــريض يحتوي على ملابس فاني. حينما جاءت السيدة ويلكس إلى المنــــزل أوضـــحت لأمي بأنه ما دام تقرر حمل الصندوق فقد ارتأت إرساله بالعربة بدل اللجـــوء إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الإرساليات لأن ذلك سيكلف القليل ثم ما دام أن العربة آتية فإنها انتهزت الفرصة وجاءت هي الأخرى. خلال مجريات حديثهما سألت أمي إذا ما كانت تـذهب بانتظام إلى الأوبرا. انفجرت أمي ضحكا: "بحق السماء. لا. سـيلفيا." فقالـت السيدة ويلكس بصرامة: "سيساعدك هذا كثيرا. وهكذا كانت تأخذ معها أمي إلى هذه اللقاءات ظهيرة كل ثلاثاء. كان أبـي ضد هذه الفكرة لأنه كان يعتبر هـذا النشاط مجهدا. (بعد مرور شهور، حينما غادرت فاني اتبعت السـيدة ويلكـس العملية ذاتها بخصوص الصندوق. حمله رجلان إلى الخارج ثم وضـعاه في الخلـف، وهكذا كانت تجلس هي إلى جانب منه بينما تجلس فاني إلى الجانب الآخر ثم غادر الجميع في السيارة.)

بعد ذلك بقليل اشترى خالي بول وخالي فريد باخرة وأخذا كل أفراد العائلة على متنها إلى فلوريدا. لم يقيما هناك طويلا قبل أن تنهار جدتي بداء السل. ذات مساء بينما كان كل من أمي وأبـي وفاني وأنا نلهو قليلا حمل مبعـوث البريـد التلغرام الأخير. فتحت أمي التلغرام وألقت بنظرة إليه ثم رمت به وسط اللعبـة إلى المكان المسيج بجدار من الأجر. سألت فاني: "هل ماتت؟"

لم تحر أمي جوابا. بدأت أقلب كل الأجرات على وجهها استعدادا لوضـعها في الدرج. صاح أبـي: "من الأفضل أن تعود إلى واجبك المنـزلي." غير أنـني لم أغادر الغرفة حتى أنهيت وضع أجزاء اللعبة جانبا.

في فصل علم الحياة اقترفت خطأ جسيما حينما سألت الأستاذ بكل صدق إذا ما كانت الاختلافات التي توجد بين الأنظمة التوالدية لدى الرجل والمرأة هي ذاتها التي توجد بين الفئران. اعتقدت الآنسة بأنني أحاول السخرية منها وقد شـاركها الاعتقاد ذاته بقية التلاميذ فضج الفصل بقهقهاتهم. صرخت في وجهـي: "هـذا يكفي." استنتجت بأن شكي كان في محله وأنني في طريقي نحو اكتشـاف السـر الأعظم.

إذن هناك فعلا اختلاف بين الرجال والنساء إضافة إلى الحقيقة الواضحة بـأن النساء يتوفرن على خصور ضخمة. مع اقتراب انتهاء شـهر حزيـران اجتـزت الامتحانات وانتهت الدورة. كنا نستعد للانتقال السـنوي إلى ماساشوسـيتس، وكان الجو حارا وخانقا. ذات مساء بعد غروب الشمس مباشـرة، قـررت أن

أنـــزل التل حيث توجد بعض الأكشاك الأقرب وأن أتناول شيئا بـــاردا في محـــل للمبردات يدعى روت. يوجد المحل في زاوية، وله باب متحرك يواجـــه الجهـــتين المتقابلتين من الشارع. حينما دفعت الباب حدث شيء لم يخطر لي على بال. لعل أفضل طريقة لوصفه هو القول بأن ما كان يربطني بجسدي انقطع مباشرة. كانـــت نافورة الصودة تنتصب أمامي غير أنني كنت عاجزا عن الوصول إليها. بدل ذلـــك انعطفت يمينا. قصدت الباب الآخر وخرجت إلى الشارع، بعد ذلك كان علي أن أنعطف مرة أخرى إلى اليمين وأن أدور حول الزاوية ثم مرة أخـــرى إلى البـــاب الأول. أعدت العملية فلمحت السيدة روث تنظر إلي باستغراب عندما غـــادرتُ المحل للمرة الثانية. لقد صرت سجين شيء لا يمكنني الانفكاك منه. حاولت جاهدا أن لا أدخل المحل مرة ثالثة غير أن جهودي ذهبت سدى واتجهت مباشـــرة نحـــو الباب وغادرت المحل. الآن اكتسبت التجربة كل صفات حلم مرعـــب. حينمـــا انعطفت يمينا باتجاه الباب الأول مرة أخرى رمقت سيارة زرقاء تنحدر عبر التـــل وتعرفت إليها. ركضت نحو السيارة وصعدت فورا إلى الداخل. كانت أمي وأبـــي قد قررا زيارة بعض الأصدقاء بشارع هيل داري، وحينما استفسرا عـــن أحـــوالي أخبرتهم بأنني أشعر بالتعب. أجابت أمي: "لن يستغرق ذلك الكثير من الوقت. لقد قضيتَ أسبوعا مرعبا وأنت تجري تلك الاختبارات في هذا القيظ."

كنت عاجزا عن الحديث عما حدث، ذلك أنني كنت على قناعة بأنه لـــولا الوصول غير المتوقع للسيارة في الوقت المناسب، لبقيت على هذه الحال. ومع أنه لم يكن من الممكن الكشف عن طبيعة ما أنقذتني منه السيارة، غير أنني كنت علـــى يقين بأن ذلك كان سيتضمن السير دون انقطاع كما لو في حلقة سيرك على طول الساعة. أفزعتني التجربة، وكنت أعتقد بأنني إذا ما أردت التعبير عنها بكلمـــات، فإن ذلك سيكون بشكل من الأشكال أكثر تهديدا وواقعية ومع ذلك لم أستطع أن أغض الطرف عنها.

عادت الخالة إمّا لزيارتنا. خلال هذه المناسبة بدت فعلا مريضة، مجرد هيكل عظمي ممدد في السرير يئن غالب الوقت. كان أنينها يتوالى ليل نهار، أسبوعا إثر أسبوع، وغالبا ما يتحول عويلها إلى صراخ يشبه نحيب تلك الكائنات الأسطورية في صعودها وهبوطها. كنت أحس بالخوف ذلك أن غرفتي تقع إلى جانب غرفتها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مما يجعلني أتابع كل هذه التفاصيل. أحيانا كانت تصرخ: "متى سيأتي؟" المرة تلو المرة ليس لأن هناك في الغرفة من سيجيب على سؤالها. كنت أعلم أن أبي وأمي كانا على خلاف حاد بشأن وجودها عندنا في المنزل. كان أبي يعترض على حضور الأطباء يوميا إلى المنزل. وأخيرا أدركت عن طريق التصنت بأنه كان أيضا يعترض على حقنها بهذا القدر من المورفين. استفسرت أمي حول الموضوع فأكدت لي ذلك إذ كان على الأطباء أن يتعاملوا معها على هذا النحو لأنه ما أن ينتهي مفعول تلك الجرعات حتى يصبح الألم في رأسها لا يطاق.

بعد أن يكون الطبيب الأول قد أتى وانصرف كل صباح كنت أبحث في سلة المهملات الموجودة في الحمام لأرى إذا ما كان قد ترك قارورة صغيرة تحمل ورقة تبدو رسمية وهي علامة على أن الزجاجة خاصة بالمورفين. وإذ كنت أعتقد بأن هذه القنينات ذات أهمية، فقد أخذت أحتفظ بها حتى لا يتم إتلافها.

خلال وجبة الغداء بالمدرسة كنت أجلس إلى جانب صبي يتحدث عن مدمني المخدرات. كان يزعم بأن الكوكايين مسحوق بينما المورفين عبارة عن مادة سائلة. ونظرا لأنني كنت أراقب تلك القوارير الصغيرة لاحظت بأن المورفين يمكن أن يكون أيضا على شكل أقراص وأخبرته بذلك. كان رده أنني مجنون ثم استغرب لمعرفتي أي شيء عن المخدرات. فأجبته: "سأبرهن لك على ذلك." في تلك الليلة ملأت إحدى القارورات بخليط من مادة بيكربونات الصودا ومسحوق النظافة ثم وضعتها إلى جانب كراسات المدرسة في محفظتي.

في اليوم الموالي، أخرجت القارورة وأعطيتها بزهو إلى الصبي الذي ارتاب في أمري في المرة السابقة. بطبيعة الحال لم تكن هناك أقراص غير أن المسحوق إضافة إلى العلامة بشكلها البارز فعلا فعلهما فاقتنع. فجأة تغيرت ملامحه وأخذ يخبرني بأنني قد أتعرض للاعتقال لوجود هذا الشيء في حوزتي. عقب ذلك جدال شد انتباه التلاميذ في الطاولات المجاورة، والنتيجة أن تلميذا أكبر سنا تقدم صوبنا وصادر قارورة المسحوق، ليخطو بعد ذلك بعزم خارج غرفة الغذاء. لم أكن قلقا ذلك أن الأمر برمته لا يعدو أن يكون مجرد خدعة. حوالي ساعة بعد ذلك تم استدعائي إلى حجرة المدير الذي لم ينظر بعين الرضا لهذه المغامرة. أخبرني: "نعلم

جيدا بأن المادة الموجودة في القارورة ليست مورفين. لقد قمنا بتحليلها. ما نـــود معرفته الآن هو مصدر القارورة؟"

أخبرته دون تردد: "عثرت عليها في المنـــزل. في سلة المهملات. فالطبيـــب يلقي بها هناك دائما."

بعد ذلك طلب مني رقم هاتف أبـــي. أعطيته هاتف العائلة عســـى ألا يقـــوم بالاتصال. غير أنه اتصل فعلا ووجد أمي على الخط. أكدت ما قلته سابقا غير أنه أراد أن يتحدث إلى أبـــي أيضا. أخبرته بأنه سيكون من العبث إزعاجه في مكتبه بخصوص موضوع تافه كهذا. في الواقع كانت تأمل أن لا يعلم أبـــي شيئا عن الموضوع، ذلك أن هذا سيجعله أكثر إصرارا على طرد الخالة إمّا من منـــزلنا. السبب الذي لم أعلمـــه إلا بعد مرور عدة سنوات، هو أن الخالة إمّا كانت تعالج من حالة إدمـــان وكانـــت الأعراض تشير فقط إلى تراجع المرض. كان يردد مرات ومرات مشيرا بـــذلك إلى أن الأمر برمته يبعث على التقزز: "المكان المناسب لها هو المستشفى."

تمكن المدير في الأخير من الاتصال بأبـــي بالهاتف. في تلك الليلـــة أخـــبرني أبـــي: "هل يمكنك أن تخبرني ما الذي يجري؟ يمكن الاعتماد عليك بالتأكيد للقيام بالشيء غير المناسب، أليس كذلك؟"

الآن وقد علم أبـــي بكل شيء، صرخت أمي منـــزعجة: "نعم ماذا دهاك؟ آخر شيء يمكن أن يصدر عنك."

بدا أبـــي على العموم منبسطا دون أن تشي ملامحه المنقبضة بذلك و لم أكـــن أعلم سبب ذلك. أخبر أمي بشكل فظ: "المسألة كلها مستحيلة. يمكنك أن تـــري ذلك." لكنها لم تكن قادرة على رؤية أي شيء، ذلك أن هذا أقل مـــا يمكـــن أن تقوم به إزاء أختها التي أخذت أحوالها تتحسن تدريجيا. ظلت الخالة إمّـــا عنـــدنا موسم الشتاء بكامله، إلى أن ازداد وزنها قليلا وباتت قادرة علـــى الحركـــة دون مساعدة أي شخص آخر. ومع ذلك فقد استمرت في التهام العديد من الســـجائر يوميا. لو أنهم فقط أخبروني بالحقيقة، بدل الكذب، أي أن المورفين كان هو الداء، لما اقترفت تلك الغلطة. لنفترض بأنه أتيح لي أن أحيا طفولتي مرة أخرى لكن وفق شروط أختارها بنفسي فإنني سأكتفي مرة أخرى بتسلسل الأحداث كمـــا هـــي، شريطة أن أحظى بثقة والدي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

4

إلى الآن ظلت الخالة ماري تقبع في الخلف، امرأة مهيبة المحيا وظريفة الطالع تملأ جنبات بيت فسيح وتلقبني أنا وأبـــي وأمي و"حِملاني". من الصعب تذكرها دون تذكر هولدن هول، المنـــزل القديم حيث كانت تعيش، والذي كان فوكس هولدن، جدها، قد شيده على ربوة. منذ الأطوار الأولى لطفولتي كنت أحـــب التنـــزه عبر غرف هذا المنـــزل العالية السقف، أتنقل من طابق إلى طابق حـــتى أصل إلى غرفة القلعة الغريبة التي تنبعث منها رائحة الشمس والغبار. ثمة أرائـــك على امتداد الجدران وتشكيلتان من الستائر السميكة في هذه الحجرة التي كانت تُعرف في الأيام الخوالي بحجرة التأمل. هنا تأتي الخالة ماري رفقة بعض الأصدقاء كل صباح لقضاء ساعة من التواصل الصامت. يكاد المنـــــزل لا يخلـــو مـــن أصدقائها، فهؤلاء كن يدمن حضورها وأحيانا يقعن نهب حالة انهيار إذا لم تكن في الجوار.

يبدو أن نظام الخالة ماري الخاص يتكون من مزيج من الروحانيـــة الهنديـــة والذرائعية. خلال فترة التأمل تقوم بين الفينة والأخرى بحرق مكعبات بخور تحمل حروف هـــ. ب. ب. وهي الحروف الأولى لاسم مدام هيلينا بتروفنا بلا فتسكي، مؤسسة التيوصوفية المعاصرة والتي سبق للخالة ماري أن تعرفت إليها. كمـــا أنهـــا تحتفظ لها بصورة في إطار فضي ضخم تضعه فوق مكتب الخزانة. تزعم خالتي بأن الدخان قد يتسبب في حالة هي شبيهة بالشطحات إذا ما لم يكن الأشخاص الذين يستنشقون الرائحة يركزون أساسا على نفس الفكرة أو أنهم لا يوجدون في وضع تماس مع بعضهم البعض. كما أنها كانت تمارس أحد أشكال الصـــوفية البوذيـــة مؤكدة أن تكرار بعض الكلمات بعينها مفيد روحانيا في حد ذاته.

أسس الدكتور هولدن البيت أساسا ليكون مركزا روحانيا في ولاية نيويورك الغربية. ما أن انتهت أشغال البيت حتى بدأت تنعقد جلسات ليليـــة في رحابـــه.

كانت الجدران ترجع صدى الطرق الخفيف وأزيز الأبواب. مـــرة عَثـــرتُ علـــى مجموعة من الكراسات في أحد المخازن في الطابق الثالث، وكانت تحتـــوي علـــى التسجيل الحرفي لهذه الجلسات. على ما يبدو كان أكثر أصوات الأرواح استجابة هو صوت الحاكم دي ويت كلينتون الذي كان يُستدعى بانتظام خلال اللقـــاءات المسائية وكان يتم استجوابه حول حفر وتسيير قناة إيري. كمـــا كـــان هنالـــك شخص آخر يتردد باستمرار ويشار إليه بالعجوز السيدة كرنســـي. كانـــت لهـــا مواقف تهم جميع القضايا ويبدو أن أجوبتها كانت تحظى برضا المستجوبين.

بعد وفاة الدكتور هولدن حلت الفلسفة الترنسندتالية محل الفلسفة الروحانية. قامت كريستينا هولدن، والدة الخالة ماري، بمحاولة جريئة لكنها فاشلة لاستقطاب العديد من رموز الفكر اللاهوتي إلى مركزها الترنسندتالي (لدي رسالة من الســـيد ويليام جيمس[1] يتأسف فيها عن عدم قدرته على المشاركة في حلقات المركز، ليس لأسباب فلسفية، ولكن لأن هذه المراكز تخلق، من منطلق تجربته الخاصة، الكثير من التأمل المجرد دون أن تساهم كثيرا في تحقيق أهداف فعلية.)

مرة أخرى تزوجت الخالة ماري غير أن زوجها وابنتها قضيا منذ مدة طويلة. لذا فهي تقطن في المنـــزل الكبير وحدها، وكانت أحيانا تقضي بعض الليالي دون وجود الخادمة معها. في مواسم الشتاء كانت تقيم في فلوريدا مهيئة مواضع التأمل الخاصة بموسم الصيف. عندما كنت في الرابعة عشر من عمري دعتني رفقـــة ابنـــة خالتي إليزابيث التي كانت في السابعة عشر من عمرها لقضـــاء بعـــض الأســـابيع بهولدن هول. سعدت بهذه الدعوة لأنني أحب المنـــزل والحياة الجميلة التي تدور في أرجائه وكذلك لأنني كنت أعز إليزابيث كثيرا لأنها كانت تكبرني سنا وتأخـــذني مأخذ الجد.

لم يكد يمضي على تواجدي بهولدن هول الكثير من الوقت حتى تنبهت بـــأن العمة ماري كانت غالبا ما تحدجني بنظرات غريبة أو بالأحرى مخيفة. أول الأمـــر حسبت أنها ربما علمت بخدعة المورفين لكنني أحجمت عن الفكرة وهكذا أخذت أوعز سلوكها إلى الطبائع الغريبة التي تنتج عن التقدم في العمر. ذات ليلة أخبرتني:

---

(1) ويليام جيمس (1842–1910): فيلسوف أمريكي همت كتاباته النـــزعة الذرائعية وعلم النفس العام وعلم النفس التربوي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

"يبدو التعب على محياك. لماذا لا تصعد إلى الأعلى وتخلد إلى النوم. سأتحدث أنا وإليزابيث قليلا في المكتبة."

آويت إلى الفراش عن مضض. بعد حوالي نصف ساعة قمت من فراشي وقد هيأت ذريعة سأدلي بها إذا ما انكشف أمري وفتحت الباب المؤدي إلى الردهة وكلي أمل أن أستمع ولو لشيء من الحديث السري الذي منعت من حضوره. كان المنزل يغرق في صمت لا تخدشه سوى الأصوات الباهتة والمكتومة التي كانت تنبعث من المكتبة. فجأة فتحت خالتي ماري الباب وسمعتها تقول بوضوح، كما لو أنها تعيد ما سبق أن قالته: "حسنا يمكنني القول بأن بول بالنسبة لي يحمل علامات صبي بدأ مشواره في الطريق الخطأ." أغلقتُ الباب بسرعة وعدت إلى سريري تتنازعني مشاعر الحيرة والغضب من أنني كنت موضوع حديثهم وأن الخالة ماري كانت تتحدث عني بذلك الشكل دون أن يكون هناك ما يدعو لذلك. هكذا أخذت أستعيد أحداث الأيام السابقة بتفصيل علّني أجد سببا لذلك، شيئا ما كنت قد قلته وكان عرضة لسوء تأويل مغرض. خلدت إلى النوم بينما لم أكف عن التساؤل عن السبب الذي حول الخالة ماري تحولا غامضا ضدي. في الغداة، خلال أول فرصة أتيحت لي، سحبت إليزابيث جانبا وسألتها: "ماذا تعني بالطريق الخطأ؟ الطريق إلى ماذا؟ ماذا تعتقد أنني أفعل؟ هل أسطو على الأبناك؟"

شرعت إليزابيث تتحدث بحذر: "آه إنها تعتقد بأن أصدقاءك من النوع الخطأ." ثم أردفت: "أنت تعلم ذلك النوع الذي يقبع في زوايا الشوارع ويصدر صفيرا كلما مرت النساء."

لم أكد أصدق ما تفوهت به للتو. صرخت بغضب: "لكن لماذا؟ أنا ليس لدي أي أصدقاء."

ابتسمت بحكمة: "أنت تعرف العائلة. تعرف كيف يتحدثون. إذا كان شخص ما مختلفا ولو قليلا عن تصورهم العادي فإن ذلك يستثير حافظتهم. بالنسبة لهم كل شيء هو كما كان عليه منذ ثلاثين أو أربعين سنة مضت. الخالة ماري رائعة. إنها أكثر تفهما من أي شخص آخر في العائلة. كل ما في الأمر أنها قلقة بشأنك."

هذا تحديدا ما قض مضجعي. لم يكن لها أي مبرر أو حق في القلق بشأني. مما يعني أن مشاعرها السلبية بخصوصي تتعلق بشيء غير ملموس، بمن كنت، بدل أن تتعلق بأي شيء قمت به. بدا لي هذا السلوك ضربا من المضايقة يصعب تحمله. في نفس الآن كان هذا يعني بأن تخوفاتها باتت متجذرة على نحو يحول دون أن تفضي بها إلى والدي. فأبي لا يطيق هذا الجانب الروحي من شخصيتها أما أمي ورغم أنها ستكون أكثر انفتاحا لتقبل ملاحظاتها فلم تُشجَّع أبدا للتعامل مع هذا الجانب. لم تكن العمة ماري ترضى تماما على أمي لأنها تضع المساحيق وتشرب النبيذ وتدخن. كل هذه الأشياء تعتبرها الخالة ماري غير ضرورية، عادات سيئة كل واحدة منها إساءة للجسد وكذا للوجود برمته.

قريبا من منزل الخالة ماري، يوجد منزل يعرف بلاساتا تمتلكه الأخوات الثلاث هوغلاند. كانت الآنسة آنّا رقيقة المشاعر بينما الآنسة جين تصنع نماذج خزفية أما الآنسة شو فقد كانت صعبة المراس وتقرأ أعمال شبينجلر. خلال مواسم الشتاء تقيم الأخوات في منزل عتيق مترامي الأطراف ببروكلين، مكان كان يتميز آنذاك بهدوئه الساجي وبكثرة حدائقه الهافة. منذ حوالي سن العاشرة، كان بإمكاني قضاء نهاية الأسبوع رفقتهم. كنت أستمتع بزيارة متحف بروكلين أو الذهاب إلى دار الفنون لحضور حفل موسيقي كما كنا دائما نتمكن من مشاهدة فيلم أو اثنين، الشيء الذي كان مهما بالنسبة لي ذلك أنني عادة ما أمنع من هذه المتعة باستثناء مشاهدة أفلام منتقاة جدا كفيلم نانوك الشمال أو آخر أفلام هارولد لويد.

ذات صيف حينما ذهبت لزيارة الأخوات هوغلاند بلاساتا وجدت امرأة أخرى هناك. كان كل ما يتعلق بها يشي باختلاف تام عن الأخوات سواء من حيث الشكل، أو الكلام، أو السلوك أو طريقة تفكيرها. كان شعرها وعيناها تنطقان سوادا فاحما. كما أن لها صوتا أجش يختلف كثيرا في نبراته عندما تتحدث وكانت تجلس في أريكة طويلة كأميرة وتدق الأرض بعصاها كلما كانت في حاجة إلى الخادمة. سرعان ما علمت أنها تنحدر من أصول هندية وأنها عادت للتو من كايب تاون. من خلال الصورة التي رُسمت لها تبدو امرأة في غاية الأهمية. غير أنني حينما أثرت اسمها ببيت (حافر الجواد)، بدا الأمر كما لو أنني استثرت عشا من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الزنابير. زفر جدي: "إنها امرأة ماجنة." ومن شتيت المعلومات التي كونتها الجدة بولز فان السيدة كراوتش "مغامرة لا أخلاقية" تشد على" خناق المسكينة شو." عزمت أن أتعرف إليها عن كثب وهذا بالرغم من علمي أن لديها ابنا وبنتا لا يكبرانني إلا بثلاث أو أربع سنوات. حينما حل الأخوان كان يسمح لهما بالتدخين واحتساء الكحول والسهر كما يطيب لهما مما جعلهما يحظيان بتقديري. لعل درجة الحرية الغير الاعتيادية التي كانت ممنوحة لهما هي التي جعلتهما يحتملان وجودي أكثر مما لو كان الأمر خلاف ذلك.

كنت مشغولا بكتابة مجموعة من قصص الجرائم تحمل عنوان "سلسلة المرأة الثعبان." تضم كل قصة من هذه القصص حدث وفاة بالإمكان على نحو غير متوقع إرجاعه إلى أسباب طبيعية غير أنه على القارئ في كل حالة أن يجد تفسيرا للظهور الخاطف والغامض لامرأة تدعى فولكا ميرنا. مادامت الشخصيات الأخرى عاجزة عن تذكر ملامحها أو العمل الذي تقوم به في خضم هذه الأحداث فلم يثر وجودها أية ريبة كما أنه لم يتم التصريح جهرا بأن لها أي دور في الجرائم. لذا فإنه على القارئ أن يقرر في مصيرها. مرة أخرى كان لدي جمهور فكنت أقرأ "سلسلة المرأة الثعبان" للأخوات هوغلاند ولضيوفها خلال شهور الصيف.

لم تندلع العداوة علنا بين بيت (حافر الجواد) ولاساتا إلا مرة واحدة. دأب جدي بولز أن يتبث العلَم مع شروق الشمس ثم أن يسحبه مع الغروب، وهي عادة اكتسبها، كما تصف ذلك أمي، منذ أيام الحرب الأهلية. ينتصب للحظة بانتظام، يقدم التحية بصرامة وبعد ذلك يسحب العلم من أعلى العمود. ذات مساء، بينما كان جدي غارقا في طقسه اليومي مرت السيدة كراوتش وألقت عليه التحية. لا بد أنه كان منشغلا جدا لدرجة أنه لم يرد التحية أو ربما لم يسمعها. تسمرت في مكانها وأخذت تنظر إليه إلى أن أنهى طي العلم تحت ذراعه. ثم باحتقار شديد تلفظت بكلمة "إمبريالي." وواصلت السير. أخبرنا جدي بولز عن الحادث وقد طغت عليه مشاعر الاستغراب أكثر منها مشاعر الغضب. غير أن السيدة كراوتش أفضت لي بحنق لاحقا: "إن أشخاصا مثل جدك هم الذين جعلوا من العالم المكان المرعب الذي صار إليه اليوم." لم تكن لدي أية فكرة عما كانت تتحدث بشأنه فافترضت أنها تعني ببساطة بأن جدي قديم الطراز وهكذا ابتهجت لغضبها.

في الخريف قررت أن أنتقل إلى مدرسة جاميكا الثانوية بالرغم من الفصول المختنقة وقلة المقاعد وتعثر البرامج الدراسية حيث تبدأ الحصة الأولى على الساعة الثامنة صباحا. ناهيك عن أن ركوب عربة الترولي أرهقني كثيرا. حينما أخبرت أبي بما نويت فعله قال: "أعرف لماذا يريد أن يغير المدرسة. لأنهم هنا لم يدركوا بعد أي معتوه هو."

ربما يعود السبب الحقيقي في ذلك إلى الفوضى التي كانت تعم بناية المدرسة العتيقة أو فقط لشعوري بأنني تخطيت مرحلة الطفولة. غير أنني اكتشفت بأنني ولأول مرة في حياتي أصبحت أجد متعة في الذهاب إلى المدرسة وفي كل شيء ملازم لهذه التجربة الجديدة. اكتشفت أيضا أنه بإمكاني الرسوب في المواد الدراسية. كانت هذه حقيقة لم تخطر ببالي قط، وبالرغم من ذلك ها أنذا عاجز عن الحصول على معدل يؤهلني لاجتياز مادة الهندسة. كانت هذه المادة سيئة على نحو خاص ذلك أن المكان كان يفيض بالتلاميذ حيث كنا نجلس على حافة النوافذ ونفترش الأرض. حدث ذات مرة أن حملت معي نسخة من *الجماهير الجديدة* ومررتها على التلاميذ بينما كان الأستاذ منهمكا في تفسير نظرية رياضية. بعد انتهاء الفصل توجه صبي يدعى كولدبرغ نحوي وقال لي وهو يحملق في: "مالك *والجماهير الجديدة*؟" فكان ردي: "لماذا؟ ما المشكلة في ذلك؟" أخبرني: "إنها ليست لأمثالك." ثم انصرف. تركني ذلك عاجزا عن الكلام ولشهور كنت أستعيد المشهد: لماذا كان كولدبرغ يعتقد بأنني لست مؤهلا لقراءة *الجماهير الجديدة*؟

عينت رئيس تحرير عمود الفكاهة في المجلة المدرسية، موقع متواضع كنت آمل أن أنتقل منه إلى رئيس تحرير الركن المخصص للشعر غير أن طموحي لم يبلغ مرماه. قضيت معظم أوقات فراغي تلك السنة في محلات بيع الكتب، أنتقل من مكان إلى آخر باحثا عن أثمنة جيدة بالنسبة لكتب الإعارة المستعملة. اشتريت كل أعمال *آرتر ما شن*، كاتبي المفضل. وذات مساء ربيعي اشتريت أولى مجموعتي من كتب *أندري جيد*: طبعة كنوبف من كتاب *ماكر الفاتيكان*. (في طبعة أخرى تحمل الرواية عنوان "*مغامرات لافكاديو*". الله وحده يعلم لماذا) شأني شأن كل من كان في الخامسة عشر من عمره آنئذ أغواني الفعل المجاني للفكاديو. مازلت أفضل مغامرات الفاتيكان على جميع روايات جيِد الأخرى.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت الآنسة جين هوغلاند تتحدث كثيرا عما تلقيه بـ "الحياة البوهيمية" التي توجد فقط، كما تزعم، في قرية كرينويك. ضمن معارفها كان هناك رسامون وشعراء يعيشون هناك وكانت بين الحين والآخر تأخذني برفقتها إلى أحد المحترفات. بدا لي حرص الأشخاص الذين يشتغلون بالفنون والآداب على الظهور بمظهر يختلف عن المواطنين العاديين أمرا مقززا. كنت أعتقد بأنه على الفنان نظرا لأنه عدو المجتمع أن يتوارى عن الأنظار قدر المستطاع وأن لا يتميز عن باقي الخلق. في مكان قصي في ذهني كان هناك الاعتقاد بأن الفن والجريمة يرتبطان ارتباطا وثيقا، فكلما عظم الأدب كلما كانت العقوبة أقسى. ضمن الزيارات التي كنا نقوم بها أنا والآنسة جين إلى القرية لا زلت أذكر الزيارة التي قمنا بها لِبوكمنستر فولر لمشاهدة منزله المتفرد. كان المنزل صورة لمجسم متعدد السطوح لما وصفه بمنتوج الكازين. بطبيعة الحال لم يكن المنزل يلامس الأرض في أية زاوية من زواياه وكما أذكر يمكن تحريكه على محوره ليواجه الجهة التي يرغب فيها المرء. عدت إلى المنزل مفعما بالحماسة لفولر ولمنزله الرائع. (كان ذلك مشروعا جزئيا في سنة 1926)

بسخريته العادية قال أبي: "أنا على يقين بأنك توصلت إلى عبثية المشروع."

شرعت في الحديث: "حسنا ليس كما وصفه هو."

قالت أمي باندهاش: "أوه لن أعيش في منزل كهذا. منزل من الزجاج معلق إلى عمود والكل ينظر إلي. أعتقد أنني أفضل حقا العيش في مغارة."

"لكنه شرح كيف يمكن تنظيم الجدران. يمكن تعديل الضوء بحيث يتماوج ما بين المظلم والشفاف."

"لا أريد جدران شفافة على الإطلاق. شكرا لك."

وبنفس السخرية سأل أبي: "ماذا قلت اسم هذا العبقري." كان على يقين بأن الاسم سيكون من أصول غير أنجلو ساكسونية.

أخبرته باسم الرجل.

قالت أمي بتأمل: "فولر. هل سألته عن أصله؟"

فندَه أبي: "ماذا هنالك في الاسم؟"

لحظتها صرت أكثر وعيا بأنني كنت في حالة من التوتر العصبي. في الغالب كان قلبي يدق وكان هناك طنين يصم أذني. أصبح النوم معضلة بالنسبة لي حيث أبقى مستيقظا معظم الليل، أنصت إلى الساعة المنزلية وهي تعلن حلول الساعة ونصف الساعة. لا يمكن أن يثير اهتمامي أي شيء دون أن أنفعل وحينما يحصل ذلك ينبعث محرك صوت في رقبتي. يجعلني ذلك أشعر بأن أطرافي ترتعش، لكن لا بد أن يكون هذا الإحساس مجرد خيال لأن لا أحد أثار انتباهي إلى ذلك غير أن أبي غالبا ما كان يقول لي: "هدوءا أيها الشاب. هدوءا."

تتكون الدروس الموسيقية التي كنت أتلقاها في جانب منها من حضور الحفلات الموسيقية كل يوم سبت ببهو كارنيج. لم تكن هذه الحفلات لتكتمل لولا الأماكن الخاصة بالمعلقين والمصابيح، غير أن أي صوت يصدر عن الفرقة الموسيقية كان بالنسبة لي مصدر سعادة. وهذا بالرغم من أن الوجوم والكآبة التي تعتري فضاء العرض تتناقض تناقضا غريبا مع النغمات العظيمة التي تملأ جنباته. كانت البرامج تشتمل على أعمال من القرن التاسع عشر وأخرى معاصرة حيث عرضوا مرة "عصفور النار." لم أكن أتوقع أن تتمكن جوقة موسيقية من عزف مثل تلك الأنغام. انتابني حماس شديد وهكذا في طريقي إلى المنزل توقفت عند بائع للأسطوانات لأرى إذا ما كانت هذه المعزوفة موجودة على الشرائط. لحسن الحظ كان فكتور قد أصدر قرصين من حجم إثنتا عشر بوصا. اقتنيتهما واستمعت إليهما باستمرار ولكن بصوت خفيض جدا على الفونغراف المحمول الذي يوجد في غرفتي.

كانت البناية الجديدة للمدرسة الثانوية جاهزة في أيلول من العام 1926. بعد "حادث الحريق" غدت البناية الجديدة ذات المظهر المؤثر مصدر سعادة وغبطة. انتقلت إلى المرحلة السادسة أي إلى الفصل الثاني من السنة الثالثة. ومع أن حياتي غدت تميل نحو العلاقات الاجتماعية فإن التجربة لم تعد تحدث ذلك الأثر العميق في نفسي كما في السابق. عند هذه اللحظة بالذات تصبح الذاكرة أكثر اضطرابا وتداخلا. ومع أن الذاكرة لا تتوقف عن ممارسة نشاطها فقد أصبحت منشغلا بشؤون الحياة. كانت العلاقات مع الناس على الأفضل غير مثينة؛ فحضورهم يحول دون الوعي بمشكل الوجود ومنحه الشكل اللائق.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خلال هذه الأثناء أخذت مجلة النيو يوركر في الصدور؛ كنت أقتنيها كل أسبوع في طريقي إلى موعدي مع طبيب تقويم الأسنان. في البداية كانت تحمل رسومات بالألوان في الوسط من إعداد كلوياز ويللامر ورالف بارتون وري إيرغين وبيتر أرنو. بعد حين توقفت عن الصدور بهذا الشكل لتتخذ المجلة شكلها الحالي، رغم أنها بدت إلى حد ما أكثر مرونة. في ربيع 1927 نشرت مجلة النيويوركر ضمن مواد "رسالة من باريس" نبأ تأسيس مجلة عالمية جديدة تدعى "عبور". كنت أبحث عنها في محلات صغيرة لبيع الكتب في الشارع السادس وأجدها هناك. كان الأثر العميق الذي خلفته هذه المجلة لا نظير له بغض النظر عن الحملة المباشرة على السريالية، الحركة التي لم أكن أدري شيئا عن وجودها. كنت أحب شكل المجلة، والألوان الصامتة الغريبة للورق الناعم الذي يغطي الغلاف، والصفحات التي تفصلها عن بعضها البعض بواسطة سكين للورق. على أي كلما اقتنيت أي عدد جديد كل شهر كنت أتخيل نفسي في باريس، ذلك أن الإحساس بالمدينة الذي كونته من خلال قراءتي لصفحاتها يصادف فكرتي الخاصة عما يجب أن تكون عليه باريس حيث الناس متذمرون لكنهم متأنقون، لا مبالون لكنهم مخلصون بجنون للأفكار. كانت باريس مركز كل الوجود: كنت أستشعر ألقها حينما أتوجه شرقا كما يستشعر المسلم النور المنبعث من مكة. وكنت أعلم أن يوما ما، بقليل من الحظ، سأولي وجهي شطرها وأقف على عتبات الأماكن المقدسة.

تم انتخابي رئيسا للجمعية الأدبية المدرسية التي تلتئم مساء كل جمعة. بعد أن حصلت أخيرا على منصب المحرر الشعري للمجلة المدرسية صار بإمكاني أن أستعمل مكتبها الصغير لساعات معدودات كل يوم. هناك أجلس أمام الآلة الكاتبة أمرن نفسي على ابتكار شعر "حر." في النهاية بت قادرا على طبع صفحة كاملة حرفيا دون أن أكون على وعي بما ابتدعته. قمت بإرسال هذه القصائد إلى مجلة "عبور" على العنوان 40 زنقة فابير، باريس، وأنا على يقين بأن لاشيء في طريقة تقديم المخطوطات سيشي بالحقيقة المعيبة وهي أنني لا أعدو أن أكون طالبا في المرحلة الثانوية. لم تكن المادة وحدها خارج سيطرتي، بل إنني كنت عاجزا على الحكم على قيمتها الإبداعية. غير أن ذلك لم يكن ذا شأن. ما كان يعنيني في المقام

الأول هو ألا يفطن الشخص الذي تقع عيناه على هذه القصائد بأنني في السادسة عشر من عمري.

بين الحين والحين كنت أتناول وجبة الغداء مع آني كارول مور، (لا شيء تغير بشأنها سوى أنها غيرت اسمها الشخصي ليصبح آن.) كلما توقفت عند مكتبها لأسأل عن أحوالها تناولني كما العادة كتابا. لها يعود الفضل في معرفتي أول الأمر بجامعة فيرجينيا. بشكل من الأشكال استطاعت أن تنقل إلي حماسها ومباشرة أخذت أبعث بالرسالة تلو الرسالة للتزود بالمعلومات. لقد بات أمرا محسوما بأنني سألتحق بفيرجينيا غير أن الوقت الفاصل بين التخرج من المدرسة الثانوية في كانون الثاني والالتحاق بالكلية في شهر أيلول القادم ظل مشكلا عالقا. كان من غير المعقول أن أبقى هكذا دون القيام بأي شيء.

بعد أن قمت برسم بعض اللوحات، أخذتها إلى منزل الأخوات هوغلاند في بروكلين. هناك، كخطوة تشجيعية طلب شخصان أو ثلاثة شراء لوحاتي. لم أكن فقط سعيدا بالمال، لكنني رأيت في ذلك عاملا إيجابيا يمكنني استثماره في حملتي للتسجيل في مدرسة للفنون بعد التخرج. سأل أبي بامتعاض: "تريد أن تصبح هاويا تماما؟" فأخبرته: "لن يدوم الأمر أكثر من أربعة شهور."

أحسبُ الآن أن أبي ظن بأنني سأنغمس في العمل على الرسم إلى الحد الذي سأتخلى فيه عن رغبتي في الالتحاق بالكلية، وفي هذه الحالة سيكون سعيدا. لم يكن متحفزا لذهابي إلى فيرجينيا أو إلى أي مكان آخر، كما أنه لم يكن لدي أي هدف يستوجب الحصول على شهادة وكان يراوده إحساس بأن أي مال يصرف على دراستي هو مضيعة تامة. يمكن اعتبار مدرسة الفنون تدريبا ممكنا لوظيفة من نوع ما. لشهور متتالية قبل التخرج كنت أعاين مدارس الفن في مانهاتن. أغلبها كان باهتا وكئيبا. كما أن عصبة طلبة الفنون بواجهتها التي تبدو رسمية بعثت الرعب في نفسي. وقع اختياري على مدرسة صغيرة توجد تحديدا في الطابق العلوي لبناية من الطوب، بناية عتيقة ومنهارة منذ مدة في الشارع 212 جنوب الحديقة الرئيسة. لم يكن عدد الطلبة في المجموع يتجاوز إثنا عشر طالبا، حيث كان سبعة منهم يشتغلون في الحجرة الأمامية وخمسة في الخلف. كانت نوافذ الحجرة الواسعة تطل على أشجار الحديقة. هكذا بالرغم من السلالم الكثيرة التي تصدر طنينا متواصلا أعجبت بالمكان الجديد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان إعلاني عن قراري في المنزل مصدر سخرية. سأل أبي وهو يصيخ السمع بشكل مسرحي ويمسك وجهه بين يديه: "مدرسة ماذا؟"

"مدرسة التشكيل والفنون الجميلة."

"إنهم يخترعون التعابير الأكثر سوءا."

أعلنت أمي: "بالطبع فإنهم لم يعودوا يهتمون بتدريس الأساسيات. إن كل ما يدرسونه الآن هو التعبيرية."

سأل أبي فورا بصلافة: "هلاَّ أخبرتني عن معنى فن جميل؟" ومادمت لم أحر جوابا، فقد ابتسم بظفر. ومع ذلك فقد قمت بإجراءات التسجيل وأديت الواجبات مسبقا حتى لا تقع تعقيدات حينما يحين الأوان.

جرت تمارين التخرج دون أن تترك في نفسي على ما يبدو أي أثر فباتت نسيا منسيا. هكذا كنت كل صباح أعبر الطريق المؤدي إلى مدرسة التشكيل والفنون الجميلة حيث آخذ مكاني إلى جانب الطلبة الآخرين وأتعلم مبادئ رسم أشكال عبثية كالأكواز وحاويات الورق الدائرية، وقِرب مشكلة من الصلصال. غير أننا شرعنا مباشرة بعد ذلك برسم القوالب الجبصية ثم انتقلنا إلى رسم النماذج البشرية. لم يسبق لي أن رأيت جسدا بشريا عاريا، سواء تعلق الأمر بجسد رجل أو امرأة. وبعد الأسابيع القليلة الأولى من معاينة الظاهرة عن كثب عافت نفسي مشاهدة أي جسد آخر. لم يخطر ببالي بأن الكائنات البشرية يمكن أن تكون على هذه الصورة البشعة: فالنساء يحملن من اللحم ثلاث أضعاف ما يحمله الرجال الذين يكسو الشعر أجسادهم. سألت الآنسة وير، مديرة المدرسة، عن السبب وراء استعمالنا للكثير من الورق في رسم أشخاص عراة؛ فكان أن استغرابها خالطه شعور بالاستنكار لفقداني الحساسية. أعلنت: "الجسد الإنساني هو منتهى الظواهر الجمالية." بدا لي الأمر مجرد عُرف، شيئا اعتباطيا تماما، إذ يمكننا وبكل بساطة أن نقول الأمر ذاته بالنسبة للأشكال الدائرية أو الأشجار. فألمحت إلى أن قطة أو حصانا قويا هو كائن يفوق الكائن البشري جمالا. غير أنها لم تقتنع البتة بفكرتي. لاحقا في الفصل حينما وصلنا إلى رسم الأشكال بالصباغة كنت أستعمل اللون الأزرق دون غيره للحم البشري. لم يحظَ ذلك بإعجاب أي أحد، بما في ذلك النماذج الذين كانوا خلال فترات الاستراحة يتجولون حول الغرفة وهم لا يزالون

عراة وتنبعث منهم رائحة العرق ليلقوا نظرة على ما أنجزناه. أصاب الحنق امــرأة بعينها حين شاهدت نفسها تشع في أزرق مشع، منتفخة كجثة. منذ ذلك الحــين تكوّن لديها شعور عنيف بالكراهية نحوي. غير أننا لحسن الحظ كنا نغير النمــاذج كل أسبوع.

ذات ظهيرة عدت إلى المنــزل لأجد في انتظاري رزمة صغيرة كانــت قــد وصلت للتو من باريس. لم تكن سوى نسخة من مجلة عبور العدد 12 مع اسمــي ضمن لائحة المشاركين على الغلاف. لشدّ ما تخيلت الحدث مرات ومرات حتى أن الواقع كان تقريبا شيئا شبيها بما تخيلته. قفزت في الهواء وقفزت وقفزت، وكنــت بين هذه الحركة وتلك أصدر أصوات الانتصار. لم يكن أي أحد غيري في المنــزل لينتبه إلى هذا السلوك الغريب لكن من الراجح جدا أن أكون قد قمت فعلا بهــذا السلوك. بعد ذلك أخذت سكين وورق من المكتب المحــاذي. جلســت بهــدوء وأخذت أقطع الصفحات، الصفحة تلو الصفحة، إلى أن وصلت إلى مساهمتي الــتي كانت مرتسمة هناك في الوسط: محاولة سريالية طويلة تحمل عنوان: "أغنية القمة." إضافة إلى ملاحظة في الداخل تعلمني فيها أوجين جولاس بأنهم سيصــدرون لي في العدد التالي قطعة نثرية معنونة بـــ "وجود."

رفرف قلبــي من الفرحة والسعادة لدرجة أنني لا أذكر أي شيء آخر عــن ربيع 1928.

لشهور متلاحقة، كان يكفي أن أستعيد هذا الحظ الكبير لكي يغمرني فــيض آني بالنشوة. الآن كلما قمت بإرسال قصائد شعرية إلى جهة مــا أقــوم بإضــافة تعريف خاص بــي، مع التنصيص على انتسابــي إلى شجرة عُبور. لم يسبق لي في أية لحظة من اللحظات أن ساءلت نفسي إن كان لما أقولــه أي مغــزى بالنســبة لشخص آخر. كانت تنتابني الرغبة في فرض شخصيتي بكل الأساليب المتاحــة و لم يكن يجول في خاطري أي شيء آخر.

في الغرفة الخلفية حيث يتم تدريس تشكيل وتصميم الأزياء كانت هنالك فتاة انجليزية كنت أعتبرها جميلة جمالا لا يضاهى. منذ أن ذهبت إلى المدرسة أول مــرة كانت هناك دوما فتاة أختارها ويمكن أن أُجلها عن مسافة، والمسافة هــي أصــلا ذاتية، دون أن أسعى إلى الاقتراب منها. غالبا ما كانت الفتاة توجــد مباشــرة في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الطاولة المقابلة أو عبر الممر الفاصل بين المقاعد. مارغريت جيل، ايفلين لان، إدنا كريس، فرجينيا أندوز والقائمة تطول: كنَّ جميعا في غاية الجمال وبالتالي لا يمكن الاقتراب منهن. كنت في السابعة عشر من عمري و لم يسبق لي أن واعدت فتاة. الفتيات اللواتي كنت أرغب في مواعدهن حينما كنت في المدرسة الثانوية لم يكن مسموحا لهن بذلك أما الأخريات فلم يكن يثرن إعجابي وبالتالي كن دون أهمية. غير أن الوضع اختلف الآن إذ صار لدي لأول مرة فتاة أدعوها للعشاء والتي كانت إضافة إلى ذلك تسكن في حجرة خاصة بها في البلدة. بإمكاني أن أتردد عليها لهنيهة خلال المساء، غير أن أباها كان يقيم في غرفة في الطابق العلوي وكان غالبا ما يمر عليها قبل أن يأوي إلى الفراش. أما أنا فلا يمكنني أن أبقى إلى ساعة متأخرة من الليل. فبالرغم من كل الاحتياطات التي آخذها للتسلل خِلسة إلى المنزل فقد كان أبواي في الأخير يتنبهان إلى ذلك، فيتحققان من الساعة ويؤنباني في الصباح. على العموم كانت العودة إلى المنزل بعد الواحدة صباحا تتضمن فطورا سيئا في اليوم الموالي.

عند نهاية الفصل مُنحتُ جائزة على ما لقب "الإنتاج الأضخم والأصالة". بالنسبة لي كان ذلك يعني أنني عملت بسرعة وتعلمت ببطء. بدت لي هذه الإحالة كتتويج للقِلة المحظوظة، رغم أنهم خضعوا لعملية التعليم. ونظرا لأنني كنت أعتقد بأن الجائزة تم ابتكارها وأنا ماثل في الذهن كمتلقيها المحتمل فقد استفسرت المديرة فوجدت أنني كنت على حق. قالت: "كان علي أن أجد لك جائزة. يجب أن تحصل على جائزة غير أنه لا يمكنني أن أمنحها اعترافا بنوعية أعمالك."

لم يتبق على زمن الذهاب إلى مكتب مقتصد الجامعة سوى أربعة شهور، فبدا ذلك بالنسبة لأبي الفرصة المثالية لكي أحصل على بعض المدارك العملية. تحدث بخصوص ذلك إلى أحد زبنائه، مدير الوكالة البنكية المحلية لشركة مانهاتن، الذي وافق على استخدامي للعمل في شعبة الترانزيت. بدا الأمر عصيا على التصديق ذلك أن البنك كان راغبا في أداء راتب إلى أجل غير مسمى مقابل عمل لا يتطلب أي جهد، أي الضغط على أزرار آلة حسابية. كانت مهامي الأخرى تنحصر في حمل محفظة مليئة بالشيكات إلى البنك الرئيسي المتواجد في الشارع 40 من وول ستريت. يأتي هذا التغيير في رتابة العمل على حين غرة وكان دائما مرحبا به.

أجعل من هذه الرحلات تدوم لوقت طويل وذلك باستعمال القطارات العادية بدل قطارات الأنفاق وقطارات الخطوط المرتفعة وكذلك من خلال اللجوء إلى الطرق الأكثر دائرية. في تلك الأيام كانت القطارات شبه فارغة خلال أوقات الذروة. فبعد أن تكون شمس الصيف قد صبت شواظها في الشوارع تبدو السيارات باردة برودة منعشة وكانت الطريقة المثلى لاكتشاف نيويورك هو استقلال الخطوط المرتفعة، خصوصا تلك التي تخترق الشارعين الثاني والثالث، كلاهما يمنحان مناظر مؤثرة للضاحية السفلى لمانهاتن.

وحتى خلال الأيام التي لا أبرح فيها مكاني في البنك وأبقى حبيس جدران البنك تحت مروحة أُجزي الوقت بإضافة قوائم طويلة من الأرقام، حتى هذه الأيام كانت مصدر متعة وراحة ذلك أن العمل لا يتطلب أي جهد ذهني. كم كان ممتعا أن أجمع المال تلو المال لأصرفه لاحقا ما أن أغادر بمفردي إلى فرجينيا. لكن سرعان ما غاضت أماني حينما علمت أن أمي ستراففني إلى شارلوتفيل. عبثا حاولت الاعتراض على قرارها مؤكدا أن لا معنى أن تجهد نفسها للقيام برحلة طويلة حينما لا يكون ما يدعو لذلك.

قالت مبررة قرارها: "كان من الواجب أن يرافقك أبوك. غير أنه لن يفعل وبالتأكيد لن تذهب بمفردك لتتسكع هناك. أضف إلى ذلك أنه لم يسبق لي أن زرت تلك المدينة." اعتراني الوجوم وخيبة الأمل ذلك أن هذا بدا منافيا لتصوري عن كيفية وصول شاب في مقتبل العمر إلى الكلية. غاض قلبي في صدري لهذه البداية المتعثرة. غير أننا ما أن حللنا في شارلوت فيل حتى بات واضحا للعيان بأن أغلب طلبة السنة الأولى يمرون من التجربة ذاتها. كانت الفنادق تعج بالأمهات وأولادهن. خلال اليوم الأول تعرفت أمي إلى سيدة جنوبية، في فمها علكة ماغنوليا وشرعا في الحديث. خلال حديثهما تم تبادل الأسماء. سألت السيدة: "هل أنتم من فرجينيا؟"

أجابت أمي: "نحن من ما ساشوسيتس." انتظرت السيدة ما يكفي من الوقت لإزالة العلكة التي كانت عالقة في فمها وقالت: "حسنا."

تأملت أمي: "كل هذه السنين والأمور كما هي. ستعتقد بأنهم سيجدون خلال هذه المدة شيئا آخر ينشغلون به. غير أن هذا النوع من الأشياء هو ما ستجابهه هنا."

https://telegram.me/maktabatbaghdad

غير أن نبوءاتها تبدت في غير محلها. فلا أحد يهتم إذا ما كنت قادما من الشمال أو الجنوب. كل ما عليك القيام به هو أن تتعلم كيف تحيي الطلبة الآخرين بأن تقول: "صباح الخير" في الصباح أو" مساء الخيرِ" إذا كان الزمن بعد الظهيرة. وإذا كنت طالبا في السنة الأولى فعليك أن تعتمر قبعة. كانت هذه أقصى حدود الواجبات الاجتماعية.

يقطن أغلب الطلبة ويتناولون وجباتهم في منازل خاصة. مباشرة بعد وصولي لاحظت تزايدا مطردا في شهيتي واكتشفت مُتع الأكل لأول مرة. كان الانتظار المتحرق للوجبة التالية أمرا جديدا بالنسبة لي. كانت السيدة سوندر في شارع شانيلور حيث أتناول وجبات الطعام معروفة بتقديمها أفضل الأطباق. من المحتمل جدا أن يكون السبب في هذه التجربة هو مُتع الجوع وأفانين إرضائه غير أن العامل الأساسي يكمن فقط في غياب النقد الأبوي خلال وجبات الأكل. كنت أقطن في منزل لآل ماك كوردوس حيث يوجد إضافة لي خمسة طلبة آخرين: جينكينز، شابمان، كري، شاور وآندوز الذي كانت غرفته إلى جانب غرفتي. لشّد ما كان يكره أن أقفل غرفتي حينما أكون غارقا في دروسي وأن أُرغم على الرد على أسئلته من وراء الباب. هكذا كان يقوم بعرض ضخم قوامه الادعاء والافتراء بأنني أقضي وقتي في الاستمناء وراء الباب المقفول.

حينما يفيض الوقت عن حاجة الدراسة كنت أقوم بنزهات على الأقدام. خلال تلك الأيام كانت الضاحية الريفية حوالي شارلوتفيل ساحرة وجميلة. كانت حركة المرور في الشوارع قليلة كما أن التردي العام الذي انحدرت إليه معظم الأماكن الطبيعية الأمريكية لم يكن ملحوظا آنئذ. كنت أمشي على طول طرق معبدة وأخرى متربة وعلى امتداد خطوط السكك الحديدية. كما أنني طرقت كل الاتجاهات لأدرك بعد ذلك بأن الغرب يعد الأكثر إرضاء حيث تقطع الطريق في ذلك الاتجاه سلسلة من التلال الزرقاء. كانت الغابة هناك مصدر إغراء لي هكذا واصلت التردد عليها بينما كان يفترض أن أبقى في شارلوتفيل للدراسة. كان شيء من الإلمام بالطرق الخلفية للضاحية يعتبر أمرا ضروريا على أية حال، ذلك أنه على المرء استعمالها لبلوغ الأكواخ المظلمة والمتوارية حيث يمكن اقتناء المشروبات الكحولية. كل ما كان علينا القيام به هو حمل جِرار فارغة للحصول في المقابل

على أخرى جديدة مملوءة بويسكي لا لون له. وعند الوصول إلى المنزل ندلق الزيت إضافة إلى بعض ثمار الدراق الجافة وكيسا من الفحم. في الليلة الموالية يغدو الوسيكي طازجا دون أن يكسبه مزجه بالشراب المشكل من الأعشاب العطرة طعما جيدا ويكون في غاية الرداءة إذا تم مزجه بالكوكا أو بشراب الجعة. أفضل طريقة لتناوله هو احتساؤه كما هو دون مزجه بأي شيء آخر، وبسرعة وبكمية كبيرة. على هذا النحو لا يبلغ المذاق ذروته. لم أكن قد تناولت الكثير من الكحول في حياتي فبدت لي الفرصة سانحة للتعويض على ما فاتني.

ثمة تنويع آخر أدخله طلبة المدرسة الطبية: نشتري حُقا لسائل مخدر ونستنشق ما يوجد داخل كأس صغير خلال تناول المشروبات. لم تكن هذه الخطوة سوى تمهيد لاقتناء العديد من الحُقق وإغراق غطاء في محتوياتها. ذات ليلة علقت ذلك الغطاء في غرفتي فواجهت فورا اعتراضا كبيرا من كل الجهات. غزت رائحة السائل المخدر جنبات المنزل وأثارت انتباه الضيوف الذين كانوا يحضرون الحفلة التي كان يقيمها آل ماكموردوس في الطابق السفلي.

في فصل الفرنسية كان هناك طالب ينتعل سروالا لركوب الخيل وأحذية طويلة وكان يأتي بانتظام رفقة كلبه وبندقيته. يضع البندقية عند الباب ويقعى الكلب بهدوء تحت مكتب الأستاذ أبوط. قمت برحلات ميدانية رفقة طلبة فصل الجيولوجيا بحثا عن صخور تحتوي على البلز والحديد. بينما يتخلف بعض الطلبة إلى الوراء مسافة كافية لتناول جرعات من قنيناهم، كان الأستاذ روبرتس يسترسل في شرح تطور الكائن الفردي ضمن المسار العام للذين لم يستوعبوا ذلك في الفصل. كانت حصة الأستاذ برات، "تاريخ الموسيقى،" الفصل الوحيد الذي لا زلت أحتفظ تماما بمادته الواقعية.

التقيت أول مجموعة من المثقفين المغرورين وأدركت بأن شاغلهم الأساسي لا يكمن في الآداب ولا في الفن ولكن في الحديث عن هذه الأشياء. غير أنني تعلمت منهم الكثير. ذلك الخريف قرأت لأول مرة *الأرض اليباب*[1]، وسمعت لأول مرة عن *النشيد الجورجي وبروكوفيف*. ولأول مرة أيضا استمعت بمتعة لدوك إلينتون

(1) الأرض اليباب: قصيدة للشاعر توماس ستورنز إليوت نشرت في سنة 1922 وكانت منعطفا في الحركة الشعرية العالمية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وفريقه من نادي القطن. كما اقتنيت أولى شرائط البلـوز مـن مخـازن الأثـاث المستعمل في الحي الأسود من شارلوتفيل.

عدت إلى البيت بمناسبة حفلات أعياد الميلاد وقد كان فصل الشـتاء تلـك السنة يصدح بحديث الناس عن كلمات أغنية كول بورتر"لنقم بذلك." عشية رأس السنة كنت مريضا جدا من جراء احتساء الكثير من الجعة التي تم مزجها بمخـدر سائل. عدت إلى فرجينيا في اليوم الموالي في مزاج ثمل لم ينته بعد أن انتهت أسـبابه الفيزيولوجية. بعد أن شاهدت روائع نيويورك تغير شعوري نحو فرجينيا إلى حـد ما. كنت ميالا لمشاطرة رأي والدي ولو سرا بأن الجامعة ليست كلية ولكن مجـرد ناد قروي. صعَّد من حالة عدم الراحة المتواصلة حالة التهاب باطن الجفن فأودعت المستشفى حيث قضيت أسبوعا مخدرا ويداي موثقتان إلى السرير.

نظرا لمشاغلي الخارجية الكثيرة كنت أقضي وقتا أقل في الدراسة. لهذا حينما وجدت اسمي ضمن قائمة العميد عند نهاية الدورة الأولى شعرت بالدهشة. كانت هذه القائمة تضم أسماء الطلبة المتفوقين، مما يخول لهم حريـة حضـور الحصـص، والالتزام فقط باجتياز الاختبارات النهائية. بتُّ حرا في قضاء نهاية الأسبوع بـين الحين والآخر في ريشموند والقيام بتلك النـزهات الطويلة حيث أضطر لقضـاء الليلة في فندق في ستونتون أو واينسبورو. ذات مساء حينما ابتعدت عن الأمـاكن الآهلة في قمة التلال الزرقاء التجأت إلى كوخ منـزو. لم يسبق لأي فرد من أفراد العائلة أن ذهب إلى شارلوتفيل. قدموا لي الطعام وتركوني لأضطجع. وغداة اليوم التالي قدموا لي فطورا هائلا لم يسبق لي أن تناولت مثيلا له.

باستثناء المتحذلقين، كان الطلبة والأساتذة ذوو الحس الأدبـي ينظـرون إلى جيمس *براتش كابيل* بولاء مقدس. صدرت *الشباب* للتو وكانت تعتبر عملا مميزا. تصفحتها بعجالة في محل لبيع الكتب بالجامعة وقررت بأنها لا تناسب ذائقتي. بدل ذلك اقتنيت رواية *دْجونا بارنـز* الجديدة *رايدْر* ذلك لأنها كانت من بين المساهمين في مجلة عبور.

أطلقت شركة فكتور أولى فونغرافاتها التي تواصل العمل لمدة طويلة فاشتريت نموذجا كبيرا يلقي بالأسطوانات من جانب من الآلة إلى الجانب الآخر وكانت في الغالب الأعم تحدث خدوشا بالأسطوانات أو تقضم جزءا كبيرا منها. لم ينبـهني

البائع إلى هذا العطب في الآلة رغم أنني أثرت انتباهه إلى ذلك بعد الشراء. وحينما عرضت عليه مجموعتي المعطوبة قال لي: "إنها ليست بالجودة المطلوبة."

بعد ذلك عرفت ما أعتقد أنه تجربتي الاندفاعية الأولى (لم أربطها إلا بعد مرور سنوات كثيرة بترددي الكثير على محل الحلويات.) ذات مساء عدت إلى غرفتي عند حلول الغروب وفتحت الباب. أدركت للتو رغم أنني لم أكن أعلم إلى ما ستؤول إليه الأمور بأنني مقدم على عمل انفجاري لا رجعة فيه. لقد أحسست بأن هذا يعني بأنني لم أكن الشخص الذي كنت أعتقد أنني هو أو أن هناك شخصية أخرى تتحكم في أفعالي فجأة وتقرر مصيري. أغلقت الباب ورائي وانطلقت جريا إلى السرير حيث وقفت بينما يخدش وجيب قلبي سكون الحجرة. أخذت قطعة نقدية وأرسلتها إلى الأعلى. أخذت القطعة تدور وتدور في الهواء قبل أن تسقط في يدي. صرخت بارتياح ثم قفزت وقفزت قبل أن أترجل عن السرير. لو كانت جهة "الأذيال" لكان علي أن آخذ قنينة من الأنونال تلك الليلة وألا أترك أية رسالة. غير أن جهة "الرؤوس" تعني بأنني سأغادر إلى أوربا في أقرب الآجال. عدت إلى الشارع وتمشيت كثيرا و لم أعد إلى غرفتي إلا بعد أن أرسلت برقية إلى السيدة كروتش في نيويورك معلنا عن قراري وفي نفس الوقت طالبا منها أن تسدي لي معروفا. أردتها أن تساعدني للحصول على جواز السفر. كان اختياري لها كشخص يمكن أن أودعه أسراري نابعا من حس المؤامرة. كنت واعيا بأنها لن تفوت إطلاقا هذه الفرصة الرائعة لكي تصدم كل أعضاء العائلة مرة واحدة. وستحرص على مشاهدة اللكمة التي ستوجهها لهم على المستوى الرمزي خصوصا إذا كنتُ هناك لأجعلها تباشر هذه الملحمة في الاتجاه الصحيح.

حينما توصلت بموافقتها شرعت في القيام بالخطوات الأولى. وبما أن أثاث الغرفة لم يكن مناسبا فقد اقتنيت أثاثي الخاص، بما في ذلك سجادة فارسية. الآن بعت كل شيء باستثناء آلة الفونغراف والسرير الذي تركته جانبا حتى المساء الأخير. عزمت أن أترك أمر مغادرتي سرا تماما غير أنه في الليلة التي هممت فيها بالمغادرة أخبرت طالبا يدعى سيزار لويد حتى يساعدني لحمل حقائبي إلى المحطة في الثالثة صباحا. ونحن نحث الخطى على طول خط السكة الحديدية لمعت السماء وشق البرق وأصوات الرعد السكون. رأيت أن هذه العلامات تعد فألا حسنا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خصوصا أن سيزار أومأ إلى رمزيتها. ونظرا لكثرة الأماكن التي يمكنني أن أزورها إذا ما سمحت الفرصة بذلك فقد اتخذت هذه المغامرة طابع الرحلة. ارتديت سراويل وأحذية الصيد لاقتناص الفرصة.

قضيت ليلتي الأولى في نيويورك في فندق صغير عتيق يقع في الشارع التاسع. شكّل وجود البق في السرير أول لقاء لي بالحشرات في حياتي. أخبرت المدير بذلك فرفع منكبيه قائلا: "إذا لم تعجبك الغرفة فلك واسع النظر." كانت السيدة كروش والآنسة شو مسرورتين بمخططي للهرب. كانتا تعتقدان أن إفصاحي عن مظاهر الأصالة والعزم يعد أمرا رائعا. لطمأنتي كانتا تخبراني: "لقد قمت بالقرار الصائب. ستعتاد الحياة الجديدة هناك."

وهي تحرك رأسها يمنة ويسرة كانت السيدة كروتش تضيف: "ستكون صدمة قاسية لآل بولز."

كان أملي الوحيد أن أكون قد غادرت قبل أن تعلم الأسرة بما قمت به. أولا علي القيام برحلة إلى جاميكا والحصول على نسخة من شهادة الميلاد. أخذت السيدة كروتش هذه الصورة حينما ذهبت للحصول على جواز سفري. كانت هذه المرحلة من مراحل المغامرة تبدو حاسمة بالنسبة لي؛ دون شك فهي تتضمن الخداع. لذا فقد أحسست بأنها ستؤول إلى الفشل.

حالفني الحظ من حيث لا أدري. كانت واحدة منهن تكفي لإقناع السلطات غير أنهما أصرتا على الذهاب سوية. في تلك الليلة دعيتُ لتناول العشاء في شقتها. حينما وصلت أعلنت السيدة كروتش بأنني رجل حر. أخذت تقلب محتويات محفظتها وفي الأخير سحبت مظروفا. فقالت الآنسة شو: "لقد اضطررنا إلى الكذب."

أخبرت السيدة كروتش الدوائر الرسمية بأنها جاءت للحصول على جواز السفر لقريب لها يريد والداه أن يرسلاه إلى أوربا للدراسة غير أن مشاغلهما وعجزهما عن الحضور شخصيا إلى المكتب حال دون قيامهما بذلك. لم تكن هناك أية صعوبات على الإطلاق.

في اليوم الموالي ذهبت إلى الخطوط الهولندية الأمريكية واقتنيت تذكرة على متن الباخرة بنجدام، باخرة قديمة جدا ستقوم برحلتها الأخيرة عبر المحيط الأطلسي.

كلفتني التذكرة إلى بولون على البحر مائة وخمسة وعشرين دولارا و لم يتبق لـــدي سوى خمسين دولارا حتى موعد إبحار الباخرة في الأسبوع الموالي. قدمت الســـيدة كروتش مقترحا جديدا. ثمة شقة مفروشة فارغة في ساحة واشنطن تركتها ابنتـــها ماري التي تزوجت مؤخرا وذهبت إلى مدينة كانْ الفرنســـية. أعطـــتني المفتـــاح فانتقلت مباشرة إلى المنـــزل الذي كان ملكا لشخص يعمل لدى كوندي ناســـت وكان من بين الأماكن التي يغطي الحرير كل جنباته. كانت الشقة مريحة تنبعـــث منها رائحة جميلة وفراشها الوثير يشي بملمس طيب. بعد أن أقمت هناك لبضـــعة أيام وصل صاحب البيت وزوجته. حاولا الدخول إلى المنـــزل، غير أنني كنت قد أوصدت الباب بالسلسلة مما جعلهما في حالة هيجان. كانا يصرخان: "من هناك؟" حينما أذنت لهما بالدخول وشرحت لهما الوضع أكدا لي بأن الســـيدة كـــروتش جانبت الصواب مادام عقد استئجار الشقة لم يكن باسمها. وجدا مبررات لتفقـــد الحجرات، وكنت أتعقبهما قائلا بأن باخرتي ستنطلق خلال يوم أو يـــومين علـــى أبعد تقدير. أخيرا وافقا على تركي أقيم هناك. كان ذلك مناسبا بالنســـبة لي وإلا اضطررت إلى الانتقال إلى فندق. كانت النقود التي كانت بحوزتي تتضاءل يوما بعد يوم حتى بدون ضرورة صرف واجب الإيجار.

كنت آمل أن أتوصل ببعض المال من الســـيدتين النبيلـــتين خـــلال وقـــت الانطلاق. بدل ذلك أغرقتني السيدة كروتش بالكتب لتجزية الوقت خلال الرحلة البحرية إضافة إلى ثلاث رسائل إلى أصدقاء لها في باريس. لم تحضر أيـــة واحـــدة منهن لوداعي. غادرت باخرة ريجندام من هوبكن وكان الصـــباح واحـــدا مـــن صباحات آذار العاصفية. أثناء شق العبارة لمياه هودسون كنت أرقب المكان حولي بارتياب خشية أن يظهر والدي. كنت أظن بأنه لا يزال من الممكـــن أن يعلمـــا حقيقة ما عزمت القيام به وأن يحولا دون سفري.

حضرت لوسي روجرز التي كانت تصغرني بعامين أو ثلاثة لتوديعي. التقينـــا في العديد من المناسبات خلال العطل الصيفية في كيلونورا. تبنتها السيدة كروتش والآنسة شو بشكل غير رسمي وبعثا بها إلى فرنسا لمتابعة الدراسة لفترة من الـــزمن، لذا فإنها كانت تعرف السيدات الثلاث اللواتي كانت الرسائل موجهة إلـــيهن. في انتظار أن يغادر الضيوف السفينة جلسنا في القاعة القديمة بشكل لا يصدق نناقش

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أفضل السبل للاقتراب من الآنسة لا ينتش، والسيدة دانيلوي والسيدة كاسكي. لم يكن هناك سوى ثمانية مسافرين آخرين على متن الباخرة؛ أخذ رجل هولندي كبير يقتني المشروبات لكل الأشخاص وواصل ذلك إلى أن انطلقت الباخرة.

5

ضمن الكتب التي كنت أتوفر عليها في مقصورة الباخرة لا زلت أذكر كتابين اثنين. بعد أن قرأت رواية *المحتالون* لِـ *أندري جيد* منذ سنتين خلت، اتجهت نحو مكتبة برنتانو واقتنيت دفتر ملاحظاته الخاصة بالرواية: *مذكرات المحتالين*. أما الكتاب الثاني فقد كان واحدا من الكتب التي سلمتها لي السيدة كروتش، *المطرقة والمنجل*، وكان دفاعا مبكرا عن الاتحاد السوفياتي. كان الكتاب الأخير مصدر ملل وسأم.

دأب المسافرون على تناول طعامهم معا على طاولة طويلة يوجد على رأسها قبطان الباخرة. قُبالتي جلست امرأة فرنسية متواضعة الجمال كانت في طريقها لتضع مولودها الأول في منزل والدتها في باريس، وكانت المسافرة الأكثر متعة ضمن مجموع الركاب. وهكذا كنت أتحدث إليها على طول الرحلة. بينما لا تزال السفينة ترسو في المرفأ لمحتها على ظهر السفينة غارقة في دموعها وهي تقبل زوجها المرة تلو المرة. كان زوجها هو الكونت دوكونديلان وقد جاء بها من إقامته في جنوب المكسيك إلى نيويورك ليضعها على متن الباخرة بنجدام. تعلمت الكثير من اللهجة العامية الفرنسية بفضل كريستين خلال السفر الذي استغرق عشرة أيام. لم تكن تتكلم اللغة الانجليزية جيدا. غير أنها كانت مجبرة على استعمالها للحديث إلى الهولنديين على متن السفينة. حينما وصلنا إلى بولون بعد منتصف الليل، بدا البحر هائجا مصطخبا. للنزول من المركب استعملنا سُلما تدلى على جانب السفينة ليصل إلى زورق صغير. حينما كان أربعتنا في القارب المتمايل، صاحت كريستين صوب امرأة هولندية كانت تلوح بمنديلها: "لا تصنعي عقدا كبيرة." ونظرا لأنها أعادت الجملة الأخيرة مرات ومرات، فقد استفسرت عن قصدها. قالت موضحة: "لا تذرفي دموعا كثيرة. هل أحسنت التعبير على ذلك؟"

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بادرت بالتوضيح: "حسنا المقابل الفرنسي للكلمة هو الدموع لكن لا يجوز استعمالها كما فعلت..."

قالت بعد نفاد صبر: "الدموع، العقد، الآذان، العيون. هذا مستحيل!جميع الكلمات تتشابه."

في حجرة الفندق جلستُ لمدة طويلة أتملى المرفأ الموحش، محاولا أن أقنع نفسي بواقع الحال. لمست الستائر بأطراف أصابعي وقلت لنفسي: "إنها فرنسا. هذه فرنسا وأنا في فرنسا."

في اليوم التالي استقلت كريستين وأنا القطار المتجه إلى باريس. عند محطة سانت لا زار استقبلتنا أم كريستين الكونتيسة دولافيلات وأخوها الذي قدمته لي على أنه دوق دو سان سيمون. شأهم شأن كريستين، تدلت أنوف طويلة جدا على صفحات وجوههم. بدت الرحلة عبر التاكسي نحو شارع سان دومنيك بمثابة عبور نفق لا نهاية له. انبرى الثلاثة يتبادلون أطراف الحديث في نفس الوقت بينما كانت مزامير السيارة تزعق في الشارع فكان المشهد شبيها بأبواق كورشفنين في بداية فيلم *أمريكي في باريس*. كنت أستمع إلى أصواهم الصاخبة وقد بدا لي حينها أن المخرج قد قام بمحاكاة جيدة.

كان هنالك المزيد من الأخوان والأخوات وأبناء الأعمام والأخوال في المنزل لاستقبال كريستين، بما في ذلك طفل في الثامنة من عمره. حينما سئل الأخير خلال وجبة الغداء إذا ما كان هو الآخر يرغب في الذهاب إلى المكسيك ألقى نظرة جانبية تجاه أخته وأمال رأسه يمينا ويسارا علامة الرفض. بعد ذلك قال: "يغدو المرء بدينا هناك." بعدها شرع الحاضرون في إعادة الجملة بحبور وانتشاء كما لو كانت لازمة جميلة. يكمن سر السعادة التي خلفتها هذه الجملة في كونها قيلت بعفوية وسذاجة. لكن بينما لا يزال الجميع منخرطين في الضحك، نظرت إلى الصبي وأدركت من خلال تقاسيم وجهه بأنه واع تمام الوعي سبب الانتفاخ الحالي لأخته. شعرت بنيران الغيرة تلسع أحشائي وأنا أتأمل حظ هذا الصبي الذي يحيا بين أحضان عائلة يمكن خداعها بسهولة. بعد الغداء جلسنا جميعا في مقاعد صغيرة مذهبة نحتسي القهوة والمشروبات. أهداني الدوق دو سان سيمون سيجارا. كانت أعز أماني ألا يَفطن أي واحد منهم أنها المرة الأولى التي أدخن فيها سيجارا.

لم يتبق لدي سوى أربعة وعشرون دولارا. في المساء رافقني أحد إخوة كريستين عند السيدة كوبير التي تقبل إيواء المقيمين الأجانب. هناك في غرفتي بعد العشاء، سحبت رسائل السيدة كروتش وتصفحتها من جديد. كانت لوسي قد أخبرتني بأن السيدة دانيلوف امرأة مثيرة وسخية يمكن للمرء أن يتناول وجبات العشاء لديها من يوم لآخر. كانت السيدة لينش تمارس عملها لتقويم العظام في مكتب كبير بشارع السلام. أما السيدة كاسكي فهي ممثلة إيرلندية تعيش في الضاحية الشمالية. قررت أن مكتب تقويم العظام سيكون المحطة الأولى المناسبة للبحث عن عمل في الغد. بطبيعة الحال تبقى مسألة رخصة العمل عالقة ذلك أنه بالرغم من أنها وثيقة ضرورية فقد كانت مستعصية في حالتي ذلك أن إصدارها يستلزم، إذا تم منحها لي على أي حال، ثلاثة أشهر بينما كان علي أن أجد عملا فورا.

بمكتب الآنسة لينش تم توجيهي إلى السيد دولاباتوا، موظف الاستقبالات في مكتبها. دعاني إلى الغذاء وبعد ذلك إلى مكتب الهيرالد تريبيون بشارع اللوفر، حيث كان له بعض المعارف. في سنة 1929 كان لهذه الجريدة مكتبين بباريس، أحدهما المكتب الرئيس ويوجد بشارع الأوبرا. بعد استجواب سريع تم اخباري بأنني يمكن أن أستلم عملي كموظف هاتف. حينما سألتُ عن رخصة العمل، أجابني مستجوبي: "كشركة أمريكية لنا طرقنا للتحايل على ذلك."

صبيحة اليوم التالي شرعت في العمل. يشمل ذلك الوقوف إلى جانب فتاة أرمينية علي تعويضها عند نهاية الأسبوع ومراقبة اللوحة في حالة ظهور فراشة في مكان ما عليها. حينما تكون الفراشة بيضاء علي أن أضع خطا قبالتها. مقابل هذا العمل سأحصل على مئتي فرنك للأسبوع أو ثماني دولارات. دلتني الفتاة الأرمينية على بعض المطاعم التي تقدم وجبات رخيصة؛ كنا نتناول الطعام معا في منتصف النهار كل يوم ومرة أو مرتين في المساء. غير أنها كانت على وشك مغادرة باريس. حينما رحلت صارت اللوحة تحت تصرفي الكامل. جعلني العمل متوترا لأنه يتضمن أساسا الاستماع إلى أرقام تصل إلى أذني عبر جهاز سمعي مشوش وبعد ذلك علي إعادتها للمشغل المركزي. كان علي أن أبقى دائما متأهبا حتى لا أقترف خطأ ما. ولما كان ينتابني إحساس بأنني أتقن الفرنسية فقد صارت العملية مسألة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فخر شخصي. ترى ما الذي كان يدور في خِلد إليوت بول على سبيل المثـال في حالة إذا ما كان هو الذي يتحدث على الخط؟ ذلك أنه يعمل في الطابق العلوي في مكان ما في شعبة التحرير، يراجع المقالات ويحرر بشراكة مع آخرين مجلة عُبـور. كنت أشاهده بلحيته وعصاه يحث الخطى جيئة وذهابا عبر أبواب البناية. ذلك أنه على كل العاملين بالمجلة أن يمروا بحذاء قفص رجل الهاتف المتواجد عنـد مـدخل البهو. كنت أتخيل الطرق التي يمكنني أن أبتكرها للحديث إليه، بمجرد إخباره بـأنني موجود هناك. تبدت كل هذه الطرق غير عملية. ذات يوم بعد الغذاء انبثق علـى حين غرة من الشارع واتجه مباشرة إلى القفص. صاح بـي: "هيا قم إلى الخارج." كانت هنالك سيارة أجرة عند منعطف الطريق أمام المدخل وكان بابها مفتوحـا. أخبرني: "أنظر إلى الداخل." حينما نظرت إلى الداخل بدت مقاعد السيارة ملفعـة بجلد مغشوش من جلد ثعبان. سألني: "هل ترى ما أرى؟ لا عليك أخبرني فقط بما ترى."

"هل تقصد جلد الثعبان؟"

"آه."

علا الرضا محياه بعد أن أوصد باب السيارة وبإشارة من يده للسائق دخل إلى المكتب وصعد الرقيات، يتمايل قليلا في مشيته. كانت هذه الفرصة بداية متعثـرة للحديث إليه.

في يوم آخر قطعت الطريق كله إلى شارع فابير حيث يوجد مكتب عُبـور. صعدت الرقيات ووقفت هُنيهة خارج الباب. بعد قليل من التردد عـدلت عـن الفكرة حيث بدا لي بأنه سيكون من العبث الدخول إلى المكتب وتقديم نفسـي. حتما لن يعير أي واحد من الموجودين أي بال. بعد ذلك لم أقم بـأي محـاولات أخرى لمقابلة لجنة تحرير مجلة عُبور.

كانت السيدة دانيلوف تقيم فيما كان يعرف آنذاك بضاحية بولون على نهر السين. ذات مساء وعقِب تسلمي عملي في جريدة الهيرالد تريبيون قمت بزيارتها. عانقتني السيدة الروسية بحرارة وقد اتخذ شعرها شكل قبة على رأسها. كانت قـد توصلت منذ أيام برسالة من السيدة كروتش تخبرها فيها عن قدومي. بدت الشـقة فارغة اللهم من أثاث متواضع جدا تناثر هنا وهناك. في إحـدى الغـرف حيـث

تترامى في كل ركن من أركانها أكداس من الكتب جلس الجنرال دانيلوف، زوجها الذي نشر مؤخرا سيرة لحياة المارشال فوش في جزئين. لم يكن الجنرال كثير الكلام. ارتأت السيدة دانيلوف بأنه علي أن أتناول شيئا ما ذلك أنهما يقيمان لوحدهما وقد سبق أن تناولا عشاءهما منذ لحظات. غير أنها أعدت لي طبقا من البيض وسلاطة كلاهما له مذاق أفضل من كل ما تناولته في المطاعم المحددة الثمن التي كنت أتردد عليها.

عادة ما تعود القطة الضالة إلى المكان الذي أطعمت فيه أول مرة. بِتُّ أقوم بإغارات مسائية منتظمة على شقة دانيلوف. ومنذئذ كونت صداقات مع أشخاص روس ينتمون إلى النظام القديم وكنت أصغي إلى أحاديثهم وهم يوقعونها بلكنات شديدة النبرة. ونظرا لأن السيدة دانيلوف كانت امرأة تحب التظاهر فقد تمكنت من التفوق عليهم جميعا. كلما تحدثت باللغة الروسية يعلو صوتها فجأة ليبرز نبرات معينة في مفاصل كلامها. وقد كانت المحصلة عملا زخرفيا مسرحيا، غير أن الجنرال الذي عادة ما يكون مخاطبها الوحيد لا يبالي بهذا الاستعراض ونادرا ما ينتبه لوجودها.

ذات ليلة أخذت ثلاثة من الكتب التي كانت السيدة كروتش قد أهدتني إياها كهدية وداع إلى بولون. كانت قد أشارت بأنه علي حملها إلى آل دانيلوف إذا ما أنهيت قراءتها، فربما قد يرغبون في الاطلاع عليها. حينما لمحت السيدة دانيلوف كتاب *المطرقة والمنجل* صرخت ووضعت يدها على حنجرتها وأشاحت بوجهها للحظة. سألتْ: "لكن ماذا تفعل بهذا الكتاب؟ لا تقرأ هذه القذارة!" ثم أخذت تُصلي الاتحاد السوفياتي بنيران غضبها، منهية هجومها بنعته بحكومة الكلاب. بعد ذلك التقطت الكتاب وهي تبدي اشمئزازها الواضح وحملته خارج الغرفة. وجدته إلى جانب معطفي عند الباب عند مغادرتي. كان لدي الانطباع بأن السيدة كروتش كانت تتوقع هذا المشهد بقدر أكبر أو أقل كما حدث وكنت مندهشا لدهائها.

تراءت باريس سرورا متصلا إذ لم تحل بعد الحقبة حيث تحول حركة المرور المكتظة دون أريج الربيع المنبعث في الجو. فقد كان مجرد السير إلى العمل في الصباح متعة لا تضاهيها أي متعة أخرى. خلال بعض الليالي، كان الشعور بمجرد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وجودي هنا يثير عواطفي فيحرن النوم أمام عيني حتى أكون قد قطعت مسافات طويلة عبر المدينة، لنقل من ساحة دانفيرت روشيرو إلى ساحة كليشي. وبعد ذلك أعود إلى أي فندق أقيم فيه. في اليوم التالي أشعر بخدر لذيذ وبنشوة من يطفو بشكل غامض. كنتيجة لذلك يمر اليوم في القفص بسرعة أكبر بينما تتراءى أمامي إمكانية ليلة حافلة بالنوم العميق. لا يزال النوم معضلة بالنسبة لي. كنت أنتقل من فندق إلى آخر كل يومين أو ثلاثة ذلك أن حجرة الفندق التي يمكنني أن أتحمل نفقاتها كانت تعج دائما بالبق. حدث لي أن انخدعت بالمظهر الجميل لغرفة فاقترفت خطأ تأدية شهر مسبقا. في الليلة الأولى تسلق جيش من هذه الحشرات قوائم السرير وقام بغاراته. تقدمت بشكوى لدى صاحبة النزل التي وضعت قوائم السرير داخل حق من الغاز المضاد للحشرات. في تلك الليلة تجمعت الحشرات على الجدران، وانسحبت خائبة عبر السقف إلى أن صارت مباشرة فوق السرير وبعد ذلك وقعت رأسا فيه.

حينما أخبرت السيدة دانيلوف عن الصعوبات التي أمر بها تجاوزت حدود الانفعال كما هو العادة فزعقت: "بَق. ياللهول." مباشرة انخرطت في حملة لجعل أبواي يرسلان مبلغا منتظما من المال يمكنني أن أتدبر به أمور حياتي. اعترضت على مسعاها قائلا بأنهما لن يوافقا أبدا؛ كما أنه علي الاعتراف بأنهما لم يكونا إلى ذلك الحين على علم بمكان تواجدي فأنا لم أكاتبهم منذ أن كنت بشارلوتفيل. ملأتها هذه الأخبار بالحماس ذلك أنها لم تكن تعلم سر موقفي الذي أوعزته إلى الكبرياء. من جهتي، لم أكن أتوقع أبدا أن أرى عائلتي مجددا. لقد اتخذت قراري وهذا ما لن يغفرونه لي أبدا. حينما أخبرتها بمشاعري لم يثر فيها ذلك سوى الضحك. ثم أخبرتني: "أنت نحيف جدا ومتوتر." بعد ذلك أخذتني إلى طبيب روسي عجوز كان، كما أسرت لي، طبيبا عظيما في بتروغراد. تحدث إلي الطبيب وأجرى بعض الفحوصات ثم سألني: "هل تمارس العادة السرية؟" شعرت بالحرج لطرحه هذا السؤال لكنني بالرغم من ذاك أجبت:

"بين الحين والآخر."

"آه!" بدا الظفر على محياه. ثم واصل وعظه: "لكن ألن يكون من الأفضل لشاب في عمرك أن يذهب كل صباح إلى غابة بولون ويقوم ببعض الجري؟"

بدا لي عجوزا يخرف فوافقته الرأي. حينما التحقنا بالسيدة دانيلوف في حجرة الاستقبال تحدث إليها طويلا باللغة الروسية ثم أبدى علامات الارتياح. بعد ذلك دفعتُ ربع أجرتي الأسبوعية ثم غادرنا العيادة. خلال الأيام اللاحقة كانت تحذرني بانتظام: "و الآن لا ترتكب أية حماقات." بيد أن ارتياحها الظاهر لم يمنعها من التأكيد على ضرورة كتابة رسالة إلى أمي باللغة الانجليزية. بعد فترة وجيزة قرأت الرسالة. كتبت السيدة دانيلوف تخبر أمي بأنني بحاجة إلى الذهاب إلى مكان بعيد من أجل العلاج وبأن بعض الأسابيع من العناية ستجعلني على ما يرام.

لا بد أن أمي كانت مسرورة لعلمها بأنني على قيد الحياة وبمكان تواجدي؛ غير أن عدم استيعابها للاستعمال الفرنسي لكلمة علاج جعلها تفترض بأنني بِت بشكل من الأشكال أتعاطى المخدرات. تحدثت رسالتها عن قوة الإرادة وضرورة إدراك المرء بأنه يريد فعلا أن ينقطع عن هذه العادة. غير أنه وبشكل طبيعي لم تحمل الرسالة أية بشرى بشأن النقود. كنت أتوقع ذلك مسبقا. لم تستطع المسكينة السيدة دانيلوف أن تصدق بأنه يمكن لأي آباء أن لا يحركوا ساكنا أمام ورطة ابنهم الوحيد. لم تكن تدري شيئا عن عقلية نيو إنجلترا التي بموجبها على الإصلاحات أن ترافق التجاوزات. كما أن رسالة أمي الصارمة للسيدة دانيلوف التي وصلت في نفس اليوم للرسالة الأولى أصابتها بالدهشة. ومع ذلك فلم تيأس فكتبت رسالة أخرى لابنة السيدة كروتش ماري التي كانت توجد في لندن. ترتبت عن الخطوة الأخيرة نتائج إيجابية. فورا وصلت نقود تكفي لمغادرة جريدة الهيرالد تريبيون والبحث عن عمل أقل إجهادا. كتبت لماري معربا عن امتناني. تقريبا بالموازاة مع ذلك شعرت بدبيب إحساس يدب في جسدي معناه أنني لم أعد مقيدا بضرورة العمل للحصول على المال لتوفير الطعام أو السكن. أدركت للمرة الأولى في حياتي بأنني صرت حرا طليقا. كان إحساسا لذيذا يبعث الخدر غير أنني لم أستنزفه مرة واحدة. كنت كل يومين أقوم برحلة خارج باريس وأقطع أراضي توجد على مسافة أبعد من المرة السابقة. وفي الأخير اقتنيت ذات يوم تذكرة إلى شامونيكس وانطلقت في القطار لا أنتعل سوى أحذيتي الطويلة وسراويلي، دون أن أحمل معي أي شيء آخر. قضيت العشرة أيام التالية أتسلق الجبال وأنزلها وأتمشى بجوار بحيرة جنيف.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يبدو المنظر الطبيعي لجبال الألب شبيها بنافذة ضخمة لمعرض من الورود، ناهيك عن الزنابق الأرجوانية التي تعرش عند قدم الضفاف الثلجية بينما تنساب جداول الماء الصافي مسرعة عبر الضيعات. تتسع دوائر الصمت ولا يحد من اتساعها سوى الأصوات المنبعثة من السهول، وهي أصوات أجراس البقر والمعز والكنيسة. تعقبت الطريق السيار المركزي من شامونيكس، غير أنه خلال اليوم الأول من سيري على الطريق لم ألمح إلا سيارة واحدة. بمدينة أورسي، قضيت يوم الصعود أمام البيانو في القاعة الصغيرة لحانة أكتب قطعة موسيقية مخصصة للعزف على البيانو. تعد لوزان مدينة جميلة على عكس جنيف التي تشبه كثيرا المدن الأمريكية. عبرت الحدود عائدا إلى فرنسا عند أنيماس حيث سيتسبب لي نقاش مع أحد خَفَر الحدود حول علبة من السجائر السويسرية من فقداني للقطار. مرة أخرى انطلقت ماشيا. بعد يومين أو ثلاثة وجدت نفسي، مرة مشيا على الأقدام ومرة أخرى بواسطة قطار محلي هنا وآخر هناك بمنطقة الباص الألب. ارتسم الجو مثاليا وكنت أقطع المسافة مشيا من قرية إلى أخرى في حالة من نصف النشوة بسبب الطبيعة الريفية الساحرة. كانت تجاربي في حضن الطبيعة وعلى طول الطرق لا تتعدى المناظر غير المريحة نسبيا شرق الولايات المتحدة الأمريكية. لم يكن غريبا أن أصاب بالدهشة لما صادفته من مناظر في فرنسا وسويسرا.

تعني الإقامة في فندق ريفي أن يكون المرء تحت رحمة الطقس غير أنني أفدت الكثير من الوضع حيث أقوم بغسل قميصي الوحيد وسحبه حتى يجف. في البداية، كان علي أن أسحب المعلاق الذي يشد البطاقة الخاصة بالأثمنة وبقوانين الإقامة إلى خلفية الباب. كلما هاطل المطر، يبقى القميص مبتلا في الصباح الموالي. كان لدي معطف شتوي غير أنني لا أنطلق في رحلاتي أبدا حينما أظن بأن المطر سيتساقط.

وصلتُ مدينة نيس بالقطار ليلا. ومع أن الأضواء بدت لي متداخلة وكابية، والأشياء والأشكال غائمة عائمة فإن رائحة وطبيعة الهواء أخبرتني بأنني كنت في غمرة جو جديد. لم يسبق لي من قبل أن شاهدت النباتات ما تحت استوائية، هكذا فإن وجود أشجار النخيل والميموزا في الشوارع أغدق على المدينة جوا من اللذة لا يمكن للمرء أن يخطئه.

بقيت لأسبوع في المدينة أستيقظ كل صباح مع طلوع الفجر لأتمشى قليلا على طول البحر إلى جبل برورون، حيث ينهض مقهى صغير على حافة شلال مائي. هناك أتناول قهوتي وبعض الفطائر، وأجلس لمدة طويلة أقرأ وأكتب وأتملى ببساطة منظر الماء. قليلة هي العربات أو سيارات الترامواي التي تمر. في هذه الهدأة أقرأ وأكتب معظم رسائلي. ذات يوم توصلت برسالة مطولة من ماري تخبرني فيها بأنها ستلاقيني قريبا في باريس وتخبرني أن أتدبر كل ما لدي من نقود إلى ذلك الحين. اعتبرت هذا مؤشرا للعودة إلى باريس بسرعة والتفكير في العمل الذي يفترض في محاولة الحصول عليه.

كانت ماري، الجميلة والأنيقة جمالا وأناقة يستعصيان على التصديق، تجلس قبالتي في الغرفة في فندق لاترمواي وبسرعة أفرغت كل المال الذي يوجد في حقيبتها على الطاولة: "خذه بسرعة. سيكون جوك هنا في أية لحظة." فعلا قدم جوك. كان نحيفا وأكثر أريحية مما كنت أتوقع. تناولنا معا الكثير من الوجبات قبل أن يغادرا باريس. ذات يوم ذهبنا لزيارة السيدة دانيلوف التي صرخت من فرط السرور. ذلك اليوم تم الاتفاق على أنها ستتحدث إلى صديقها سيرجي بروكوفييف وستسأله إذا ما كان بإمكانه أن يشرف على تكويني الموسيقي. لا بد أنه كان من المفترض بأنه سيأخذ أجرا لدروسه غير أنني لم أسمع أية إشارة بهذا الشأن. على أية حال فإن الفكرة أصابتني بالذعر والتوتر. عجزت عن تصور نوع الحياة التي سيتضمنها هذا النوع من الدراسة. حينما جاء الرد بالإيجاب، انتابني شعور بالقلق فاق شعوري الأول بالفرح. خلال هذه الفترة ذهبت ماري إلى فيينا ولم يعد باستطاعتي الالتقاء بها مجددا.

ذهبت أنا والسيدة دانيلوف لمشاهدة العديد من أعمال الأوبرا الروسية التي تقدم بمسرح الإليزي. إلى ذلك الحين لم أكن قد شاهدت الأوبرا إلا ثلاث أو أربع مرات في حياتي وكنت أعتبر هذا اللون المسرحي إما طريقة مسلية في تقديم الموسيقى أو نوعا مضجرا من ألوان المسرح، وذلك حسب الزاوية التي يتوكأ عليها المرء في النظر إلى الموضوع. بيد أن *السلطان القيصر* والأعمال الأخرى عملت إلى حد ما على تغيير رأيي. حينما قدمت فرقة ديغاليف للبالي إلى باريس، ذهبت إلى دار المسرح وجلست في أرخص المقاعد. كانت الرؤيا والصورة ممتازتين. اخترت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

البرنامج بدقة (بال لرايتي، شات لسوغي ودون جليد لبروكوفييـف) وغـادرت مسرح شاتليه في حالة من الانتشاء والسمو لا نظير لهما. كانت المحصلة أن مُركب النقص الذي أشعر به في حضرة بروكوفييف تضاعف؛ فانبهاري بسـجله علـى مستوى البالي جعلني أعتقد بأنه لن يجد أي شيء ذي قيمة فيما كتبت. لقد كنت صائبا على هذا المستوى؛ كان خطئي يتمثل في تصور بأن لهذا علاقة بما إذا كـان علي أن أدرس أو لا أدرس تحت إشرافه.

رتبت موعدا مع بروكوفييف الذي يعيش في باسي ذات يـوم أحـد علـى الساعة الثالثة زوالا. على الساعة الثانية قمت بلملمة كل ما أملك ووضعته تحـت رعاية بواب الفندق ثم أخذت تاكسي إلى محطة الشرق حيث اقتنيت تذكرة قطار يغادر المدينة على الساعة الثالثة. حدث أن القطار يتجه إلى سافيرن، مكان لا يعني أي شيء بالنسبة لي. ظاهريا لم يكن ما يدعو لهذا الفعل؛ لم أستطع سواء في تلـك اللحظة أو فيما تلاها اكتشاف الشيء الذي حدد قراري. مرة تلو المـرة كنـت أستعيد أحداث ذلك الزوال في ذهني، آملا أن أضع يدي على اللحظة الحاسمة حين صرت واعيا بأنني ذاهب إلى محطة الشرق؛ لكن عبثا. أحسست بوضـوح بـأن الحركة حالت دون القيام باتخاذ قرار، وأنه ما أن أصير على متن القطار حتى يصير من المتعذر اتخاذ قرار، كيف ما كان نوع هذا القرار.

حينما وصلت إلى سافيرن شرعت في السير مباشرة من البلدة إلى القريـة ثم واصلت السير إلى الأمام. في الأخير وصلت إلى ستراسبورغ. عبرت نهر الراين إلى كيل ثم إلى آل شواتزوالد. بدا الألمان عطوفين غير أنهم لم يثيروا اهتمامي إطلاقـا. أدركت سبب حرصهم على كلمة الثقافة: فنظرا لافتقارهم لها فثمة أمل يـراودهم في صياغة واحدة وذلك بواسطة الحديث عنها. غير أن الجعة والفراولة كانت جيدة للغاية. تسكعت في الغابة السوداء لأسبوع ثم عبرت البحيرة عائدا إلى فرنسا ذات منتصف ليل في ألتبرايزاخ.

استشعرت بأن السيدة دانيلوف ستواجهني بسيل من الأسئلة لا حول لي للرد عليها ردا يشفي غليلها، لذا لم أقم بزيارتها فور وصولي إلى باريس. بـدل ذلـك ركزت كل جهودي لإيجاد عمل مرة أخرى لدى شركة أمريكية. خـلال هـذا الوقت كتب الدوق دوسان سيمون رسالة إلى صديق له في نيويورك مقترحا بـأن

يزور أبـــي وأن يحاول إقناعه بالموافقة على أن يرسل لي مبلغا ماليا منتظما. كـــان الصديق، القاضي فكتور دوليغ، شخصية عامة تجمعه روابط وثيقة بتاماني هـــول. (أخبرني جدي بولز لاحقا: "إنه كاتوليكي ذائع الصيت.") كان مقدرا لهذا الحوار ألا يثمر أي شيء غير أنني حصلت على عمل في القسم الأجنبـــي لبنك بســـاحة فاندوم، حيث كل ما علي القيام به هو استعمال العداد وتسليم الزبناء الماركـــات الألمانية بدل الليرات الإيطالية والفرنكات الفرنسية بدل الجنيهات الانجليزية. كمـــا أن الأجر كان عشر دولارات بدل الثمانية التي كنت أتقاضاها في عملي الســـابق. كان يمكن لهذا العمل أن يستمر لفترة أطول لو أنني لم أرتكب خطأ فادحا خـــلال الأسبوع الثاني. فقد سلمتُ امرأة أمريكية ما يعادل قيمة ألف دولار أمريكي مـــن الفرنكات بدل مائة و لم يتكشف الأمر إلا بعد مرور ساعات كثيرة. أخبروني بـــأن المسؤولية تقتضي بأن أذهب فورا وأن أسترجع التسعة مائة دولار مـــن الزبونـــة. حينما انطلقت من ساحة فاندوم تصورت نفسي أخضع لتحقيق مرير من طـــرف رجال الشرطة. في الواقع تبدى الأمر في غاية البساطة. كانت الســـيدة تقطـــن في ساحة أثينا واستقبلتني بترحاب، زاعمة بأنها لم تتفحص بعد حزمة الفرنكات الـــتي كنت قد سلمتها لها. عدت إلى البنك بالمال وتمت تهنئتي على حظي الرائع غـــير أن أي عمل يتضمن مخارج ضيقة كهذه بدا لي في غاية الخطورة. وهكذا عزمت على عدم العودة إلى البنك في اليوم الموالي.

في تلك الليلة ذهبت إلى الدوم وجلست في الهواء الطلق على ناصية شـــارع دولامبر. في طاولة محاذية جلس أربعة أشخاص، إثنـــان منـــهما في العشـــرينيات والآخران في الثلاثينيات من العمر. دعتني الفتاة وكان اسمها هرمينيا للالتحاق بهم. كانت من أصل مجري. خلال أطوار الحديث دعتني لقضاء نهاية الأسبوع للتخيـــيم على ضفاف نهر السين. باكرا في الصباح التالي التقيت بهم عند الـــدوم وهكـــذا انطلقنا، وقد كنا خمسة أفراد، في سيارتهم إلى مكان يبعد حوالي ســـاعة ونصـــف شرق باريس. كان لديهم مكان للتخييم عند البحيرة خارج قرية صغيرة. قضـــينا الليلة في خيمة كان علينا أن نحملها من الكوخ المجاور حيـــث كـــانوا يحتفظـــون بمعداتهم. في الصباح الموالي ونحن نستحم في البحيرة جدف رجل بدين في قـــارب إلى حدود مائتي قدم وشرع بإلقاء خطبة استنكارية، بينما تكاد أوداجه تنفجـــر،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حيث حذرنا بأنه ينوي الذهاب إلى كريل وإخبار رجال الأمن. كان يصرخ: "لعلكم تجهلون ما تقومون به. إنه يسمى تحريف القاصرين! كل أسبوع شخص مختلف."

ردت هرمينا: "هذا يكفي. اذهب وازعق في مكان آخر." ثم قامت المرأة الفرنسية بسحب سروالها وتحريك ردفيها في اتجاهه، صارخة: "هل هذا يكفي؟ هل هذا يكفي؟" جدف الرجل مبتعدا، وهو يلوح بقبضته صوبنا. بعد طعام الغذاء أخذنا أنا وهرمينيا نتمشى في ملابس الاستحمام مما جعل الأمر سيئا بالنسبة لي حينما وطأت في طريقي رقعة من الرقاص العالي. نظرا لقلة تجاربي، فقد اعتقدت في البداية بأنني اصطدمت بعش من الزنابير. تسلقنا عبر الأشجار لنصل إلى قمة تل وسط بستان من الكرز. لم تكن لسعات القراص التجربة الأولى التي عرفتها زوال ذلك الأحد. هناك ضمن المئات من النمل المثار الذي يتسارع فوقنا بينما كانت هرمينا تجيش بعواطف من قبيل: "أنا الوردة وأنت الساق،" عرفت أول تجربة جنسية. حينما ارتديت ملابس الاستحمام من جديد أدركت أنه إضافة إلى نبات القراص واللسعات كنت قد تعرضت للفحة شمس حارقة.

ونحن نركب السيارة نحو باريس، سألتني هرمينيا ورفاقها إذا ما كنت سآتي في الأسبوع القادم، فأعربت عن موافقتي. غير أنه بعد بضعة أيام توصلت برسالة من الآنسة شو والسيدة كروتش اللتان وصلتا إلى باريس في طريقهما إلى منزلهما بالقرب من أرلز. ذهبت إلى المرفأ لانتظار عبّارتهم. أثار مظهري اشمئزاز السيدة كروتش. لاحظت بنبرات تغشاها الإدانة وهي تقلب في وجهي بصرا مستنكرا بأنني أبدو كما لو كنت في نيويورك. أخبرتها بأنني أرتدي فعلا الملابس ذاتها. "كنت آمل أن ترتدي قبعة ولما لا معطفا كالذي يرتديه الطلبة." لاحظت الآنسة كروتش بأن كل هذه الأشياء لا تعدو أن تكون مظاهر خارجية. وبالتالي فهي ليست ذات قيمة كبيرة. واصلت السيدة كروتش وهي لا تزال تتأملني: "أو كان من الممكن أن تضع لحية صغيرة مدققة شأنك شأن الفرنسيين. شيء يبين بأنك انفصلت تماما."

فردت الآنسة شو معترضة: "ولكن كيف تعلمين بأنه قد انفصل فعلا؟"

"حسنا،" أعلنت السيدة كروتش، كما لو أنني لم أكن جالسا هناك. "إذا عاد سيصيبني ذلك بخيبة كبيرة. فهذا سيعد اعترافا بالفشل. لن يقبل أي شاب ذلك. كما أنه لا يمكنه أن يستمر أيضا في أخذ المال من ماري بطبيعة الحال."

تمت دعوتي أنا والسيدة دانيلوف إلى الغداء في نادي النساء بالجامعة الأمريكية حيث كانا يقيمان. شرعت السيدة كروتش في نقاش مع السيدة المسكينة حول إنجازات الاتحاد السوفياتي. توترت أعصاب السيدة دانيلوف كثيرا وأخذت فرائصها ترتعد وهي تتحدث؛ لا تريد أن تسمع أي كلام طيب عن البلاشفة. تمثل هاجسها في دحض كل إحصائيات تقدمها غريمتها. ضمن المدعوين للغداء كانت هناك فتاة أمريكية تدعى كاي كوين أحببتها بسرعة. كانت قد عادت مؤخرا إلى باريس من رحلة إلى مكان يبدو من خلال وصفها والصور القليلة التي كشفتها لي واحدا من مدن العالم العجيبة فعلا. إنه يدعى مُراكش. لسوء الحظ لم تبق في باريس إلا لبضعة أيام ومع ذلك فقد تواترت لقاءاتنا. قبل أن تغادر إلى الولايات المتحدة، أخذتني لرؤية تريستان زارا وزوجته. باستثناء رقعة الجلد الواقية التي يضعها على عينه، يبدو زارا أقرب إلى طبيب منه إلى شاعر سوريالي. لديه مجموعة ضخمة من الأقنعة والتحف الإفريقية لم أر مثيلا لها أبدا حتى في المتاحف. قالت كاي: "يجب أن تعود لزيارتهم بعد أن أكون قد غادرت." قمت بذلك، لكن ليس خلال تلك السنة. لاحقا علمت أن ما أن وصلت كاي إلى نيويورك حتى ذهبت لزيارة أمي لطمأنتها بأنه لا داعي للقلق بشأني.

خلال أواخر الثمانينيات من القرن التاسع عشر قام جدي وجدتي بولز برحلة في أعماق الجنوب الأمريكي فبدت المنطقة جميلة تحبل بمؤهلات تجعلها قبلة للسياحة. هناك في مكان ما من الألباما علما بقصة عائلة طيبة تعرضت لمأساة. كان هناك العديد من الأطفال من أعمار مختلفة حيث قضا الوالدان في نفس الوقت. أحست جدتي بضرورة المساعدة ذلك أن قلبها تعلق بالابن الأكبر، هوبرت، الذي كان في سن ابنها الأكبر. حينما عادا إلى الميرا كان هوبرت برفقتهما. لم يتم أبدا تبنيه رسميا، لكنه عاش كواحد من أفراد العائلة لسنين عديدة إلى أن وطن نفسه في عالم الأعمال وصار ناجحا. أخبرتني جدتي: "كانت مسؤولية عائلته بأكملها على كاهله. وكان مهيض الجناحين. أردنا أن نساعده لكي يصبح

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قويا. وذلك الولد عمل بجد ومثابرة." في الأخير صارت أعمال هوبرت مريحة بحيث غدا قادرا على إعالة أخواته وعائلاتهن خلال حياته. كان من أوائل الخياطين الأمريكيين. أقام صالونه ومعمله في الشارع السابع والخمسين بزاوية الشارع الخامس. لا زلت أذكر زياراته المناسباتية للعشاء خلال طفولتي. عادة ما يرتدي أقمصة حريرية يشدها ياقوت أزرق أو زمرد وتكون أطراف القميص موشاة بالأحجار الكريمة وفقا للون الحرير. كان دائما يستعمل أطمقة الكاحل. يتشكل نسيج محادثاته من شتيت من النميمة التي تتخذ موضوعا لها الشخصيات العامة أو ما كان يعرف آنذاك بمجتمع الصالونات (لم يبتكر المصطلح آنذاك غير أن الظاهرة كانت منتشرة.) تتخلل هذه الأحاديث المزخرفة بعناية دعابات وحكايات فجة تتميز بتصنعها وكانت تفوق كل ما كان يستمع إليه والدي من أصدقائهم بالضاحية. كان هوبرت يقوم بست جولات أوربية كل سنة ويجمع حديثه ما بين باريس، وكارلوفي فاري، وكان، والقديس موريتز وبيارتيز. كان من الحتمي أن يصل إلى باريس وبالتالي أن يحاول الاتصال بي. لم أكن قد التقيته لمدة عشر سنين، غير أنني سرعان ما تذكرت ملامحه حينما وقع عليه نظري بفندق دونو. لم يتغير شكله كثيرا باستثناء أنه هذه المرة لم يكن يرتدي أطقمة الكاحل، ربما لأن موسم الصيف كان قد حل.

استقبلني مرحبا: "آه عزيزي. كم تبدو شبيها بأبيك حينما كان في سنك! كم كان وسيما حينما كان في عمرك، أيضا. في الحقيقة كان أكثر وسامة منك." نظرا لأنني لم أكن وسيما فقدا اعتبرت إطراءه لأبي غير مقنع. ثم استفسر: "أين تقيم؟" أخبرته عن مكاني. فرد: "المكان بعيد جدا." ثم تابع: "لماذا لا تنتقل للإقامة معي هنا؟" هكذا انتقلت إلى فندق دونو وعشت تجربة جنسية، باردة وتافهة كسابقتها. أخبرني هوبرت: "لقد سلمني والدك شيكا بمبلغ مائتا دولار لأبتاع لك بعض الملابس. غير أنني سأصرف هذا المبلغ عن آخره." فتساءلت باندهاش: "ماذا عن الملابس؟"

"أوه سنحصل عليها. لا داعي للقلق."

لم نشتر إلا القليل، ثم أخذني هوبرت إلى خياطه الخاص وجعله يغير مقاس بدلة كان قد طلبها لنفسه. وبعد محاولتين اثنتين، استطعت أن أرتديها. بالتأكيد لم

تكن تماثل أي بدلة كنت قد رأيتها في السابق. كانت ذات جيوب مزدوجة كما أن القماش كان رماديا كالشوكولاتة تخترقه خطوط بيضاء.

"المكان الوحيد للأحذية هو هيلستيرن." ذهبنا إلى هنالك. بعد ذلك قرر هوبرت أنه علي أن أحمل عصا. "و سنذهب إلى مكان ما في الأسبوع القادم. أين تود أن تذهب؟"

أجبت على عجل: "البندقية."

"حسنا سأذهب إلى مكتب كوك غدا."

مقابل هذه التجربة الرائعة المثيرة لتحسيسي بقيمتي تمددتْ ساعات طوال من الحديث المضجر كان علي أن أتبادله مع هوبرت. بمكتب كوك التقى هوبرت بامرأة عادت للتو من البندقية حيث يسود جو حار لا يمكن للمرء أن يطيقه. انتهت بنا الرحلة عند القديس مورتيل بسيارة دون غطاء يتولى قيادتها سائق. هكذا بدلا من القديس مارك رأيت فيلا الشرق في كومو، وبدل أن نتجه عبر المعبر الكبير اتجهنا إلى مضيق ستيلفيو في التيرول النمساري. أصبت بنزيف دموي في الأنف وازداد وزني.

حينما عدت إلى باريس زرت الكونتيسة دولافيلات التي دعتني إلى قصرها في الكروز. كان أغلب أفراد العائلة الذين كنت قد التقيت بهم في باريس هناك، ما عدا كريستين التي كانت توجد في مستشفى تنتظر ولادة ابنها. يضم قصر لافيلات برجا دائريا عند كل زاوية من زواياه الأربعة، وكانت غرفتي تقع في واحدة من هذه الزوايا. كانت الحجرة دائرية وجدرانها مغطاة بقماش. تولى العناية بي خادم كهل يدعى بوتيجين. دأب بوتيجين أن يضع الطست تم يقول لي: "نظف نفسك." حينما سألت خلال وجبة الفطور عن معنى هذه الجملة، كان الشعور مزيجا من الضحك والصدمة. "عليك أن تعذر بوتيجين. إنه مجرد فلاح!"

تبدى الريف فضاء شاعريا مترعا بآي الجمال في حين تتخلله يوما بعد يوم زخات مطرية. كانت الكونتيسة تقضي أغلب وقتها جالسة بهدوء في الصالة تقوم بالتطريز في المنزل الذي كان باردا جدا بينما تهدهد نسائم الهواء السجادات المعلقة على الجدران في الأروقة المعتمة وبالكاد تظهر طواقم الأسلحة. كان الهدوء مطبقا بحيث كلما أرهفتُ السمع يترامى إلي صوت أشجار النخيل خارج النوافذ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وافقت على لقاء هوبرت في القديس مالو؛ ومن هناك مرافقته إلى دوفيل التي كانت المركز الرئيسي لجمعية المقهى. أسر لي هوبرت: "لا أفوت أي فرصة للتردد على هذا المكان." كان مقامرا مكينا وكان يؤمن بأن حظه أوفر في كازينو دوفيل من أي مكان آخر. وصلت إلى القديس مالوا أياما عديدة قبله وذهبت لرؤية جبل القديس مايكل حيث أقمت في واحدة من الحجرات التي تضعها الأم بولارد تحت تصرف ضيوفها للعشاء. ومادام أن المطبخ يقع في جانب من الشارع الرئيسي والمطعم في الجانب الآخر، فقد كان النادلون يغدون الخطو جيئة وذهابا محملين بصوانيهم وأطباقهم؛ ومع ذلك فإن الطعام كان ممتازا. أخبرت هوبرت عن هذا المطعم حينما وصل إلى القديس مالو، فكان تعليقه: "سآخذك إلى مطعم جيد حقا." انطلقنا في السيارة نحو ديف على البر إلى منتجع كيوم المحتل. كان صاحب المكان رجلا طاعنا في السن يتجول في الأرجاء حاملا ببغاء على كتفه. تناول الطعام معنا في الحديقة وتحدث عن مارسيل بروست الذي كان واحدا من زبنائه. لشد ما كان مبتهجا خصوصا أن المنتجع ذكر في *البحث عن الزمان الضائع*. مادمت أنني لم أقرأ الكتاب، فقد قابلت حماسه بفتور شديد. ما أثار اهتمامي حقا هو الببغاء.

في هذه اللحظة بالذات أخذ هوبرت يمارس تأثيره علي آملا أن يقنعني بالعودة إلى الولايات المتحدة. "ستغادر باخرة باريس هافر يوم الاثنين. لماذا لا تستقلها؟" كان اعتراضي يتمثل في كوني قد عاملت أبواي على نحو لا أتوقع معه أن يرحبا بي مرة أخرى. غير أنه سخر من هذا الاعتراض. "لا شيء سيجعلهم أكثر سعادة من عودتك." (قد يكونون سعداء، تأملت للحظة، ولكن ماذا عني أنا؟) "هذا مستحيل،" قر قراري.

ذهبنا إلى الكازينو؛ ثمة صعوبة تتمثل في السماح لي بولوج المكان للمرة الأولى لأنني كنت قاصرا؛ غير أن هوبرت استطاع أن يرشي شخصا ما وهكذا غضوا الطرف عن القوانين. في لعبة الكرة الصغيرة ربحت مائتين وخمسين دولارا ذات مساء، وبعد ذلك أردت أن أتوقف. حاول هوبرت أن يأخذني معه إلى غرفة القمار زاعما بأنه يتفاءل بوجودي، غير أنهم هذه المرة رفضوا رفضا تاما السماح لي. انتظرت لساعة في الحانة، أحسو شرابا خفيفا. في الأخير غادر الغرفة وقد

خسر ما مجموعه أربعة آلاف دولار كان قد سمح لنفسه بالمقامرة بها تلك الليلة. شعرت بالغثيان وأنا أشاهد كيف يتم تبذير الأموال بهذا الشكل. حينما غادرنا الكازينو كنت ثملا جدا بحيث أنني لم أستطع تذكر أي شيء آخر في اليوم التالي. كل ما أذكره هو صداع قوي في رأسي ورغبة جارفة في الهروب من وضعية لا تطاق. عند الغذاء سألت هوبرت إذا ما كان قد صرف الشيك الذي أعطاه له أبي. لكنه أخبرني بأنه يحتفظ به مع أمتعته في غرفة الفندق. "سأستقل باخرة باريس يوم الإثنين،" تناهى إلي صوت باطني. كان هوبرت مسرورا: "آه عزيزي كم سيسر والداك برؤية ابنهم وأن يعتبرا أن العم هوبرت مسؤول على ذلك!" منذ ذلك الحين صرت أعامله بخشونة. كنت منزعجا من أن يعتبر الفضل يعود له في قرار اتخذته لوحدي.

ركبنا السيارة إلى لوهافر. اقتنى هوبرت التذكرة في الصباح وانطلقت في العشية. استغرق السفر أسبوعا كاملا لا أذكر أي شيء بخصوصه سوى أنني قضيت معظم وقتي مع عائلة تدعى شوتر. كانت العائلة إضافة إلى عائلة أخرى تدعى سيمونت قد نشروا كتب الكلمات المتقاطعة التي كنت أقتنيها لسنوات عديدة. لاحقا ذهبت لزيارتهم في نيويورك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

6

بدا والدي في غاية السرور لعودتي إلى كنف العائلة من جديد. لاشك أنهما، كما اعتقدت حينها، اتفقا ضمنا على غض الطرف عن موضوع مغامرتي تلك. لكنني في المقابل لمحت ظلالا من الاحترام والتقدير في موقفهما نحوي. لم يتعد الموقف مرة واحدة حينما كنت وحيدا مع أبي في السيارة. "كان سفرك أمرا مرعبا بالنسبة لأمك. هل لمحت الشيب الذي وخط شعرها؟ "أجبته بأنني لم ألمح أي شيء. فانطلق بصوت تهدج من الغضب: "حسنا حري بك أن تلاحظ. هذا هو أصل الخلاف بيننا. فأنت غارق في مشاغلك الخاصة لدرجة أنك لا تبالي بأي شيء من حولك. هناك أشخاص آخرون في هذا العالم أيضا، كما تعلم." آنست في كلامه بعض العتاب، غير أنني شعرت في المقابل بأنني أحرزت العديد من النقط في المبارزة التي تدور بيننا.

ذهبنا إلى كلينورا حيث أبدى الأشخاص هناك اهتماما بي أكثر من ذي قبل، فلم ألحض أي تصرف يشي بالتذمر في سلوك العائلة. قالت الخالة ماري: "إنها تجربة مهمة جدا بالنسبة له." فهمس جدي بولز حينما أريته الصور التي التقطتها خلال تجوالي مشيا على الأقدام: "تجربة من الدرجة الأولى، من الدرجة الأولى."

ضمن الأشخاص الذين كانوا في زيارة لكلينورا كان هنالك الأخوان شارلز وفريدريك جاكسون. كان شارلز يكتب قصصا قصيرة تلا علي بعضا منها بصوت عال. لاحقا كتب رواية أطلق عليها عنوان: *نهاية الأسبوع الضائع*. لم أستوعب مضمون القصص غير أنها بدت لي كئيبة وقاتمة بما يكفي لكي تكون مهمة. كما أنه قدم لي نسخة من رواية *طريق سوان*، وقد خط على غلافها الداخلي شاهدا من أشعار وايتمان بخط منحرف. وما دمت أنظر إلى الشاعر الطيب ذي الشعر الأرجواني بازدراء، حيث تم اصطحابي لزيارة منزله حينما

كنت طفلا، فإن الكتابة أصابت رغبتي في قراءة الكتاب ببرود على نحو جعلني أقرأ العشرين صفحة الأولى ثم أضعه جانبا.

حينما عدت إلى نيويورك أخبرني والدي: "إذا كنت تعتقد أنك ستمضي بقية حياتك تهيم في الشوارع، فعليك أن تفكر في الأمر مليا." بحثت عن العمل وقد تداعت في ذهني ذكريات الفترة القصيرة الجميلة التي قضيتها في البنك خلال السنة الماضية. كل ما حصلت عليه هذه المرة هو عمل في مكتبة دوتون لبيع الكتب في الشارع الخامس حيث أجلس في البلاكونة أبيع مجلدات الكتب عن دار *لكل الناس للنشر* وكتب الرحلات. كان الأمر ممتعا في ذاته غير أنه كان علي أن أستقل قطار لونغ أيلاند كل يوم ذهابا وإيابا. بعد مرور أسابيع قليلة، أنهكني التنقل فقررت استئجار غرفة في شارع البنك في البلدة في مكان تصطف فيه المنازل جهة الغرب على مسافة بعيدة حيث لا تزال بيغي تقطن مع والدها. كانت الغرفة تقع في الطابق الأول المقابل لمنزل قديم وهكذا كانت توجد فيه مدفأة. وضعت مفتاحا إضافيا لبيغي. أحيانا كنت أجدها حين عودتي من العمل زوالا وقد أوقدت النار. اكتشفت أنها تجمع قطع الخشب بنفسها من المرافئ على جانب الهودسون الذي يمتد على بعد وحدتين غربا. كانت تكدس الأخشاب في معطفها ثم تحملها فوق كتفها إلى الحجرة. مادام المعطف من فرو الجمل الذي كان أبوها قد اشتراه لها مؤخرا من متجر للمعاطف الباهظة، فإنني وضعت حدا لجمع الأخشاب.

ونظرا لأنني تواريت عن الأنظار دون سابق إنذار، فإنني تسببت مرة أخرى بأزمة عائلية. هكذا جاء أبي وأمي إلى مكتبة دوتون للتحدث إلي. كانت أمي تود أن تعرف إذا ما كنت متزوجا من بيغي. كل صباح وأنا أجلس إلى مكتبي في البلاكونة، كنت أكتب الصفحات تلو الصفحات من عمل لقبته "*بدون توقف*." ما كان يهمني هو إضافة صفحات جديدة إلى الأوراق المتنامية. قررت أن أطلق العنان لأفكاري ثم أنقحها فيما بعد. كنت أخشى أنني إذا ما توقفت لاختيار الكلمات والتعابير المناسبة، فإنني حينها سأشرع في اعتبار العمل نقديا، الشيء الذي سيحول دون انسياب الأفكار والرؤى. كان التدفق هو الذي يشغلني بالدرجة الأولى، ذلك أن كتابة بدون توقف كانت ترياقا كما أن النظر إلى تزايد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الصفحات يوهمني بأنني في طريقي إلى مكان ما. كنت واعيا جدا بأن بيع الكتب يفرض حالة من العطالة والركود.

قدمتُ العمل على أنه من نسج الخيال، وكان يقرأ كذلك لأنني ضمنته أقساما طويلة من" تيار الوعي." بيدَ أنه كان أيضا وصفا يوميا واقعيا لبعض الرحلات كنت قد قمت بها مشيا في مناطق تقع على مسافة ساعة بالقطار من باريس كما يحوي العمل إرشادات، وعلامات المرور، وملصقات إشهارية توجد على طول الطريق؛ إضافة إلى تقارير عن أحاديث أجريتها مع فلاحين وأصحاب الدكاكين.

كان من بين حسنات العيش في مَنهاتن أنه كان لدي الوقت لزيارة الكثير من الأشخاص الذين كنت أود رؤيتهم. من بين هؤلاء أذكر دوروتي بالدوين التي كانت قد قادتني عبر أرض يباب إلى عش الزنابير وأنا طفل. كانت تعيش رفقة زوجها، رسام يدعى موريس بيكر، في شقة في البلدة. ثمة دائما رسامون آخرون. أذكر ستيوارت دافيس الذي أحببته وجون مارين، رجل صغير القامة يبدو غريب المظهر وينصت إليه الكل باهتمام. خلال الحديث قرروا بأنه علي أن أقصد هنري كويل لكي أعرض عليه عملي الموسيقي. كنت أتوق للحصول على وضع مدني. إذا ما أخبرني مؤلف موسيقى" أنت مؤلف موسيقي" فإن ذلك سيكون جيدا، أو إذا أخبرني شاعر" أنني شاعر" فإن هذا سيكون مقبولا أيضا. غير أنه على شخص ما أن يبادر بقول شيء ما. كنت أرنو إلى لقائي بكويل كما لو أنه سيمدني بالعمل السحري الضروري الذي سيغير مجرى حياتي. ربما كنت على حق؛ على أي حال نظر إلى الموسيقى التي حملتها إليه وطلب مني أن أعزفها له. وبعد ذلك، وافق أن يعزف لي العديد من قطع البيانو التي ألفها هو، بما في ذلك استعمال حزمة من النوتات حينا ونوتات منفصلة مباشرة على الأوتار حينا آخر. أثار هذا العرض فضولي بشدة للإمكانات الصوتية الهائلة التي لم أشك في وجودها يوما ما في البيانو، وفي المقابل تضاعف لدي عدم الرضا على عروضي الصغيرة الباهتة. قبل أن أغادر، كتب رسالة قصيرة لآرون كوبلاند اقترح أن آخذها إليه. حينما انطلقت في الشارع قرأت الرسالة. يقول نص الرسالة إلى حد ما: "عزيزي آرون. حامل الرسالة هو بول بولز. موسيقاه فرنسية جدا، لكن يمكن أن تثير اهتمامك. إلى الملتقى. هنري."

خلال أعياد ميلاد السنة الماضية حضرت بعض الأعمال لكـوبلاد في تـاون هول. ومع أن النقاد في اليوم التالي لم يرضوا على العرض فقد كانت ملاحظـاتهم حقيرة وجارحة إلى حد ما، وكان العديد من الأشخاص ذوي الذائقـة القديمـة يسخرون من الموسيقى، فقد افترضت بأنه المؤلف الأكثـر أهميـة في الولايـات المتحدة. هكذا عزمت على تسليم الرسالة بالرغم من نبرتها الاحتقارية. بعد مـرور أيام قليلة، اتصلت هاتفيا بكوبلاند وحددت موعدا. خلال هذه الأثناء كان يقطن في الطابق الثاني من فندق مونكليز في شارع لكسينتون والشارع التاسع والأربعين. وصلت في الوقت المحدد ووقفت في الخارج للحظات قبل أن أطرق البـاب. بـين الحين والحين كانت تتناهى إلى سمعي نوتة موسيقية تعزف على البيـانو. حينمـا طرقت الباب أخيرا، سمعت شخصيا ينادي: "تفضل." وهكذا فتحت الباب. كان هنالك رجل نحيف يجلس إلى البيانو؛ نظر إلي ثم قال: "سيعود آرون خلال ثوان." واستمر في العزف. حينما عاد كوبلابد كان يبدو مضطربا. "هذا روي هـاريس. ما اسمك؟ لقد أخبرتني في الهاتف، لكنني نسيت." أعطيته رسالة كوويل. قرأهـا ثم انفجر ضاحكا قبل أن يضعها في جيبه. اعتبرته محبوبا بشكل غير عـادي. خـلال الأسابيع التالية كنت أتردد على بيته مرارا. وهكذا وافق في الأخير على إعطـائي درسا يوميا في التأليف. فاق هذا كل توقعاتي المتفائلة. لم أتوقف عن العمل لـدى دوتون فحسب بل أنني قمت بالعودة إلى المنـزل العائلي حتى يكون لدي بيـانو أتمرن عليه. شرعنا بدراسة قطع البيانو من تأليف موزارت التي كان علي أن أقـوم بعزفها وفي نفس الوقت تحليلها شكليا.

بالرغم من غبطتي وسروري لحصولي على أستاذ أبدى الرغبـة في إعطـائي دروسا موسيقية، فإن والدي قرارا بأنه علي العودة فـورا إلى جامعـة فرجينيـا واستئناف دروس الفصل الثاني من السنة الأولى. هناك استأجرت شـقة في بنايـة تدعى بروستون كورت؛ ونظرا لأنها توجد في ضاحية راقية فقـد اضـطررت إلى مشاطرتها مع طالب كنت قد تعرفت عليه في السنة الماضية يدعى روسـر ريفـز. كان روسر واحدا من المثقفين المنبسطين، معجب بكابيل وجويس، ومع ذلك فقد كانت علاقتنا جيدة ولم يدب الخلاف بيننا أبدا. ومادمت لا أزال أحظى بـاسمي على قائمة العميد فإنني كنت أقضي الكثير من وقتي في التجول بين الجبال المتصدعة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبين ريتشموند، حيث عثرت على صديق جيد في بروس موريسيت، طالب ذو ذكاء نفاذ. خلال الربيع قدم آرون كوبلاند إلى شارلوتفيل.

اعتبرت قدومه وسام فخر؛ وهكذا بذلت قصارى جهدي حتى يحظى بعناية دائمة. ذات ليلة خلال حفل موسيقي حينما تم إقناعه بعزف مقطوعة من حفل الجاز أدركت مدى محدودية الجامعة. بدل أن ينظر إلى المعزوفة كقطعة شديدة الأهمية، كما كان الحال بالنسبة لي، فإنها بدت للضيوف مجرد دعابة؛ ضوضاء من المحال أخذها مأخذ الجد. لم ينزعج آرون على الإطلاق من هذه الردود المعادية؛ بالطبع زاد هذا من قيمته لدي. لاحقا وصلت الآنسة مور خلال نهاية الأسبوع، وأخذتها في نزهة إلى قمة البلوريدج، إلى نفس العائلة المعزولة التي كنت قد وجدتها بمحض الصدفة قبل ذلك بسنة أو سنة ونصف. حال الموت المفاجئ لبقرة من القيام بطقوس الحفاوة النادرة التي أبهرتني في زيارتي الأولى. وجدنا جثة البقرة متمددة عندما كنا نتمشى عبر ضيعة في طريقنا إلى الكوخ؛ هنالك تسمر صبي صغير بالقرب من الجثة وهو يحدق فيها في ذهول. بعد هنيهات وصل أفراد الأسرة وهم يهرولون من جانب التل. لم ينبسوا بشيء غير أن تعابيرهم وسلوكهم كانت تشي بأسى وحسرة عميقين كما لو كان الكائن الجاثي هناك تحف به ورود الربيع إنسانا. في الأحد التالي خصصت الآنسة مور صفحة كاملة لموضوع الرحلة ولحادث البقرة في ملحق الكتب لصحيفة الهيرالد تريبيون.

في باريس استعرت رواية *عشيق السيدة تشاترلي* وصعقت لما بدا لي حينها التأكيد الملحاح للورنس[1] لتقديم الجماع كنشاط مقدس. كنت قد قرأت أعمالا لكليلاند من قِبل فاني هيل والتجارب العشقية لجراح؛ لعلني أجد مسوغا لمثل هذه الأعمال في كون صاحبها يقدمها بصراحة على أنها نماذج من الأدب الإباحي، غير أن التضمينات الكهنوتية لرواية *عشيق السيدة تشاترلي* أثارت غضبي ولم أعد أطيق سماع ذكر د. هـ. لورنس. حاول جون ويديكومب، الذي لا يزال في الجامعة، أن يشد انتباهي إلى *أبناء وعشاق*. لم أقم بمحاولة للتعامل جديا مع هذه الرواية ذلك أنه بالرغم من أن معرفتي الكافية بالتحليل النفسي كما بلوره فرويد

(1) دافيد هوربرت لورنس (1885–1930): كاتب وشاعر انجليزي اشتهر بالعديد من الأعمال من بينها: أبناء وعشاق، قوس قزح.

تؤهلني للاعتقاد بأن الدافع الجنسي من المصادر الهامة في الحياة البشرية إلا أن أي إبراز واع للجنس كان يبدو لي بالضرورة شيئا مثيرا للسخرية. فكلا التغوط والجماع نشاطان يجعلان من الإنسان كائنا مثيرا للسخرية؛ على الأقل بالنسبة للنشاط الأول يمكن ممارسته بشكل خاص بينما النشاط الثاني يتطلب على وجه التحديد وجود شريك. غير أنني اكتشفت أنني ما أن أبادر بإبداء هذا الرأي حتى ينظر الناس إليه كدعابة.

حينما علمت أن مارتا غراهام ستكون ضمن المشاركين في *مقدس الربيع* لأوركسترا فيلادلفيا، داخلني الحزن والأسى لبعدي عن موقع الحدث. "لماذا لا نطلب من سائق سيارة أن يُقلنا معه؟" اقترح جون ويديكومب.

قمنا فعلا بذلك فقضينا ليلة في بالتيمور. اتصل ويديكومب ببعض الأصدقاء في براين مور وبرينستون، هكذا حينما كنا في مقاعدنا كان عددنا كبيرا. وما دامت هذه هي المرة الأولى التي أستمع فيها إلى أداء المقدس، فقد كان واضحا بأنه علي الاستماع أكثر من المشاهدة.

قضينا تلك الليلة واليوم الموالي في برينستون. كان هاري دنهام الذي غادر الليلة الفائتة قد طلب منا أن نتناول طعام الغذاء في ناديه وهناك التقيت طالبا كان على وشك إصدار مجلة وفي حاجة إلى مواضيع للنشر، خصوصا المادة الأدبية. وإذ تبادر إلى ذهني ما كنت قد كتبته في بالكونة دوتون فقد أعربت له عن استعدادي للمساهمة بقصة قصيرة. صدرت المجلة، آرغو، لاحقا تلك السنة وضمن موادها مقتطف من سيرتي "بدون توقف" تحت عنوان "ظل عنزة بيضاء،" وكان هذا النص أول نص إبداعي ينشر لي.

حينما حل موسم الصيف طلبت من العمة ماري أن تستضيفني في هولدن هول. كان برفقتها سيدة تمت لها بصلة قرابة بعيدة تقضي الفصل عندها هي وصبياها اليافعان، أحدهما أوليفر سميت، صبي في الثانية عشر من عمره. كان أوليفر يقضي كل وقته خصيصا في تخطيط المنازل، وكان يقوم بذلك بمهارة مذهلة، خصوصا المخطوطات الأرضية والمصاعد. كان لدى العمة ماري آلة بيانو في غرفتها غير أنه على المنزل أن يبقى خارج الرجات غير المتجانسة بحيث لا يحول ذلك دون طقوس التأمل. لذا فقد كنت أتمرن لساعتين في منزل سيدة تقيم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بجوارها. كنت أتدرب على عملين ذلك الصيف: عمل في ثلاثة مقاطع لهيندميث والمختصر لتاريخ الجندي لسترافينسكي على آلة البيانو. بعد أن أنصتت لي السيدة وأنا أعزف كل يوم لما ينيف عن الشهر بحيث تمكنت من حفظ متواليات عديدة من مقطوعة سرافينيسكي، أخبرتني: "ما عليك سوى الاستمرار وستنال مبتغاك. إنك لا تعزف مثل الآخرين. إذا تمكنت الآن فقط من النوتات الصحيحة فسيكون ذلك ممتازا."

كتبت خطابا ليادو، مخيم الفنانين الذي يقع خارج ساراتوغا، طالبا منهم الإذن لي للإقامة هناك خلال شهر أيلول، ذلك أن هذا سيصادف تواجد كوبلاند هناك ويدعم رغبتي في العمل معه. تفضلت نينا سميت بأن تقلني بسيارتها إلى ساراتوغا ورافقنا الصبيان إلى هناك. حينما رأى أوليفر المبنى المهيب وغرفتي بداخله ألقى بملاحظة أثارت غضب نينا: "آه أمي لو كنتُ فقط مكان بول!" انتهى اليوم بالتوبيخ والتجريم. "إياك أن تتمنى أشياء من هذا القبيل! لا أريد سماع هذه الجملة مرة أخرى. عار عليك! يا للفكرة!"

بدت يادو مكانا هادئا مريحا، مثاليا للعمل. كان آرون هو الضيف الوحيد الذي لا يقطن في المنزل الرئيسي إذ كان يتوفر على كوخ يقع وسط الأحراج بمحاذاة بحيرة حيث كان يقوم بتأليف تنويعات على البيانو. أحيانا، وأنا أتنزه حوالي المنزل أصل إلى مكان حيث يمكنني أن أستمع لمعزوفاته. هناك أعتلي قطعة خشب أو صخرة وأستمع لما استجد من الجمل الموسيقية وقد اتخذت شكلا نهائيا. كان الكل يتحدث خلال الوجبات وكان معظم الحديث يدور حول السياسة. وكما كان متوقعا، فأكثر من نصف المدعوين كانوا ماركسيين. يخلو التفاهم بينهم من روح الدعابة، كما لو كانوا أساتذة، وكانوا يغرقون في تحديد وتعرية الآخرين كأعداء للقضية. لذا فقد كان الحديث يميل إلى اتخاذ طابع نقاش مطول وأحيانا ينحدر إلى نقاش عقيم."لماذا أنا ضدك إذا لم أكن معك؟" ما كان يثير اهتمامي أكثر هو أنني كنت بطل الجناس التصحيفي في يادو. كنت مقتنعا بأن ممارساتي السريالية التي أفرضها على ذاتي هي المسؤولة على هذه القدرة. حينما أدركت بأنه بإمكاني تصور كل حروف الكلمة ومشاهدتها معلقة في الهواء كما لو كانت فقط عبارة عن عناصر متفرقة، ومع ذلك يمكنني تشكيل كلمات أخرى انطلاقا منها

فقط إذا أوعزت العمل كله للاوعي، فإنني أرجعت هذه الظاهرة إلى عادتي المتمثلة في عدم الشروع أبدا في الكتابة إلا بعد أن أكون قد أفرغت ذهني كليا مما يشغله.

كان لدى آرون سيارة قديمة يلقبها نيكوديموس، وكنت أعتبر سياقته متهورة و لم أتوان أبدا عن إخباره بذلك. لكنه كان يقابل انتقادي فقط بالضحك. حينما أحال البرد القارص جنبات القلال ليمونية وحمراء، اقترح بأن نذهب في سيارته إلى فيرمونت لزيارة كارل روغلز. لعل ما أثار إعجاب آرون هو وجود أمريكي قح من أصل نيو انجليزي لا يخشى أن يكون ذاته في محيطه الخاص. هناك في مزرعته، تراءى لنا كهلا نحيفا يعزف على بيانو مقطوعته لماندلسون ويتحلق حوله أصدقاء موسيقيون، كلهم يغنون انطلاقا من سجل. لم يعزف أي مقطوعة من مقطوعاته الخاصة، بدل ذلك واصل الإطراء القوي للموشح الديني المتواجد أمامه. يمكن للمرء أن يخمن بأنه يعتبر مانديلسون أعظم عازف موسيقي. حينما غادرنا المزرعة أخبرني آرون وهو يضحك بسرور: "كما ترى فهو كهل غريب الأطوار! أن يختار مانديلسون دون غيره من العازفين فهذا غريب!" ذهبنا إلى ما ساشوسيتس وهناك قضينا الزوال رفقة روجر سيشنز الذي وجدته شخصا مخيفا، ولعل السبب في ذلك أن آرون عرض عليه حركتين من مقطوعة صغيرة كنت قد كتبتها. بعد أن عزفها لفترة اعترف بأنه لا يجد فيها ما يستحق الاهتمام على الإطلاق. "ماذا عن الحيوية؟" سألت آرون. فكان جواب سيشنز أن هز منكبيه.

حينما عدت إلى نيويورك اصطحبت معي كلا من هاري دنهام وآرون. كانت العمة أدلاييد قد تركت لي بعض النقود غير أنني لن أجد سبيلا إليها إلا بعد مرور سنة أخرى. كان هاري سيحصل على بعض المال في عيد ميلاده الواحد والعشرين على شرط ألا يدخن قبل ذلك التاريخ. كان آرون يعتقد بأنه علي الذهاب إلى باريس والدراسة تحت إشراف نادية بولانجر. أما هاري الطافح بالاقتراحات والكرم، فقد تطوع بمنحي نصف ما سيأخذه في تشرين الثاني من سنة 1931 إذا كنت أرى بأن ذلك سيساعدني. سيساعد ذلك حقا، ما عدا أن آرون سيغادر إلى برلين قريبا وكنت أخشى الفراغ الذي سيتركه ذلك في دراستي. كانت الرغبة التي اجتاحتني هي أن أرافقه إلى برلين وأن أعمل معه إلى أن يحل الخريف حيث يمكنني أن أبدأ مع بولنجر. لذا فإن المشكل كان يتمثل في الحصول

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على المال بسرعة. تم تجاوز هذه العقبة خلال زيارة لوالدي هاري لنيويورك حيث كان علي أن ألتقي بهما وأن أشرح لهما الوضعية. لم يكن رد فعلهما جيدا؛ كان واضحا من خلال نظراتهما بأنهما يعتبراني شخصا يثير الاشمئزاز ويمكن أن يكون لي تأثير سلبي على ابنهم. كانت السيدة دنهام تزعم بأن لها معرفة واسعة بالموسيقى، فقد غيرت أختها لوسي ليكنلوبر اسمها وغدت السيدة أولغا ساماروف وأصبحت عازفة بيانو لتتزوج في الأخير بليوبولد ستوكفسكي. بالنسبة لها، لا يمت آرون كوبلاند بأي صلة للموسيقى كما أنها لا تعرف أي شيء ولا تهتم بنادية بولانجر. أظن بأن هاري واجه بعض المشاكل للحصول على المال من أمه وأبيه غير أنه في الأخير تمكن من الحصول على مراده. شاهدت السيدة دنهام مجددا في ذلك الشتاء رفقة أميليا، أخت هاري في برينستون ولن أنسى ما حييت الحقد المعسول لصوتها وهي تقول لي: "متى ستغادر؟" أجبتها: "في أقرب وقت ممكن." فكان ردها: "جيد."

كنت أكتب الشعر بانتظام وأرسله إلى المجلات وقد ذهبت أبعد من ذلك وكتبت العديد من القصائد بالفرنسية. نشرت هذه القصائد في أوقات مختلفة بمجلة بلجيكية تحمل عنوان *أنطولوجية*.

وما دامت مجلة عبور قد نشرت إعلانا بأنها ستؤدي ثلاثين فرنكا مقابل كل صفحة تنشرها فقد بعثت برسالة للمشرفين على المجلة أخبرهم فيها بأنهم يدينون لي بمائة وخمسين فرنكا مقابل المادتين التي سبق نشرهما في العددين الثاني عشر والثالث عشر. كما تضمنت رسالتي مواد جديدة. بعد حين، توصلت بالشيك دون الإشارة إلى إمكانية نشر مستقبلي. غير أنني استمتعت برؤية أربعة من قصائدي تظهر في *هذا الركن* التي كنت أعتبرها مجلة في غاية الأهمية.

كتب بروس موريسيت الذي لا يزال في جامعة ريشموند رسالة إلي يتساءل فيها عما إذا ما كنت أرغب في الإشراف على عدد من مجلة *الرسول* التي كانت المنبر الأدبي للكلية. هكذا اقتنصت الفرصة وأرسلت فورا حوالي العشرات من الرسائل إلى كتاب لم يسبق لي أن التقيت بهم أو تراسلت مع أي واحد منهم، لكنني كنت أظن أنهم قد يرغبون في المساهمة. على نحو مفاجئ، كانت أغلب الردود إيجابية. هكذا توصلت ضمن ما توصلت به من مواد مساهمات من كارلوس

ويليام كارلوس، وجيرترود شتاين ونانسي كونارد. واصلت الكتابة إلى جيرترود شتاين وأرسلت لها نسخة من المجلة فور طبعها.

بدأت دراسة اللغة الألمانية فاقتنيت كتب النحو والأفعال وقاموسا، كما فعلت السنة المنصرمة عندما أردت دراسة اللغة الإيطالية. "ستحب اللغة الألمانية. ستجدها سهلة،" أخبرتني أمي التي سبق لها أن درستها في المدرسة. أحببت اللغة الألمانية لكنني لم أجدها سهلة كما أنني لم أتمكن أبدا من تعلم الحديث بها بشكل صحيح.

خلال سنوات طفولتي المبكرة جُبلت على حسن الأخلاق والطاعة العمياء غير أنني في المقابل كنت أقع بين فكي حالات مزاجية سوداء. هكذا وأنا أزداد حيلة واحتراسا أخذت حالات الغضب تتناقص. كان من الطبيعي أن أفترض بأنني سأتوقف عن التعرض لها. هكذا في سن التاسعة عشر دهشت ذات ليلة حينما اكتشفت بأنني قد ألقيت للتو بسكين في وجه أبي. هرولت خارج المنزل، مكسرا الإطارات الزجاجية للباب الأمامي وأخذت أركض أسفل التل بينما الشتاء يتهاطل. لم أكد أتجاوز ثلاثة وحدات سكنية حتى لحق بي أبي في السيارة. ركن السيارة جانبا ثم لحق بي مشيا. توقفت ثم استدرت لمواجهته.

"أود التحدث إليك. لا يمكنك أن تفعل هذا مجددا بأمك. لم تكن فكرتي أن ألحق بك."

الحق أنها لم تخطر ببالي في تلك اللحظة وبالتالي فقد تركته يقنعني بالعودة إلى المنزل. كنا غارقين في مياه المطر. حينما وصلنا إلى البيت كانت أمي غارقة في دموعها. مررت بجانبها دون أن ألقي طرفا إليها فزعق أبي: "أنت عديم الرحمة."

كنت قد شرعت في صعود الدرجات. غير أنه ما أن تناهى كلامه إلى سمعي حتى توقفت في مكاني.

صرخت: "أعلم أنك لا تطيق وجودي ذلك أنك كلما نظرت إلي فإنك تدرك حجم الفوضى التي صنعت مني." ثم تابعت: "ليس خطئي إذا كنت على قيد الحياة. لم أطلب منكما أن تنجباني."

"أي كلام أخرق هذا؟" قال بصوت متهدج. ثم وجه وجهه ويديه إلى السقف.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذهبت إلى حجرتي وأوصدت الباب ورائي، ينتابني شعور شخص تم استفزازه للكشف عما كان يفترض أن يبقى سرا مكنونا بين أضلعه. كنت غير راض إطلاقا على سلوكي هذا لأنه جاء نتيجة هوان. كما أن إلقاء السكين الذي كان واقعا ملموسا بدل أن يكون مجرد أخيلة أثار جزعي بسبب إشاراته إلى خطر مستقبلي. فإذا كان من السهل أن أفقد أعصابي في هذه الوضعية، فسيكون من السهل أيضا أن أفقدها في وضعية أخرى حيث ستكون النتائج وخيمة. وكما جرت العادة عزيت نفسي بأنه مادام أن الحادث مر بسلام فلا شيء يدعو للقلق.

اقتنيت تذكرة على متن عبارة أمريكية قديمة تسمى ماكيبورت. لم يكن هنالك سوى مسافر آخر على متن العبارة، وهو كونت فرنسي انفصلت عنه زوجته الأمريكية في كاليفورنيا. كان دَيدنه أن يحمل ألبوما كبيرا من صورها كلما ذهب إلى حجرة الطعام، غير أنه كان غالبا ما يلازم قمرته. كان الأمر مفهوما ذلك أننا واجهنا عاصفة عنيفة في اليوم الثاني بعيدا عن نيويورك. ولمدة أيام متصلة كانت الأمواج تلطم السفينة كما لو كانت ثورا مائيا يتخبط في حفرة من الوحل. كانت أرضية غرفة الأكل وغرفتي المحاذية لها مغطاة بالماء وكانت مياه البحر تندلق من جهة إلى أخرى وترتطم بالجدران. وضعت حقائبي الواحدة على الأخرى فوق السرير الفارغ وطلبت من المضيف أن يضع صندوقا فوق العوارض وأن يثبتها بين الجدران وصندوق خزانة الملابس. كان من الممكن أن أقع نهب الدوار البحري غير أنني اعتبرت المسألة قضية شرف فكنت أتمشى على سطح السفينة لساعات بينما تهب الرياح ويهمي المطر. كنت أتنفس الهواء بعمق. نجحت الخطة فلم أشعر بالدوار أبدا. بعد أسبوع من العاصفة والاضطراب لمحت ذات صباح طائرا يحلق خلف السفينة فسألت القبطان وكلي أمل إذا ما كنا نقترب من جزر سيلي. "لا إننا على مسافة كبيرة من الضفاف الكبرى،" أخبرني. استغرق وصولنا إلى لوهافر ثمانية أيام أخرى.

وهناك كانت باريس تلوح في الأفق بينما أخذت الأشجار في ساحة التويلري تبرعم والرائحة الجميلة للسائل المطهر لقطار الأنفاق تنبعث من تحت الأرض كما كنت أستحضر ذلك لآلاف المرات خلال العشرين شهرا الماضية. لم أكن أتوفر سوى على ثلاثة أسابيع قبل أن يأتي آرون من نيويورك ويأخذني معه إلى برلين.

أولى الأشياء التي قمت بها هو الذهاب إلى شارع 27 دوفلوريس والبحث عن منزل جرترود شتاين. حينما طرقت الجرس، فتحت خادم الباب وأخبرتني بأن الآنسة مشغولة. كان صوت النساء ينثال من الأعلى فأخبرت الخادمة بأنني أتيت حالا من أمريكا وأرغب بزيارتها ولو للحظة. طلبت مني الخادم أن أنتظر في الخارج. بعد حين ظهرت جيرترود شتاين. كانت تبدو كما في صورها، باستثناء أن التعابير التي تعلو محياها كانت أكثر إمتاعا. "ما الأمر؟ من أنت؟" سألتني. أخبرتها عن هويتي فسمعت لأول مرة كركرتها البديعة. ثم أشرعت الباب لكي أدخل. بعد ذلك نزلت أليس توكلاس السلالم إلى الأسفل فجلسنا في القاعة الكبيرة التي تغطي جدرانها لوحات بيكاسو. "كنت على يقين من خلال رسائلك بأنك ستكون شخصا متقدما في العمر، على الأقل في الخامسة والعشرين،" أخبرتني جترورد شتاين. وأضافت توكلاس: "شخص كبير وفي غاية الغرابة. كنا على يقين بشأن ذلك." دعوني للعشاء في الليلة الموالية لمقابلة برنار فاي.

اقتصر علينا العشاء نحن الأربعة. كنت موضع أسئلتهم، لذا فإن أجوبتي بدت مصدر متعة وإعجاب. أعجبت كثيرا ببرنار فاي الذي كان يتحلى بالصبر والإثارة التي تتأتى أحيانا نتيجة المعاناة الجدية الطويلة. خلال السنين المبكرة من حياته أصيب فاي بالبوليو والآن يواجه صعوبة كبيرة في التحرك. ألحت جترورد شتاين بأن اسمي الحقيقي هو فريدي وليس بول، هكذا فقد انبرى ثلاثتهم منذ تلك اللحظة بمناداتي فْريدي (في الأخير اختصرت أليس توكلاس الاسم ليصبح فقط فْريد كلما همت بالمناداة علي.)

"هذا هو الموسم المناسب لجعل فريدي ينطلق،" أعلنت جترورد شتاين التي كانت في مزاج رائق بعد العشاء حينما كنا نجلس في الصالة. "سنجعل فريدي ينطلق!" هكذا امتد الحديث إلى الأشخاص الذين يجب أن أتعرف عليهم. تواصل السرور والضحك وكانت هذه هي نهاية الموضوع. بعد مرور بضع ليال، تناولنا العشاء معا بمنزل شقيق برنار فاي. صدرت مؤخرا مجلة تدعى *نيو ريفيو* في باريس وكان المشرفون عليها هم صامويل بوتنام، وعِزرا باوند وريتشارد توما. في منزل الأخير التقيت ذلك الصباح عِزرا باوند، رجل طويل القامة تغطي وجهه لحية حمراء. ولاحقا تناولت معه العشاء. بعد ذلك ذهبنا إلى منطقة فونتاني أو روز

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لمقابلة بوتنام. أعجبت كثيرا بباوند وخلال العشاء أثرت اسمه. "أوه لـــن أســتقبل عِزرا في بيتي مجددا،" قالت جترورد شتاين. ثم تابعت: "كل ما يقوم به هو الجلوس لنصف ساعة. حينما يغادر يكون الكرسي والمصباح قد تكسرا." "و كذلك إبريق الشاي،" تضيف أليس توكلاس. "عزرا شخص رائع،" تتابع جتـــرورد شـــتاين، "لكنني لا أستطيع استقباله في المنـــزل. هذا كل ما في الأمر." بدا لي الأمر في غاية الغرابة إلى أن علمت ذات زوال خلال حفل شاي بمنـــزل برنار فاي أن جترورد شتاين كانت قد أرسلت لمعارفها رسالة واحدة تخبرهم فيها بأنه من الآن فصـــاعدا ستكون في غنى عن صداقة باوند. استعصت عبثية هذا السلوك على التصديق، غير أن اثنين من معارفها الذين توصلا بهذه الرسائل، وهما فيرجيل تومســـون وبافيـــل تشلتتوي، كانا حاضرين لتأكيد ذلك. كانت هذه هي المرة الأولى التي ألتقي فيها تومسون. كنت منـــزعجا قليلا من الطريقة الفظة التي يعلن بها عن أحكامه. نظرا لسذاجتي، فإنني كنت أتصور بأن رغبة المرء في أن يظهر بمظهر الشـــخص المـــرح تعكس لا محالة غياب هدف جدي لديه.

ذات يوم حينما كنت بمنـــزل جترورد شتاين وصلت ماريا جولاس. "أعتقـــد بأنك نشرت بعض مواد فريدي في مجلة عبور،" أخبرتها جيترورد شتاين حينما قدمتني لها. بدت السيدة جولاس حائرة جدا. بعد أن غادرت، ناقشنا فقدانها المريب للـــذاكرة الذي بدا لمضيفتاي أمرا مصطنعا. فجأة سألتني أليس توكلاس: "بالمناسبة هل أرســـلت لهم برسالة تطالبهم فيها بالمقابل المادي؟" ضجوا بالضحك حينما أجبت دفاعـــا عـــن نفسي: "لقد كانوا مدينين لي لمدة سنة." ثم أعلنت جترورد شتاين برضا: "إنهـــا نهايـــة عبور بالنسبة لفريدي." حينها أدركت بأنها لم تكن تحب المجلة ولا الأشخاص الـــذين يسهرون عليها. في يوم آخر أخذني توما إلى شارع فينيون لزيارة جون كوكتو. دعتنا خادم إلى حجرة كان أحد جدرانها عبارة عن سبورة ضخمة تغطيها بعض الخربشـــات وشرائط العكرونة وكانت هذه السبورة هي الحيز الذي يترك فيه الأصدقاء رســـائلهم حينما يكون كوكتو غائبا عن المنـــزل. على جدار آخر تدلى إيزار عريض من الورق بني اللون حيث خطط بيكاسو بعض الرموز والأشكال الهيروغليفية. انتظرنا قليلا وبعد ذلك ظهر كوكتو وقادنا إلى حجرة أوسع. كان شديد النحافـــة والتـــوتر كمـــا أن الاضطراب الثابت والمعبر ليديه كان بمثابة كوريغرافية صُممت بكمال لتناسب مجـــرى

حديثه. لمدة ساعتين كان يتحدث دون أن يبقى جالسا لأكثر من دقيقة في مكانه. فيما تبقى من الوقت كان يقوم بألغاز، ويوضح ملاحظاته عن طريق الميم والكاريكاتير ويغير وضعيته وصوته ليعطي مظهرا حقيقيا لكل محكياته. فآنا كان يزحف على الأرض في محاكاة للدب وآنا أخرى يغدو صورة حية لشخصيات البوابين في المسرح الضخم الجديد بباريس الذي يمقته. أعجبت بهذا الأداء. خلال مناسبة أخرى ذهبت لزيارته غير أنني التقيت عند الباب بجون ديبورديس الذي أخبرني بحزم قبل أن يغلق الباب بأن السيد كوكتو يغط في نوم عميق. حينما أخبرت توما بما حدث، قال: "أوه لقد كان يدخن الأفيون." كنت قد أنهيت للتو قراءة *الأفيون، دفتر التداوي من التخدير* وببلاهة تصورت بأنه ما أن يعالج المرء من التخدير فلن يعاود تعاطيه مرة أخرى.

بات آرون كوبلاند على وشك الوصول إلى باريس. كنت أعلم بأنه سيندهش كثيرا حينما أخبره بأنه منذ آخر مرة كنا معا قد التقيت بجرترورد شتاين وكوكتو وهكذا حينما دعاني رسام أمريكي إلى مرسمه قائلا بأن أندري جيد سيكون هناك فقد عزمت على التواجد. قابلت جيد فعلا؛ هناك في زاوية من زوايا المرسم أخذنا نتحدث ربما لدقيقتين وكنت منتشيا لفكرة أنني أوجد في حضرة المُعلم لدرجة أنني لم أكن واعيا بموضوع الحديث. وهكذا كان الأمر؛ غير أنه سيكون لدي الآن اسم جديد أضمه إلى القائمة حينما يحين موعد إعطاء آرون كشفا بكل ما قمت به خلال فترة غيابه. يمكن للمرء أن يتوقع بأن شابا في العشرين من عمره قد تجاوز هذا النوع من التفكير والسلوك، أو على الأقل أنه واع بعبثيته؛ لكن الأمر كان مخالفا بالنسبة لي. ذهبت لمحطة لازار لمقابلة آرون، ولم نكد نستقل التاكسي حتى شرعت أسرد عليه الوقائع المثيرة. كان لدي مفاجأة له أيضا: طلبت مني جترورد شتاين أن أدعوه للعشاء في المساء الموالي. مر العشاء في ظروف جيدة. حينما غادرنا المنزل وكنا نقطع الشارع مشيا أخبرني آرون: "الشيء الوحيد الذي تبادر إلى ذهني حينما فتحت الباب ووقع نظري عليها وهي تجلس هناك هو: يا إلهي المرأة يهودية!"

هكذا انتقلنا إلى برلين. كان آرون قد وضع الترتيبات اللازمة بشأن إقامته في شقة بساحة شتاين في الجهة الشمالية من المدينة. كان علي أن أجد مكانا للإقامة غير أنني تمكنت من تجاوز ذلك في اليوم الأول عبر وكالة عقارية. تقع غرفتي في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

منزل للبارونة ماسينباخ التي ظهر أنها انجليزية المولد وموالية للألمان موالاة أكثر عنفا من الألمان أنفسهم. تحتوي الغرفة على بالكونة تطل على محطة القطارات ببرلين بجوار الشارع الامبراطوري ويمكنني أن أبلغ وسط المدينة خلال خمسة عشر دقيقة مشيا على الأقدام. من حيث شكلها الهندسي تبدو برلين مدينة مرعبة غير أن شوارعها كانت نظيفة ويحيط بها لأميال وأميال أحواض من الجيرانيوم تحظى بعناية فائقة. كل صباح أتناول فطوري في البلاكونة وكان عبارة عن طابق ضخم من القشدة أضعها في شكولاتة أو على طبقة من الفراولة. من الراجح جدا أنني كنت حينئذ أضع الأساس لآلام الكبد التي قضّت مضجعي لسنوات عديدة لاحقا؛ غير أن وجبات الفطور التي تقدمها البارونة تحت أشعة شمس الربيع تعد من بين امتيازات الإقامة في برلين.

كانت برلين تعج بسيارات الترولي في سنة 1931 وبالتالي كانت الشوارع تخلو من ضوضاء السيارات. كما أن أشعة الشمس لم تكن تلك الأشعة المترددة والمتناثرة التي تبقى عالقة في سمت سماء مدن هذه الأيام لكنها تصل مباشرة إلى الأرض كما هي. بإمكانك أن تجلس في مقهى على ناصية شارع في قلب المدينة وتصاب بضربة شمس حقيقية. كان التواجد في مدينة كبيرة تجربة جديدة بالنسبة لي حيث يشعر المرء بتماس لا ينقطع مع الطبيعة. بالطبع للهوس الألماني بالطبيعة جانبه الكوميدي الذي يتجلى في تلك الأماكن مثل الموج بهالينزي حيث تم وضع آلة ضخمة عند إحدى ضفاف الحوض ترسلُ رجالها أمواجا كبيرة ترتطم في الضفة المقابلة. الشيء المهم هنا هو أن يحصل المرء على سحنة برونزية تناسب أعراف اللياقة. فالشحوب يعني الفقر والضعة، أما الجهة الشرقية فهي الحي الشعبي المترامي الأطراف الذي يوجد على مسافة بعيدة عن ساحة الإسكندر. فلا أحد يريد بجرد تذكر وجود تك المنطقة! إن الإلحاح الجنوني على المتعة هو في أحد وجوهه نتيجة للامبالاة بأنه على بعد أميال قليلة فقط يوجد العديد من الأشخاص الذين يتضورون جوعا.

كان إدوارد روديتي أحد الشعراء الذين راسلتهم السنة الماضية للحصول على مواد لمجلة *الرسول*. لم يكتف بإرسال قصائد فحسب ولكنه بعث فيما بعد رسائل تحمل أسماء أشخاص في برلين، من ضمنهم هناك النحاتة روني سينتنيس، وويلفريد

اسرائيل الذي يمتلك أحد أكبر مخازن ألمانيا التجارية وأسماء كاتبين انجليزيين هما كريستوفر إيشروود وستيفن سباندر. اتصلت بالألمان أولا. حينما التقيت إيشروود أخبرني بأنه سيرافقني للقاء سباندر. ذات زوال قطعنا الطريق من ساحة النوليندورف إلى شارع موتس حيث يقيم سباندر في حجرة في علية منزل. ونحن ندخل الحجرة كانت نوافذ المنزل تقابل جهة الغرب والشمس على وشك الغروب. تراءى سباندر ذو الشعر الأحمر والسحنة السمراء من جراء التعرض لأشعة الشمس في الضوء الأحمر كما لو أنه كائن يحترق. باستياء لاحظت الطريقة البيرونية[1] التي يرتدي بها قميصه المشرع حتى الصدر. بدا لي إصراره للإعلان عن وضعه كشاعر بدل مداراته أمرا غير مسبوق إذ أن ذلك يأتي على حساب هويته المجهولة. بالنسبة لي يستأثر الاسم بأهمية قصوى أما الواقع الذي يتمثل من خلاله هذا الاسم فأقل شأنا. في كتاب خاص بمبادئ النحو قرأت مرة العبارة التالية: "السمعة هي صورتك لدى الآخرين أما الشخصية فهي الصورة التي جبلك الله عليها." أربكتني الإحالات إلى الله. كيف يمكن للمرء أن يؤول هذه الإحالات مادام أنه هناك اتفاقا بأن الله هو من بنات خيال الإنسان؟ تجرأت وأخبرت أمي برأيي هذا مؤكدا بأن هذه العبارة لا تعني أي شيء إطلاقا. "أوه كلا." أخبرتني ثم تابعت: "إنها تعني أن الشخصية هي الصورة التي تكونها عن نفسك." كما كنت أتوهم فإن الجزء الذي يمكن معرفته بخصوصي لا يوجد أساسا؛ هكذا فإن الجزء العارف أو المسجل من هويتي لا يستطيع بالكاد أن يدرك أي شيء، إنه يبقى عالما من الهيولى. خلصت إلى أن السمعة شيء حاسم. فسواء كتب سباندر الشعر أو لم يكتب شيئا فهذا دون أهمية؛ أما أن يبقى الأمر غير ظاهر بأي حال من الأحوال فهذا ما يجب أن يحظى بأهمية لديه.

بعد حين أدركت أن ايشروود رفقة سباندر شخص مخالف تماما لايشروود بمفرده. حينما يكونان معا، يطغى الحضور البريطاني على ما عداه فيبدوان كعضوين في جمعية سرية يحيلان باستمرار لأشياء غامضة لن يعرف سرها أي أحد خارج المجموعة. نقلت ارتساماتي إلى آرون فأعجبه الأمر وهكذا اقترح أن نتناول الغذاء معا في يوم من الأيام. على هذا النحو أخذنا نلتقي على الساعة

---

(1) البيرونية: نسبة إلى الشاعر الانجليزي بايرون (1788–1824)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الواحدة بعد النصف زوالا كل يوم على سطح مقهى الوستنز. كان كريستوفر يصطحب معه جين روس: فتاة جميلة عيونها سوداء تقطن في شقة في نفس المنزل في ساحة النوليندورف. كانت هي الأخرى بريطانية لكن من القاهرة. (حينما كتب عنها كرستوفر لاحقا، لقبها بسالي بولز.) خلال اللقاءات التي كانت تجمعنا كان ينتابني شعور بأنه يتم التعامل معي بنبرة ملؤها التعالي وعدم الجدية. يبدو أن آرون حظي برضاهم بينما لم يتقبلوا وجودي لأنهم يعتبرونني شابا غرا أو ربما فقط لأنني لا أثير اهتمامهم. لم أدرك أبدا السبب، إذا ما كان هنالك سبب، لهذا الإقصاء الضمني.

وجدت اللغة الألمانية صعبة في غياب دروس منتظمة. بعد شهر من استقلال علية الحافلات البرلينية، أثرت انتباه آرون بأنني عادة ما أستقل هذه الحافلات دون أن أدفع ثمن التذكرة، ذلك أن بائع التذاكر نادرا ما يطلب مني ذلك. "غير أنه كان دائما ينادي: "هل من شخص دون تذاكر، أليس كذلك؟" سألني آرون. لم تكن لدي أية فكرة غير أنني استحضرت المرات تلو المرات التي نظرت فيها مباشرة إلى بائع التذاكر دون أن أحرك ساكنا. بدا لي أن النظام المتبع نظاما عبثيا ولكن الآن وأنا أدرك معناه فلا يمكنني أن أستقل الحافلة مرة أخرى دون أن أدفع ثمن التذكرة. توقفت عن بدل أي جهد لتعلم اللغة. على الأقل عرفت معنى العبارة السمجة التي كان يلقي بها جيراني عبر شارع غونتسل كلما شرعت في العزف على آلة البيانو الكبيرة التي تمتلكها البارونة[1]. (تحت تأثير آرون كنت أكتب قطعة بيانو صاخبة وغير متجانسة.) كما أدركت أيضا معنى كلمة "أجنبي[2] التي كان أهل برلين غير المتسامحين يطلقونها علي بانتظام؛ لم يسبق لي بتاتا أن كنت في مكان حيث شعرت بأنني شخص غير مرغوب فيه. هكذا في خيالي صعّدت من حال الاختلاف بيننا إلى أن صار عداء مستمرا يطل برأسه القبيح وعملت على التركيز على تفاصيل ودقائق السلوك التي كنت أعلم أنها ستثير غيظهم. من الممكن إثارتهم وذلك بمجرد نقر إيقاع سريع بواسطة قطعة نقدية على طاولة المقهى أو بأن أضع رجلي على الكرسي المقابل أو فقط بطلب مشروبين من عصير الفواكه بتتابع.

---

(1) Fenster Zu أغلق النافذة.
(2) Auslander

فكل ما هو غريب يقض مضجعهم ويغيظهم لأنه لا يوجد في قاموسهم. بطبيعة الحال كان هذا مثيرا جدا بحيث لم أفلح في الإحجام عن عدم الاستسلام له.

كانت أوبرا الملك أوديب لسترافينسكي على وشك العرض بميونيخ ونظرا لأنني لم أشاهدها في السابق فقد توجهت إلى بافاريا أسبوعا قبل الحدث حتى لا تضيع هذه الفرصة من بين يدي. كانت المدينة تزدان بالحدائق والمساحات الخضراء وكان نهر إيزار ينساب عبرها مليئا بمياه تنحدر من الجبال لونها أبيض كلون الحليب. بعد ذلك انتقلت إلى سالزبورغ وسالصناميغغوت حيث قضيت ثلاثة أيام. بقرية تدعى فورغل تسلقت عبر واد صغير وانزلقت إلى مياه ثلجية تصل إلى السرة.

حينما كنت في ميونيخ توصلت بثلاث دعوات، واحدة من جرترورد شتاين تدعوني فيها لزيارتها في القرية. كانت الدعوة الأخرى من الكونشيسة دولافيلات تقترح علي الإقامة في القصر أما الدعوة الثالثة فقد كان علي أن أقرر بشأنها وأتصرف فورا. كان مصدر الدعوة الأخيرة صديق آخر لإدوارد روديتي، مصري يدعى كارلو سواريز يدعوني للذهاب في الأسبوع الموالي إلى هولندا ومقابلة كْريشنا مورتي. أرسلت برقية لآرون أخبره فيها بأنني لن أعود إلى برلين كما كنت أزمع وما أن تم عرض *الملك أوديب* حتى انطلقت نحو هايدلبرغ. أردت أن أجوب منطقة شْلوس وأن أتملى تضاريسها ولكن بمفردي. تتمثل الطريقة الوحيدة للقيام بذلك في الوصول ليلا. بواسطة مصباح صغير وضوء القمر الذي كان يشعشع في الأرجاء أخذت أطوف في البناية بخطى وئيدة. بدا المكان في حالة متقدمة من الانهيار حينئذ حيث تغطي الحفر الأرضية وتعشش الوطاويط في السقف. حاولت أن أحيا اللحظة كما لو أنني أحيا بين ثنايا قصيدة لنوفاليس[1]. في اليوم التالي واصلت الرحلة إلى دفنتر في هولندا. التقاني سواريز في المحطة فتنقلنا بالسيارة إلى كاستيل خارج أومن. تم مَنح هذه الأملاك لكريشنا مورتي من طرف رجل هولندي غير أنه بعد مرور سنين قليلة تراجع عن قراره وطلب استرجاعها. كان سواريز مصرفيا من الإسكندرية يقيم في باريس حيث يشرف على مجلة شهرية تُخصص على نطاق واسع لدراسة أعمال كْريشنا مورتي. أغلب النصوص التي

(1) نوفاليس (1772–1801): شاعر وأحد المنظرين للرومانسية الألمانية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تنشر في المجلة هي من تأليف سواريز بيد أنه بين الحين والحين يورد نصا لجوبوسكي أو روني دومال يدور حول نفس الموضوع أو يكون تنويعا عليه. وقد دأب بين الآونة والأخرى أن يقضي أسبوعين في كاستل إيرد مع كريشنا مورتي كما أن السيدة سواريز هي الأخرى من أتباع كْريشنا مورتي وترافقه أحيانا إلى كاليفورنيا حيث تقضي الشتاء هناك. أذكر ملامح وجه كْريشنا مورتي جيدا ذلك أنه سبق لي أن شاهدت صورته منذ مدة لدى العمة ماري التي كانت تضعها على مكتبها في الهولدن هول، وحينما التقيت به اندهشت حينما لاحظت بأنه لا يزال يبدو كما لو في ريعان الشباب بيد أنه كان يقترب من الأربعين. في الصباح الأول لزيارتي غادر كْريشنا القصر وتوقف على الجسر الذي يمتد فوق الحفرة، وأخذ يلقي بفُتات الخبز إلى إوزة تعيش هناك. كان قميصه مشرعا حتى العنق على الطريقة التي يرتدي بها سباندر قميصه وكان يرتدي سروالا أبيض وسترة فضفاضة قانية اللون. كان يظهر كل صباح بعد الفطور وهو يرفل في نفس الثياب وينثر الخبز فوق السطح المعتم للحفرة. وبعد ذلك تنسحب الإوزة ببطء إلى الركن، بيضاء وعنيفة. إنه طقس لا يتوقف.

في الواقع لم أقم في القصر، ذلك أن حضوري اقتصر على تناول الوجبات. يقيم القاطنون من غير الهنود في مجموعة من الشقق الفاخرة التي تم تشييدها على أحد جوانب مدخل الطريق. داخل القصر يوجد رجل يدعى راجوغوبال الذي كان يلازم كْريشنا مورتي كالظل. غالبا ما يبدوان رفقة اثنان أو ثلاثة من الهنود الآخرين الذين يغشى الجد والحزم تقاسيمهم، ربما قد يكونون السكرتيرين أو مجرد أتباع. تغص الشقق بعدد كبير من الأمريكيين، إضافة إلى امرأة فرنسية توجد رفقة صبية تدعى رولاند والسيدة بوشكين، سيدة روسية عجوز تمتُ بعلاقة قرابة إلى الشاعر بوشكين. كنا نقوم أنا وكْريشنا مورتي وسواريز بنزهات عبر الريف الهولندي الرائع. كما أنني أذكر نزهة قمت بها ذات زوال مكهرب رفقة السيدة بوشكين ورولاند تدثرنا سماء هولندية جهمة. ثمة عاصفة رعدية تلوح في الأفق تبشر عبر الأرض المنبسطة بقرب هطول الأمطار. رأت رولاند أن نركض إلى القصر قبل أن يصعقنا الرعد. ومع أن اقتراحها لم يخل من قليل من المصداقية، فان السيدة بوشكين واصلت سيرها دون اكتراث وهي تطمئن رولاند بأن البرق لا

يمكن أن يصيب المرء بأي مكروه إلا إذا كان يخشى من ذلك. وبالرغم من أن رولاند لم تجاوز الثامنة من عمرها فإنها لم تقتنع بذلك. صرخت في وجه السيدة بوشكين قائلة: "هذا ليس صحيحا. إنها حمولة كهربائية. لقد شرح لي أبي ذلك." غير أن السيدة بوشكين كانت تعتقد بالفعل بصحة رأيها فواصلت اخبار رولاند بأن قوة الذهن تساعد المرء على مجاراة قوى الطبيعة بدل مجابهتها. بيد أن رولاند واصلت مقاطعتها وهي تقفز بتوتر من مكان لآخر، قائلة بأن ذلك مستحيل إذ كيف يمكن للبرق أن يعرف إذا ما كان شخص ما خائفا أو لا. وكما لو أن الطبيعة كانت تتابع مجرى حديثهما صَعق البرق شجرة سنديان ضخمة تقوم هناك وحيدة في الضيعة لمسافة ربع ميل. عقب ذلك زفرت السيدة بوشكين، وهي تلتفت إلى الصبية: "ألا أيتها البنت المسكينة كم أنت مقرفة!" واصلت السير في وجوم بالرغم من أننا كنا نسرع إلى أن بلغنا قصر إيرد.

عزمتُ زيارة سواريز في الشتاء القادم فعدت إلى برلين لاستئناف العمل. لم يكن آرون راضيا إذ انتقد استهتاري وذلك بقضائي الكثير من الوقت في العطل. غير أن كلامه لم يعكر صفو سعادتي.

ذات نهاية أسبوع ذهبنا إلى راينزبورغ فعاملني صاحب الفندق على نحو ألماني نموذجي. فبينما سمح لآرون بأن يوقع اسمه في السجل كمؤلف موسيقي أبى أن أوقع بنفس الصفة. اعترض قائلا بأنه بإمكاني التوقيع كطالب إذا رغبت في ذلك ولكن قطعا ليس كملحن. حاول آرون ثنيه عن قراره ولكن دون جدوى. شطّب كل ما كتبته وأخيرا كمعروف خاص، وقد حرص على تذكيرنا بذلك، أعاد كتابة خانتي الاجتماعية كملحن جاز. هذا أفضل ما يمكن أن يقوم به من أجلي. حين عودتنا إلى برلين كان آرون يحكي هذه القصة كدعابة وقد أصبحت شيئا مسليا.

أحيانا حينما أذهب لزيارة كريستوفر ايشروود لا أجده في المنزل وأسأل عنه الآنسة روس. عادة ما أجدها ممددة في السرير وهي تدخن سيجارا وتلتهم قطع الشوكولاتة وغالبا ما تكون غارقة في أحاديث مطولة مع صديق ألماني أو اثنان يأتيان للسؤال عن إيشروود. كنت لا أفهم هذه الأحاديث باستثناء النزر القليل منها حيث كانت روس توقع ملاحظاتها هنا وهناك بعباراتها الحتمية "أنت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خنــزير." أخبرني آرون بأنني لا أعمل كما يجب. لم يكن هذا مفاجئا ذلك أنــني كنت أُجزي الكثير من الوقت أنتقل من مكان إلى آخر في بــرلين محــاولا لقــاء أشخاص. قررت بأنه علي على سبيل المثال التعرف إلى نعــوم كــابو، النحــات البنائي، وقضيت يوما كاملا في مرسمه هناك بوتسدام بينما كان من الواجب علــي ألا أبرح المنــزل للقيام بواجباتي الموسيقية. في يوم آخــر قــادتني سلســلة مــن الخطابات في نهاية المطاف إلى مكتب والتر كروبوس، المهندس الذي يبدو كــأي رجل أعمال وراء مكتبه. لاشك أنه احتار أمام رغبتي في الحديث إليه، خصوصــا أنني لم أجد ما أحدثه بشأنه. حينما أعلن آرون عن نبأ تنظيم مهرجان موسيقي في باد بيرمونت وعن اعتقاده بأنه علينا الذهاب تحمست للفكرة ذلك أن باد بيرمونت لا تبعد كثيرا عن هانوفر وهناك يقيم كورت شويتر، الألماني الوحيد الذي كنــت أرغب في مقابلته بشدة. بطبيعة الحال لم أذكر أي شيء عن ذلك إلى أن أصبحت في باد بيرمونت. كل ما زلت أذكره هو الحفل الوحيد الذي كان يعزف فيه بــيلا بارتوك وزوجته على آلات بيانو ضخمة، وهما يجلسان قبالة بعضهما البعض علــى المنصة. لا أدري كيف صغت البرقية التي أرسلتها إلى شويترز غــير أنــني أذكــر شعوري بالزهو حينما ذهبت إلى مكتب البريد ووجدت في انتظاري برقيته الــتي يدعوني فيها إلى هانوفر. انطلقت في اليوم الموالي بعد أن عاد آرون إلى برلين.

يقيم شويترز في شقة برجوازية كئيبة. كانت الشقة صغيرة، بسيطة ومؤثثــة بشكل غامق. قضيت ليلتي في الشرفة بعيدا عن غرفة الطعام يحف بــي الزجــاج. كان هنالك صندوق ضخم إلى جانب مرقدي. في الليلة الأولى فوجئت بســماع حركات واضحة في الصندوق. خلال الفطور لم أستطع أن أقاوم رغبتي في الإشارة إلى الظاهرة. كل ما في الأمر هو أن الصبــي ذو الاثنتا عشر ربيعا كــان يحــتفظ بفئران تجارب في الصندوق. ذهبنا ذلك اليوم إلى مكب للنفايات في المدينة وسرنا لساعتين بين القاذورات، والرماد وقطع الخردة، نجمع المواد التي سيستعملها شويترز كمواد للبناء في الشقة السفلى. خلال رحلة عودتنا على متن عربة التــرولي أخــذ الناس يحدقون فينا بفضول إذ كنت أنا وشويترز وابنه نحمل سلالا مــن الأزبــال. ضمن تلك الأشياء كانت هنالك قطع من الأوراق والأسمال، إضــافة إلى أشــياء معدنية مكسرة ولفافة مستشفى قديمة وصلبة. كل هذه الأشياء ستتحول إلى مواد

للبناء. كان الغرض هو إقامة منــزل داخل الشــقة، متحــف شخصــي حيــث تعرض كل الأشياء وتكون قاعات العرض جزءا لا يتجزأ من العمل الفني المصــاغ بأناة.

يشكل فن الميرز مفهوم شويترز عن الدادائية، وتبدو تجلياته أكثــر بــروزا في قصائده وقصصه. تلك الليلة وضعت السيدة شويترز صحنا ضخما من الفراولــة على طاولة غرفة الطعام. هكذا خطرت لنا فكرة تحضير شراب أيار. ذهبــت إلى دكان مجاور واشتريت قارورة من الكحول زعم آل شويترز بأنه لم يسبق لهــم أن تذوقوا مثيلا لها. هيأت السيدة شويتر الشراب وتناولناه جميعــا، بمــا في ذلــك الصبــي. كان الطعم سيئا غير أن حبات الفراولة غدت أفضــل مــذاقا بعــد أن تشربت الكحول. حينما شعر شويترز بدبيب السعادة يدب بين حناياه طلبت منه أن يلقي علينا بعضا من قصائده ذات المقاطع اللفظية المنفصلة فقام بذلك بحمــاس كبير.

سجلت الكلمات والإيقاع والتنويعات الصوتية ووظفتها لاحقا كمــا هــي كإطار لموضوع المقطوعة الموسيقية الخاصة بسوناتة آلتي المزمار والناي. ونــزولا عند رغبة مضيفي عزفت قطعتان أو ثلاث. سأل شويترز ابنه: "ما رأيك؟" فأجاب الصبــي: "فظيع" دون أن يعبأ بتفسير ردة فعله.

عدت إلى برلين. كانت الليالي تزداد قصرا حتى أن السماء لم تكن معتمة تماما سوى لساعتين في اليوم. تأخذ طيور الدوري في الزقزقة للحظــات بعــد الثانيــة صباحا. راودني الإحساس بأنني سئمت هذه المدينة الغريبة البشعة التي باتت تهــدد وجودي على نحو غريب، وأخذت أفكر في العودة إلى باريس. لعل شــعور عــدم الارتياح الذي خلقته برلين لا يمت بأي صلة لعلامات الصليب المعقوفة التي باتــت تعلق باستمرار على الجدران أينما ذهبت. كان هتلر شخصــا مهمــا؛ متعصــب نمساوي معتوه يتحلق حوله جماعة من الأوغاد الشباب. الكل يقول ذلك. الكــل باستثناء بعض الأشخاص الذين التقيتهم في صالون البارونة فون ماسينباخ والــذين يعتقدون بأنه يشكل خلاص ألمانيا. كان هناك أيضا شاب أرستقراطي فريد مــن نوعه يدعى فون براون دعاني إلى منــزله لتناول الغداء مع العديد من أصــدقائه. قبل الشروع في الأكل انتصب واقفا للحظة وأشار بشكل مســرحي إلى شــجرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عائلته المعلقة على الجدار: "هذا ما لن يدركه الأمريكيون في أي يوم من الأيام. قيمة الأمريكي تكمن فقط في عدد الدولارات التي توجد في جيبه." ولما جلس أخيرا وأخذنا نتناول الطعام انبرى يفسر كيف أن هتلر هو الأمل الوحيد القادر على تطهير روح الشعب الألماني من كل الأوضار التي علقت بها. لو اتفق أن التقيت بهؤلاء الأشخاص بعد مرور سنة على هذا الحدث لتعرفت عليهم كنازيين غير أنهم كانوا في سنة 1931 مجرد مجموعة من الألمان المعتوهين. ناهيك عن أن استقلال الحافلة على طول جادة رينغبان جعل برلين تبدو في الحقيقة مكانا ينذر بالخطر. باستثناء الأماكن التي أعرفها مسبقا، كانت المدينة عبارة عن تجمع سكاني عشوائي مترامي الأطراف، تجمع لا إنساني لبنايات غير قابلة للسكن. لعل منظرها وحده وامتدادها الجغرافي إضافة إلى درجة الفقر المدقع الذي تمثله جعلني أشعر بالضيق والتبرم. فجأة غدت هالة اليأس التي وجدتها في البدء محفزة عامل توتر وتهديد.

قبيل الانطلاق إلى باريس التقيت جوليان ليفي. حينها كان يعتزم فتح رواق في نيويورك لعرض الصور الفوتغرافية. بعد أسبوع في باريس صادف العيد الوطني لسقوط سجن الباستيل، وبينما كان آرون في لندن ذهبت إلى سطح الدوم. وصل بعض الأصدقاء رفقة فتاة رائعة الجمال ترتدي قميص سباحة قصير جدا. كل ما يتعلق بمظهرها يوحي إضافة إلى جمالها إلى أنها خرجت للتو من شاطئ على (جوان لي بان) الشيء الذي، كما أوضحت لي بشكل ساحر، هو ما جرى تحديدا. ففي فورة نزق صعدت القطار الأزرق على هذه الشاكلة دون ملابس أو أمتعة مع العلم أنه لا توجد إمكانية لشراء أي شيء لثلاثة أيام أخرى بسبب عطل الرابع عشر من تموز. ماذا ستفعل؟ رفعت منكبيها استهانة وهكذا غرقنا في الضحك. غير أنه بعد حين كان علينا أن نجد مخرجا ذلك أن النادل أخبرنا بأن صاحب المطعم يعترض على وجود الفتاة العارية على سطح الدوم. كنا نطلب الكثير من المشروبات كما أن الصحون أخذت تتكدس فوق بعضها البعض وهكذا شعرنا بميول للاحتجاج. اقترح صاحب المطعم اقتراحا بدا لنا معقولا وهو أن ننتقل إلى الطابق السفلي. اعتبرت جاكلين ذلك حلا مثاليا ذلك أنها سئمت من نظرات المتطفلين. واصلنا الشرب في ركن من الطابق السفلي إلى جانب مرحاض النساء.

خلال هذه الأثناء وصل جوليان ليفي وأخذ يشاركنا الشرب وقد تعلقت عيناه الصغيرتان بجاكلين. حينما علم بمأزقها غدا في غاية الجدية وأخذ يبحث في مذكرته عن امرأة في قياس جاكلين يمكن أن تتواجد في باريس خلال موسم العطل. فجأة سألني: "ألا تعرف أي أحد؟" أخبرته بأنني لا أعرف أي أحد هنا غير أنني أخرجت محفظتي وأخذت أقلب طرفي بين البطائق وقطع الورق إلى أن وصلت إلى بطاقة تحمل اسم إيفا كولديك وعنوانها بشارع راسباي. إنها زوجة مارك بيلتزشتاين الذي اقترح علي القيام بزيارتها. "لدي شخص يمكن أن يساعدنا بالرغم من أنني لا أعرفها."

كان رأي جوليان أن أتصل بها فورا. فعلا اتصلت بها وكانت في المنزل فسألتها إن كان بالإمكان أن أمر عليها. بعد تردد وافقت على زيارتي وهكذا رجعت إلى الطاولة يغشاني شعور بالزهو. بعد مشروب آخر قمت من على الطاولة وانطلقت باتجاه مسكن إيفا كولديك. سمحت لي بالدخول غير أنها بدت منزعجة من آثار الثمل البادية علي واحتارت من المجرى الذي اتخذه حديثنا.

"لقد أخبرني مارك بإمكان زيارتك لي."

"هل تملكين فستانا يمكنني استعارته؟" حاولت أن أرسم لها صورة للوضعية الاستعجالية التي خلفتها ورائي في الدوم غير أنها بدت محتارة ومستاءة. كانت تكرر: "أتت إلى باريس في بدلة سباحة!"

حاولت استمالة عاطفتها: "إنها تخشى الاعتقال. لهذا السبب إذا كان لديك أي شيء قديم، أي شيء، فإن ذلك سينقد الموقف."

بدت ايفا محتارة غير أنها قالت: "انتظر."

بعد حين غادرت غرفة النوم حاملة ثلاثة فساتين في يدها. أخذتُ الفساتين، وشكرتها ثم انطلقت جريا نحو الدوم. وعدتها بأن أعيد لها الفساتين ما أن تتمكن جاكلين من الوصول إلى متجر لبيع الملابس.

كانت جاكلين فتاة طويلة القامة وإيفا كولديك قصيرة، ومع ذلك فإن التناقض في القامة لم يكن سببا كافيا لتفسير ما حل بالفساتين حينما عدت بها إلى الدوم. حملتها جاكلين إلى مرحاض النساء؛ وبعد خمسة عشرة دقيقة عادت إلى الطاولة تبدو زاهية في الفساتين الثلاثة حيث قامت بتقطيعها جزئيا ودمجها بدقة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كبيرة. قالت لي: "حسنا ستغضب صديقتك حينما ترجع إليها الفساتين." طمأنتها بأن كل شيء سيكون على ما يرام غير أنني بطبيعة الحال لم أرجعها أبدا. (بعد مرور سنتين أو ثلاث علمت من مارك بيلتز شتاين بأن الأمور لم تكن إطلاقا على ما يرام.) مر ما تبقى من اليوم بين سحابات الكحول. آمل أن يتذكر جوليان ذلك جيدا لأنه في الأخير هو الذي أخذ جاكلين إلى فندقه حيث أمضت معه بقية أيام العطلة.

بعد أيام انطلقت إلى قصر دولافيلات. هذه المرة كان هناك العديد من الأطفال الصغار. كانت لديهم آلة فونغراف على شكل لعبة يستمعون إليها طول اليوم وكانت أسطوانتهم المفضلة أغنية شعبية تعرف ب "القسطنطينية." كنت مشغولا بإرسال رسائل إلى جيترورد شتاين في مسعى لترتيب أموري بحيث أنطلق مباشرة من القصر لزيارتها. غدت الكونتيسة دو لا فيلات التي كانت لا تزال مشغولة بطرزها فضولية. ذات مرة سألتني: "من تكون هذه المرأة؟" حينما أخبرتها بأنها شاعرة مشهورة وقلة هم الأشخاص الذين يفهمون أعمالها، طلبت مني أن أستظهر لها سطرا واحدا من شعرها. ترجمت لها سطرا أذكره من قصيدة "عقد رقيقة": "القليل من الخيط يصنع العقد." هزت رأسها علامة الموافقة وقالت دون أن ترفع نظرها إلي: "آه! نعم والطرز الانجليزي يصنع بثرة."

التقتني جيترورد شتاين بمحطة كولوز برفقة أليس توكلاس وباسكيط، الكلب الأبيض. وخلال الطريق إلى بلغنين أعدت عليها ملاحظة السيدة دولافيلات. كانت سعيدة جدا: "أرأيت كم هم رائعون هؤلاء الفرنسيون!" بعد ذلك سألتني أليس توكلاس عن رأيي بشأن الألمان. حين شرعت في الحديث، قاطعتني جترورد شتاين قائلة: "نحن نعتقد بأنهم أشخاص مرعبون." لم تعد هناك أية حاجة للمزيد من الكلام حول هذا الموضوع.

يبدو المنزل عتيقا جدا: قصر مصغر ذو أرضية تنحرف في اتجاهات مختلفة ويقع مباشرة على طول الشارع الوحيد في قرية بلغنين حيث توجد في الغالب أبقار أمام الباب. داخل الجدران السميكة يسود هدوء جميل، شيئا ما أقرب إلى مزرعة (الثقب السعيدة)، تتخلله أصوات بعيدة للقطيع وصياح الديكة. إذا ما سرت مباشرة عبر المنزل فإنك تجد نفسك في حديقة يحدها مِتراس. ثمة واد في الأسفل

غدت أعشابه الخضراء لا تتحرك نظرا لطوابير من أشجار الحور السامقة التي تظلل النباتات المحيطة. (بإمكان المرء، كما أخبروني، أن يرى في يوم ناصع الجبل الأبيض وهو ينتصب في الجهة المقابلة.)

لم يكد يمر الكثير من الوقت لكي أدرك بأنه بينما كنت أحظى بتعاطف جترورد الشخصي فأنا بالنسبة لها قبل كل شيء حالة سوسيولوجية. بالنسبة لها كنت المثال الأول لنوعي. منحها هذا اللقاء الأول فرصة للتعرف على نوع من الأشخاص كان حينها نادرا، لكنه الآن أكثر وفرة ضمن الظواهر المعاصرة، لطفل الضواحي الأمريكية الذي لا يبالي بأي شيء. كانت تتحرق لمعرفة كل التفاصيل المتعلقة بحياتي الأسرية. أثارتها خصوصا أنشطة أمي لدرجة أنها قامت بمراسلتها بعد أن غادرتُ. (لاحقا حينما أثرت الموضوع أخبرتني أمي: "آه نعم. لقد أجبت على رسائل العجوز سوفي والمسكينة أليس. ب. لا كليس. لقد أرسلت لهم بعض وصفات الجدة باركرز.) بعد حوالي الأسبوع أصدرت جيترورد شتاين حكمها: "أنني أكثر الشباب دلعا، وأفتقر إلى الحس أنني أناني، كما أن استسلامي الجارف لرفض كل القيم يصدمها." غير أنها قالت ذلك بانتشاء؛ لذا فإنني لم آخذ كلامها مأخذ النقد اللاذع. ثم ختمت حكمها قائلة: "إذا كنت نموذجا فإن هذا سيكون نهاية حضارتنا. أنت متوحش مفبرك."

كانت تيريز تحمل إلي الفطور كل صباح بينما لا أزال في غرفتي؛ وبعد ذلك تسحب سطلا طوله قدمان من الماء البارد لكي أغتسل. كان يفترض أن أقف وسط حوض حمام معدني دائري صغير وأن أسكب الماء على نفسي. بعد قليل تحمل تيريز آنية صغيرة من الماء الساخن للحلاقة. ومادمت أرى أن الماء البارد مفيد للاستحمام، فإنني كنت أستحم قدر المستطاع بخرقة، مستعملا القدر القليل من الماء الساخن وأترك الماء البارد دون أن ألمسه. بعد أيام قليلة أخذت جيرترورد شتاين تستجوبني: "تقول تيريز بأنك لا تستحم في الصباح." حينما أبديت احتجاجي، شدت الخناق حولي وهي تلح بأنه علي استعمال الماء البارد. كنت قد مررت عبر تجربة الماء البارد كطفل صغير حينما كان أبي يرغمني على الاستحمام بالماء البارد كل صباح، وقد قررت بألا أستعمل الماء البارد مجددا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أخبرت جيترورد شتاين بكل ذلك غير أنها حركت رأسها يمنة ويسرة. أخيرا نفذ صبرها: "لا يهم إن أحببت ذلك أم لا. ما أقوله هو أنه عليك استعمال الماء الذي تحمله إليك تيريز. الأمر بسيط." بعد ذلك انطلقت في محاضرة موجزة عن الأمريكيين وكيف أنهم أقذر الكائنات البشرية على وجه الأرض. ذلك أنه إذا تعذر وصولهم إلى الحمام فإنهم قد يستغنون عن الاستحمام. منذئذ أخذت تقف خارج باب غرفة نومي في الصباح وهي تنادي بصوت خفيض رخيم: "فريدي هل تأخذ حمامك؟" فأقوم أنا بدوري بالحركات المناسبة وأخبرها بأنني أفعل. ثم تتابع بعد فترة قصيرة: "لا أسمع أي شيء."

-حسنا إنني أستحم.

ثم تنتظر مجددا حوالي الثلاثين ثانية قبل أن تقول: "حسنا باسكيط في انتظارك."

ونظرا لأن للكلب الضخم باسكيط شعر أبيض ناصع فقد كان لزاما أن يحظى هو الآخر بحمام كامل في صحن مليء بماء السولفور كل صباح. تقوم أليس توكلاس بهذا العمل بكل تفان وتقضي ساعة للقيام بهذا الواجب. يتم تنظيف الكلب تماما كما لو كان رضيعا فيصرخ ويئن خلال الساعة كلها. حينما يتم تأخير وقت الاستحمام إلى وقت لاحق لسبب ما، فانه يقوم بالصراخ في الوقت المعتاد ويواصل النباح إلى أن يحظى بحمامه. حينما ينتهي الاستحمام في الصحن بواسطة الفرشاة والقطيفة يكون شغلي أن أخضع باسكيط لتمرين التجفيف. يتكون هذا التمرين من الجري إلى الأمام ثم إلى الخلف عبر الحديقة بينما يتبعني الكلب. للقيام بهذا العمل علي أن أنتعل زوجا من الأحذية تصل تحديدا فوق ركبي. هذه ما كانت جترورد شتاين تلقبها ب الفونتيز (تحيل بطبيعة الحال إلى السراويل التي يرتديها السيد فونتلوروي الصغير.)

-حسنا إنك ترتدي هذه الأحذية. هذا جيد. أُخرج فباسكيط في انتظارك.

أبدى باسكيط وهو يجري رغبة حقيقية في تعقبي وخدش الجهة الخلفية لرجلي بمخالبه. تتدلى جيترورد شتاين من نافذة في الطابق الثاني وتهتف بين حين وآخر بينما تشاهدنا: "أسرع فريدي! أسرع." لم أكن بحاجة لهذه النصيحة ذلك أن مخالب باسكيط الحادة لم تكن لتمهلني ولو لحظة من التكاسل. حينما أنادي

بدوري: "ألا يكفي هذا؟" كانت ترد دون تفسير: "كلا عليك مواصلة السير." يقينا كانت شتاين تجد متعة فيما أتعرض له من متاعب. لكن ما دام أن هذا السلوك يبدو لي علامة على نوع من العلاقة الأكثر حميمية فقد شعرت بالإطراء لما توليه لي من رعاية.

في يوم من الأيام توصلنا ببرقية يسأل صاحبها إذا ما كان بإمكانه زيارة بلغيني الأحد المقبل. ثم تضيف البرقية: "إنني في أوربا خصوصا لإجراء مقابلة معك أنت وج. ب. شو." وكان التوقيع يحمل اسم فاتي باتشر. سعدت جيتروورد شتاين بالاسم ومع ذلك فقد همست: "ماذا يريد من شو؟" حينما حل يوم الأحد، بدل أن يكون الضيف رجلا ثقيل الظل كما كنا نتوقع، وصلت سيدتان أمريكيتان ترفلان في ثياب باهظة الثمن، وقدمت إحداهن نفسها على أنها فاتي باتشر عن جريدة التريبيون من شيكاغو. حملت الخادم معاطفهن إلى الطابق العلوي حيث ذهب باسكيط مباشرة وتغوط فوقها. لم يكتشف الأمر إلا بعد مرور وقت طويل عندما كانا يهمان بالمغادرة. اعتذرت شتاين ثم رفعت منكبيها قائلة: "انه لا يحب زيارة الغرباء." قامت خادم بتنظيف سريع وذهبت الآنسة باتشر سعيدة بجوارها.

مثلت أوقات الطعام فرصا جيدة للتعرف عن كثب على مضيفتي. كان هذا يشيع جوا من التناقض؛ حيث تنتقل الكلمات أحيانا من أمامي من جانب من المائدة إلى الجانب الآخر، كما لو كانت كرة طاولة. "و لكن، لوفيت أنا لم أقل ذلك." "أوه بلى فعلت بوسي." لا تفقد أي واحدة منهن جزءا، ولو جزءا، من هدوئها بالرغم من أن جترورد شتاين تبدو منزعجة حيث يحتقن وجهها على نحو ملحوظ. حينما ينفجر بينهما نقاش حول تفصيل ما، فدائما ما تبرهن أليس توكلاس على صحة مواقفها؛ لكن ما أن تفقد خيط الكلام حتى تبتسم جيترورد شتاين بمكر وبإشفاق مزيف، كما لو أن المسألة برمتها لا تعني شيئا، سواء كان المرء محقا أو على خطأ. يأكلان بشراهة غير أن أليس توكلاس تفضل طعامها ساخنا بينما لا تهتم جيترورد شتاين لدرجة حرارته. تحب جترورد أن تتسكع في الحديقة بعد أن تكون الخادم قد وضعت الطعام على المائدة حتى تشاهد ما تعتبره رغبة توكلاس المرضية للدخول إلى المنزل والجلوس إلى المائدة قبل أن يبرد الطعام.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذات زوال طلبت مني شتاين أن أحضر بعض قصائدي لكي تطلع عليها. بعد أن نظرت إليها بعناية، تمددت في كرسيها وتأملت للحظة. بعد ذلك قالت: "حسنا. المشكل الوحيد بخصوص كل هذه الأشياء هي أنها ليست شعرا."

-ما هي إذن؟

"كيف لي أن أعرف ذلك؟ أنت من كتبها وأنت من عليه بالتالي أن يخبرني عن ماهيتها. إنها ليست شعرا. أنظر إلى هذا." ثم أشارت إلى بيت أعلى الصفحة: "ماذا تقصد بالسراويل الخنفسية الدافئة؟" فالخنافيس لا تتنفس. بينما باسكيط يفعل، أليس كذلك باسكيط؟ ولكن الخنافيس لا تفعل. وهنا لديك سحاب أرجواني. كل هذا غير صحيح."

أخبرتها بإيجاز: "لقد كتبت ذلك دون تدخل واعي مني. لست المسؤول. لم أكن أعلم ما الذي كنت أكتبه."

"نعم نعم. لكنك لاحقا أصبحت على علم بكل ما كتبته، وكان الأجدر بك أن تعرف بأنه غير صحيح. كل هذا خاطئ ومع ذلك أرسلته إلى مجلة عبور. نعم أعلم أنهم نشروه لسوء الحظ. لأنه ليس شعرا."

كانت جترورد شتاين قد دشنت ما أسمته الطبعة العادية التي ستضم سلسلة من الأجزاء تنشر على حسابها الخاص. حمل الكتاب الأول على نحو جميل عنوان *كنيسة لوسي*. كان العمل رواية وصفية تتخذ من الكنيسة الصغيرة الموجودة في قرية لوسي المجاورة شخصيتها المركزية. ذهبنا مرتين في السيارة للنظر إليها وقد بدت شتاين مأخوذة بالتعارض بين منارة البناية التي تبدو سلافيكية إلى حد ما، والمنظر الفرنسي بامتياز حيث تقع.

ذات يوم خلال فترة الزوال طلبت مني أن أقرأ لها فصولا من كتابها *الأوبرات والمسرحيات*، نسخة من الطبعة العادية كانت تقوم بمراجعتها. بين الحين والحين كانت تضحك إعجابا وما أن تتوقف عن الضحك حتى تقول: "هذا رائع! أعد قراءة تلك الفقرة مرة أخرى. هلا تفعل فريدي."

في أحد الأيام أعلنت بأننا سنذهب جميعا إلى إكْس ليبان للتسوق. ارتجفت أليس توكلاس وهمست: "أوه، لوفيت. ليس عبر النفق."

"بطبيعة الحال سنذهب عبر النفق. لن نقطع كل الطريق حول دون دوشا."

"يتقاطر الماء من النفق،" انبرت أليس تشرح لي موقفها. "أنا لا أحب الأنفاق. بطبيعة الحال جيترورد تحب الأنفاق. إنها ستمر دائما عبر النفق كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا."

ذهبنا عبر النفق. أبانت أليس توكلاس عن بؤسها، وحتى باسكيط بدا منزعجا من ذلك. في اكس ليبان أرسلتُ برقية لآرون في أكسفورد حيث كان يحضر مهرجانا موسيقيا أخبره فيها بأنه مدعو لبلغنين كما أن عليه أن يبلغنا بموعد وصوله. في السوق وقع نظر جيترورد شتاين على سمك ضخم ألحت رغم احتجاجات أليس توكلاس على شرائه. إضافة إلى الأغراض الأخرى حملت السمك إلى السيارة وعدنا عبر النفق إلى بيلي ومن ثم إلى بلغنين.

بينما كان يتم طهو السمك انبعثت منه رائحة مقززة. وحينما تم سحب الغطاء بدا منظره مقززا تماما على صفحة وجه شتاين الصقيلة. قررت أن أكتفي بوجبة من الخضراوات غير أن ذلك لم يكن ممكنا إطلاقا. "ستأكل كل ما يعطى لك،" أخبرتني شتاين بصرامة. "فكله طعام جيد." وضعت أمامي نصيبا كبيرا غير أنني تمكنت من ابتلاعه.

حينما وصل آرون، لاحظت أنهما يتحدثان بشأني سواء كنت حاضرا أو غائبا. "لماذا لديه الكثير من الملابس؟" أرادت جيترورد شتاين أن تعرف. "إن ما لديه يكفي ستة شباب!" بعد ذلك تسأل آرون إذا ما كنت موهوبا حقا كمؤلف موسيقي، وإذا كنت فعلا أشتغل على واجباتي الموسيقية. أخبرها آرون بأنه يتصور أن ذلك ممكن في حالة من يقضي وقتا أكثر مما أفعل أنا. "هذا ما كنت أفكر فيه،" قالت. "لقد بدأ حياة الإجرام وهو لا يزال يافعا جدا." ضحك آرون وأخبرها ألا تعير بالا لما أقوله ولكن فقط لما أقوم به.

"أعرف،" وافقته الرأي، وهي تنظر إلي بعينين ضيقتين. "يقول إنه يستحم كل صباح."

مرة ونحن نتناول طعام الغذاء أثرت أنا وآرون موضوع الصيف. كنت متشبثا بفيل فرانش وواصل آرون ذكر اسم (سانت جين دو لوز) عبر المحيط الأطلسي. بالنسبة لجيترورد شتاين فكلا الفكرتين سيئة جدا. "أنتم لا ترغبون حقا في الذهاب إلى فيل فرانش، أليس كذلك؟" قالت. "ستجدون كل من هب ودب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هناك. كما أن المكان موحش والطقس رديء. عليكم بالذهاب إلى طنجة. أليس وأنا قضينا ثلاثة مواسم صيف هناك. إنها مكان رائع. سيحب فريدي المكان خصوصا وأن الشمس تشرق كل يوم على الأقل خلال الصيف."

هكذا مع توالي الوجبات كنا نراكم معلومات جديدة حول طنجة. أخيرا، قررنا الانطلاق إلى طنجة. في العشية الأخيرة قبل رحيلنا بينما كنا نجلس في الحديقة أخبرتني جيترورد شتاين فجأة: "ماذا بشأن تلك القصائد التي أطلعتني عليها الأسبوع الماضي؟ هل قمت بأي تعديل عليها؟" قلت لها: "لا." ذلك أنه ما أن تنشر قصيدة ما فلا مبرر لإعادة كتابتها من جديد. بدت منتشية: "أترى؟ لقد أخبرتك بأنك لست شاعرا. الشاعر الحقيقي سيصعد بعد حديث واحد إلى الطابق العلوي ويحاول على الأقل إعادة صياغتها. لكنك لم تعرها ولو محاولة وحيدة."

وافقت على رأيها وقد شعرت بالتأنيب. في الصباح التالي تعانقنا وتبادلنا القبل على الوجنتين وكانت هذه هي نهاية الزيارة. "امرأة بكل معنى الكلمة! امرأة بكل معنى الكلمة!" همس آرون ونحن نستقل سيارة الأجرة. وأنا أحاول أن أستحضر كيف يمكنها أن تكون شخصا محبوبا قلت بأنها تذكرني بجدتي.

ستكون الرحلة إلى المغرب فترة استراحة خلال موسم الصيف. كانت الفكرة توافق رغبتي تماما، أي الانطلاق بعيدا عن نيويورك. ومع أنني كنت أجهل ما سأصادفه هناك فلم أبالِ البتة. علمت بأننا سنجد في انتظارنا منزلا في مكان ما، وبشكل من الأشكال بيانو والشمس كل يوم. بدا لي هذا كل ما أحتاج إليه.

7

حينما استقللنا باخرة إيميرتي تم إعلامنا بتعديل في برنامج الرحلة حيث لن ترسو الباخرة بميناء طنجة ولكن بسبتة، في الجزء المغربي التابع لاسبانيا. في اليوم التالي، ومع أولى طلائع الفجر، صعدت سطح السفينة وأخذت أرقب الخط المتماوج لجبال الجزائر وهي تتراقص وتتهادى في الأفق. فورا شعرت بدبيب إثارة شديدة. بدا الأمر كما لو أن جهازا داخليا أخذ يتحرك بفعل رؤية البر المتداني. دائما ودون الحاجة إلى أقمطة مفاهيمية جعلت إحساسي بالوجود في العالم ينهض جزئيا على اعتقاد غير معقلن مفاده أن بعض الأماكن على سطح الأرض تحتوي على قدر أكبر من السحر قياسا بأماكن أخرى. لو سألني سائل عن المقصود بهكذا سحر لربما وسعت من مدى الكلمة حتى تحيل إلى الترابط السري بين عالم الطبيعة ووعي الإنسان، ممر سري لكنه يتجاوز مباشرة أقانيم الذهن. (الكلمة الإجرائية هنا هي مباشر لأنها في هذه الحالة تعادل "باطني".) كأي شخص رومانسي كان يراودني دائما إحساس غامض بأنه خلال فترة من فترات حياتي سأصل إلى مكان سحري سيغدق علي خلال تجربة الكشف عن مكنوناته الحكمة والانتشاء ولما لا الموت. الآن وأنا أقف هنا في الهواء أرنو إلى الجبال أمامي أشعر بدبيب المحرك يدب بداخلي كما لو أن الأمر يعادل الاقتراب من حل لمشكل لم يطرح أساسا. كنت مسرورا للغاية وأنا أرى جدار الجبال يتشكل رويدا رويدا، غير أنني تركت السعادة تغمرني دونما طرح لأي أسئلة.

ذلك الزوال توقفت الباخرة في وهران. ومع أن المدينة كانت قائظة ومعفرة بالغبار فقد بدت لي شخصيا جميلة ومرعبة. ونظرا لأنني تذكرت الاسم العبثي لضاحية كنت قد تعرفت عليها خلال مراجعتي المهووسة لدليل سياحي حينما كنت أعمل في مكتبة دوتون، فإنني أردت أن أصعد عربة الترام والذهاب إلى مكان يدعى إيكْمول نوازو.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كنا نتدحرج عبر المدينة التي تشع ضياء على متن عربة تـــرولي مشـــرعة إلى ضواحي المدينة بينما انطلق صوت الزيز من بين الأشجار المعلقة فـــوق رؤوســـنا وكذلك في أجمات الخيزران التي تغطي الوهاد. بإيكمول نوازو غادرنا الحافلة عند نهاية الخط. كانت الشمس ترسل أشعتها؛ لا شك أن الناس كانوا يهجعون ذلـــك أن الشوارع بدت مقفرة. حينما عدنا إلى قلب المدينة في نفس السيارة، انتقلنا إلى عربة أخرى تتجه إلى مَرْس الكبير. هنا أيضا انطلق الزيز في سمفونيته بينما تضاعف لظى الحر الحارق بفعل المنحدرات الصخرية الشاهقة الموحشة. حينما تهب الـــريح كانت تبدو بمثابة منديل ساخن وقد قذف في وجه المرء. عند القلعة أمرنا جنـــدي جزائري وهو يوجه مسدسه صوبنا: "توقفوا!" بعد ذلك طلب منا أن نســـتدير و لم يتركنا لحالنا إلا بعد أن عدنا أدراجنا من حيث أتينا. قال آرون بتذمر: "حسنا أنا مسرور لأننا لن نقيم في هذا البلد." فأخبرته: "المغرب أكثر وحشية." خلال الرحلة كنت أصغي لما كان يدور من أحاديث بين الفرنسيين على متن باخرة امريتII.

زوال اليوم التالي توقفنا بسبتة. استلزم نقل الأمتعة الكثيرة من علـــى ظهـــر السفينة كتيبة من الحمالين. ونحن نجلس في مقهى على ناصية الســـاحة الرئيســـية أخذنا نرقب الحركية الغريبة للأشخاص في الشارع. كان لدي الإحساس بأن شيئا عظيما ومثيرا يجري في مكان ما وراء الكواليس. بعد حين حرك آرون رأسه قائلا: "إنهم كالكثير من الايطاليين الذين فقدوا صواهم." لم يكـــد يمـــر علـــى تنـــازل الألفونسو الثالث عن العرش سوى أربعة أشهر، لذا فربما قد يكون هذا الهيجـــان جزءا من الانتشاء العام الذي ميز اسبانيا خلال سنوات الجمهورية.

استقللنا قطارا صغيرا على طول الشريط الساحلي. بمدينة تطـــوان تضـــاعف الإحساس بالفوضى والجنون. كان المغاربة أكثر إثارة وضوضـــاء حيـــث كـــانوا ينخرطون في جدالات حامية تبدو دائما على شفا الانـــزلاق إلى مشارف العنـــف الجسدي. جلسنا وأخذنا نحدق حولنا بينما كانت الحافلات تتحرك جيئة وذهابـــا مُفرِغة حمولتها من الدجاج والأغنام إضافة إلى الأكياس والصناديق التي تسحب من على سطوح الآليات العبثية القديمة. يخلق كل مغربـــي الانطباع بأنه يمثل جزءا من مسرحية ضخمة إذ لا ينخرط فقط مع الآخرين في شجار بل أيضا مع الجمهـــور الذي يقابله (جمهور افتراضي ذلك أن لا أحد يعيرهم الانتباه سوى آرون وأنـــا.)

يواجه كل واحد منهم الجمهور غير المرئي وينظر إليه شزرا بينما تشي تقاسيمه بالغضب وعدم التصديق وموشور من الحالات الذهنية الدقيقة. "هذا بيت المجانين، بيت المجانين!" أعلن آرون. لكنني أجبته برضا: "إنه عرض لا ينقطع على أي حال." حتى قبل أن أصل إلى طنجة، كنت أعلم بأنني لن أصاب أبدا بالسأم وأنا أشاهد المغاربة وهم يؤدون أدوارهم.

كان الفندق الاعتيادي لجترورد شتاين، فيلا فرنسا، يغص بالسياح. أخذنا سائق التاكسي إلى المنزه، فندق جديد شيد عند نهاية العشرينيات من القرن الماضي لا يزال في سنة 1971 أفضل فنادق طنجة. قضينا ما ينيف على عشرة أيام نجوب أزقة وحواري المدينة بحثا عن منزل تتسع أرجاؤه لحركاتنا بحيث لن يشعر الواحد منا بوجود الآخر. ذات عشية أخذت حافلة صغيرة من السوق الكبير و لم أبرح مكاني حتى نهاية الخط عند حافة جبل غابوي، وبعد ذلك شرعت في تسلق الطريق القذر الذي يؤدي إلى الأعلى إلى أن وجدت المنزل المنشود. حينما عدت إلى الفندق كنت عاجزا عن الخوض في أي موضوع آخر. في اليوم التالي استأجرنا عربة من السوق الكبير وتقصينا حول المنزل. في البدء تردد آرون قليلا لأن المنزل كان واسعا، متهالكا، دون أثاث ومنزويا. ومع ذلك فقد قررنا أخيرا استئجاره وبدأنا فورا بشراء كل ما يلزمنا من أسرة وطاولات وكراسي وأواني المطبخ. بدا الأمر بسيطا إن لم يكن بالفعل غير مكلف. غير أن العقبة الكأداء تكمن في الحصول على جهاز بيانو. بشارع إيطاليا عثرنا على جهاز أسود قديم لا تصدر مفاتيحه أية نوتة. ومع ذلك فقد كان علينا اقتناءه إذا ما كنا نعتزم العمل؛ وزيادة في الطمأنينة أكد لنا البائع بأنه سيوفر لنا شخصا لضبط الإيقاع. هكذا قمنا بترتيبات للحصول على أشخاص وعلى حمار لحمل البيانو إلى المكان الجديد. حينما وصلوا ولمح الحمار البوابة حرن وأبى أن يبرح مكانه. في الصراع الحثيث لحمله على اجتياز البوابة، وقع البيانو على الأرض محدثا صوتا مدويا، صوتا يستحيل تكراره مرة أخرى. هكذا بدت فرصنا في العمل تتلاشى بينما أخذ المغربيان يدفعان الحمار، يحركان الآلة من جهة إلى أخرى ويضربانها أكثر فأكثر. وأخيرا رُكن البيانو في زاوية من القاعة الفارغة حيث بدا في أسوء حالاته.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أخذنا نتردد كل صباح على مخزن البيانو حتى نعلم بموعد حضور ضابط الإيقاع. ذات صباح قالوا لنا: "إنكم محظوظون. لقد وصل الضابط. لحظات وسنرسله لكم هذا الزوال." حينما وصل الرجل إلى المنزل كان صدره يعلو ويهبط ويصدر أصواتا بفعل تسلق الجبل. شرع في العمل. جلست أنا وآرون في الحديقة نصغي؛ بعد حين تبين لنا بأن الرجل لا يفقه شيئا في ضبط البيانو ولا يملك أدنى فكرة عن النبرات الموسيقية ومع ذلك فقد أحجمنا عن مضايقته. بعد حين عمّ الهدوء القاعة وأرخى سدوله. دلفت إلى الداخل. كان الرجل يجلس وقد وضع رأسه على يديه المصلوبتين فوق طاولة المفاتيح. سعلت لكنه لم يحرك ساكنا. بعد ذلك لمحت زجاجة صغيرة من الكونياك فوق البيانو واستنتجت بأنه غفا بسبب تناول الكحول. حينما أيقظناه بدا محرجا، لكنه وبخفة فصل بعض الأوتار وانطلقت الآلة محدثة ضجيجا. بدا البيانو في حالة سيئة. كان الوضع يدعو إلى حركة حازمة. "لقد ضبطت البيانو،" أخبرنا الرجل. فرد آرون: "لا. اجلس هناك ونحن سنضبطه." ولساعتين إضافيتين كان يُرخي الأوتار ويشدها بينما كنا نطلب منه أن يتوقف حتى بدا البيانو في الأخير كأي بيانو في حاجة إلى الضبط. حينما أتى الضابط على زجاجته بات في مزاج لن يعير معه بالا لرحلة العودة إلى البلدة. في الصباح الموالي شرع آرون في عزف سمفونيته الصغيرة بينما كنت أشتغل على سوناتة صغيرة على آلة المزمار.

لو قلت إن طنجة سحرتني كمدينة أحلام فإنني أقصد بذلك المعنى الحرفي للكلمة. فتوبغرافيتها تزخر بمشاهد حلمية نموذجية: شوارع مغطاة كما لو كانت ردحات تفضي أبوابها إلى غرف في كل جهة؛ سطوح متوارية تطل على البحر؛ شوارع تتشكل بالدرجة الأولى من سلالم؛ نهايات طرق معتمة؛ ساحات صغيرة مشيدة على أرض خفيضة حتى لأنها تبدو كقاعات للبالي مشكلة من منظور خاطئ مع طرقات تؤدي إلى وجهات كثيرة. إضافة إلى هذه البُنى الحلمية الكلاسيكية التي تتشكل لحمتها من الأنفاق والقلاع والدمار والسجون فقد كان الطقس عنيفا يبعث على الكآبة والخمول. تهسهس الريح خِلل أشجار النخيل وتحرك أشجار الاوكاليبتوس وأجمات الخيزران التي تحد الشوارع. حتى ذلك الحين كانت طنجة بمنأى عن حالة التردي التي نجمت عن زحمة المواصلات غير أنه كانت هناك العديد

من سيارات الأجرة المرصوصة على جنبات الطريق إضافة إلى العربات في السوق الكبير. كنا نستأجر عربة كل مساء للوصول إلى المنزل بعد العشاء ونجلس في مقهى قريب في الساحة حيث نصغي فقط إلى أصوات الزيز في الأشجار. كان المذياع منعدما في المغرب مما يعني إمكانية الجلوس في مقهى وسط المدينة والاستماع إلى رنين المئات من الأصوات البشرية. كانت المدينة مكتفية بذاتها، نظيفة كمدينة ألعاب تم تجميد حياتها الاجتماعية والاقتصادية في وضع ثابت ودائم فرضته الإدارة الدولية وأجهزتها الأمنية الفعالة. تنعدم حوادث الإجرام؛ فلم يكن واردا في الحسبان عدم احترام الأوروبي الذي يعد حضوره إضافة إيجابية للجماعة. (لا يصح الأمر بتاتا بالنسبة للإسبان الذين كانوا بالآلاف وبالتالي لم يكن ينظر إليهم كأوربيين.)

عقب الفطور مباشرة كان آرون يعطيني دروسا في مبادئ التناغم وهي عبارة عن تعاليم لتصحيح ما أنجزته من إيقاعات وترية حصريا في اليوم السابق. كنت لا أزال في خضم عملية تحليل سونتات البيانو لموزارت. كنت أزاول عملي وأنا مستلق على كرسي في الحديقة السفلية حيث أكون بمنأى عن الضجيج الصادر عن المختبر الصوتي لآرون. خلال فترة الزوال يأخذ آرون الذي يحتسي الخمر مع الغداء قيلولة في الطابق العلوي بينما أعمل على البيانو. كان لدينا خادم أحول العينين يدعى محمد يعد وجبات الإفطار والغداء ويعتني بالحديقة. قبل حلول الظلام كنا نتمشى إلى البلدة ونتناول عشاءنا على الشاطئ.

كانت جيترورد شتاين قد أخبرتنا عن رسام سريالي هولندي يقيم في طنجة يدعى كريستاين توني. وقد كان يعيش، كما أخبرتنا وهي تضحك بمرارة، مع فتاة تدعى أنيتا التي كانت لا تحظى بموافقتها. كان حتميا أن نلتقي بالرسام وصديقته في وقت لاحق لذا لم يكن هناك مبرر للتعجيل بذلك. توقعت مساءا رتيبا رفقة رجل هولندي ممل سيعرض علينا لوحاته، الواحدة تلو الأخرى، وبالتالي لم أكن أتطلع لذلك كثيرا. بيد أن آرون الذي كان اجتماعيا بطبعه، كان يتحرق للقاء شخص يبادله الحديث. هكذا قمنا بعد حين بوضع الترتيبات لزيارة توني وأنيتا. أذكر أنني اندهشت كثيرا: بدا توني شخصا فرنسيا أكثر منه هولنديا ذلك أنه تلقى تعليمه في فرنسا كما أن لوحاته كانت رائعة إلى حد ما: مناظر مغربية من وحي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بُوش للمئات من أشكال صغيرة ملفعة في جلالب ورداءات الحايك. خلال زيارتي الثانية لاحظ توني لآرون: "يبدو الشاب الذي يرافقك غير متوازن ذهنيا إلى حد ما، أليس كذلك؟ لقد لاحظت ذلك مباشرة الليلة السابقة. سمعت خصاصات النوافذ تصطفق في الريح هنا في الداخل في مكان ما." وجدت أن ملاحظته تنم عن التعاطف وأحببته أكثر لأنه أبداها دون مواربة. كان صديق كريستيان وأنيتا نجما في كرة القدم في الفريق المغربي. ذهبنا لمشاهدة مباراة وخلال عودتنا للبلدة بعد ذلك رأينا عناصر من فريق الهلال وقد نصبت كمينا لخصومها. اشتبكت القبضات وانهالت الأحجار والسكاكين وكل ذلك لأن فريق المغرب قد فاز بالمباراة. ابتسم توني وأنيتا لدهشتنا وقالا بأن ذلك أمر عادي.

حينما كتبت رسالة لجيترورد شتاين أحدثها فيها عن مصاعبنا مع البيانو، أجابت بأن شوبان كانت لديه مشاكل أسوء حينما ذهب إلى مايوركا رفقة جورج ساند. فكانت نصيحتها: "لذا فلا تحزن إنه نفس المصير." وأضافت: "هذه المرة يبدو أنك لم تخلف وراءك سوى قطعة ألمنيوم تساوي بِنسا وذاكرة جميلة جدا."

بحلول فصل الخريف غادرنا المنزل الطانجوي بعد أن بعنا الأثاث الذي اقتنيناه مؤخرا وانطلقنا نحو فاس. سبق لتوني أن زار المدينة حيث كان قد مكث لدى صديق سويسري يدعى براون والذي سلمني خطابا له. ومع أن آرون لم يكن سعيدا بتواجده في المغرب حيث كان يدعي بأن كل الأشياء التي تقع علي موقع الغرابة تبدو عادية بالنسبة له لأنه سبق له أن رأى أو سمع مقابلها وهو طفل في الشارع الرئيس ببروكلين، فقد وافق على قضاء بعض الأيام معي في فاس قبل العودة إلى ألمانيا.

وصلنا إلى فاس عند الغروب وأخذنا عربة عبر أزقة الملاح[1] إلى فاس الجديد. لم تهيئني طنجة بأي حال من الأحوال لتجربة فاس حيث بدا كل شيء أشد غرابة وأعظم حجما ولمعانا عشرات المرات قياسا بطنجة. شعرت بأنني تركت أخيرا العالم ورائي وأن الإثارة الناجمة تكاد لا تطاق. ومع ذلك ونحن نستقل العربة فقد

(1) الملاح: حي خاص باليهود في المدن المغربية.

شدت انتباهي علامة فندق يقع على مسافة قصيرة في زقاق جانبي. توقفت العربة وأسرعت لتفحص المكان. كان يدعى فندق آريانا. ما أن رأيت الغرف الثلاث الخارجية في الطابق العلوي حتى علمت بأنه المكان المناسب ذلك أنه يطل مباشرة على أسوار فاس الجديد. بإمكان المرء أن ينظر مباشرة عبر النوافذ إلى قمة جدران الأسوار. في الأسفل توجد حديقة جنان السبيل تتخللها أشجار الصفصاف التي تطل على وادي فاس وعلى اليمين توجد عجلة مائية عتيقة تدور ببطء وهي تتقاطر وتصدر صريرا. تبدى الفندق بناية صغيرة بدائية غير أن السيدة المشرفة تقدم وجبات الفطور في الصباح. كنت أنا وآرون نمر عبر نوافذ حجرتينا ونتناول قهوتنا والفطائر على الأسوار كما نتناول وجبات أخرى في مطعم يهودي في الملاح.

وصلت برقية من هاري دنهام يخبرنا فيها بأنه انطلق من دريدسن الألمانية في طريقه إلى فاس وسيصل في غضون أسبوع. كنت أظن أن فاس لم تحظ بإعجاب آرون. على أي حال كان عليه أن يعود إلى برلين. شعرت بالأسى لمغادرته وربما لو أن هاري لم يكن قد انطلق في رحلة سفره، لرافقته إلى باريس غير أن هاري وصل فعلا. لقد قرر أن ينقطع لمدة سنة عن الدراسة من جامعة بريستون لدراسة الرقص في ألمانيا؛ غير أنه خلال الوقت الحاضر اكتشف مُتع التصوير الفوتوغرافي ونتيجة لذلك وصل إلى فاس في حالة من التوتر حيث كان يقضي أغلب وقته في تسلق كل أنواع الأماكن المسموح بها وغير المسموح بها. كان المغاربة والفرنسيون على حد سواء يصدونه ويصرخون في وجهه ومع ذلك فقد واصل التقاط المئات من الصور كل يوم.

كان هاري من سينسيناتي وكان غالبا ما يشير إلى أماكن إقامة العبيد العتيقة التي توجد خلف منزل والديه هناك. كلما ركبنا حافلة البلدية للعودة إلى فندق آريانا في المدينة الجديدة، كان يأبى أن يجلس إلى جوار مغربي مخافة أن تنتقل إليه الحشرات الطفيلية مع أنه لا يرى مانعا أن ينحشر في مكان ضيق إلى جوار العمال الفرنسيين الذي كانوا بشكل كبير أقل نظافة من المغاربة. شعر بالضيق والحرج حينما ألمحت إلى الأمر واسود وجهه فقال بحنق: "أنت لا تفهم. لقد نشأت في بيئة مختلفة."

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالرغم من خبرتي السالفة في التظاهر بأنني غير مرئي فقد كان ذلك مستحيلا في المغرب، ذلك أن أجنبيا بهذه البشرة الناصعة البياض لا يمكن أن يتوارى عن الأنظار. كانت رغبتي تتمثل في متابعة الأشياء كما لو لم أكن موجودا. لم يستوعب هاري ذلك إذ كان يتوقع أن يغير وجوده كل شيء من حوله وفي الاتجاه الذي يرتضيه هو. أخبرته بأن هذه الطريقة ليست وسيلة ذكية للسفر. يبدو أنه كان عاجزا عن تغيير مواقفه ذلك أنه واصل جعل حضوره ملموسا في حالات كنت أومن بأنه علينا أن نسعى للتواري عن الأنظار. كان هاري يفكر على أساس المواجهة بدل المؤامرة، غير أنني جُبلت على إخفاء نواياي عن أي شخص، وأحيانا حتى عن نفسي.

قمنا برحلة إلى مدينة صفرو وسرنا لمسافة قليلة خارج البلدة، مقتفين أثر بحيرة أخذت تتراجع رويدا رويدا إلى أن صارت مضيقا. أخبرني فلاح كان يمر بالجوار بلغة فرنسية رديئة عن وجود مغارة وراء شلال إذا ما تابعنا السير إلى الأمام. ثم أضاف بأن الناس يقصدون هذه المغارة لتقديم القرابين من الدجاج والمعز، وذلك حسب المناسبة. حالا شعر هاري برغبة جامحة في تصوير المغارة. هنا توقفت عن مواصلة الترجمة وتركت الرجل يتابع مسيره. تضايق هاري وكذلك فعلت. سألته إذا لم يكن يعرف بأن الكهف يرتسم هناك وأنه لأجيال وأجيال كانت دماء القرابين تغمر الحجارة عند أقدامنا. "لماذا عليك أن تحظى بصورة؟" هز هاري منكبيه وواصل التصوير.

ذات صباح، أخذنا خطاب التعارف الذي كان توني قد سلمه لي وذهبنا لزيارة براون. كان براون يعيش في منزل مغربي عتيق يحيط به بستان خارج منطقة باب سيدي بوجيدا. كان المنزل من بين الأماكن القليلة في فاس حيث يوجد حمام سباحة. كان ريتشارد ماليبرتورن، بارون مانتاوزن خلال عشرينيات القرن الماضي، يقيم معهم وقد انطلق ذلك الصباح إلى غرب إفريقيا. كان هناك العديد من المدعوين لوجبة الغداء غير أن براون لم يجد عنتا في جعلنا ننضم إلى الضيوف وبالتالي جلسنا جميعا حول طاولة طويلة في السطح. هكذا التقينا بشاب فاسي يدعى عبد الله الإدريسي ألح علينا لزيارته لاحتساء الشاي لاحقا ذلك الزوال.

اختار عبد الله حياة فريدة من نوعها حيث ورث هو وأخوه المتزوج الذي يكبره سنا (كانا كما فسر لنا، الوحيدين من بين السلالة المباشرة لمولاي ادريس، مؤسس المغرب.) قصرا فخما في حي النجارين. شهدت معظم الطبقة الأرستقراطية إفلاسا ماديا بسبب الحضور الفرنسي ما عدا عائلة الأخوان اللذان يدينان بازدهارهم المتنامي إلى كونهم يجمعون بانتظام المال وكميات وافرة من الأشياء القابلة للبيع من الزوايا التي توجد بالجوار. كلما كان عبد الله في حاجة لشيء ما فإنه يصفق بيديه، فيظهر العبد المسؤول في باحة المنزل (كان يستعمل باتساق كلمة العبد بدل الخادم.) يتكلف بالسهر على النظام أناس مسؤولون في جناح آخر من المنزل حيث يحرصون على تنفيذه حرفيا. هكذا، بعد أيام عندما أراد أن يأخذنا في نزهة ليلية إلى سيدي حرازم أرسل بأمر مقتضب عبدين إلى باب فتوح في وقت سابق. حينما وصلنا إلى هناك كانت العربة جاهزة بالطعام والمجامير والفحم الخشبي والقناديل والسجادات والأفرشة. رافقنا العبدان لتحضير الطعام والشاي في الواحة. أينما حل عبد الله كان الناس يلحون على الانحناء أمامه وتقبيل طرف جلابيته. ضايق هذا الأمر هاري بالرغم من أنه لم يجد تفسيرا لذلك.

علمت أن والدي هاري لا يعلمان بأمر التحاقه بدريدسن. كان عيد ميلاده الواحد والعشرين قريبا، في غضون ثلاثة أسابيع، وعليه بالتالي أن يعود في هذه الأثناء ليرسل لهم ببرقية في ذلك اليوم وأن يرتب لزيارة أخته أميليا. وقبل أن يهم بالعودة كان يرغب في زيارة مراكش. قضينا ليلة في مدينة الدار البيضاء التي أقسمت ألا أعود إليها ما استطعت إلى ذلك سبيلا وهكذا غادرنا في اليوم التالي نحو المدينة الحمراء.

في مراكش نزلنا بفندق صغير بالقرب من الحي الإداري. يشرف على الفندق رجل فرنسي وزوجته، غريبو الأطوار، كانا يحرصان على تحذيرنا دون كلل من نذالة ووحشية المغرب. حينما عدنا إلى الفندق في وقت متأخر من الليل كان علينا أن نتخطى صبيا كان عمله يكمن في الاستلقاء في عتبة الباب حتى طلوع الفجر. استشاط هاري غضبا فسأل المرأة الفرنسية لماذا لم تعطه فراشا ينام عليه. فصرخت: "هذا كل ما ينقصه. إنه مدلع بما يكفي بحيث لا فائدة ترجى منه. كنت سأطرده لولا أنه مدين لي بشهرين من العمل لقاء واحد من قمصان زوجي أحرقها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وهو يحاول كيها. إنه حيوان ذلك الصبي." أثارت هذه الأشياء غضب وحنق هاري. في اليوم التالي وجدته في السطح يتحدث إلى الصبي.

أخبرني: "الأمر كما أخبرتنا السيدة الفرنسية. شهران لأنه حرق القميص مع العلم أن زوجها لا يزال يرتديه."

-لا عليك، سيثأرون لأنفسهم في يوم من الأيام.

-و لكن ليس هذا هو المقصود.

بعد ربع ساعة حينما عدت إلى السطح لاحظت أن تغييرا ما طرأ. كان الفتى يرمق هاري كما لو كان تجسيدا لله وكان هاري يبدو حازما وراضيا. "طلبت من عبد القادر إذا ما أراد أن يذهب إلى باريس وقد وافق."

-و لكن لماذا؟

-لأنني أحتاج إلى رب بيت. لم يسبق لي أن حظيت بواحد وهذه هي الفرصة المواتية.

نزل هاري السلالم إلى الأسفل وأخبر السيدة بهدوء عن نيته في اصطحاب عبد القادر معه إلى باريس. وقفتُ في البالكونة المطلة على الباحة أتابع صراخ السيدة الفرنسية: "إنه مدين لي بشهرين من العمل." واصلتْ الزعيق وبالرغم من أن هاري لا يتكلم اللغة الفرنسية فقد تمكن من إيصال رسالته. حينما التقيت السيدة لاحقا ذلك المساء كانت لا تزال في حالة توتر شديدة. هرعت نحوي قائلة: "أتعلم إذا هجم صديقك على الصبي فإنه سيدافع عن نفسه." كان واضحا بأنها تعتقد بأن نواي هاري نحو عبد القادر ذات طبيعة جنسية. ثم صرخت: "إذا حاول أخذه فسأطلب رجال الأمن." في تلك اللحظة تسلل هاري إلى الباحة ومر من ورائنا إلى المطبخ. فجأة وقف أمام الباب وهو يوجه مسدسا إلى السيدة. ترنحت وكادت تسقط ثم صرخت: "لوسان."

ظهر الزوج من غرفة خلفية. عند رؤيته لهاري تجمد تماما في مكانه. دار هاري ثم وجه المسدس إليه. وبعد حين ضحك ووضع المسدس على الطاولة. فورا هرع الرجل نحو الطاولة وأمسك بالمسدس. خلال هذا الوقت حضر عبد القادر وخادم آخر إلى مسرح الحدث وكانا يحدقان باندهاش شديد. هكذا انطلق السيد والسيدة وهاري في فورة زعيق متبادل. كان هاري ينفس عن غضبه باللغة الألمانية

وكنت أرتاب إذا ما كان أي واحد منهم يدرك ذلك. احتقنت الوجوه وتواصل الزعيق لخمس دقائق أخرى. في تلك الليلة انتقلنا إلى فندق جديد غير أنه كان علينا في اليوم الموالي أن نواجه السيد والسيدة مرة أخرى في مركز الشرطة ذلك أن هاري كان قد ذهب باكرا ذلك الصباح للإعلان عن نيته في أخذ عبد القادر إلى فرنسا وملء الاستمارات الضرورية. ومادام أن عبد القادر يعمل في الفندق، فعلى مشغليه أن يخلوا ذمته. بطبيعة الحال، كانا يرفضان رفضا باتا التخلي عنه إلى أن يتقاضيا مبلغا ماليا صار يغطي فجأة صحوننا ونوافذ كسرها الصبي إضافة إلى القميص الذي احترق.

حذرت الشرطة هاري من أن الإجراءات قد تستغرق وقتا أطول مما يمكن أن يتوقع ذلك أن عليه أن يحظى بالموافقة القانونية لكل أفراد أسرة عبد القادر. اتفقنا على أن يعود هاري إلى دريدسن وأبقى أنا في مراكش حتى أرتب الأمور الرسمية لدى الحكومة الفرنسية والعدول المغربي. بعدها سأصحب عبد القادر مباشرة إلى باريس حيث سيلحق بي هاري قبل احتفالات أعياد الميلاد. (فجأة أعرب عن رغبته في قضاء الشتاء في باريس بدل ألمانيا ذلك أن مان راي سيكون هناك وبالتالي فانه يأمل في العمل تحت إشرافه.)

كان صاحب الفندق الجديد سائقا لشاحنة وكان ينقل بانتظام مرتين في الشهر الخمر والطعام عبر جبال الأطلس الكبير إلى الفيلق الأجنبي المرابط بورزازات. سألته بتفصيل عن المكان فأخبرني بأن لا سبيل لزيارته دون إذن من الحاكم العسكري. استفسرنا حول الموضوع ووجدنا الأمر صحيحا. بعد ذلك أخبرنا عَرضا بأنه قد يأخذنا معه إذا جعلنا ذلك يستحق العناء. فكما أخبرنا، فقد سبق له أن خاض التجربة مرة حيث يرتب الأمور عند نقط التفتيش على طول الطريق وذلك عن طريق منح هدايا سخية من قنينات الخمر والكحول الإضافية.

بعد ذلك بأيام انطلقنا في الثالثة صباحا تتبعنا شاحنة، كما جرت العادة في تلك الأيام المضطربة. كان الطريق عبر جبال الأطلس وعرا ومحفوفا بالمخاطر بحيث يبدو سطح الشاحنة المكان المناسب للجلوس والتطلع إلى حافة المنحدر ونحن نتمايل على طول الحافة. كانت الطريق قيد الانجاز و لم يعبد ولو ميل واحد منها. على مدى السحاب المتناثر كانت الطريق مفروشة بالوحل وقد غرقت الشاحنة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مرات ومرات. خلال الرحلة انــزلقت الشاحنة مرة حتى غدت على شفا الهاوية. حينها نــزلنا من مكاننا وجمعنا الأعشاب والأحجار ووضعناها تحت العجــلات. وعند كل نقطة تفتيش كان الخمر يجد طريقه إلى الجنود. لم تلُح مدينة ورزازات في الأفق إلا قبيل المغيب؛ بدت الأسوار المطلية للقصبة تتسامق فوق أشجار النخيــل وحينما توقفت الشاحنة أخيرا لم يخدش الهدوء الساجي إلا الصوت الباهت للزمار. كان رجل يوناني قد أقام فندقا يحتوي على ثماني غــرف صــغيرة علــى حــدود المعسكر. كل غرفة تحتوي على سريرين عسكريين تغطيهما شــبكة تتــدلى مــن السقف لصد الحشرات. لم تكن هناك مراحيض أو معازل أو ثقــب في الأرض. لا شيء سوى عراء الصحراء. في تلك الليلة هبت عاصفة رملية قوية فلــم نســتطع مغادرة الفندق في اليوم التالي. عقب العاصفة كان الجو أكثر هدوء غير أنه لســوء الحظ اقتحم قائد فرنسي الحانة لتناول شراب لكن عند رؤيته لنا ونحــن نتملــى خرائطنا بادر بطلب أوراقنا. قفز هاري وطقطق عقبــي حذائــه وحيــا القائــد بأحسن طريقة كما لو كان نبيلا نمساويا: "نعم، نعم، بطبيعة الحال، بطبيعة الحال." أثار هذا شكوك الضابط حتى أنه بعد أن انتقل هاري بسرعة إلى اللغة الانجليزيــة فإنه تساءل عن صلاحية الجواز الأمريكي ووضعنا رهن الإقامة الإجبارية. أخبرنــا بأنه سيضعنا على متن أول عربة نقل تغادر ورزازات. ثم تابع: "أنا أعلم من جــاء بكم إلى هنا. كما أن كل حارس على طول الطريق سيزج به في الســجن لمــدة خمسة عشرة يوما." حينما غادر القائد الحانة شرح لنا اليوناني أنه كلما فر عنصــر من عناصر الفيلق فإنهم يحصلون على جوازات سفر أمريكية مسروقة أو مزورة.

في اليوم التالي عاد الضابط رفقة رجل مدني. أخبرنا: "من الأفضل أن تكــون لديكم بعض النقود. لقد دفعتهم لتصلوا إلى هنا وستدفعون لتغادروا. يستطيع هذا الرجل أن يأخذكم إلى مراكش غدا صباحا. وآمل أن يجعلكــم تــؤدون الــثمن باهظا." غير أن الرجل لم يطلب أكثر مما طلبه الأول إذ لم تتطلب رحلــة العــودة توزيع قنينات الخمر وهكذا كان الكل سعيدا.

عاد هاري إلى ألمانيا تاركا لي ما يكفي من المال حتى أتدبر أمر إرسال عبــد القادر إلى باريس. انتظرت في مراكش بعض الوقت حيث كنت أذهب كل يــوم عند الموثقين رفقة أمه وجدته. كانا دائما يستقلان عربة مستقلة ويتلفعــان بــرداء

سميك. كلما استحضرت تلك الأيام إلا وبدت لي في الأساس شريطا متصلا من ركوب العربة عبر أزقة مغبرة وتحت أشعة الشمس بينما تحمل العربة الأخرى السيدتان الموشحتان في المقدمة.

توالت الأيام وبقيت الأمور على حالها. كان العائق الأساسي هذه المرة يكمن في رجال الأمن وذلك بسبب التباطؤ في طبع وتوقيع بعض الوثائق. لم يكن هناك ما أقوم به حيال ذلك. تركت عنواني مع عبد القادر وعدت إلى طنجة حيث أقمت مع تومي وأنيتا. كانا قد استقرا للتو في منزل مغربي صغير على تل، الطريق الوحيد إليه هو منحدر تحيط به نباتات الصبار والصخور. كان المنزل يفيض دائما بالمغاربة. خلال النهار كان الخدم، أحدهم دون أنف، يعملون في باحة المنزل وفي الليل يحل الأصدقاء للعب الورق والاستماع إلى المونغراف. كانت الألعاب مغربية.

كانت أنيتا قد جاءت إلى طنجة ظاهريا لتلتحق بصديق قديم، يدعى دين، يعمل في حانة في فندق المنزه غير أنني أدركت تدريجيا بأن جيترورد شتاين هي التي عملت على مغادرتها لباريس حتى يتفرغ تومي أكثر للوحاته. على هذا الأساس أقنعت تومي أيضا بإمضاء عقد رهن طويل الأمد لمرسم في مونبارناس، عارضة تأدية الشهرين الأولين من مالها الخاص. بعد أن أقام هناك لفترة من الزمن، أخذ تومي يسمع الإشاعات وراء السبب الحقيقي لاختفاء أنيتا عن مشهد باريس ففض العقدة فورا وعاد بأسرع وقت ممكن إلى طنجة ليكون معها.

هكذا كان طبيعيا أن لا تثير ذكرى الآنستان شتاين وتوكلاس لدى مضيفاي سوى الأشجان. كان توني مغرما تماما بأنيتا بحيث أنه كان يتغاضى عن مغازلاتها الدائمة لشباب لطنجة أو كان ربما يلقي باللائمة على الشباب المغربي الذين يتحلقون حولها كما يتحلق النحل حول شجرة تين.

ذات صباح وصل عبد القادر إلى طنجة بواسطة الحافلة وشرع فورا في انتقاد الطريقة التي تدير بها أنيتا المنزل."هذا مريع صديقي؟" ثم يمسح أصبعه على امتداد الأرضية بمحاذاة الجدار ويصعده إلى مسافة قريبة من عيني حتى أحكم بنفسي على حقيقة ما يقول. ذات مساء بعد أن دعت أنيتا العديد من المغاربة إلى العشاء حضرت كُسكسا أضافت إلى مرقه قليلا من الكحول. من الراجح جدا أن يكون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذلك حدثا استثنائيا في تاريخ الطبخ المغربي. باستثناء عبد القادر الذي رفض رفضا معقولا أن يتذوق الوجبة، فقد أصيب جميع المدعوين بمغص شديد. منذ ذلك الحين قرر عبد القادر أن لا يتناول أي طعام لدى أنيتا إذ كان مقتنعا بأنها خلطت الكسكس بالسم.

ربما بات واضحا بأن أنيتا وعبد القادر لن يكونا على وئام لذا فإنني قمت بجهد جهيد للانطلاق نحو باريس بسرعة. في الصباح الذي انطلقنا فيه أهداني توني لوحة رائعة كنت قد أعجبت بها لكنه سلمها لي وأنا على وشك ركوب الباخرة الصغيرة التي ستحملنا إلى العبارة في جزر الخالدات وهكذا فإنها تضررت بماء البحر المالح حتى قبل أن نغادر طنجة.

في مراكش كان عبد القادر قد ذهب إلى السينما مرات عديدة وكان هذا مدى معرفته بمنجزات القرن العشرين. بالطبع سبق له أن شاهد القطارات والسيارات لكننا عندما استقللنا العبارة اعتلت محياه نظرة جمعت بين الارتياب والرعب فقال: "هل هذا جسر متحرك؟" أخبرته بأنها قارب غير أن الكلمة لم تعن له الكثير. "أخبرتني جدتي بأنهم في أوربا يملكون جسورا تتحرك وأخبرتني أيضا بأن لا أركب أبدا واحدا منها وإلا سأمرض كثيرا." لم نكد نصل إلى المضيق حتى انطرح على ظهر القارب في حالة شديدة من الغثيان. كان أحيانا يئن: "أخبرتني جدتي..." دون أن يكمل الجملة. حينما رسونا بجزر الخالدات توجه مباشرة إلى السوق لشراء البرتقال لكنه انفعل كثيرا حينما اكتشف بأن البرتقال الاسباني لا يشبه مثيله في مراكش: "هذه البلاد ليست جيدة صديقي. والأشخاص كلهم مجانين." بقي على هذا الموقف حينما وصلنا إلى اشبيلية. هناك في قاعة الطعام بفندق مدريد التقى برجل أمريكي وزوجته كانا في منتصف العمر من شيغاكو ويسافران رفقة ابنتهم. قبلا دعوتنا لمرافقتهم في نزهة بالعربة عبر أحياء المدينة. في البداية ذهب الرجل الأمريكي إلى مصرف توماس كوك وحصل على ما يعادل خمسة دولارات من القطع النقدية الصغيرة طلب منهم وضعها في أكياس صغيرة من التوب ثم استأجر عربة ذات كرسيين مطويين إضافيين حيث جلست أنا وعبد القادر في مواجهة أفراد العائلة الثلاث. وهكذا انطلقنا في جولتنا عبر اشبيلية. تكمن الفكرة في التوقف للحظات وسط شارع يغص بالبشر ونثر القطع النقدية.

بطبيعة الحال لم يمر وقت كبير حتى احتشد حشد من الناس يتبع العربة؛ ولولا سوط السائس لتمكنوا من الصعود إلى العربة. كان هذا مصدر سعادة بالنسبة للسيد الأمريكي لدرجة أننا حينما عدنا إلى الفندق زفر ملاحظا: "حسنا لقد حصلنا على ما يعادل خمسين دولارا من المتعة مقابل خمسة دولارات. يبدو لي هذا ممتازا." في تلك الليلة ذهبنا إلى ناد ليلي حيث ترقص الفتيات رقصة شعبية على المنصة. تواصل الرقص وفي لحظة من اللحظات اصطفت الفتيات في الجهة المقابلة من القاعة وأخذن بالرقص بين الموائد. حينما كانت إحداهن تدور حولنا مد عبد القادر يده ولمسها. حالا سحب يده كما لو لفحه لهيبها. وبتذمر استدار نحوي وقال باكيا: "و لكن هذه ليست سينما؟ إنهن من لحم ودم." وبعد حين: "إنهن حقيقيات، إذن؟ آه صديقي. هذا جيد."

في مدريد أيضا بالمتحف الوطني وقف ينظر إلى لوحات غويا في انتظار أن تتحرك ولما لم تبرح مكانها بدا متذمرا ثم واصلنا اكتشاف المتحف. حينما وصلنا إلى لوحات بوش تسمر في مكانه. أخيرا قال: "هيا بنا لقد بدأت بالتحرك. هيا لنغادر هذا المكان." في الشارع حينما عاين العالم وأشبع فضوله، زفر قائلا: "أتعلم من صنع كل دور السينما في ذلك المنزل؟ يمكنني أن أخبرك بكل يقين: إنه الشيطان."

غالبا ما كانت سذاجة عبد القادر جارفة. صبيحة اليوم الأول في باريس تناولنا الفطور في سطح الكوبول. شملت الوجبة قطعا من الخبز المحلى تعلوها طبقة من مربى الكشمش. فورا انطلق عبد القادر في انتقاد فرنسا والفرنسيين ذلك أنه سلم بأن المربى هو دم مختر: "آه صديقي أنا لا أتناول الدم. هذا عار." (و مع ذلك، وبعد مرور أسابيع قليلة طلب مني حينما كنت أهُم باقتلاع أضراسي التوسل إلى الطبيب ليحتفظ له بكل الدم الذي سيسيل خلال العملية حتى يتناوله لاحقا.) ذلك الزوال أخبرني بأنه سيخرج للتنزه قليلا. كان قد مضى على مغادرته المنزل عدة ساعات. حينما عاد إلى الفندق بعد حلول الظلام كان يتحدث طوال الوقت عن لقائه بسيد عجوز طيب جدا يشبه أخاه تماما. أكد لي أنه دعاه إلى منزله وقدم له الشاي: "كما تصنعه أمي المسكينة. أقسم بذلك." أي الشاي بالنعناع. لم يكن الأمر غريبا مادام قد خرج مرتديا كامل زيه المغربي. أخبرني

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عبد القادر أن العجوز الذي يتحدث اللغة العربية وضع خمسين فرنكا في يده عندما هم بالمغادرة وألح على إهدائه جلابية كانت معلقة في معلاق المعاطف. أوضح لي عرضا بأنه لم يكن يرغب في أخذ الجلابية ذلك أن ذلك سيكون عارا. لكنه قبلها مجاملة وتركها خارج الباب في الشارع. "لقد كانت بالية،" أخبرني.

خلال النهار كنت قد اتصلت هاتفيا بجترورد شتاين. كان ذلك يوم الأحد، اليوم الذي تقضيه في المنزل. أخبرتها عن عبد القادر فطلبت مني أن أصطحبه معي. أذنت لنا خادم بالدخول ثم أشرعت لنا الباب. كانت الغرفة مليئة بالأشخاص وكانت جيترورد تتحدث في الوسط. فجأة انطلقت في واحدة من قهقهاتها التي تصدر من القلب والتي تنتقل كالعدوى إلى كل من يوجد بجوارها ثم ضربت على فخذها كما كان دأبها في تلك اللحظات. سأل عبد القادر همسا كما لو كان على منصة المسرح وعيناه جاحظتان من وقع المفاجأة: "هل هذه هي؟ ولكن هذا رجل." أخرسته ثم دخلنا إلى القاعة. بعد حين انخرطتُ في حديث مع رسام كاتلاني مثير هو جْوان ميرو كنت قد تعرفت على لوحاته وأقدرها مع أنه لم يسبق لي أن قابلته من قبل. أخبرته عن سلوك عبد القادر في المتحف الوطني الاسباني قبل يومين. وافق عبد القادر الرأي، خصوصا فيما يتعلق بلوحات بوش: انها تتحرك فعلا. سلم لي عنوانه في حالة إذا ما مررت عبر برشلونة وكأي اسباني حقيقي أخبرني بأنه يملك منزلا في مايوركا وضعه رهن تصرفي متى شئت. وبعد ذلك طلب مني ورقة وقلما فرسم خارطة لاسبانيا تبدو تحديدا كإحدى لوحاته. بين الحين والحين كنت ألقي نظرة حوالي لأستطلع ما الذي كان عبد القادر يقوم به. في جانب من الغرفة كانت أليس توكلاس تتولى الشاي والطعام وهنا جلس عبد القادر إلى جانبها. كانا يبدوان غارقان في حديث عميق. حينما تناقص عدد الضيوف طلبت من جيترورد شتاين وأنا أن نلتحق بها. وتوجهت بالكلام إلى شتاين: "دعيه يحدثك عن كيفية تدبير منزل توني." ثم إلى عبد القادر: "أخبر الآنسة هل كان المنزل نظيفا؟"

"أوه سيدتي لا. ليس كثيرا. إنه مروع."

ضحكت جترورد شتاين. واصلا طرح المزيد من الأسئلة على عبد القادر وكانت أجوبته مصدر سعادة بالنسبة لهن. فجأة توجهت جترورد شتاين إلي: "هل

تركت قطعة نقدية بقيمة اثنين وستة على غطاء المرحاض المتسخ؟" لم أفهم قصدها. "هذا ما قام به السيد سالتينا في رواية *الزائرون الشباب* وهذا ما كان تومي وأنيتا يتوقعان منك أن تقوم به." اعترضت: "لكنهما هما من استضافاني."و بعد ذلك انفجرت السيدتان في ضحك تهكمي.

وصل هاري من دريدسن ليخبرني عن فتاة حامل منه وكيف أنه يحاول حثها للذهاب إلى لندن للإجهاض. استأت كثيرا من لا مبالاته غير أنه بدا لي على العكس راضيا على حاله. أخذت البرقيات تنهال أولا من ألمانيا وأخيرا من لندن، غير أن مسألة ما إذا كان عليها أن تباشر عملية الإجهاض بقيت عالقة. أخذ هاري مرسما مؤثثا في سطح 17 بشارع فولتير في نفس البناية حيث يسكن فرجيل تومسون. وبعد أن وقع عقد الرهن ذهب إلى رواق بيير حيث يعرض ميرو لوحاته في شكل جديد، تجمعات ذات أبعاد ثلاثة واشترى ثلاث لوحات علقها على جدران القاعة ذات العشرين قدما علوا. ذهبت لزيارة نادية بولانجر التي كانت مبسوطة جدا غير أنها لم تكن تتوقع زيارتي أو ربما أنها كانت تتوقع ذلك منذ شهور خلت لكنها لم تعد تتطلع إليها الآن. على أي، لم تكن على استعداد لتقبلني الآن كطالب تلحين لكنها في المقابل طلبت مني أن أسجل اسمي ضمن طلبة فصل الطباق في المدرسة العليا الشيء الذي قمت به فعلا حتى أشرع في الدراسة في بداية السنة.

كان آرون قد رتب حفلا للموسيقى الأمريكية الجديدة في الرواق الأيولي في شارع ويغور بلندن. سيقوم بعزف تنويعات البيانو وسيرافق فرجيل تومسون المغنين في معزوفة "عاصمة عواصم،" وهي معزوفة مستوحاة من نص لشتاين. ومادام أن قطعتي على آلتي الناي والمزمار كانت ضمن مواد البرنامج فقد كان علي أن أصل قبل الأوان للإشراف على تمرين العازفين. غادرت أنا وهاري باريس أسبوعا قبل الحفل. خلال ذلك الوقت كانت ماري أوليفر وجوك يقطنان في بيمبروك لودج بحديقة ريتشموند وهكذا بسخاء كبير عرضت علي أن أمكث هناك. كان المنزل واحدا من تلك المنازل حيث توجد لوحات تيتيان في غرف الطعام ولوحات بيكاسو في حجرات الحمام. لعل النقطة السلبية الوحيدة بخصوص هذا المسكن هو المسافة التي تفصله عن وسط لندن حيث أباشر تماريني كل يوم. غير أن ماري

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت قد صممت سيارتين مذهلتين وهكذا وضعت واحدة منها رهن تصرفي إضافة إلى سائقها والخادم. ارتكب هاري خطأ إثارة مسألة الإجهاض أمام ماري فشرعت في إقناعه حالا بزيارة ساحرة تعرفها في هامبستيد. لم تكد ماري تذكر الكلمة حتى استشاط غضبا ذلك أن أباه كان طبيبا وبالتالي فقد رفض رفضا باتا أي تعامل مع الساحرات. جرى الإجهاض أياما بعد ذلك وانتهى الموضوع.

في لندن التقيت أخيرا بادوار روديتي الذي كان قد بعث لي بالعديد من الخطابات التي يمكن أن أتوسل بها للتعرف إلى أصدقائه. كان طويل القامة، مهذبا ويتكلم العديد من اللغات. ذهبنا إلى مكتب أبيه للاستيراد والتصدير. كان المكتب واسعا ويقع في ساحة كولدن. كانت الشركة عالمية؛ قضى إدوارد بعض الوقت يعمل مع أبيه في جناح هامبرغ. وصلت أميليا أخت هاري التي تكبره سنا إلى هول أيوليان ليلة الحفل. لم يثر البرنامج إعجابها كثيرا. لسبب من الأسباب كانت قطعتي أشد ما أثار حنقها ربما لأن معلقا في جريدة الصباح ذكر بأنها تنم عن "إلحاد" صاحبها. عدنا إلى باريس معا. في العبَّارة أخبرتني: "لو كان لدي ولد وكتب مثل تلك القطعة فسيكون لي معه تصرف خاص."

كنت فضوليا بشكل غامض: "ماذا كنت ستفعلين؟"

قالت بعنف: "سأحرص على أن يكون نزيل إحدى المصحات."

انتقلت أميليا للعيش مع هاري في المرسم. ما أن رأت عبد القادر حتى نصبته العداء وغدا شغلها الشاغل أن تضطهده وذلك بتعقب خطاه، وإصدار أوامر مستحيلة في لغة لا يمكن لأي أحد أن يستوعبها: "افعل هذا أو ارحل، هل تسمع؟" كان عبد القادر يحملق دون أن يعي أي شيء. أحيانا يصرخ في وجهها: "آه رجاء سيدتي دعيني وشأني." بدا واضحا أن نمط الحياة في الشقة الصغيرة لن يعمر طويلا.

8

بدل الانتقال إلى الشقة الصغيرة الواقعة بشارع فولتير حتى أقضي الليل في الشرفة وأهيئ نفسي لفصل الطباق بالمدرسة العليا التقيت آن. كانت آن في غاية الجمال والروعة تنجز منحوتات صغيرة على شاكلة أعمال الرسام الألماني كلي كما أنها بدت متحمسة جدا للتزحلق على الجليد. بحانات موبرناس تحدثنا كثيرا عن التزحلق ودون أن ندرك ذلك كنا في عربة من الدرجة الثالثة في القطار المتوجه إلى تورينو نحتسي كميات كبيرة من الخمر الأحمر. كنت قد أصبت بالأرق خلال الليالي السابقة و لم تكن هذه الليلة على متن القطار لتختلف عنها كثيرا. حينما وصلنا إلى تورينو أودعت مباشرة في المستشفى. أرسلت آن برقية إلى هاري وجاء لزيارتي. حينما بت قادرا على الحركة ذهبت أنا وآن إلى كلافيير، موقع للتزحلق فتح مؤخرا بالقرب من الحدود، على الجهة الإيطالية. قامت آن بالتزحلق قليلا واسترجعت أنا عافيتي. غير أننا في اليوم الأخير من رحلتنا قمنا بنزهة في الثلج أعلى الوادي، ودون حكمة مني قررنا ارتداء ملابس السباحة. هكذا وحتى قبل أن نصل إلى باريس أصبت بنزلة برد قوية وبألم حاد في اللوزتين. نزلت في شقة آن وكانت تطهو لي الطعام واستطاعت أن تعيدني على قدمي من جديد. بعد ذلك علمنا بأن زوجها قد يعود من ألمانيا في أية لحظة. ومع أنه لم يكن يقيم معها حينما كان في باريس فقد كان يأتي دوما لزيارتها. كان مُحرجا أن أبقى معها مترقبا وصوله الوشيك في أية لحظة.

حملت جهاز بيانو إلى الشقة الصغيرة وأقمت هناك. لم يكن هاري في باريس خلال تلك الفترة وكانت أميليا تلقن عبد القادر النظام وذلك بحبسه في المطبخ. لم يكن ذلك سيئا كما قد يبدو للوهلة الأولى، ذلك أن غرفة الطعام والحمام يشكلان جزءا من وحدة المطبخ حيث كان مسجونا. وبينما أخذت أميليا تبتكر الوسائل تلو الوسائل لتعذيبه أخذت أيضا تجوعه بشكل منتظم. غداة تحريره لم يكن هناك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ما يقتات عليه سوى القشدة الطرية التي كانت قد اشترت له منها كميات وافـــرة في الأيام السابقة. خلال هذه الأثناء غدا عبد القادر يكره أميليا أكثر ممـــا كانـــت تكرهه هي.

بعد مرور أيام قليلة ذهبت إلى معرض فوتوغرافي في لابرتيك بشارع راسباي واصطحبت عبد القادر معي. كانت القاعة تغص بنخبة باريس كما تملأ الجـــدران أعمال أتغيت وموهولي ناجي ومان راي وفنانين آخرين. التقيـــت بالعديـــد مـــن الأشخاص الذين أعرفهم وهكذا انفصلت عن عبد القادر قليلا. فجأة تنـــاهى إلي صوته وهو يتعالى على أصوات المئات الآخرين: "السيد بول الســـيد بـــول هيـــا بسرعة." هرعت نحو مصدر الصوت والتقيت به وهو يهرول نحوي وهو لا يـــزال يصرخ: "تعال. انظر هناك. الرجل العجوز الطيب الذي أعطاني الخمسين فرنكـــا. أنظر." عند نهاية الممر كانت هناك صورة ضخمة تحتل موقع الصدارة لأندري جيد وهو يعتمر قلنسوة. صار هذا الحادث دعابة الشهر في باريس.

كانت تتملك أميليا حالة ذهنية غريبة حيث تعمل دون هوادة لتنفيذ قناعاتها. كانت عازمة على التخلص من عبد القادر دون أن يغيب عن وعيها في نفس الآن بأنه خادم هاري وبالتالي فأية مبادرة تصدر عنها يجب أن تبدو كما لو أنهـــا غـــير مسؤولة عنها. حاولتُ تهدئة عبد القادر وذلك بطمأنته بأنها ســـتغادر قريبـــا إلى أمريكا، ولكن دون جدوى. أما بخصوص نواياها بشأني فقد أعلنـــت عنـــها دون مواربة. تقول والشرر يتطاير من عينيها: "سأضعك في المستشفى." أخبرت كارلو سواريس عن ذلك من باب التسلية، لكنه حذرني: "احترس. المرأة مجنونة." أحيانا آخذ آن معي إلى الشقة ومع أن أميليا لم تكن تحبها فإنها كانت من اللياقة والأدب بحيث أنها لم تظهر ذلك في كلامها أو سلوكها.

حينما اختزلت أميليا طموحها تجاهي إلى حد أن تطلب فقط أن أخضع لنقر على الحبل الشوكي (مادامت تزعم الآن بأنني مصاب بداء الزهري) فقد انتقلـــتُ إلى شقة كارلو. في الصباحات حينما أعود لأشتغل على البيانو نادرا مـــا أجـــدها هناك. كنت أحاول أن أنهي سلسلة من ستة أغاني لنصوص لي أردت أن أمنحهـــا للناسخ بسرعة قبل أن أرسلها لآرون للعرض في يادو في الربيع. ذات يوم حينمـــا ذهبت إلى الشقة الصغيرة لاحظت بأن لوحات ميرو الثلاث اختفت مـــن علـــى

الجدران. كما أن المكان يبدو فارغا بشكل غريب. ألقيت نظرة سريعة على كل الغرف: لا دليل على وجود عبد القادر. حينما صعدت إلى البالكونة بدت الفوضى تعم المكان: أغلب ملابس هاري وملابسي اختفت بالرغم من وجود بعض القمصان الزائدة وأزواج من الجوارب مرمية هنا وهناك. بينما كنت أرتب ما تبقى من الثياب سمعت أميليا تدخل إلى الشقة ونزلت مهرولا لأعلن عن الأنباء السيئة. حينما حدقت إليها أدركت أنها تعرف كل شيء.

قالت: "أراد أن يذهب إلى إفريقيا وهكذا فإنه ذهب. أخذته إلى لويس فويتون واشتريت له بعض الأشياء وهكذا غادر."

لم أدرك خدعة شراء الأمتعة لعبد القادر من متجر فويتون إلا لاحقا، حينما هدأت، وقد سلمت بهذا المصاب. صرخت: "ماذا عن الملابس؟ وكل ملابس هاري؟" هزت منكبيها وقالت بهدوء: "إذا كان عرب الشوارع في المنزل فلابد من ضياع أشياء. أليس كذلك؟"

"لم يسبق لعبد القادر أن سرق أي شيء. أنت من أعطاه ملابسي، أليس كذلك؟" قهقهت بطريقتها الأكثر إثارة للغضب وقالت: "بالتأكيد لا. أخبرته بأن يملأ حقائبه. وبعد ذلك أخذته إلى محطة أورساي. هذا كل ما في الأمر."

بعد ذلك قلت بينما أكاد أفقد الوعي: "ماذا عن لوحات ميرو؟ أعتقد أنه أخذها هي الأخرى، أليس كذلك؟"

لم تُبد أي اهتمام: "أوه هل اختفت هي الأخرى؟ أخشى أنني لا أعرف عنها أي شيء."

في طريقي إلى الخارج، توقفت بشقة الحارسة وأخبرتها عن حادث اختفاء لوحات ميرو. بدت حائرة: عن أي اللوحات أتحدث؟ وصفت لها اللوحات. "آه السيد يعني تلك القطع من الخشب العتيقة؟ اعتقدت بأنك ستكون سعيدا لو تخلصت منها. لقد رميتها."

لحسن الحظ أنها كانت قد وضعتها في الطابق الأرضي وهكذا يمكن استرجاعها ولو أنها تعرضت قليلا للضرر. حينما عاد هاري إلى باريس، أخذها إلى رواق بيير للإصلاح. قام ميرو نفسه بالترميم ومرة أخرى احتلت مكانها السابق على جدران الستوديو.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت زوجة كارلو قد غادرت للتو إلى كاليفورنيا لتكون برفقة كريشنا مورتي. نادرا ما كنت أتردد على كارلو ذلك أنه كان على العموم في الخارج غير أن ولديه الصغيرين اللذين يبلغان من العمر خمسة وسبعة سنين كانا هنالك مع حشد من الخدم الإيطاليين. كنا نتناول الغداء جميعا في المطبخ. كانت الشقة عبارة عن سقيفة في قمة بناية عالية في شارع لابوردوني وبما أن برج إيفل كان مباشرة أمامها، فقد وضع كارلو جدرانا زجاجية في الغرف الثلاثة التي تواجه السور حتى تكون البناية بكاملها بادية للعيان. كان كارلو مثقفا شيوعيا دون أن ينضم إلى صفوف الحزب الشيوعي؛ كان دائم الحديث عن الثورة. ذات عشية أخذت برنار الذي يبلغ السابعة من عمره لحضور حفل بروكفييف وهو يعزف مقطوعاته الثلاث على البيانو مع الفرقة الموسيقية. حينما عدنا إلى المنزل في التاكسي استدار برنارد نحوي وقال: "لماذا الكل مجانين؟" "من؟" سألته. "كل الأشخاص في الشوارع. يقول أبي بأنهم كلهم مجانين. يقول بأنهم رأسماليون وبأنهم قريبا سيلقون حتفهم ولكن لماذا هم رأسماليون؟" لم تكن لدي أية إجابة على هذا السؤال.

فاق الشتاء في باريس أسوء توقعاتي. توالت الأيام رتيبة قصيرة رمادية دون ولو قبس من الشمس وهكذا غدا الموسم مصدر كآبة. ذهبت مرتين إلى المدرسة العليا وعملت على تمارين الطباق الموجودة في الكتاب المدرسي، غير أن حماسي للدراسة خبا. ذات مساء تناولت العشاء في مطعم على الضفة اليسرى مع فيرجيل تومسون والعديد من الأشخاص الآخرين. ضمن هؤلاء كان هنالك جون ترونستين، وكيل أعمال أدبي أمريكي من سينسيناتي باع مؤخرا حقوق كتاب يحمل العنوان التالي: "القميص الصغير" (تحول الكتاب فيما بعد إلى فيلم تحت عنوان صاحب الوجه ذي الندوب) ألمح إلى رغبته في زيارة اسبانيا. أخذت أتحدث بحماس عن اسبانيا حتى سألني في الأخير إذا ما كنت أرغب في مرافقته إلى هناك. بدت إمكانية الهروب من باريس محفزة لدرجة لا يمكن تجاهلها.

في برشلونة ذهبت إلى ممر الكريديتو للسؤال عن ميرو غير أنه كان متواجدا في مايوركا. ذهبنا جنوبا على طول شاطئ البحر الأبيض المتوسط عبر فالنسيا

وأليكانت إلى الإلتشي التي جعلتني واحتها التي تتشكل من أشجار النخيل أسترسل في إطراء مطول لشمال إفريقيا. بعد حين قررنا الذهاب إلى المغرب.

في غرناطة اكتشفت بأن مانويل دو فالا لا يقطن سوى أسفل التل بالقرب من الفندق حيث كنا نقيم. ذات زوال ذهبت وطرقت بابه. كان قد تجاوز هو وأخته منتصف العمر، وكانا يعيشان ببساطة في منزل هو تجسيد للعمارة الأندلسية حيث تحف به حُقق من الأعشاب المزهرة. قضينا منتصف الزوال نتناول الفواكه من صحن كبير في الفناء. كانت اللغة الفرنسية هي لغة التواصل بيننا. أخبرته عن إعجابي برائعته "رافدة مذبح ميسي بيدرو"، لكنه كان أكثر اهتماما بقطعته "كونشيرتو البيان القيثاري" التي لم يسبق لي أن استمعت إليها. في يوم آخر رأيته متلفعا في عباءة سوداء طويلة يحث الخطى على طول أحد الأزقة الخلفية المغبرة على تل الحمراء ليحضر قداس الظهيرة.

كانت أولى أيام ذلك الربيع من سنة 1932 زمانا للسعادة المشتركة على نطاق واسع. في كل بلدة من البلاد الاسبانية كان هناك احتفاء. كان الناس يغنون ويرقصون في كل مكان. كان جو السعادة يشيع في الأجواء كما كانت أشجار النخيل والورود تزين مواقع الاحتفالات التي تتمدد على طول الشوارع. على موائد المقاهي وضعت علامات صغيرة تنصح الزبناء بأنه ممنوع إعطاء أو أخذ البقشيش. كان المنع مرتبطا مباشرة بحالة النشوة العامة. كان ذلك يشير إلى حالة الإحساس بالشرف القوي لدى الرجل العادي والذي نعرفه "بالكبرياء الاسباني." كانت اسبانيا حية عندئذ لكنها انتهت بعد ذلك.

عبرنا إلى طنجة. في اليوم الأول ذهبت للسؤال عن توني وأنيتا لأكتشف بأنهما قد انتقلا إلى منزل جديد في المرشان خلف المقبرة الاسلامية. وسط المقبرة وجدت أنيتا. بتردد استدارت وعادت معي إلى المنزل موضحة لي بأن توني كان قد أغلق للتو الباب في وجهها. حينما طرقت الباب سمعت توني يصرخ في الجانب الآخر من الغرفة: "من هنالك؟" أخبرته بأنني أرافق أنيتا. "لا أريدكِ لا أنت ولا بول في منزلي." زعق. هزت أنيتا منكبيها ثم عدنا أدراجنا إلى طنجة. فكما أوضحت لي، لم تكن الأمور على ما يرام بينهما، خصوصا بسبب غيرة توني التي لا تعرف الحدود. كانت أنيتا قد فتحت دكانا صغيرا حيث تبيع للسائحين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأجانب أشياء مغربية. قصدنا المحل الذي يوجد في زقاق من أزقة المدينة بمحاذاة فندق كُونتينوتال. يتمدد حصير من القصب على الأرض ورف مزخرف حيث وضعت عددا من محفظات النقود للعرض. بطبيعة الحال، حينما تغلق أنيتا أبواب الدكان وهي بالداخل رفقة أصدقائها المغاربة كان الناس يتهامسون بأن الدكان ليس في حقيقة الأمر مكانا لبيع الهدايا على الإطلاق ولكنه مجرد ماخور. ثمة سبب آخر لحالات الغضب التي تنتاب توني وهو وجود رجل كانت قد تعرفت عليه أنيتا سابقا في أمريكا بطنجة. كان الشاعر الغرب هندي كلود ماكاي (بيت لهارليم) قد استأجر منزلا في الريف بالقرب من وادي السْواني. وكما أخبرتني أنيتا، حينما تغدو حياتها مع توني مستحيلة، فإنها تذهب إلى منزل مكاي وتقضي هناك حوالي الأسبوع. بعد ذلك يقوم توني وقد احتمل أكثر من اللازم، بنسيان كبريائه ويقصد المنزل الواقع على الوادي ليأخذها ويعود بها إلى المنزل في المرشان. ذهبنا معا لزيارة ماكاي. كان بدينا ومرحا يضع طربوشا أحمر على رأسه وكان يعيش بالضبط كالمغاربة. في لحظة معينة وبضربة من يديه يدعو راقصة مغربية لم تبلغ الثانية عشر من عمرها بعد ويأمرها بالرقص أمامنا. لم يحظ المشهد عموما بإعجاب ترونستين الذي وجد المغرب مملا.

في فاس وصلت علاقتنا أخيرا إلى القطيعة. كنا نسير عبر أزقة الجانب الأندلسي من المدينة أنا وعبد الله الدريسي في المقدمة بينما كان هو ومغربيان آخران في الخلف. فجأة توجه إلي بالكلام متهما إياي بأنني أقوم بإخبار عبد الله بأنه يهودي. ثم واصل اتهاماته: "أعرف ما تقوله." دون تردد لكمته في الفم. غادر فاس في ذلك اليوم و لم أره أبدا منذئذ.

حينما عدت إلى طنجة التقيت برجل يدعى عبد السلام بن الحاج العربي يحب تناول الأفيون. حاولت مجاراته غير أن ذلك سبب لي ألما في الرأس. كما أن الرجل كان يبدي اهتماما خاصا بكلود ماكاي، ظاهرة لم أقدر أبدا على تحليلها ذلك أن عبد السلام توفي بعد مدة قصيرة من ذلك. كل ما يمكنني افتراضه هو أن شخصا ما دفع له ليقض مضجع ماكاي (مما يعني في تلك الأيام حكومة ما.) على أي، قام عبد السلام رفقة صديق له بالتسلل إلى المنزل الذي يوجد بوادي السواني وسرقة جواز سفر مكاي وبعد ذلك ذهبا للسلطات لإدانته كشيوعي.

آنذاك كان كل شخص تروتسكي يعتبر شيوعيا وبالتالي فإن التهمة كانت مناسبة. كان ماكاي قد سلمني رسالة من ماكس ايستمان يعلن فيها عن نيته لزيارة طنجة والإقامة معه في المنـــزل لاحقا تلك السنة. لسبب غامض، لكنه يبقى يقينا منطقيا مع أنني لم أعد أذكره، قرر ماكاي بأنني وراء المؤامرة التي جعلت مقامه الجميل في المغرب في خطر. ذات مساء جاء إلى فندق فيينا حيث يتكاثر البق وطلب مقابلتي. ونظرا لسواد بشرته والطربوش الأحمر الذي يعتمره وحالة التوتر الشـــديدة الـــتي تتملكه فإن المالك الاسباني رفض أن يسمح له بتجاوز عتبـــة قاعـــة الاســـتقبال. خرجت إلى الشرفة ووقفت هناك بينما كان يقذف إلى الأعلى شتائمه وتهديداتـــه بلغة انجليزية غرب هندية. كان يلوح لي بعصاه وكذلك للمشغلين بالفنـــدق وإلى المالك الذي طرده عنوة إلى الشارع.

أخذ معين المال ينضب. لحسن الحظ كنت قد تجاوزت عيد ميلادي الواحـــد والعشرين وسأكون قريبا قادرا على الحصول على المبلغ الصغير الـــذي تركتـــه لي العمة أديلاييد منذ أربعة عشر سنة خلت. غادر هاري باريس وتوجه إلى شـــنغاي حيث، وكما أخبرني، تمور البلاد حركة. بدا لي عنوانه هناك شاعريا: شارع البئـــر المفرقعة. عبرت أميليا عن امتعاضها إزاء هذه المغامرة الأخيرة لأخيهـــا في رســـالة أرسلتها إلي من باريس: "إذا كان يود أن يصير مهرجا معتوها، فـــإنني أعتقـــد أن الوقت قد حان لذلك." كانت هذه هي طريقتها في الكلام. كما أنهـــا ضـــمنت رسالتها سؤالا يتعلق بموعد عودتي إلى باريس حتى تزج بـــي في مستشفى.

أبرقتُ إلى عبد الله الدريسي أخبره عن موعد وصولي إلى فاس. وجدتـــه في انتظاري بالمحطة حيث استقللنا عربة حملتنا إضافة إلى حقائبـــي حـــتى بـــاب بـــو الجلود. ثم بعدها ترجلنا عبر أزقة المدينة يتبعنا فريق من الحمالين، يحمل كل واحد منهم حقيبة على رأسه. عرض علي عبد الله البقاء في منـــزل النجارين ما شـــئت من الوقت.

ما أن أُشرعت أبواب المنـــزل ولاح الوجه الفارغ من التعابير للعبد السوداني العجوز الطويل القامة وهو ينتصب خلف الباب حاملا مفتاحا طوله قدمين حـــتى انتابتني مشاعر مسبقة عن نوع الحياة التي ستدور هنا. إنه لأمر جميل أن يقيم المـــرء في بناية فاسية عتيقة إذا ما كان هناك أشخاص في الجوار، لكن إذا كان مضـــيفك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يغادر المنـــزل ويبقى في الخارج لاثنتي عشر أو ثمانية عشر ســـاعة دون انقطـــاع ودون أن يسمح خلال هذه الأثناء لأي شخص آخر بالمرور عبر البـــاب، ســـواء الدخول من أو الخروج إلى الشارع، فستكون الأمنية العزيزة هي أن يوجد المرء في الخارج بدل الداخل.

في الطابق الثاني من البناية توجد باحة ذات سقف جميل تتدلى منـــها شـــرفة ذات أروقة. من مكاني في الأسفل على الشرفة يمكنني متابعة سلسلة متتاليـــة مـــن أعمدة أرز ضخمة في سقفه، مهيأة بدقة وتحمل رسومات لأشكال هندسية وردية تباغت الرؤية. في أحايين كثيرة يتناهى إلى سمعي صوت هرولة على طول البالكونة للعديد من الحيوانات الخرقاء وربما العمياء ترافقها غالبا قهقهات. كانـــت هـــذه المجموعة والتي تتشكل، حسب عبد الله، من اثنين وعشرين من الإمـــاء يعشـــن في جناح آخر من المنـــزل. أحيانا ألحظ أصابعهن تخترق حاجز الخشب المشبك الذي يعزلهن عن مجال الرؤية. وجدت صعوبة في الاقتناع بأنهن يقمن بأي نشاط آخـــر غير اللعب والضحك. لم يكن عبد الله يولي الأمر بالا. فعقب صـــراخ أو حركـــة اصطدام كنت أسأله: "و لكن ما الذي يقمن به في الأعلى؟" يهز حاجبيه ويخبرني: "إنهن يلهون ويمرحن." غير أنه في غالب الأحيان يكون خارج المنـــــزل فتبقـــى أسئلتي عالقة دون جواب يذكر. بتُّ أدرك متى سيحضر عبد الله لتنـــاول الطعـــام .بمجرد أن يحضر الخدم الطيفور إلى مدخل الباحة وقد احتوى على أكثر من حصـــة واحدة من الطعام.

لاحت السماء مربعا شفافا أعلى الباحة؛ كم كان عجيبا حقا مشاهدة لونهـــا وهو يتغير على مدار الساعة. مع حلول الأصيل تبدأ طيور السنونو لعبة اللحـــاق. كنت أجلس وأراقبها وهي تتجه بسرعة عبر رقعة السماء الفارغة. توجـــد آلـــة فونغراف عتيقة إضافة إلى أسطوانتين: واحدة لجوزفين باكر وهو يغـــني "الصـــينية الصغيرة" والأخرى لمحمد عبد الوهاب وهو يؤدي أغنية شعبية من عشرينيات القرن الماضي. نـــزولا عند طلبـــي تم تعويض هذه الأســـطوانات بـــأخرى مشـــروحة لموازين أندلسية. بعد أسبوعين من حياة النساك هذه انتقلت إلى فندق أريانا وكرد فعل طبيعي على حالة الركود والخمول التي كنت أحياها فقد بِتُّ أقضي ســـاعات اليوم في التسكع واكتشاف خبايا المدينة.

حدث حينئذ أن شاهدت أولى الزوايا في غمرة طقوسها الاحتفالية. خلال ذلك التاريخ كان أغلب المغاربة ينتمون لواحدة من هذه الزوايا الدينية التي تُمكن المنتسبين إليها من تحقيق التسامي عن الوعي العادي (ضرورة نفسية في كل القارة الإفريقية) وأن يقوموا بذلك في إطار إسلامي. بالنسبة للطبقة المتعلمة المغربية يعد وجود مثل هذه الطوائف شيئا مقيتا. فمع ظهور الحس الوطني تم قمع هذه الممارسات، بقدر أكبر أو أقل من النجاح، لعقدين أو أكثر من الزمن. حينما تم السماح لها بمزاولة نشاطاتها مرة أخرى تم الحرص على أن تجري هذه الممارسات بعيدا عن عيون غير المسلمين إذ يمكن للسائحين، كما يقال، أن يسخروا من المشاركين أو أن يعتبروا المغاربة مجرد شعب متخلف. لطالما ساورني الاعتقاد بأنني سأنقاد قي يوم من الأيام إلى مكان سيكشف لي عن نبض المكان، إذا لم يكن القلب النابض المكشوف لسحره، غير أنني فوجئت أيما مفاجأة وأنا أجد ذلك لأول مرة مبسوطا أمامي في عراء الشارع. ومع ذلك فقد كان هنالك الآلاف من الأشخاص يتحلقون بالقرب من باب محروق، يهدون الأرض بأقدامهم، ويجيشون انفعالا ويتحركون في حلقات وهم ينشدون. كل ما يشدهم إلى الوعي هو الحاجة الطاغية لتحقيق النشوة. رابطوا هناك طوال اليوم؛ بالإمكان سماع الطبول من غرفتي وخلال الليل يتصاعد إيقاعها. في الصباح التالي تجمهر الناس عند باب دقاقن، مباشرة خارج الفندق. حينها أدركت بأن الأمر يتعلق بمسيرة تتحرك على وتيرة تقريبا مائة قدم في الساعة، بذلك التباطؤ الشديد بحيث حينما يمعن المرء النظر فيها تبدو وكأنها تزحف. على طول جوانب المهرجان كانت هناك نساء يغشى عليهن وقد ظهر رذاذ أرجواني أبيض على شكل فرقعات في جوانب أفواههن وتصدر عنهن صرخات صغيرة ترافق حركاتهن المتشنجة. كلما غاب شخص تماما عن الوعي ووقع على الأرض يتم سحبه إلى داخل حلقة المتفرجين. تستغرق المسيرة يومين لتقطع المسافة الفاصلة بين باب محروق وباب الشرفاء، مسافة قد لا تتعدى الميل الواحد. لم أكن لأصدق أي كلام حول الظاهرة لو لم أعاين الأمور بأم عيني. بيد أنه لأي من الطوائف ينتمي المشاركون، سواء تعلق الأمر بعيساوة أو جيلالة أو الحمادشة أو شيئا آخر، فلم يكن هناك سبيل لمعرفة ذلك. كما أنني لم أتجشم عناء السؤال. هنا للمرة الأولى في حياتي أدركت أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكائن البشري ليس كائنا أعزل كما أن تأويله للظواهر الخارجية لا معنى له إذا لم يشارك فيه الأعضاء الآخرون لجماعته الثقافية. قد تبدو الفكرة مبتذلة لكنها فكرة غابت عني حتى ذلك الحين.

في تلك الأيام اقتصرت جل حركاتي في المغرب على استعمال الحافلات التي غالبا ما تنطلق في الثالثة صباحا. يبدو لي أن هذا يقصر من عمر الرحلة. بشكل من الأشكال فإن الساعات المعتمة التي تسبق طلوع الفجر لا تدخل في الحسبان، إذ أن لا وعيي لا يعد الزمن سوى مع أولى خيوط الصباح. في طريق العودة إلى طنجة بتلال زرهون انحرفت الحافلة جانبا واصطدمت ببقرة. اهتزت الحافلة في الهواء ثم عادت إلى الأرض وواصلت السير. ألقيت نظرة عبر النافذة الخلفية وشاهدت بسرعة منظرا يستعصي على النسيان لبقرة متكومة على الطريق بينما يتدلى لسانها. كان صاحبها الذي يرتدي جلبابا يسحب شعره بجنون ويقفز إلى الماء.

أردت الذهاب إلى مدينة أغادير. أخبرني العديد من الأشخاص في طنجة بأنه لا يوجد هناك سوى الشاطئ. غير أن هذا لم يخفف من بريقها. تربض المدينة بريف سوس في الجنوب المغربي. هكذا أدركت بأنني أتحرق شوقا لرؤيتها. كانت الخطوط الفرنسية توفر لزبنائها طائرة إلى الدار البيضاء مرتين في الأسبوع. هبطت الطائرة على العشب في طنجة وقد تأخرت أربع ساعات عن موعدها. كان هنالك ستة مسافرين كلهم أفرغوا أحشاءهم خلال الرحلة. وما دامت هذه أول رحلة لي على متن طائرة فإنني لم أسمح لنفسي بهذا الهوان، بالرغم من أنني في لحظة من اللحظات أحسست بالرغبة في ذلك.

لم يجانب الناس الصواب بخصوص أغادير: لا توجد المدينة بقدر ما توجد قصبة أعلى الجبل إضافة إلى قرية فونتي البيضاء في الأسفل عند الشاطئ حيث يبلغ سعر الدجاجة الواحدة عشرين سنتا وحيث يربض كوخ خشبي طويل يستعمل كفندق كان قد شُيد على قطع خشبية فوق الشاطئ. في هذه المنطقة حيث يتفجر لهيب الضوء والحرارة يسود جو رائع ولكن كما في كل الأماكن الجذابة فإن نكهتها سرعان ما تزول بسبب الجشع التجاري. سنتان بعد ذلك قامت بلدة شبه فرنسية على نحو سيء في المكان. (حمدا للعناية الإلهية فقد أتى زلزال على هذا

النثوء عن آخره.)[1] الآن وقد توارت كل مظاهر الروعة من المنطقة كلها، فإن المغاربة يجعلون من أغادير مركزا سياحيا. لما لا؟ فالسياح قد يقصدون أي مكان.

خلال هذه الأثناء تلاشت رغبتي في العودة إلى باريس. غير أنني بعد حين ذهبت إلى هناك وأنا أشكو من القر. استأجرت غرفة مفروشة في شقة أرملة في مونتمارس ووضعت بيانو وشرعت في العمل على سوناتة لآلتي الناي والبيانو. أخذ إحساسي بوخز البرد يزداد يوما بعد يوم، بالرغم من أن الزمن كان لحظتئذ نهاية شهر أيار وفصل الربيع على الأبواب. ذات يوم تناولت الغداء مع كارلو سواريز. نظر إلي وقال: "أظن أنك مصاب بالتيفويد. لقد رأيت حالات مشابهة في مصر." جعلني أقيس درجة حرارتي. كانت الحرارة ملتهبة.

لازمت الفراش في المستشفى الأمريكي بنويلي وخضعت لسلسلة طويلة من الفحوصات. كشفت نتائج الفحص الأولى عن إصابتي بحمى مالطا، ذلك أنني اعترفت بتناولي لحليب المعز في مناسبات عديدة. غير أن تخمين كارلو بدا صحيحا. فقد كنت مصابا بتفويد من درجة أ. لم يكن هناك بطبيعة الحال أي دواء محدد للعلاج من هذا المرض في سنة 1932. كل ما هنالك أن الأكل يُمنع على المريض ويخضع لحمامات باردة ويوضع في الثلج بينما تواصل الحمى مسيرتها. كانت الأخطار تتمثل في الالتهاب الرئوي والتهاب الصفاق.

خلال الأسبوعين الأولين اشتد مرضي بحيث لم أكن واعيا بمن يقوم بزيارتي. بعد ذلك أذن لي الأطباء بالجلوس حينما يصل الزوار. فجأة ظهرت أميليا وهي تغزل ابتسامتها و لم تتوان في إخباري: "أخيرا حظيت بك حيث أريدك أن تكون." أمسكت بكأس من الزجاج كان فوق طاولة السرير وقذفته نحوها. تجنبت الكأس وهرولت مسرعة إلى الخارج وهي تضحك. بعد ذلك لم تعد تأذن لها الممرضات بزيارتي. سمحوا لتومسون فيرجيل بالزيارة. لم أكن قد حلقت لحيتي لقرابة الشهر وكانت حمراء بشعة. أخبرني: "تبدو تماما كالمسيح." في اليوم الموالي تمكنت من الحصول على موسى حلاقة ومنذ تلك اللحظة لم أقض يوما واحدا دون الحلاقة.

---

(1) في سنة 1960 ضرب زلزال مدينة أغادير وأتى عليها بالكامل.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذات عشية رفعت نظري فرأيت عبد القادر وهو يُقاد إلى الحجرة. لم أجد قط أي مبرر مُرض لكيفية انطلاقه من مراكش عائدا إلى باريس لكنه ها هو ينتصب أمامي وأحد مناديلي يتدلى من جيب صدريته. أخبرني بأنه يعمل لصالح شخص يدعى الماركيز دوفلينوف. أثرت انتباهه إلى المنديل وفي دفاعه المستميت عن براءته استطاع أن يذرف الدموع من عينيه. يتمتع الكثير من المغاربة بهذه الموهبة؛ أظن أنها شيئا ملحقا من الشفقة الذاتية اللامتناهية. ومع أنني اتهمته دون مواربة بسرقة ملابسي فانه لم يبد أي عدوانية نحوي. كل ما قام به هو نكران ذلك. أكد لي بأن أميليا سمحت له بأخذ كل الأشياء؛ لو أنها فقط اقتنت ما يكفي من الحقائب لتحميلها. وهكذا فقد كان عليه أن يترك الكثير من الأشياء وراءه. لاحقا أخبرني رجل فرنسي كان قد شاهد عبد القادر في مراكش بأنه قضى أياما كاملة في جامع الفناء وهو يبيع ما غنمه من ملابس، قطعة قطعة، إلى المغاربة الذين يمرون بالجوار.

توصلت برسالة من آرون يخبرني فيها بأن أدّا ماكلايش كان قد غنى أغنياتي الست في مهرجان يادو وأن الانطباع الذي خلفته الأغنيات كان ممتازا. "أنت الآن في القائمة. لا تنس ذلك أبدا،" كتب إلي. كانت الرسالة بالنسبة لي بمثابة محفز معنوي كبير.

حينما علمت أمي بأنني مصاب بالتيفويد أبرقت لي بأنها قادمة إلى فرنسا لتبقى معي بعد أن غادرت المستشفى. أمضينا فترة خارج كرونبل رفقة بروس موريسيت ودانييل بورنز الذي رافق أمي من باريس. لدى بروس دراجة نارية هكذا ركبناها ذات أحد إلى بيلي لتناول العشاء مع جيترورد شتاين. كان هذا آخر عهدي بها. أخذتُ أمي إلى مونتي كارلو للاستجمام والراحة لأسبوعين أو ثلاثة. كنا نلتقي جيترورد لورنس كل يوم على الشاطئ في سبورتينغ ديتي. أسرت لي أمي: "إنها تبدو كعمود البقلاء. من الأفضل لها أن تحترس. إن ظهرها أحمر كسرطان البحر. لا أصدق أنها لا تتألم." ذهبنا إلى مايوركا حيث التقينا بروس ودانييل واستأجرنا سيارة لتأخذنا في نزهة حول الجزيرة. بعد أسبوع عدنا إلى برشلونة. أردت زيارة مآثر غودي: العائلة المقدسة والشقق في جادة النعمة وموقف غيل حيث أهم ما أتذكر هو تمثال لصبية تحمل مظلة شمسية مفتوحة فوق رأسها.

كانت لمسة غودي واضحة حيث يجب أن تكون المظلة الشمسية حقيقية. لسبب ما اختارت السلطات المسؤولة عن المنتزه في تلك السنة وضع مظلة سوداء واسعة. ربما كانوا على وعي بالأثر السريالي للتحفة الفنية. للحي الصيني ببرشلونة والميناء القديم بمارسيليا سمعة سيئة إذ يعدان من أسوء أماكن الرذيلة في كل المدن الأوربية. (من المهم أن كلاهما تعرض للتدمير من طرف طائرات القوات الفاشية.) كسائحين صالحين قمنا بزيارة الحي الصيني وشعرنا بالرضا ونحن نشاهد انحطاطه.

وبعد أن قضيت وقتا كبيرا تحت أشعة الشمس على سطح الفندق تعرضت للأذى مرة أخرى. بينما كنت طريح الفراش تغشاني فترات طويلة من الحمى وجلدي يتدلى جلست أمي بجوار السرير تقرأ لي رواية رتشارد هيوغز "ريح عاتية في جاميكا." بدا الأمر كما لو أنني أعود مرة أخرى إلى الطفولة. لاحت فترة النقاهة في الأفق. ذهبنا إلى جبال البرانس، إلى منتجع كاتلاني يسمى السيدة نوريا.

حينما عدنا إلى باريس التقى عبد القادر بأمي ووثب فورا في حضنها. أخذ يلعب وهو شارد اللب، ساهم النظرة. ثم خاطبها: "أقسم لك سيدتي إنني أحبك كما لو كنت أمي." أزعج هذا السلوك غير المتوقع أمي ووقع في نفسها موقع الصدمة. بعد مرور دقائق قليلة أخذتني جانبا لتسألني إذا ما كنت أعتقد بأنه في كامل قواه العقلية.

دعوت أمي لزيارة ما يشاهده الناس عادة حينما يقومون بزيارة باريس. استمتعت بحانة البال نيغْر في شارع بلومي ومسرح غران غينيول. في الحقيقة وجدت كل شيء ممتعا ورائعا لكنني في نفس الآن لم أتمكن من اقناعها بتأجيل رحلة العودة. فكما قالت: "سيفقد أباك صبره." ما أن أوصلتها إلى القارب حتى عدت إلى البحر الأبيض المتوسط لزيارة فرجيل تومسون وموريس كروسر في جزيرة البوركرول. كانت لدي على متن القطار نسخة من *أناشيد مالدرور* التي لم أقرأ حتى ذلك الحين سوى مقاطع منها. فاق حماسي لأعمال *لوتريامو* حماسي نحو *رامبو* ذلك أن أسطورته، على الأقل تلك الصورة التي يقدمها عنه السورياليون، تكاد تساوي في طعمها أسطورة *رامبو* كما أن العمل في حد ذاته هو دوما عنيف وخالي تماما من الدقة التي يمكن تلمسها بسهولة أكبر في عمل *لوتريامو*.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت جزيرة البوركرول جميلة. قضيت هناك أسبوعا، يومين منه في الفراش جراء تعرضي مرة أخرى لأشعة الشمس الحارقة. في اليوم الأول من اصابتي زارني فرجيل وذهب لاستشارة ساحرة محلية. يبدو أنها وضعت إناء فارغا داخل غليون من الماء المتبخر وقامت بتنبؤاتها على هذا الأساس. تتلخص تكهناتها في كوني سأكون إما جسدا هامدا أو أتعافى بعد الغروب.

عدت إلى مونتي كارلو واستأنفت عملي على نصوص من أناباس للقديس جون بيرس. حينما علمت بأن جورج *أنتايل* يقيم في مدينة *كاين سور مير* قمت برحلة إلى هناك لزيارته. يعيش هو وزوجته الهنغارية، *بوسك*، في منزل صغير، تحديدا في الساحة الرئيسية للقرية. مرة أخرى شعرت بالرضا من ردة فعله الجميلة حيال سلوكي الفظ. كم كان بسيطا بالنسبة لهم أن يتجاهلوني بطريقة أو بأخرى؛ غير أنهما دعواني إلى العشاء وجلس جورج إلى البيانو وهو يعزف لساعات ويقرأ ويغني مقطوعتي البنسات الثلاثة المفتوحة وشجرة الماهوغاني لكورت فايل. عدت إلى بلدة كاين مرات عديدة لزيارة جورج وبوسك. ذهبنا معا للسينما بنيس. كان جورج منخرطا في حملة دعاية لجعل الملحنين يخصصون وقتهم أكثر لكتابة الأوبرا حيث أنها كما يدعي اللون الذي ستتخذه الموسيقى مستقبلا. كان يؤلف هو الآخر أوبرا حول حياة هيلين طروادة مستعملا نصا للعازف المشهور آنذاك جون أورسكين. وقام بعزف بعض المقاطع منها. كنت أتصور شيئا على طريقته المشهورة جدا وقد خاب أملي قليلا حينما وجدت أن الموسيقى تبدو شبيهة أكثر بموسيقى هيندميث منها بامتداد الجمالية السترافينسكية التي كنت أتوقع أن أسمعها.

بقيت في مونتي كارلو حتى حلول شهر كانون الأول حينما ازداد الجو رداءة وأخذت أحلم مرة أخرى بشمال إفريقيا. بعد حين ذهبت إلى مارسيليا واستقللت سفينة متوجهة إلى الجزائر. في اليوم الأول في الحانة تحدثت إلى مجموعة من ضباط الجيش الفرنسي؛ أخبرني أحدهم عن مكان في الصحراء يدعى غرضاية يُنصح بها كثيرا خلال الشتاء. قال بحماس: "توجد واحة من النخيل في غاية الروعة." عزمت على رؤيتها ما أن أصل إلى الجزائر. انطلقت مباشرة بواسطة الحافلة إلى لغوات ولم نبلغ المكان إلا مع حلول موعد النوم في الليلة الموالية. في الصباح التالي كان المطر يهطل وأخذ يتساقط دون انقطاع بقية اليوم بينما كنت أنتظر في الفندق المقزز.

هكذا عندما انطلقت الحافلة باتجاه غرضاية تلك الليلة لم نتمكن من التقدم سوى لثلاثة أميال قبل أن تتوقف الحافلة نهائيا وسط بركة عريضة وعميقة. غادر الركاب الحافلة وهم يسحبون برانيسهم إلى الأعلى خشية البلل وأخذوا يسيرون ببطء في محاولة لإيجاد الطريق. لكن حينما باءت محاولاتهم بالفشل عادوا إلى الحافلة واستسلموا للنوم حتى الصباح. اقترح السائق، وهو أوروبي، أن أعود إلى لَغْوات لقضاء الليلة هناك. لم أكن متحمسا لترك حقائبي على ظهر الحافلة كما أنني لم أكن أرغب في أن تطأ قدماي ذلك الفندق المقزز مرة أخرى. غير أنه أمر شخصا جزائريا طويل القامة أن يضعني على ظهره بينما امتطى هو الآخر ظهر جزائري آخر. وهكذا بلغنا اليابسة. بعد ذلك عاد الجزائريان إلى الحافلة وسرنا نحن الاثنين عبر الوحل إلى الفندق الكبير للجنوب في لغوات. في الصباح التالي انطلقت الحافلة بسهولة ذلك أن البركة كادت تختفي. كنت مشغولا بحقائبي وبصندوقي ولكن فقط لأنني أجهل حقيقة الصحراء الفرنسية حيث، كما أخبرني السائق، يمكن للمرء أن يترك ساعته على صخرة ليجدها كما هي بعد مرور شهر على ذلك.

كان المطر قد تساقط أيضا في غرضاية ولأول مرة، كما أكدوا لي، منذ سبع سنوات. تشكلت بحيرة عميقة على جانب الطريق التي تقود إلى البلدة حيث قضى غرقا طفلان صغيران أو ثلاثة لم يسبق لهم أبدا أن رأوا الماء على سطح الأرض حينما حاولوا أن يمشوا فوقه. كان حشد من النساء يحيط بالبحيرة كل ساعات اليوم وهن يسحبن الماء إلى منازلهن. استمرت هذه العملية لما تبقى من الأسبوع إلى أن اختفى كل أثر للماء.

كنت مسرورا للغاية بالمكان وانطلقت أبحث عن بيت للإقامة. بدا القبطان دارمنياك، الحاكم الجهوي، متعاونا حيث وفر لي مسكنا صغيرا رائعا له حديقة في الخارج ويحيط به جدار عال تعلوه قطع زجاجية حادة لصد اللصوص. لا يقع هذا المبنى في البلدة أو في إحدى القرى لما يسمى المعازب ولكنه يرتسم بمفرده في أرض خالية بالقرب من طريق مَليكة وعلى بعد دقائق قليلة سيرا على الأقدام إلى منزل القبطان. أرسل لي شابا يريد أن يشتغل خادما لكن تقاسيم وجهه تنم عن عزة النفس. ظاهريا بدا مليئا بالحماس للعمل ولكنه كان يأبى أن ينظر إلي بينما أستجوبه. بدا لي هذا مؤشرا لا يبعث على الخير. سألت القبطان إذا كان يعتبره

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جديرا بالثقة، فأجابني: "لا يمكننا معرفة ذلك." قررت التريث قليلا. كان المرشح هذه المرة رجلا له عين واحدة أرسلته البعثة الكاثوليكية المحلية. بدا لي رهانا جيدا وهكذا احتفظت به. كان طبخه عاديا جدا غير أنه كان ذكيا ويعمل بجد كما أنه أنقذ حياتي.

تقع المعازب في جزء قاحل بشكل خاص من شمال الصحراء الجزائرية كما أن شهر كانون الأول يتميز بالقر. خلال ذلك الشتاء ونظرا لحالة الإنهاك العامة التي أعقبت التيفويد، صرت أكثر حساسية للبرد من ذي قبل. على أي، كان المنزل مقصورة مثلجة. خارج الباب تلتهب أشجار النخيل تحت أشعة الشمس القوية، لكن ما أن أخطو إلى الداخل حتى ألحظ لسع البرد. كانت الجدران الطينية السميكة فعالة بشكل كبير في عزل الداخل عن الخارج. كنت في حاجة إلى الدفء وكانت الوسيلة الوحيدة المتاحة هي المجمر الكلاسيكي لاحتراق الفحم الخشبي. كما هو متعارف عليه، يجب أن تشتعل قطع الفحم الخشبي في الفضاء الخارجي وتبقى هناك حتى تصير حمراء مشعة. كان الاختناق بسبب المجمر أمرا شائعا في كل أرجاء إفريقيا الشمالية. كانت الغرف الصغيرة للمنازل تختنق بسرعة بغاز مونوكيد الكربون غير أنه لم يسبق لي أن استعملت أبدا المجامر وبالتالي كنت أجهل كل شيء بخصوصها.

صبيحة مغامرتي السيئة وضعت المجمر على الأرض بجانب الفراش حيث كنت أجلس وأتابع القراءة. بدت الأمور عادية غير أنني شعرت فجأة برغبة عارمة في التكور ووضع رأسي على الفراش. قمت بذلك بينما كنت أشعر بثقل شديد بحيث أنني لم أستطع التساؤل عن مصدر هذا الشعور المفاجئ. سرعان ما غمرتني سحابة من الظلام، غير أنه كان ظلاما مريحا انسقت إليه بمحض إرادتي. بعد ذلك كانت كلمة "سيدي" تطن في أذني وشخص ما يحاول أن يجعلني أنهض على قدمي ويسحبني إلى المطبخ. لاحقا أذكر كيف تم اقتيادي وأنا أتعثر عبر الأرض الخلاء الحامية كما لو أنها صفيحة تحترق بفعل لظى الشمس إلى منزل القبطان دارمنياك. ليومين كنت أتمدد هناك في السرير ورأسي يكاد ينفجر.

ونظرا لانعدام أسباب التدفئة فقد اقترح القبطان أن أعود إلى لَغوات وأن أبقى في فندق تْرانس أتلانتيك حتى يصير الطقس دافئا- الشيء الذي يحدث عادة، كما

يزعم، ثلاثة أو أربعة أسابيع بعد انقلاب الجو الموسمي. هكذا انطلقت مرة أخرى نحو لغوات لا أحمل أي شيء سوى الملابس التي قد أحتاج إليها، إضافة إلى بعض مخطوطات الموسيقى وجزءان من رواية *الزمن المستعاد*. قدم لي صاحب الفندق مقابل مبلغ مناسب عرضا جيدا ينطوي على كل شيء وهكذا وجدت نفسي أحيا ضمن نظام مريح. باكرا كل صباح يأتي الخادم إلى غرفتي حاملا قطعا من الخشب ويوقد نارا متأججة. حينما تصير الغرفة دافئة يحمل لي الفطور.

توجد كنيسة في البلدة؛ ذهبت لأطلب من القائم عليها السماح لي باستخدام الأرغن. حينما حصلت على الموافقة أخذت أعمل على تأليف عمل موسيقي مستوحى من نص فرنسي من تأليفي الخاص (بعد مرور عدة سنوات تم تقديم عرض بمتحف الفن الحديث بنيويورك ونظرا لأنني كنت حينئذ في الهند فلم أتمكن من مشاهدته و لم تعرف تلك المقطوعة عرضا ثانيا أبدا.)

بعد مرور شهر عدت إلى غرضاية. كان القبطان على حق: كان المكان دافئا بشكل جميل الآن وبالرغم من ذلك فإنني لم أنتقل إلى منزلي مرة أخرى ولكنني بقيت في الفندق المحلي الذي يستعمله سائقو الحافلات والشاحنات. وبما أنني كنت قد تناولت أكلا فرنسيا جيدا لفترة من الزمن فلم أعد قادرا على مواجهة إمكانية الوجبات التي تكاد لا تؤكل التي كان سيحضرها خادمي ذو العين الوحيدة. هنا في الفندق التقيت بشخص أمريكي يدعى جورج تورنر، ربما يكبرني بسنة، كان يتجول في الصحراء لأشهر عديدة. أخذنا نتناول الطعام معا على نفس الطاولة و لم يكد يمر الكثير من الوقت حتى قررنا القيام معا برحلة على ظهر الجمال.

بعتُ قطع الأثاث التي كنت قد اشتريتها وحزمت أمتعتي ثم ودعت القبطان وانطلقنا بواسطة الحافلة إل الجزائر حيث كان على جورج الحصول على رسائله والمال من عائلته في ايفانتون. كنا كل ليلة نقوم باكتشاف القصبة التي لا يقترب منها رجال الأمن إلا في حالة وجود مشاكل كبيرة. في هذه الحال يذهبون جماعة ويقومون باعتقال العديد من الأشخاص. لقد كنا أغبياء لتعريض أنفسنا لما افترض الخطر الكبير الذي ينطوي عليه وجودنا هنا. لكن إذا كنا بلهاء فقد كنا أيضا محظوظين لأننا لم نواجه أبدا أية صعوبات.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذهبنا إلى بوسعدة لبضعة أيام حيث كان يتعقب خطواتنا مرشد سياحي دون كلل أو ملل. كان يلح على أن يرينا شيئا ما، بغض النظر عن ماهية هذا الشيء: السوق، التلال الرملية، أو خرير الماء الجاف. أي شيء، فالأمر سيان. حينما أشار إلى فتيات أولاد نايل اللواتي سيرقصن أمامنا عاريات تلاشى عنادنا وسمحنا له بترتيب الأمر.

سبق أن قضينا ليلة نائمين على شكل حلقة في غرفة مع ثلاثة نساء من أولاد نايل ولم نتخلص من البق حتى الجزائر حيث كشطنا أجسادنا في حمام. هكذا فقد كنا حازمين بشأن عدم الرغبة في قضاء الليلة في ماخور في بوسعدة. كانت هنالك فقط فتاة حسنة المظهر، في حوالي السادسة عشر من عمرها، وقد حرصت على أن تبدو خجولة جدا. ستكلف مضاجعتها كل واحدا منا خمسة عشر فرنكات أما رؤيتها وهي ترقص عارية فسيكلف 75 فرنكا ناهيك على أن الوسيطة أخبرتنا بأنه لم تجر العادة بالنسبة للفتيات الرقص دون ملابس. كما أنها ليست على يقين تماما بأن الفتاة التي وقع عليها اختيارنا قد توافق على ذلك. كان جورج يرى أن نتخلى عن المشروع غير أنني تشبثت بالفكرة معربا عن قدرتي على توفير المال إذا تم إقناع الفتاة. بطبيعة الحال وافقت الفتاة أخيرا غير أنها كانت محرجة جدا وهي تخلع ملابسها. في لحظة من اللحظات فقدت شجاعتها وانطلقت جريا إلى الغرفة المجاورة حيث تمكث الوسيطة. غير أن المرشد السياحي كان جالسا هو الآخر وهكذا عادت بسرعة أكبر مما كانت عليه حينما غادرت. لم يكن رقصها رائعا ولم يدم سوى خمس دقائق ومع ذلك فإن جمالها غطى على كل شيء آخر. أي شيء يقوم به جسدها كان مُرضيا جماليا. حينما انتهت ودفعنا المال للوسيطة سألت أي واحد منا سيقضي الليلة معها. حينما علمت بأن لا واحد منا يرغب في ذلك بدت حزينة وغامضة. عدنا إلى الفندق. لم أكد أستلقي في السرير وأطفئ الأنوار حتى سمعت باب جورج ينفتح ووقع خطاه على طول الممر. في الصباح التالي اعترف بأنه عاد ليقضي وقتا مع الفتاة لكن نظرا لطبيعته الكتومة وكذلك لتحفظي بشأن الموضوع فقد اكتفيت بالاشارة إلى ذلك عرضا.

بينما كنا في بوسعدة قررت أن أذهب في جولة على ظهر الحصان، فكرة كان علي أن أتخلى عنها ما أن تبادرت إلى ذهني. توقف الفرس فتدلى السرج

وصار سافله عاليه. صرت أركب دون سرج بينما كان الفرس يهرول فوقعت على الأرض وقد ارتطم وجهي في حوض بحيرة جافة. حينما زحفت إلى أعلى الضفة كان الفرس يتراءى بعيدا وضئيلا في الأفق وهو لا يزال يركض. تهشمت ساعتي اليدوية وكنت أعرج لأيام وأيام.

عدنا إلى الجزائر حيث تركت صناديقي وحقائبي في فندق وبعد ذلك انطلقنا مرة أخرى نحو الجنوب. في توغرت اعترضتنا مشاكل مع رجال الأمن، ذلك أن الفرنسيين ولأنهم فرنسيون فهم يتوجسون من الأجانب ويرتابون من أمرهم. غير أن هذه الصعوبات لم تتعد جلسة واحدة في مخفر الشرطة حيث تم استجوابنا المرة تلو المرة عن بواعث وجودنا في الجزائر. بعد يوم التقيت بمالك للجمال في المنطقة ورتبت معه أمر جملين وسائق يأخذنا عبر القمة الشمالية لجبال العِرق الشرقية حتى الوادي. بالنسبة للطعام اقتنينا صندوقا من ماء فيتل المعدني وحقا كبيرا من المقرمشات وخمسة كيلوغرامات من تُمور دغلات نور. للنوم ابتعنا ملاءات الجمال طولها عشرة أمتار يمكن استعمالها أيضا ككراسي عند ركوب الجمال التي كانت دون سروج.

شرق توغورت مررنا عبر سلسلة من الواحات الصغيرة حيث كانت جحافل من الجراد تحلق في الهواء. كان السائس ماهرا في التقاط الجراد وهو يحلق. كان يقطع الرأس والأرجل وبعد ذلك يلتهم الحشرات كما لو كانت حبوبا بينما يعلو محياه شعور بالرضا. لا أحد منا رغب في مشاركته الجراد، كما أننا لم نقبل عرضه من الماء الذي يوجد في جربته التي يملأها من السائل الأخضر الذي يجده بين الحين والآخر في حفر الماء المتناثرة على طول الطريق. يكمن عمل الدليل في السير إلى جانبنا ومحاولة جعل الجملين على الأقل يسيران في نفس الاتجاه العام، مهمة ليست يسيرة على أي حال ذلك أنها كانت جمال خاصة بالحمل و لم تكن معتادة على ركوب الأشخاص. كلما لاحت قطعة من العشب الجاف كان يسلس لها القياد ويتركها لحالها دون مضايقة. وكان يعترض حينما نركلها أحيانا في جنباتها حتى تواصل السير. عند رؤيتها لشيء أبيض صغير يتلألأ تغير الجمال وجهتها وتتجه نحوه. كان الشيء يتراءى دوما على أنه حزمة من العظام أو عظم واحد وهكذا يمسك كل جمل عظما ويعمل على هرشه برضا إلى أن ينتزعه السائق الذي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يستشيط غضبا حينها. فكما أوضح لنا، إذا كان لدى الجمل عظم فإنه لن يعير بالا للعشب كما أنه يريد لحيواناته أن تلتهم من الطعام ما استطاعت إليه سبيلا خـــلال الطريق.

لا توجد طريق محددة المعالم يمكن للمسافر اقتفاؤها، لكننا حينما نرتاب بشأن الوجهة المحددة فكل ما علينا القيام به هو تسلق قمة أعلى تل يوجد في الجوار حتى تلوح العلامة الملموسة التالية التي وضعها الفرنسيون كل بضعة أميال على طـــول الطريق. في الليالي ننام في الأبراج، وهي أماكن وضعها الفرنسيون أيضـــا رهـــن تصرف القوافل. (البرج هو بناية تحيط بها أربعة جدران عالية، في جهة منه يوجـــد مكان خاص بالجمال وفي الجهة الأخرى مكان للرجال. أما "الترتيب،" فهو عبارة عن طابور من أماكن صغيرة للنوم تحيط بها جدران ويعلوها سقف دون أن تكون هناك أرضية مبلطة.) يلف المرء نفسه في ملاءة ثم يخلد إلى النوم على بســـاط مـــن الرمل. في الفجر نحتسي كؤوس الشاي الساخن ثم ننطلق مرة أخرى. خلال اليوم الثالث تضايقت كثيرا من الحركات الغريبة التي يقوم بها الجمل وهو يسير وهكـــذا قررنا أنا وجورج السير على الأقدام. خلال كل مراحل الرحلة كان سائس الجمل يقوم بغزل الثياب وهو يمشي. أخبرنا بأنه كان يصنع لفاعا، حيث كان يضع الجزء الذي انتهى منه حول عنقه وهكذا وهو يسير كان ينظر إلى الأســـفل، ويواصـــل عمله بالإبر.

بعد ثلاثة أيام من السفر وصلنا إلى جهة السوق. تبدو واحاته علـــى شـــكل أنابيب غارقة في الرمل وبعد ذلك واصلنا المسير إلى الوادي حيث دفعنـــا أجـــرة السائس واستغنينا عن خدماته. على مائدة الطعام بفندق تْرانس أتلانتيك قدموا لنا ماء محليا وقد أكدوا لنا بأنه ليس ملوثا.

غير أهم تنكبوا عن الإشارة بأنه يحتوي على نسبة عالية من أملاح المغنيزيوم. في الساعة الثالثة صباحا فوجئت بتشنجات عنيفة بشكل لا يصدق والغثيان. بـــدا الأمر كما لو أن قنبلة كانت قد انفجرت في أحشائي. لم يعانِ جورج مـــن هـــذه المشاكل ذلك أنه تناول كؤوسا من الخمر مع عشائه. لازمت الفراش ليوم غير أن ذلك لم يؤثر على خططنا. كان علينا انتظار يومين آخرين قبل ركـــوب شـــاحنة القوقعة إلى وجهة في تونس، أي إذا أردنا الذهاب إلى تونس التي ستكون هـــدفنا

كما قررنا في الأخير. كان ركوب القوقعة تجربة ممتعة شبيهة برحلة مطولة على متن السفينة الدوارة. أمضينا الصباح نصعد التلال ثم نهبط. بعد مرور يومين كنا في القيروان، حيث أن منظر حشرات البرغوث في الأسرة لا يمكن أن يوصف. كادت نقودي تنفد كما أن جورج لا يتوفر سوى على ما يكفيه. حاولت دون جدوى في مصرف القيروان أن أقنعهم بصرف شيك أمريكي. عند مغادرتنا للمصرف تم اعتقالنا من طرف رجال الأمن الذين قادونا إلى المخفر. تم استجوابنا مطولا. ثم بعد ذلك ولسبب لم أفهمه صادروا جواز سفري ومظروف الشيكات. في اليوم التالي أعادوا لنا كل شيء ومرة أخرى دون تفسير، ثم واصلنا طريقنا بواسطة القطار إلى تونس.

كان أول مكان أقوم بزيارته هو السفارة الأمريكية للحصول على الفرنكات التي كنت في حاجة ماسة إليها. المشكل الوحيد هو أن الدولار لم يعد عملة مقبولة. يبدو أن الرئيس الجديد في الولايات المتحدة أغلق المصارف. أخبرتهم بما سيخبرهم به أي شخص نمت إلى علمه هذه الأخبار السيئة: "ما العمل إذن؟" نصحوني باقتراض الفرنكات من أصدقائي كما كانوا هم يفعلون. لم أكلف نفسي عناء إخبارهم بأنني وصلت للتو إلى تونس لأول مرة في حياتي ولا يمكنني أن أجد شخصا يمكنه أن يقرضني ثمن علبة من أعواد الكبريت. خرجت من السفارة وصرفت الفرنكات التي كنت أود أن أشتري بها الطعام وذلك بإرسال أربع برقيات إلى أوروبا أطلب فيها أي فرنكات يمكن لأي واحد من أصدقائي أن يستغني عنها. مر تقريبا أسبوع. أخذنا القطار الكهربائي إلى سيدي بوسعيد. كنت أرغب في لقاء البارون ديرلانجي الذي كان قد ألف مؤلفا ضخما حول الموسيقى العربية. لم يكن في إقامته غير أن خزانيه كان مضيافا. يمكن اختزال كل ما شاهدته في قرطاج في قطيع من البقر يلتهم الورود في مرج. تناولنا الطعام في أرخص الأماكن في المدينة؛ لحسن الحظ أن الفندق لم يقدم لنا الفاتورة. وصلت البرقية الوحيدة من بروس موريسيت حاملة معها المال وهكذا تمكنت من أداء فاتورة الفندق واقتنيت تذكرة من الدرجة الثالثة إلى الجزائر. قرر جورج مواصلة الرحلة إلى شمال تونس وأن يعبر بعد ذلك إلى صقلية وهكذا افترقنا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم يكن لدي ما يكفي من المال لشراء الوجبات خلال الطريق، غير أنني علمت بعد ذلك بأنه لا توجد على أية حال عربة للطعام في القطار. صبيحة اليوم الأول وأنا أتجول عبر ردهات العربات أتصفح المقصورات صادفت مشهدا أوقفني قليلا. كان هناك شابان مسلمان، وكان أحدهم يقوم بحقن الآخر في فخده بواسطة إبرة. بعد حين مررت مرة أخرى، وحدقت في المقصورة فكان المشهد ذاته في انتظاري. رفع الشاب الذي يقوم بالعملية نظره فالتقت نظراتنا. ربما كان قد انتبه إلى وجودي في المرة السابقة وأنا أحدق. على أي، حينما وضع الحقنة جانبا، فتح الباب وخرج إلى الردهة. تحدثنا قليلا. كان أخوه مصابا بداء السل وقد أخذه من قسطنطينية إلى تونس لزيارة طبيب وهما الآن في طريقهما إلى سوق أحراس، بلدة قريبة من الحدود الجزائرية التونسية حيث سيدخل إلى مصحة. خلال هذه الأثناء أخبره الطبيب بأن يحقنه بمادة المورفين بانتظام وعلى فترات قريبة. أسر لي بأسى بأنه لا يتوقع أن يعيش أخوه طويلا. كانت مصاعبي المالية تافهة الذكر أمام هذا الموقف، غير أنني ما دمت مشغولا بها، فقد أطلعته في الأخير عن محنتي. هون علي الأمر. كل ما سيلزمني هو أن أبقى في ضيافة عائلته في قسطنطينية إلى أن تفتح المصاريف أبوابها من جديد. سلمني رسالة لأحد أصدقائه الذي يمتلك حماما في البلدة. سأقضي الليلة هناك وغدا مساء مع السادسة سيلحق بي، ذلك أنه سيعود قريبا إلى سوق أحراس. كتب لي الرسالة الصغيرة بالفرنسية لأعطيها لصاحب الحمام وختمها باسم حسن الرماني. بعد ذلك أخذ هو وأخوه (الذي حينما انتصب واقفا بدا فعلا مريضا جدا) أغراضهم وغادرا القطار.

ذهبت إلى القسطنطينية. وصلت مع أولى خيوط الغسق ووجدت طريقي إلى الحمام. كان الحمام واسعا ونظيفا وقد قدم لي أصحابه الكباب وكؤوس الشاي لذا لم أكن بحاجة إلى الذهاب إلى الخارج مرة أخرى وسط الثلج الكثيف الذي يغطي الشوارع. لكن ما أن تمددت في ركن معتم فوق حصيرة بينما تغطيني ملاءة حتى بدا مستحيلا النوم وسط تلك الضوضاء. وصل زبون يحمل كنبري، آلة موسيقية يمكن وصفها على أنها آلة عود قروية، وأخذ يعزف. كان يعزف بإتقان شديد حتى أن الكثير من الرجال نهضوا وأخذوا يرقصون. رافق إيقاع الموسيقى تصفيق بالأيادي وأصوات محفزة وقهقهات عالية. من مكاني كنت أشاهد الأشخاص

المتحلقين، المنشفات حول رؤوسهم وأعضائهم التناسلية. في وقت آخر كنت سأجد السعادة في غمرة هذا الاحتفال ذلك أن كلا من الموسيقيين والراقصين يؤدون أدوارهم بإتقان وحرفية. حوالي الساعة الواحدة صباحا بحثت عن صاحب الحمام وطلبت منه إذا كان من الممكن أن يجد لي مكانا أكثر هدوءا. وافق على طلبي وهكذا قادني نحو مجموعة من السلالم إلى الأعلى تفضي إلى سطح الحمام. كان المكان فارغا تماما، مظلما وهادئا، كما أنه كان أشد برودة مما كان عليه الحال في الأسفل. سلمني الرجل ملاءة إضافية ومددت معطفي فوق كل ذلك. في الصباح تركت أمتعتي في الحمام وانطلقت لاستكشاف البلدة. شيدت البلدة بمحاذاة حصن طبيعي ضخم يوجد على طول حافته مضيق عميق جدا يتميز بضيقه ومنعرجاته. كما يمتد جسر خشبي متمايل فوق الهاوية. تضاعف منسوب الوادي العميق الذي يزمجر عميقا في الأسفل بفضل الثلوج الدائبة لجبال الهودنة، وخلقت بالتالي سحابة رائعة من البخار تصعد باستمرار إلى الأعلى. تنتصب طيور اللقلاق بهدوء على السطوح بينما تشيع في الجو رائحة أواخر الشتاء المحزنة.

التقاني حسن الرماني على السادسة ذلك المساء وأخذني إلى منزله في ضواحي المدينة، عند حافة المضيق. استقبلتني العائلة بحماس كما لو كنت الابن العاق العائد مجددا إلى أحضان العائلة. كانت كل وجبة مأدبة يرافقها الغناء والرقص من طرف النساء. في النهار نتناول وجباتنا على السطح الممتد الذي يطل على الفراغ في الأسفل. كما أن الضباب الصاعد يشتد كثافة ويشكل جدارا يحجب رؤية المنحدرات في الجهة المقابلة من المضيق. كان كل شيء رائعا جدا، غير أنني كنت متحمسا للوصول إلى الجزائر والحصول على رسائلي. هكذا بعد ثلاثة أيام ودعتهم وانطلقت مرة أخرى.

في الجزائر فتحت المصاريف أبوابها كما أن الدولار كان قابلا للصرف. مرة أخرى أخذت حزمة رسائلي وتركت تعليمات بإرسال كل ما يصلني إلى طنجة. حزمت أمتعتي بما في ذلك جلود ابن آوى السبعة عشر وجلد ثعبان ضخم كنت قد حصلت عليه في لغوات وبعد ذلك وضعت الترتيبات لشحنها مباشرة إلى الجزائر واستقللت القطار إلى المغرب.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

9

لو كنت للحظة واحدة أظن بأن حياتي المتغيرة أبدا والتي أعتبرها من أجمل الحيوات الممكنة (ربما الحياة ذاتها ولكن بميزانية أكثر سخاء إلى حد ما) ستستمر إلى الأبد، لما واصلتها بذلك الحماس والزخم الشديدين. غير أنني كنت واعيا بأنها لن تستمر إلى الأبد. كان كل يوم أقضيه في الضفة الأخرى من الأطلسي يوما إضافيا خارج أسوار السجن. كنت واعيا بحالة البارانويا الكامنة في موقفي هذا وبتنامي هذا الإحساس شهرا إثر شهر من الغياب خارج الولايات المتحدة. ومع ذلك، لا ينتابني أدنى شك أنه لو توافرت الامكانيات لبقيت خارج أمريكا لأجل غير مسمى. أخبرتْني جِترورد شتاين ذات مرة بأنني مغرق في ذاتيتي؛ لكن وبالرغم من كل هذه التنقلات فقد كنت قادرا على إتمام كتابة سوناتة العود: مشاهد أناباس، وهي عبارة عن سونتات البيانو وقطع غنائية كنت قد شرعت فيها في لَغوات. كان العمل الأخير يلقب *عَبر المضيق* في إشارة نَسكية إلى انشغالي بالأحلام بمضيق جبل طارق. ربما لو كان العنوان أغاني أحلام لكان ذلك أفضل ذلك أن العديد من هذه المقاطع تم تأليفها بتفصيل بينما كنت نائما. ما أن أستيقظ حتى أقوم فورا بتدوينها. لماذا كان هذا شأن هذه القطعة بالذات لم تكن لدي أدنى فكرة. منذ سنين الطفولة الباكرة كان يساورني وهم بأن أحيا الأشياء بكل تفاصيلها وأنا نائم بحيث يمكن أن أجعلها تجتاز تخوم اللاوعي، ثاني أفضل شيء للتمسك بكل تلك الأوراق النقدية التي يجب أن تبقى في الخلف ما أن أفتح عيني. حينما تتحقق التجربة التي تخيلتها غالبا فإنني أشعر بالرضا بحيث أنني أحتفظ بها كما هي دون إخضاعها لأي حكم نقدي. جزئيا كنت متأثرا في واقع الأمر بحقيقة مفادها أنني لا أحتاج إلى آلة لكتابتها ذلك أن ما أسترجعه من الحلم هو الموسيقى المطبوعة كما سجلتها ذاكرتي.

ما أن وصلت إلى طنجة حتى شرعت في البحث عن منزل يتسع لجهاز بيانو. كانت لدي نوتات لعمل مخصص للبيانو فأردت عزفها لمدة وبالايقاع الذي

أرتضيه؛ مما يعني ألا يكون أي شخص في الجوار. استأجرت منزلا مغربيا متواضعا في الجهة العليا من ضاحية المارشان، عبر القصر العتيق للقائد ماك لين. لا توجد مياه جارية في المنزل لكن ذلك لم يشكل عائقا بالنسبة لي مادمت أقضي الليلة في فندق بالمدينة. وضعت بيانو عمودي، قديم الطراز، وشرعت في العمل. في الصباح كنت أشتري طعام الغداء وأحمله معي إلى المنزل. أحيانا أتناول طعامي في السفوح المقابلة، مستلقيا وسط الصخور، وأنا أحدق إلى البحر. أحيانا أخرى، أغادر البيت عبر باب المطبخ وأتناول غدائي تحت شجرة التين هنالك. كنت أعمل حتى أواخر الزوال ثم أحزم أغراضي في حقيبة صغيرة وأعود إلى المدينة. إذا كان إلحاحي على الإطالة في عمر تجولاتي ضروريا فإن الطريقة الصارمة التي أرغم بها نفسي على العمل بانتظام كل يوم لا تقل عنها جدية. في الحقيقة كان آرون قد حذرني منذ سنينا خلت: "إذا لم تعمل بجد وأنت في العشرين من عمرك فلا أحد سيحبك وأنت في الثلاثين." وبالرغم من أنه لم يقصد ذلك بشكل جدي، فقد بقي كلامه ملازما لي كالظل.

في سنة 1930 كنت قد نشرت مجموعة من القصائد في مجلة صغيرة تسمى *البْلوز* يشرف عليها كل من تْشارلز هنري فورد وباركر تايلر. بالرغم من أنها كانت تصدر أصلا من كولمبوس ميسيسبي فإنها بعد حين أخذت تصدر في نيويورك، بعد أن انتقل فورد إلى هنالك. طلب مني أن أحضر قراءة شعرية سيقوم خلالها بعض المساهمين في المجلة بإلقاء قصائدهم في مكان ما و لم أتردد في الموافقة. من جهتي، لم ألقِ سوى القصائد التي كنت قد نشرتها باللغة الفرنسية. كان انطباعي بأن لا أحد من الحاضرين أدرك مضمونها. بعد الإلقاء توجه رجل نحوي وقال لي: "لا مكان لك وسط هؤلاء الأشخاص يا بني، أتعلم ذلك؟"

بعد ذلك التقيت في باريس بمحض الصدفة بفُورد رفقة الرسام تْشيلتشيو. دون سابق إنذار يوجد فورد حاليا بطنجة في انتظار وصول دْجونا بارنز من ديفو نْشاير حيث كانت تقوم بزيارة بيغي غوغنهايم. إلى حدود وصولها كان فُورد يقيم مع ثنائي اسباني شاب، بيتو وكارميتا. حينما وصلت دجونا أوضحت بأنها ترغب في الحصول على بيت خاص. اقترح أحدهم أنني ما دمت لا أستعمل منزلي في المارشان سوى للعمل فإنه من المنطقي أن أضعه تحت تصرفهما. انتقل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تشارلز هنري فورد معها على أساس أنه بعد الواحدة والنصف زوالا سيكون المنزل فارغا. قبل أن تفرغ حقائبها ألحت دجونا على إزالة كل جلود ابن آوى السبعة عشر من على الجدران حيث كنت قد علقتها كما أنها لفت جلدة الثعبان الضخم ووضعتها جانبا.

بعد حين وجدت دجونا وتشارلز منزلا يهيئ لهما أسباب الراحة وسط ضيعة على بعد مئات الأقدام على الطريق. كانا يعيشان وفق الأسلوب المغربي، أي لا يفترشان سوى السجادات على الأرض. كانت دجونا ترقن خطاطة تحمل عنوان "انحن." تم تغيير العنوان لاحقا ليصبح *غابة الليل*. كنا نجلس في المقهى الرئيس بزوكوشيكو ولأن دجونا كانت تضع مساحيقا هي خليط من الأزرق والأرجواني والأخضر في وقت لم يكن أي أحد آخر يستعمل هذه الألوان فإنها كانت محطة اهتمام الجميع. لم تكن تعير بالا للناس الذين يحدقون فيها. إن تقليدا مقتضبا للسير فرانسيس روز الذي وضعته في أحد الأيام أذكى اهتمام رواد المقهى وكذلك المارة.

لنقل ببساطة أنني وصلت، تقريبا، إلى نهاية مواردي المالية وإلا لما ذهبت عبر قاديس واقتنيت تذكرة للعبور من الدرجة الثالثة على متن باخرة خوان سيباستيان إلكانو تتجه إلى سان خوان في بورتوريكو. لم تكن الرحلة مريحة، ومما زاد في سوئها هو الطعام المقزز. كان كل شيء، بما في ذلك ماء الشرب، يرشح برائحة السمك. توقفنا بتينيريفي وأخذنا خمسة وتسعين عاملا في طريقهم إلى فنزويلا والكثير من الديكة في الأقفاص الموجهة للمبارزة في أمريكا اللاتينية. حرص العديد من الرجال على العناية بالطيور خلال السفر وذلك بتقليم مخالبها ومسحها بمرهمات واختيار مباريات بينها، وذلك فقط بإمساكها بينما تواجه بعضها البعض وتغدو مستعدة للمبارزة.

بعد ثلاثة أسابيع من الإبحار كان رائعا أن نتوقف بسان خوان وأن نحظى ببعض الطعام الطازج. أرسلت برقية إلى والدي لأعلمهم بأنني على الأقل عدت إلى الجزء الغربي من القارة الأمريكية. وضعت صناديقي وحقائبي في فندق وأخذت حافلة قديمة إلى التلال، إلى قرية وسط جزيرة تدعى برانكيس. بقيت لأسبوع في الريف أتناول الموز والفاصوليا والبيض والأرز. بعد ذلك استقللت على مضض إحدى بواخر وورد لاين وأبحرت إلى نيويورك.

ما أن وصلت حتى ذهبت إلى غرينويك للقاء جون كرياتريك الذي كان آرون قد عرفني إليه سابقا وسلمته بيانو السونتات التي كنت قد أنجزتها إضافة إلى مقاطع من البيانو كتبتها في برانكويتاس. بعد ذلك ذهبنا معا لرؤية كلير رايس الذي يشرف على حفلات عُصبة الملحنين، حيث عزف لهم ولبعض الضيوف الملحنين السوناتات، وذلك بغية جعلها ضمن مواد برنامج سيقام لا حقا ذلك الموسم. أذكر ملاحظة مارك بليتزشتاين لاحقا: "لم أكن أعلم أن لديك هذه الموهبة." ملاحظة حِرت في أخذها على محمل المدح أو السخرية. على أي، كان رد الفعل على العمل مستحسنا فتمت برمجته للعرض.

حينما أفرغت جلود ابن آوى صرخت أمي: "يا إلهي ماذا ستفعل بكل هذه الأشياء؟" وضعناها في القبو حيث تحللت رُويدا رُويدا. قضيت ذلك الصيف بمنزل العمة إيما في ويستامبتون، بماساشوسيتس، أحاول التخلص من الإرهاصات الأولى للقرحة التي توشك أن تهلكني. أخذ أبي يعلن المرة تلو المرة: "لا يمكنك أن تسيء إلى نفسك على هذا النحو دون أن تؤدي الثمن على ذلك لاحقا؟"

انفصلت الخالة إيما عن العم كاي وكانت تقيم مع رجل يدعى أورفيل فلْينت كان لكل واحد من أفراد العائلة نظرة باردة إزاءه. كانت زوجته السابقة قد أقدمت على الانتحار بعيار مسدس ذات مساء وهي تجلس في ردهة المنزل العتيق. لم تطأ العمة ايما أبدا المكان الذي شهد وقوع الحادث. مرة أسرت لي: "أحيانا أفكر في الأمر مليا. وأتساءل كيف واتتها الشجاعة لتقدم على ذلك. محال أن أقوم بذلك. أدرك ذلك جيدا."

حينما عدت إلى نيويورك في الخريف، كان هاري داهام قد استأجر الطابق العلوي لمنزل واسع بني من الحجر على شارع ثمانية وخمسين شرقا فانتقلت إلى الغرف الفارغة. لم أكد أقضي أسبوعين كاملين حتى حل والد هاري الدكتور داهام، وهو يرغي ويزبد، مهددا بأن يوقف إرسال المصاريف إذا لم أغادر. فأنا بالنسبة له خطر يهدد حياة ابنه؛ يجب طردي وإبقائي بعيدا.

لمدة طويلة الآن كان آرون كوبلاند يفكر في إنشاء فريق من الملحنين الشباب، يجتمعون بانتظام ويقيمون موسيقى بعضهم البعض. كان خريف 1933

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مناسبا للمشروع. استهوتني الفكرة أكثر من أي شخص آخر فوقعت عقد رهن لشقة صغيرة في غرب شارع 58 حيث تلتقي المجموعة زوال كل جمعة. كنت أنا وآرون نؤدي ثمن الإيجار مناصفة. من حين لآخر كان يأتي ويستعمل الغرفة التي يوجد فيها البيانو لكنني في غالب الأحيان أحظى بالشقة تماما لوحدي.

بدت المجموعة التي حضرت أولى الاجتماعات تشكيلة غير متجانسة. أذكر برنارد هيرمان كأكثر الحاضرين عدوانية. ظل يعتقد بأنني أنا ومشروعي الموسيقي عبثيين وعبّر عن ذلك دون مواربة. أما الآخرون فقد كانوا أكثر احتراسا، من بينهم إسرائيل سيتكوفيتش والعبقري هنري برانت. كان سيتكوفيتتش يدرس الموسيقى تحت إشراف نادية بولانجر وخلال تلك الأثناء أعتقد أنه كان أكثرنا ثقافة موسيقية. وسط هؤلاء وآخرين لا يتميزون فقط بالصراحة ولكن بالعنف أيضا وأحيانا بالاستعداد للعراك لطالما تساءلت عما كنت أفعله هناك وعن الجدوى من وراء هذه المغامرة. ومع أن الكل كان يستمتع بهذه المناسبات فلم يبد لي هذا مبررا كافيا لشعور التفاهة الذي كان يلازمني بعد كل حصة. لم يكن هناك المزيد من اللقاءات بعد العام الجديد. تسجل أغلب أعضاء المجموعة بحصص الإيقاع التي كان يديرها روجر. أذكر الروائح التي كانت تعلق في حجرة المحاضرات: الرائحة الرطبة للهواء الساخن والرائحة المطاطية للأحذية الشتوية وكذا معاطف الشتاء الرطبة والمظلات.

عرض جون كرباتريك سوناتات البيانو التي قمت بكتابتها في حفل عصبة الملحنين. (حين مراجعته لها، كتب مارك بليتزان "ما يسمى ذكيا للغاية. أكثر بياضا حتى من الروس البيض أنفسهم." بعد الحفل تقدم رجل، قصير القامة غريب الأطوار، نحوي وقدم نفسه على أنه جون لاتوش من ريتشموند وصديق لبروس موريسيت. التقيته مرات ومرات في الحفلات ذلك الشتاء وتدريجيا صار بالنسبة لي شخصا ذكيا ومرحا.

فجأة قرر آرون أن يتخلى عن الشقة الصغيرة في شارع 58. وما دمت لا أستطيع دفع الإيجار بمفردي فلم يكد يمر شهران أو ثلاثة حتى تجاهلت أمر العقد. (لاحقا بدا ذلك فكرة سيئة جدا ذلك أن الشركة قاضتني وحصلت على بقية الإيجار لما تبقى من السنة.)

حل فرجيل تومسون بنيويورك وأخذني معه لزيارة الأخوات ستيتهايمر. كانت فلورين، أصغر الأخوات الثلاث، تشكل الأطر وتضع الملابس لأوبرا شتاين، *أربعة قديسين*، وهي أوبرا من ثلاثة فصول. حضرت الاستعدادات الصوتية والآلية، وقد أثار اهتمامي صوت الأوركسترا. بدت النبرات جافة إلى حد ما كما أنها تحدث صفيرا والسبب في ذلك يعود إلى ضم آلات غير عادية ذات نبرة عالية، والتي هي الأرغن والأكورديون. ليلة الافتتاح في نيويورك جلست إلى جانب الأخوات ستيتهايمر في المكان المخصص لهن. بعد العرض أقيمت حفلة كبيرة بشقة جوليان ليفي حيث أعيد تزيينها بما وصفه فرجيل طلاء أحمر كالدم وأبيض في بياض سراويل الأطفال والنساء الداخلية. وزيادة في الديكور، ثمة ركن صغير علقت جدرانه في الهواء بواسطة مجموعة من السياط.

خلال فصل الربيع كنت أقيم في شارع خمسة وخمسين غربا إلى جوار مصنع للشرائط. كانت الآلات ملصقة إلى الحائط الذي يجاور غرفة النوم وكانت هذه الآلات تعمل أربعة وعشرين ساعة في اليوم دون انقطاع. تطل نوافذ غرفتي على باحة هي صورة مختزلة لنيويورك: مشهد للضوضاء والقذارة والكآبة. حاولت أن أبدد سحابة الكآبة وذلك بواسطة الاشتغال غير أنني كنت مسكونا بذكرياتي عن الهواء والضوء في شمال إفريقيا. لم يبد أن هناك إمكانية للهروب سواء في المدى القريب أو البعيد. ومع ذلك وضدا على منطق الأمور فإنني كنت أثق بحظي الذي لم يخذلني بعد.

منذ ثلاث سنوات خلت كنت قد تناولت أنا وهاري الغداء بمدينة فاس في منزل تشارلز براون، السيد السويسري الذي كان لعدة سنوات مسؤولا عن الفندق الأمريكي هناك. تم تأسيس الفندق كمؤسسة في العشرينيات من القرن الماضي من طرف سيدة أمريكية لم تستطع تحمل سوء المعاملة التي يتعرض لها الدواب في المغرب (كانت العادة ولا تزال الإبقاء على جرح في ظهر الحيوان كما هو ونخس اللحم العاري بعصا لها رأس حديدي مدبب.) وضعت المنظمة لنفسها هدفان: الأول رعاية الحيوانات المعاقة والثاني تحسيس أصحابها. كان براون سعيدا وناجحا في قدراته كإداري، غير أنه بات لديه الآن عدو داخل المنظمة يتمثل في شخص رئيسه المباشر، الكولونيل تشارلز.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عن طريق الصدفة علمت أن الكولونيل ويليامز الذي يستقر في موناكو كان يقوم بزيارة قصيرة لنيويورك. حصلت على عنوانه وقصدته مباشرة. حينما انتصبت عند باب غرفته بالفندق هلل في وجهي قائلا: "كنت أعرف أمك في تورمينا. إنها امرأة رائعة."شعرت حينها بأن كلامه لم يكن سوى وليد اللحظة لذا لم أعره بالا. تساءلت بداخلي: "هل تعرفها حقا سيدي؟" أحسست بأنه كان يتوقعني أن أتكلم على هذا النحو. كان الكولونيل في الخامسة والسبعين من عمره وله شوارب بيضاء ويميل وجهه لاكتساب حمرة شديدة حينما لا يرضى على شيء ما. يذكر تيسودور روزفلت بمحبة. حينما أخذنا نناقش أمور الفندق الأمريكي، بدا بعد قليل واضحا بأن المظهر الوحيد الذي لا يحظى بإعجابه داخل المؤسسة هو الطاقم. إنــه يعتــزم إعادة تنظيم الإدارة في فاس، أي أنه سيتخلص من براون. يتضمن هــذا الإجــراء الذهاب إلى فاس ومحاولة العثور على أية ذريعة ملموسة تفي بهذا الغرض. مما يعــني أنه سيراقب القوائم والسجلات في الخزينة، مهمة يقول بأنه لا يظن أن لديه القــوة أو الصبر للقيام بها.

بدا الحال على ما هو عليه بحيث أن عدم محاولة الاستفادة منه يعد ضربا مــن الجنون. اكتشفت أن الكولونيل يقوم بالكثير من المراسلات، وقد حــال تــدفقها المستمر دون قيامه بالعمل الاستخباراتي الضروري. بعد مرور بضعة أيام دفعته إلى الاعتراف بأنه إضافة إلى طباخ وسائق فلا يمكنه أن يحظى بسكرتير خاص. ولكــن حينما أشرت إلى فاس حيث يقوم بأبحاثه، اعترف بأن مثل تلك المساعدة ستكون مفيدة جدا. كتبت له بعض الرسائل في عين المكان. بدا راضيا عليها. قــال أنــه سيهاتفني قريبا.

حينما اتصل بــي أخبرني بأنه علي الاتصال برئيسة الجمعية الأمريكية للرفق بالحيوانات وإجراء لقاء شفوي. كان اسمها سيدني كولمان وكانت تشرف علــى مداخيل المؤسسة. تم الاتفاق أخيرا قبل أن يغادر الكولونيل وليامز إلى أوربا بــأن أوافيه عند نهاية أغسطس بجبل طارق وسنغادر معا إلى فاس. أخبرت والدي بــأنني حصلت على وظيفة غير أن ذلك لم يثر رضاهم. قالت أمي بتأثر: "أوه كم أتمنى لو تبتعد عن تلك القارة السمراء العجوز." أما أبــي فقد همس: "لعله عــاجز عــن مقاومة دبيب الرحلة."

خلال فصل الربيع، بعد الحصول على الإذن من كوكتو ألفت سلسلة من ستة أغاني انطلاقا من نصوص تسمى ميمنون. بعد ذلك وضعت أغنيتين من شعر جترورد شتاين وفورا نشرتها على حسابي الخاص، مستعملا كعنوان للمنشورات اختراعا عبثيا: منشورات الحية. خلال السنوات التالية نشرت أغاني أخرى وموسيقى البيانو إضافة إلى موسيقى لدايفيد دايموند وايريك سات مستعملا العمل الفني لآن ميركل وتوني وأوجين برجل بالنسبة لصفحات العنوان. ونظرا لأن عدد النسخ لم يتجاوز المائة فقد اختفت كلها منذ مدة طويلة و لم يتبق لدي ولو نسخة واحدة من كل عمل.

انخرط هاري في الإشراف على فيلم يصور في ساموا وقد طلب مني تأليف الموسيقى. لم يكن المشروع محفزا ماديا غير أنني لم أتوان عن اقتناص هذه الفرصة للخوض في مجال جديد. بعد حين كان عملي يتمثل في ضبط توقيت مقاطع المشاهد والعمل في مافيولا في تعداد الإطارات. كان الفيلم رديئا: تعليق خبيث تم اعتباره أساسيا. أفترض بأنه ساعد على التوزيع؛ كان الفيلم يبث من حين إلى آخر خلال عقدين من الزمن في دور سينما رخيصة في شارع اثنين وأربعين وعلى طول الشارع الثامن. كان عنوانه الأصلي *سيفا* وقد تم تحويله بعد العرض الأول إلى *زوجة ساموا*.

خلال شهر حزيران ذهبت مرة أخرى إلى الشرق، هذه المرة في الدرجة الأولى على متن الباخرة الكونت سافوا. على متنها التقيت فتاتا تدعى غلوريا وبعد ذلك تعرفت إلى أبيها الدكتور جيلبرت غروسفينر الذي كان يشرف على تحرير مجلة *ناشيونال جيوغرافيك*. تبدى لي شخصا مهما جدا إذ جاب مختلف بقاع العالم. تحدثنا عن تجاربنا المتباينة في حي بني إيسغن، المدينة "المقدسة" للمعازب، حيث ما أن يصل أجنبي إلى البلدة حتى يهرول كل من يوجد في الشوارع إلى المنازل وبالتالي فكل ما يتناهى إلى سمع المرء وهو يحث الخطى عبر أزقتها هو اصطفاق الأبواب وإغلاقها بالمزاليج.

قمت بجولة بمنطقة الأندلس لمدة حوالي ثلاثة أسابيع وبعد ذلك انتقلت إلى طنجة. ذات مساء كان هناك طرق على باب غرفة الفندق. كان جون وبديكومب قد حل بالمغرب لقضاء الصيف. في وقت ما كان عليه أن يلاقي صديقا يسمى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فليتشر ومعا خططا للذهاب إلى الصحراء. أرادا أن يعيشا تجربة الحر في الصحراء في شهر أغسطس. ذهبنا إلى الدار البيضاء حيث اشتريت آلة فونغراف وما يسميه الفرنسيون باسطوانات الشلوح (موسيقى الشلوح هي لون موسيقي شعبي مغربي وهي جزء من الموسيقى الشعبية لمنطقة سوس ويغنى بالشلحة.) بدا جون رفيق سفر ممتاز؛ كان ذا ثقافة عالية ودرجة عالية من المرونة جعلته يتأقلم مع الأوضاع غير المترقبة كما أنه ينعم بحس حاد من الدعابة. لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لفليتشر الذي وجد المغرب مكانا مرعبا.

واصلنا سفرنا إلى مراكش. هناك في جامع الفنا شاهدنا رجلا وقد اتخذت هيأته شكل عنزة حيث تمكن من تحقيق تحول ذاتي جعله قادرا على محاكاتها محاكاة تامة على مستوى الصوت والصورة بحيث أن عينيه المرعبتين لم تسلما هي الأخرى من ذلك. تم الإعداد للوضع الحالي مطولا بواسطة ناي والحركات التقليدية لبهلوان السوق. حينما أخذ يتمرغ في الغبار واصلنا السير. (في رواية محمد المرابط *الليمون* التي ترجمتُها خمسة وثلاثون سنة لاحقا انطلاقا من اللهجة المحلية المغربية يحكي الصبي عبد السلام عن رؤيته لرجل يتحول إلى جمل وعن الخوف الذي انتابه وهو يشاهد ذلك.) بعد أن قررنا الذهاب إلى تارودانت عبر سلسلة تيزنتاس الجبلية قصدنا مرآب سيارات حيث تربض بعض الحافلات الأهلية وسألنا عما إذا كانت هناك حافلة تتجه إلى تارودانت. أخبرنا الشخص المغربي المسؤول عن المرآب عن وجود حافلة وبأنها تنطلق على الساعة السادسة والنصف صباحا من نفس المكان. استيقظنا على الساعة الخامسة والنصف ووصلنا إلى المرآب ونحن نحمل أمتعتنا حوالي الساعة السادسة بعد الربع. كان الحارس يغط في نوم عميق. حينما استيقظ، أخبرنا بأنه لا يعلم شيئا عن الحافلة. انتظرنا. على الساعة الثامنة إلا الربع ظهر الرجل الآخر.

-ماذا عن الحافلة؟

-أية حافلة؟

-الحافلة التي تتجه إلى تارودانت؟

-لا توجد حافلة تتجه إلى تارودانت؟

-لكنك أخبرتني البارحة بأنها تنطلق على الساعة السادسة والنصف.

ابتسم: "أوه. لقد أردت فقط أن أكون ودودا. لا توجد حافلة."

بدل العودة إلى الفندق ونحن نتجرع مرارة الخيبة والهوان حصلنا على سيارة أجرة. استغرقت الرحلة يومان كاملان على طول طريق تَرِبة عبر جبال الأطلس الكبير. قضينا الليلة في مكان يرتفع بحوالي ستة آلاف قدم حيث تصدر الطواويس صراخا معظم ساعات الليل في أشجار خارج الغرف. في الصباح التالي وصل كل الأطفال الصغار في القرية حاملين أحجارا أرجوانية ووضعوها بين أيدينا وهم يقولون: "هذه هدية لكم." فكر جون بطريقة للترفيه. جعلهم يصطفون في طابور ويرفعون قبضاتهم في الهواء وينشدون: "إنها المعركة الأخيرة." ظن أن النشيد الأممي سيجعل الجيش الفرنسي ينظر في الأمر قليلا حين مروره لاحقا. لساعة من الزمن كان يجِد لتلقينهم تقريبا الجزء الأخير من الأغنية؛ في الأخير تمكنوا من حفظ الإيقاع بدل الكلمات.

بعد أيام في تارودانت توجهنا إلى أغادير. وكما العادة فقد ضبطتُ حركاتي وفق ميزانية أرفض رفضا باتا تغييرها وهكذا نزلت مرة أخرى في كوخ على الشاطئ كما في المرة السابقة منذ سنتين خلت بينما نزل جون وفليتشر بفندق مرحبا الجديد. هناك التقيا بقريب لبُول فاليري كان يملك سيارة سباق قوية. طلب منهما مرافقته في رحلة عبر الخلاء. عادا من الرحلة منهكين تماما لكن تحذوهما رغبة للتعرف أكثر على المنطقة. ونظرا لأن لقائي بالكولونيل بات وشيكا فقد ودعتهما وعدت إلى طنجة.

فورا اكتشفت أن الكولونيل ويليام شخص كثير الشكاية. يبدو أنه كان مقتنعا بأن هناك مؤامرة كونية دائمة هدفها حرمانه من سكن وطعام وخدمات جيدة. كل الإسبان بالنسبة إليه هم أغبياء وكل المغاربة لصوص وكل الفرنسيين أجلاف بشكل لا يحتمل. يحمل عصا ليس لأنه بحاجة إليها ولكن لكي يدق بها على الأرض كلما أراد أن يصدر أوامره.

قضينا بضعة أيام في طنجة لتنظيم مراسلاته ثم أخذنا مضاجعا في قطار الليل المتجه إلى فاس. علمت أن السبب وراء معارضته العنيفة لبراون تشارلز إنما تكمن فقط في أن الأخير يلتقي المغاربة ويدعوهم إلى منزله. وكما أسر لي، "إنه لأمر خطير أن تأذن للسكان المحلين أن يعتقدوا بأنهم على قدم المساواة معك. فهم ليسوا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

معتادين على ذلك وعادة ما يتسبب ذلك فقط في سوء التفاهم والمشاكل." كان معروفا لدى الجميع بأن براون كان يستقبل المسلمين في منزله ويجعلهم يتناولون الطعام مع الأوربيين. لا يمكن تحت أي ظرف من الظروف السماح له بمواصلة العمل بالفندق الأمريكي. وبنبرة ملئها الرضا غمزني بوقاحة وهو يقول: "سنطرده."

كان الجو حارا وخانقا بفاس خلال شهر أيلول. كان حضوري هناك يتلخص في السماح للكولونيل ويليام بأن يخصص كل وقته لما يسمى بـ "عملية التدقيق في السجلات،" العملية التي ستتسبب في طرد براون. كان يحاول بمختلف الطرق أن يجعل براون يغادر المدينة لبضعة أيام. بعد فترة غادر الرجل من تلقاء ذاته للذهاب إلى الرباط وكانت هذه فرصة مناسبة لينفذ الكولونيل مخططه. ثمة أشياء صغيرة لم تدرج في دفاتر السنة المنصرمة وهذا يعد إهمالا كبيرا. كان علي أن أكتب رسالة إدانة إلى السيد كولمان في نيويورك. في الأخير وقعت مشاداة مروعة بين الكولونيل وبراون، لحسن الحظ أنني لم أشهدها. تم تعويض براون بقبطان متقاعد من الجيش البريطاني تم تدريبه على الوظيفة من طرف الكولونيل.

وصل جون وفليتشر إلى فاس وانتقلا إلى الفندق الكبير حيث كنا نقيم. لا شك أن جون كون فكرته الخاصة عن دعابة عملية فور لقائه بالعجوز الذي أعجبته كثيرا شكاياته. بعد مرور أيام قليلة اشترى جلابية. وهو يرتديها تقصد أن يمر بي في الشارع ليرى إذا ما كنت سأتعرف عليه. لم أتعرف عليه بتاتا وهكذا قرر أن يواصل تقمصه للشخصية الجديدة دون أن يُسر لي أو لفليتشر بنواياه. حصل على مجموعة من الأشياء المغربية وشبه المغربية، بما في ذلك تلك التي كان قد اشتراها لنفسه، إضافة إلى غطاء سرير الفندق الرهيب والسجادات الخاصة بغرفته. بعد ذلك وهو يرتدي جلابيته وزوجا من البلاغي الصفراء المصنوعة من جلد المعز، حمل الأشياء الصغيرة في سلة مكشوفة إضافة إلى السجادات المصنوعة في مانشستر والغطاء الذي يتدلى من ساعده، وطرق باب الكولونيل وليام. كان الأخير قد نهض للتو من غفوة ففتح الباب. رأى بائعا مغربيا يقف هناك وحاول أن يغلق الباب من جديد. غير أن جون كان قد وضع قدمه بالداخل ثم انفلت إلى داخل الحجرة متجاوزا الكولونيل الذي أخذ يحتج. تدفق سيل من رطانة البائع السوقية وهو

يعرض أشياءه على السرير: "أنظر كم هي جميلة سيدي." ثم دفع بمنفضة سجائر من النوع الذي يستعمله البحارة نحو الكولونيل الذي كان خلال هذه الأثناء يشتم باللغة الإنجليزية ويحاول أن يدور حول جون ليصل إلى الهاتف. غير أن جون اعترض طريقه بواسطة سجاد وهو يعيد بتودد: "هذه لك سيدي. إنها هدية." واضعا المنفضة في جيب قميص حمام الكولونيل. امتقع وجه الكولونيل بحمرة شديدة وأخذ جون يحس بالتضايق. دفعه إلى الوراء إلى السرير قائلا: "أوه إنه جميل." وبسرعة جمع أغراضه وهرب، متجها مباشرة إلى غرفتي وهو لا يكاد يتمالك نفسه من الضحك.

خلال العشاء ظل الكولونيل يتحدث عن هذا الحادث. وضع شكاية رسمية لدى مسؤول الفندق، وكان يفكر في الانتقال إلى فندق السلام حيث لا يزالون يحافظون على أصول اللياقة إلى حد ما، حسب تعبيره. كنا نحن الثلاثة نصغي إليه وهو يروي بغضب قصته ونهمس بين الحين والآخر: "هذا غير معقول. أوه. يا إلهي." كان علينا أن نتحاشى النظر إلى بعضنا والتركيز في وجهه حتى لا نفقد توازننا وننفجر ضحكا. نتيجة لهذه الخدعة انتقلنا إلى فندق السلام وبقينا هناك حتى نهاية إقامتنا في فاس. كنت مشغولا بتعلم اللغة الاسبانية مما يعني بالأساس كتابة الأفعال في حالاتها النظامية وغير النظامية. لم يكن اختياري لنص القراءة مثاليا حيث كنت قد اخترت قصيدة *آلتزور أو السفر بواسطة مظلة* لصاحبه فانسنت هويدبرو، حيث الكثير من المفردات هي من ابتكار الشاعر نفسه وبالتالي لا يمكن العثور عليها في أي قاموس.

لا تزال مدينة فاس في سنة 1934 مكانا يعج بالوحوش. تفيض مقاهي فاس الجديد بالمتسولين المعوقين منذ الولادة بسبب مرض يصيب الأطراف وبالضحايا الأشقياء للقانون القرآني الذين كانت أياديهم مبتورة، وبالمجذومين الذين امحت ملامح وجوههم وبالمصابين بالسفليس، وبرجال حفر المرض في أجسادهم نتوءات أو عملت حوادث السير على صياغة أجسادهم صياغة غريبة فتراهم يدفعون نفسهم إلى الأمام مستعملين أعمدتهم الفقرية كأغصان هوائية. كما كانت هناك أيضا توليفة أخرى من المجانين يتسكعون في الشوارع. عرفت أنا وجون بعض المقاهي حوالي باب الدقاقن ومدخل ركن مولاي عبد الله حيث نتجنب المضايقة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أما فليتشر فإنه لا يقصد إلا الأماكن الأهلية في جميع الحالات. حينما ذهب إلى مكناس حمل إلي هدية هي عبارة عن كتاب مصور يحمل العنوان التالي: "تنويعات حول الجسد الإنساني." كان من الممكن أن يحمل عنوانا فرعيا: دليل بشري إلى أزقة وحواري فاس.

قرر جون وفليتشر اللذان كانا يأملان على ما يبدو في إيجاد مصاعب ومتاعب أشد تعقيدا مما واجهاه خلال رحلتهم القصيرة رفقة قريب فاليري القيام الآن برحلة أخرى إلى الصحراء. وهكذا انطلقا. بعد مرور أسبوعين، عادا إلى فاس يهدهم التعب. تبدت قائمة مشاكلهم تثير الاهتمام: أولا كان هناك الحر الذي لا يطاق، ثم تعرضهم لهجوم من طرف مجموعة من الكلاب الضالة، كما اضطروا لشرب ماء لونه في لون النحاس فتسممت أبدانهم. كما عانوا من التسمم في الطعام وتعرضوا للظى الشمس، بالرغم من أن ذلك وقع على فترات متفرقة. كان جون يحمل جرحا لم يلتئم بعد خلف رجله، تحديدا أسفل الركبة، حيث عضه أحد الكلاب. لا يبدو أن الجرح قد تعفن غير أنه كان قلقا بشكل مبرر من إمكانية إصابته بالسعار. غادر المغرب دون أن يبالي بزيارة طبيب وكتب لي لاحقا رسالة من البرتغال يخبرني فيها أن الجرح قد التأم أخيرا.

في أواخر شهر تشرين الأول غدا الطقس صحوا في فاس والضواحي التي عرفت مؤخرا هاطل الثلج بمنطقة بو إبلان. أخذت إجازة صغيرة لزيارة تافيلالت في الجنوب الشرقي للبلد. كنت أتحرق لنسائم جو الصحراء قبل مغادرة ذلك الجزء من العالم. ذلك أنه بات يقينا بأن نهاية هذا الفاصل المغربي وشيكة. أراد الكولونيل وليام العودة إلى موناكو، ونظرا لقلة مواردي كما العادة فعلي أن أتدبر أموري. ذهبت إلى مدينة قصر السوق ومن هنالك إلى أرفود حيث يوجد مركز فيلق أجنبي. مرة أخرى أقام يوناني يرافق المخيم "فندقا"، قد يكون الشخص ذاته الذي جلست معه أنا وهاري ثلاثة سنوات قبل ذلك بورزازات. مع الغروب تغلق بوابات البلدة وإذا لم يحالفك الحظ وكنت في الخارج فإنك تبقى كذلك حتى حلول الصباح التالي. نصحني الكثير من الأشخاص بألا أبتعد عن البوابات حتى في وقت النهار. غير أن هذه التحذيرات لم تمنعني من التجول بين الواحات المجاورة. كانت أشجار النخيل في هذه المنطقة قليلة وجافة. كان كل شيء يبدو موحشا

وبئيسا. لم تكن هناك مظاهر للبذخ مما جعلها كواحة حقيقية تبعث في نفسي الكثير من الرضا.

يدور القتال في المناطق الواقعة وراء الريصاني، حوالي ثلاثين كيلومترا باتجاه الطريق المؤدية إلى الجنوب. ذات صباح حوالي الثالثة بينما لا تزال ذيول الفجر ناشبة في غلالة السحر تناهت إلى سمعي سنابك الخيل وأصوات مخنوقة وراء نافذتي. علمت أن الفيلق الأجنبي يقوم بهجوم تأديبي في حق "المعارضين" لكونهم نصبوا كمينا وقتلوا المسافرين الذين كانوا على متن حافلة في وقت مبكر ذلك اليوم. بدا المنظر مرعبا، الكثير من الأشكال تمر فوق الخيول ملفعة برداءات بيضاء حيث يطبق الظلام باستثناء ضوء القمر في الأعلى. خلال آخر ليلة من إقامتي بأرفود وصل جمع من ثلاثين أو أربعين جنديا من الفيلق في عطلة من الريصاني. كانوا كلهم ألمان وحينما رأوني أصروا على تكلم لغتهم معي. كانت إجاباتي متعثرة. اشتروا لي زجاجات الجعة فاحتسيت حد الغثيان وقدموا لي الصور التي يبدو أن أغلبهم كان يحملها. "أنت محظوظ. ستعود إلى العالم. أما نحن، من يعلم؟ نحن رجال منسيون." شعرت بأنهم كانوا يقرؤون الكتب الخطأ حول الفيلق؛ وحدهم الألمان يمكن أن يجنحوا بسرعة نحو مشارف العاطفة. "هذه الصور الصغيرة أخذت في مخيم جبل صاغرو. خذها وأريها للناس حتى يعلم العالم أية حياة كلاب نحياها هنا في هذا الجحيم." ثم تنفرط الدموع للحظة. بعد ذلك كانوا يضعون أذرعهم حول مناكب بعضهم البعض ثم ينخرطون في أغاني عسكرية، وجوههم تنم عن قصد وإخلاص. ودائما المزيد من الجعة. عدت إلى فاس بمجموعة جيدة من الصور.

بعد أن أنجز الكولونيل ويليام مهمته، أي فصل براون من الفندق الأمريكي، كان متحمسا لمغادرة فاس. أخذت أداعب فكرة العودة إلى الجزائر لزيارة حسن الرماني، غير أنني لم أتلق أي رد ولو على واحدة من رسائلي الكثيرة. حينها قررت أن أكاتب كوستاف بومبان المصور في القسطنطينية الذي كان حسن يشتغل لديه، عادت الرسالة وقد حملت الكلمات التالية: "قضى نحبه. الرجوع إلى المرسل." بغضاضة ذهبت إلى طنجة ومن هناك إلى قاديس. كانت الظروف في اسبانيا متوترة بحيث لم يكن يسمح لي بمغادرة الفندق إلا بحضور حارس من الحرس المدني ورجل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أمن. كانا يرافقاني إلى مكتب الباخرة، إلى المصرف وأخيرا إلى المرفأ وحتى إلى الباخرة. كانت السفينة مرة أخرى الباخرة الرهيبة ذاتها التي استقللتها السنة الماضية، باخرة خوان سيباستيان إلكانو، غير أنني هذه المرة قطعت المسافة إلى بويرتو كولومبيا. وقياسا بالسابق كان الطعام هذه المرة أشد رداءة. بعد يومين من الإبحار أودعت المستوصف حيث قضيت الثلاثة الأسابيع التالية أتناول الأرز والبيض ومربى المشمش.

ثمة وجه إيجابي للمرض على متن باخرة خوان سيباستيان. من المحال تجنب الضباط وطاقم السفينة الذين كانوا يعتبرون العناية بي إحدى واجباتهم فكانوا يترددون علي كل ساعات اليوم ويتحدثون إلي. هكذا تعلمت الكثير من اللغة الاسبانية خلال الرحلة أكثر مما كنت سأفعل في ظروف عادية. وأنا أنزوي في القمرة حيث حملت الفونغراف والعديد من اسطوانات الموسيقى الشعبية الاسبانية بت أدرك الفرق بين الأسلوب الصوتي الشائع والفلامينكو، الشيء الذي كنت أجهله حتى تلك اللحظة. حينما وصلنا جزر الأنديز الغربية شعرت بتحسن كبير بحيث ذهبت إلى الساحل الذي ترسو به الباخرة. اشتريت كميات وافرة من جميع أصناف الفاكهة التي أمكنني العثور عليها.

بسان خوان استقلت سيدة بدينة وابنها الذي كان في العاشرة من عمره الباخرة حيث كانا يتوجهان إلى فنزويلا. بعد أن أخذت السفينة تمخر عباب البحر باتجاه سانت دومينغو، أخرج الصبي علبة من السجائر محشوة بالمخدرات. لم يسبق لي أبدا أن عرفت الماريجوانا، حتى بعد أن قبلت بأدب السيجارة التي ناولني إياها ودخنتها. لم أستطع أن أدرك السر وراء اعتبار هذا النوع من السجائر المحلية الصنع أفضل من السجائر العادية. كان المذاق رديئا كما أنها لم تحدث أي أثر ذلك أنني كنت أمج الدخان فقط. غير أننا ذات ليلة في كوركوا سرنا لمسافة طويلة نحو الريف حيث وجدنا حانة بدائية بالقرب من خليج صغير. احتسينا بعض زجاجات النبيذ بينما كنا نستلقي في الأرجوحات والضفادع تواصل نقيقها حوالينا. سحب الصبي البورتريكي سجائره المحشوة وأخذنا ندخن. هذه المرة شعرت فعلا بإحساس غريب. شعرت بأنني موجود هناك في ذلك المكان على نحو تتعذر معه العودة، غارقا في الضوضاء المتواصلة للضفادع والحشرات. ونظرا لأنني شعرت بأن

دقات قلبي تزداد عنفا وسرعة فقد صنفت التجربة ضمن التجارب السيئة ومنذ تلك اللحظات رفضت السجائر كلما قدمها لي، معللا رفضي بأن ما لديه لن يكفيه شخصيا. كما أنه عبر سابقا عن شكه في إمكانية الحصول على المزيد منها في كراكاس. حينما وصلنا إلى لا كوارا أصبح الصبي محاطا فجأة بكل أشكال الرعب. قال بأنه لن يغامر بأخذ هذه السجائر إلى فنزويلا. إذا اكتشف خفر الحدود أمره فإن أمه ستعاقبه بشدة. حملها كلها إلى مقصورتي وتركها معي ناصحا إياي أن أخبئها باحتراس شديد ضمن أمتعتي. خبأتها بشكل جيد حيث غفلت تماما عن أمرها لأسابيع عديدة.

ذهبت إلى بارنكويلا ونزلت في فندق. أضفى عنف الطقس بهاء ورونقا على الطبيعة. كان المرء يحيا تحت سطوة صوت المطر المتساقط على الأعشاب. ومع قعقعة البروق عند اقتراب المساء يهفو الهواء محملا برائحة البيوت الزجاجية الخاصة بالنباتات والفاكهة الطازجة. إنها اللحظة التي يستحيل فيها الضوء في السماء إلى لون عنبري وتخلو الشوارع من المارة. بهدير مباغت تستحيل السماء إلى سديم طوفاني ويأخذ المطر في التساقط. لا يمكن تجنب هذه الضوضاء بين جدران الفندق ذلك أن كل الغرف تؤدي إلى فناءات مفتوحة مملوءة بنباتات ذات أوراق رنانة.

سألت عن كيفية الذهاب إلى بوغاتا وأعرضت فورا عن الفكرة حينما علمت بأن مجرد بلوغ البلدة التي ينطلق منها القطار إلى العاصمة يستغرق تسعة أيام على متن قارب الوادي صعودا إلى ما غدلينا. لم أكن أتوفر على ما يكفي من المال للمجازفة بالذهاب كل هذه المسافة البعيدة على طول الساحل. بعد ذلك التقيت برجل في الفندق أخبرني عن ريوهاشا في شبه جزيرة جواخيرا حيث الهنود لا يرتدون أي ملابس ويتمنطقون بأقواسهم ونبالهم. استقللت قاربا قديما ذات مساء. في الصباح التالي بلغنا سياناغا حيث أخذت القطار إلى سانتا مارتا.

في سانتا مارتا ذهبت إلى مكتب شركة محلية تدير باخرة على طول الساحل شرقا باتجاه ريوهاتا. أخبرني المالك وقد خلا وجهه من أي تعابير بأن قاربه قد تحطم الأسبوع الماضي وتعرض للصدوع خلال رحلة العودة. هكذا تعذرت الرحلة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في الليلة الأولى على العشاء بسانتا مارتا وضع نادل الفندق ابريقا من الماء المسود أمامي. بدا الإناء مقرفا فسألته إذا ما كانوا يقومون بغلي الماء وأخبرني بأن المالك يسهر على ذلك شخصيا. في اليوم التالي شعرت بمغص يقطع أوصالي. لا شك أن مكروها أصابني. كنت أدرك ذلك جيدا. أحضر لي النادل الأرز المغلي وأنا أتمدد في السرير. قررت أن أسأله مرة أخرى إذا ما كان متأكدا بأن الماء الذي شربته تم غليه جيدا. هذه المرة أجابني: "لا سيدي." لم أكد أصدق أذناي. زعقت: "لكنك أخبرتني بأن المالك دائما يغليه." فأجاب: "نعم." ثم تابع: "و لكن ليس للضيوف. فقط له ولعائلته."

بعد مرور أربعة أو خمسة أيام لم تتحسن حالتي وبقيت في الفراش يغمرني عياء شديد. حينما أخبرني المالك عن ضيعة السيد فلاي عزمت على زيارتها. تبدو مباشرة وراء سانتا مارتا حيث تطل ثلوجها من على شواطئ الكاريبي المنبسطة. ثمة سلسلة من الجبال يصل علوها إلى تسعة عشر ألف قدم. عند حوالي ثلث الطريق إلى الأعلى، يشرف السيد الأمريكي على مزرعة للقهوى هي حسب المالك المكان المناسب لكي أتعافى. كل ما يلزمني هو أسبوع أو أسبوعان وسأسترد عافيتي. علي أولا أن أصل إلى مكان يدعى جامو نوكال، الحد الذي تصله الطريق ومن هناك سيكون الأمر بسيطا.

وجدت شاحنة متوجهة إلى جامو نوكال. هناك عند حافة الغابة يوجد مخزن عام بدائي يشرف على إدارته أخوان، عبوسا المظهر، عجن الطقس ملامحهم فباتا أقرب إلى السكان المحليين، وقد اندهشت كثيرا حينما تناهى إلي حديثهم باللغة الفرنسية. حينما خاطبتهم باللغة ذاتها قررا أن يمدا لي يد العون. لاحقا ذلك اليوم جلبا لي حصانا اعتاد أن يقطع هذه الطريق جيئة وذهابا ووضعاه تحت تصرفي. كان لدي حقيبة صغيرة ربطاها وراء السرج وأخبراني: "كل ما عليك القيام به هو الجلوس في مكانك وسيقوم الحصان بعمله. سيحملك مباشرة إلى الضيعة. ستصل إلى هناك قبل حلول الظلام."

تتسلق الطريق غابة شتوية. لم يسبق لي أبدا أن شاهدت أشجارا ولو بنصف الضخامة التي تحيط بي كما أن الشلالات والنباتات المذهلة أثارت إعجابي. بعد أربع ساعات، حينما كان االظلام قد حل توقف الحصان عند بوابة يقف

أمامها رجل يمسك ببندقية. لم يأذن لي بالمرور: على السيد فلاي أن يتخذ القرار. كما أنه لم يكن مسرورا على نحو خاص لرؤيتي. لكن نظرا لحالتي الصحية أخبرني بأنه يمكنني البقاء إذا ما وافقت على منحه ستة دولارات في اليوم. لم أكن في وضع يسمح لي إطلاقا بالمماكسات، ناهيك عن أن الظلام وركوبي للحصان لمدة طويلة جعلاني أتشبث بهذا العرض. ركبت الحصان إلى المزرعة وخصص لي الشخص غرفة نوم جميلة.

كان لدى السيد والسيدة فلاي زوجان من بوغاتا يقيمان معهما، برجوازيان طيبان يتمتعان بحس عال من البساطة والصراحة. قضيت أسبوعا رائعا هناك أتعافى. أينما توجهت أجد الأراضي التي اقتلعت منها الأشجار وأعود مرة أخرى إلى الغابة الشتوية الأصلية.

أخذ المغص يظهر ويختفي، ولكنه بقي ملازما لي. وصف لي السيد فلاي دواء جرب مؤخرا خاص بالأميبات. عدت إلى سانتا مارتا بالطريقة ذاتها التي غادرتها بها. أخذت مكاني السابق في الفندق وذهبت أبحث عن الدواء. بعد أيام قليلة من تناول هذه المادة شعرت بتحسن طفيف.

في القطار المتوجه إلى سياناغا طرأ حادث طريف. كان القطار يسير وسط غابة من الأشجار الاستوائية في منطقة مهجورة تمتد دون انقطاع على جانبي خطوط السكك الحديدية. فجأة توقف القطار. من العربة الخلفية انبعث الصراخ والعويل. بعد حين انفلت رجل شبه عار عبر الممر المركزي للعربة يلاحقه ثلاثة جنود وهم يلوحون بسيوفهم في الهواء. ركض الرجل إلى الممر المواجه وقفز، والجنود في أثره بحيث يمكن أن يقطعوه إربا إربا. تدلى الركاب في الجهة اليمنى إلى الخارج. اختفى الأشخاص الأربعة وسط الأشجار لدقيقة أو دقيقتين. بعد ذلك عاد الجنود وهم يردون سيوفهم إلى أغمادها. ركبوا القطار مرة أخرى وأعطوا إشارة إلى القطار لكي يستأنف رحلته. بقي الرجل العاري في المستنقع. هذه هي الحياة.

في بارانكويلا تمكنت من ضمان العبور من بويرتو كولومبيا إلى سان بدرو كاليفورنيا. كانت الباخرة هذه المرة هي غرايس. لم أكن قد طلبت الابحار في الجناح المخصص للقيادة ومع ذلك فكنتيجة لأحد أخطاء مكاتب الرحلات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأمريكية كان علي أن أقضي ليلتي الأولى بمحاذاة الماسور وهو يصطدم بالصفائح المعدنية للمجداف الأمامي على مسافة عشر بوصات من المكان الذي أضع فيه رأسي. أخذت السفينة ترتطم بالأمواج بشكل مريع و لم تكن هناك أي ريح. كان هناك على متن الباخرة أيضا شابان أمريكيان غريبا الأطوار؛ ومع أن مظهرهم لا يوحي بذلك فان الوضعية التي ربطتهم جعلتهما يستعصيان على النسيان. كان أحدهما في السادسة عشر من عمره والآخر في الثامنة عشر ويتمتعان بالصحة والعافية لتدبر حياتهما وهكذا ركبا البحر على متن باخرة تجارية إلى جنوب أمريكا. وزيادة في المغامرة انطلقا في مغامرة طويلة على اليابسة. خلالها تعرض أكبرهم سنا إلى حادث ألزم بتر ذراعه اليمنى عند المرفق. هكذا أصبح يعتمد إلى حد ما على رفيقهِ الأصغر والذي بتفاني الشباب كرس نفسه تماما لخدمة صديقه. كان يلف السجائر ويشعلها له ويساعد أحيانا في اطعامه. خلال الرحلة التي استمرت أسبوعين لم أر أي واحد منهما دون الآخر. في الليلة الأولى كان يستلقيان في غرفة النوم على سريران إلى جانب بعضها البعض. تكلمنا لساعات خلال الليل عن افريقيا وجنوب أمريكا. بعد حين أشار الصبي الأكبر سنا بأنهما كان قد حصلا على بعض الماريخوانا الجيدة في ماراكايبو لكنهما استنفداها تماما. لم أكن متأكدا بأننا كنا نتحدث عن نفس المادة غير أنني قلت لهم دون يقين: "لدي بعض السجائر المحشوة إذا كنتم ترغبون في تدخينها." لم يترك رد فعلهم شكا لدي بأنها محشوة بالماريجوانا. أعطيتهم ثمانية من التي كانت بحوزتي فدخنوا حتى غطوا في نوم عميق. رفضت أن أدخن أي واحد منها بعد أن اكتشفت بأنها لا تناسب مزاجي. في اليوم التالي خصني المتصرف بقمرة واعتذر لأنه أرغمني على قضاء الليلة في مكان القيادة. استرجعت شهية الأكل خلال السفر من باناما بحيث أنه خلال الوقت الذي وصلنا إلى لوس أنجلس كنت أشعر بتحسن كبير.

قضيت شهرا كاملا مع الخال شورلي وعائلته. يربض المنزل عاليا جهة الجبل ويتيح مناظر شاملة للوس أنجلس، ومضيق سانت مونيك وجزيرة كاتالينا التي توجد على مسافة أبعد. للمرة الأولى في حياتي أدركت بأن الولايات المتحدة يمكنها أن تصير مصدرا لهذه المناظر الخلابة. لا تكمن الأهمية في التفاصيل ولكن في

الآثار التي يخلفها الضوء على مسافات كبيرة. لعل مصدر هذا الشعور بالجمال في الواقع يكمن في الصفاء المذهل للجو. من الغريب التفكير بأنه خلال السنوات الفاصلة ستتعرض المنطقة بأسرها للتدهور الدائم.

بعد ذلك ذهبت إلى سان فرانسيسكو وأقمت مع أقارب جدتي بولز لمدة شهر آخر. يتيح منزلهم هو الآخر منظرا للمدينة، للخليج وللجبال. هناك عرفت حالة حادة من داء اللوزتين ولزمت الفراش. لسوء حظي كانت الخالة جيسي تنتمي لطائفة العالمة المسيحية؛ حينما ارتفعت حرارتي نظرت إلي باتهام وقالت: "إنها مجرد أوهام، كما أنك لا شك تدرك." وحينما طلبت بعد مرور عدة أيام حضور الطبيب اعترضت على الفكرة ذلك أنها كانت فخورة بأن لا طبيبا تخطى عتبة منزلها. غير أن بناتها الثلاث كن يتعاطفن معي سرا وكن يرسلن إلي الأدوية عن طريق الخادم السويدية. هكذا فلم أكن مهملا تماما.

التقيت هنري كويل مرارا وقد بدا منشغلا بالتدريس في العديد من الكليات في المنطقة. أخذني إلى بالو آلتو حيث يقدم حصة الإيقاع في ستانفورد وعزفت بعض الألحان مع الطلبة. في لوس انجلس كنت قد كتبت بعض مقدمات البيانو ووضعت الموسيقى لرسالة لجيرترورد شتاين. قرر كويل الذي يشرف على مجلة الموسيقى الجديدة نشر بعض هذه المواد وقد سررت ذلك أن لا أحد غيري قام بنشر أي عمل من أعمالي.

أخبرت أقاربي عن السجائر التي كانت بحوزتي وقد أعربوا عن رغبتهم في تجربتها. ذات ليلة بينما كنا نحتسي الجعة ونتجول بالسيارة عبر شوارع المدينة، عثرنا على مكان معتم بمنتزه البوابة الذهبية. ركننا السيارة جانبا وأخرجت السجائر. وما دام أن الساعة كانت تشير إلى ما بعد منتصف الليل، فقد اقتربت منا سيارة شرطة. جعلنا رجال الشرطة نخرج من السيارة ونصطف في الشارع. استشاطت سيلفيا، التي يشار إليها عادة على أنها راجمة النار، غضبا وأخبرتهم بأن والدها سيحرص على أن ينالوا جزاءهم. لا شك أن المخدر جعلها أكثر توترا، فقرر الشرطي بأننا ثملون واتجه لتفتيش السيارة بحثا عن الكحول. تنفسنا الصعداء حينما انتهوا من التفتيش، ونكاية بهم أشعلنا المزيد من السجائر وانطلقنا في السيارة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في الغالب خلال ساعات طويلة من الجلوس والتحديق عبر نوافذ حافلة في شمال افريقيا، كنت أتساءل ماذا كانت ستكون عليه الرحلة ذاتها في بلدي، حيث أقوم بزيارة أي بلدة أختارها وأقضي يوما أو يومان في البلدات التي تبدو واعدة بمناظرها أكثر من الباقي قبل أن أواصل رحلتي. دعاني جورج تورنر الذي لم ألتق به منذ لقائنا في تونس لزيارته في منزل العائلة بإيفانستون. بات ممكنا الآن قطع كل المسافة إلى شيكاغو عن طريقة حافلة غريهاوند. بقيت في رينو ثم في سالت، مدينة البحيرة المالحة، ثم شيين وأوماها ووصلت أخيرا إلى شيكاغو وأنا على قناعة بأن الولايات المتحدة بغض النظر عن أي شيء آخر هي فعلا بلد جميل. قبل خمسة وثلاثين سنة لم تكن إرهاصات انهيارها الوشيك ملحوظة. (غير أنه كان هناك بعض الأشخاص المهووسون كوالدي مثلا، الذين كانوا يحتجون في فترة مبكرة في 1920 أو يعربون عن تذمرهم من تلوث الهواء والاتلاف العام للريف.)

استاء جورج كثيرا من وجود الإيطاليين في إيثيوبيا؛ من تونس كان قد تمكن من الوصول إلى أديس أبابا وهكذا استشعر رباطا خاصا إزاء الإثيوبيين. ارتكبت الحكومة ذاتها نفس الفظاعات في ليبيا في وقت سابق، غير أن تفاصيل ما جرى لم ينشر في أي من وسائل الصحافة الغربية ما عدا تلك التي تنطق باللغة العربية. أخذني معه إلى نورتويسترن لرؤية ميلفيل هيرسكوفيتس، الذي بدا شأنه شأن أي أنثربولوجي جيد غاضبا هو الآخر من الإيطاليين. يكمن المشكل بالنسبة لي في عجزي عن تكوين أي مشاعر إزاء مكان أو أناس ليس لي بهم سابق معرفة. يمكنني التذمر فقط من حيث المبدأ.

بعد أسبوعين رفقة جورج وعائلته انطلقت إلى بالتيمور للقاء بروس موريسيت الذي كان آنذاك بجون هوبكينز. عن طريقه التقيت بشخص نمساوي يدعى فورمان كان يعاني من آثار داء التهاب الدماغ ويقضي معظم وقته في السرير. (بعد سنوات على ذلك أذكر أنه خلال قيامي مع غور فيدال بإرشاد السيد أوسبرت سيتويل عبر شوارع نيويورك أنه كان مصابا بمرض باركينسون غير أن محاولاته للتحكم في حركاته بينما هو يسير ذكرتني مباشرة بالسيد فورمان.) وما دمت أعتبر أن أي حياة ستكون أفضل من العودة للعيش

في كنف والدي فقد أبديت اهتماما كبيرا حينما اقترح علي طبيب السيد فورمان أن أستقر في بيت المريض لكي أقوم بقراءة ما يرغب فيه بصوت عال لمدة ساعة في اليوم كل صباح. أخبرت الطبيب بأنني سأعلمه بقراري بعد أن أعود إلى نيويورك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

10

بالطبع لم تكن العودة إلى المنـــزل في ظل السؤال القائم أبدا: "ماذا ســـتفعل الآن؟" بالأمر الممتع. لشد مارغبت في تأليف الموسيقى غير أن العائلة لا تـــرى في الأمر سوى عطالة بدل عمل ممكن. ذهبت إلى فيلاج للقاء أوجين بيرمان، الرسام النيورومنسي الذي لم يمر وقت كبير على وصوله إلى أمريكا والذي يقطن في شقة صغيرة في ساحة واشنطن. اقترح أن ننتج معا باليه: أنا أكتب الموسيقى بينما يتكفل هو بالنص والملابس والديكور. لم أعد أذكر الشخص الذي كنا نتوقع أن يحصـــل على هذه التحفة، غير أنني كنت متحمسا لبدء العمل. تذكرت جهاز بيانو ضخم يركن في زاوية من غرفة الجلوس في بالتيمور فقررت أن أكتب فورا إلى الطبيـــب مخبرا إياه عن رغبتي بالعمل شرط أن يتم التفاهم حول ضرورة استعمال البيـــانو. بعد أن تم الاتفاق انتقلت إلى بالتيمور وشرعت في العمل على البالي. حمل جزء من العمل الذي سلمني بيرمان العنوان التالي: *نـــزهة وحيدة لشاب غريـــب الأطـــوار يجمع ويتأمل شذرات قديمة*. حينما رأى فرجيل تومسون المخطوطة كان سعيدا. لم تكن وصفا للوحات بيرمان فحسب ولكن أيضا لبيرمان الشخص.

يغرق المنـــزل على شارع القديس مارتين في هدوء مطبق وكان يشرف عليه ثنائي أسود يتمتع بفعالية إعجازية. بدأت بقراءة رواية ميشيل فيوشانج سمارا للسيد فورمان. كان من الصعب تمرير مضمون الكتاب. كان علي أن أقدمه لـــه مســـبقا على شكل رحلة مرتجلة، تتخلله الموسيقى المسجلة والصور والخرائط. وما دام أن الرجل المسكين يقضي كل وقته مستلقيا في السرير خلال ســـاعات القـــراءة ولا ينهض سوى بمساعدة خادمة فقد كان إلى حد ما مأخوذا بالكتاب. أحسست بأن الرغبة في الكتاب يجب أن تأتي منه. كان من الضروري أن يهيأ لطلبه. كانت تلك وجهة نظري على الأقل. آنذاك كان الأمر يبدو طبيعيا تماما (الآن يبدو لي ذلـــك غير منطقي اطلاقا.)

ذهبت إلى مقر الحزب الشيوعي ببالتيمور والتقيت بيل براودر، الأخ الأصغر للمرشح الرئاسي للحزب والمدافع المتحمس عن القضية. اقتنيت وثائقا تتعلق بالحزب كما درست تاريخ الحزب في كل دولة أوربية على حدة. يمكن للحزب الشيوعي الأمريكي كما بدا لي الأمر آنذاك أن يعمل فقط كأداة للازعاج؛ فكل المحاولات لإعطائه مظهر مؤسسة أمريكية باءت بالفشل. إنه حزب شرعي وبالتالي عبثي؛ حتى يكون له أي معنى فعليه أن يتجه نحو العمل السري. لم أكن أومن بأية عملية سياسية ما عدا المؤامرة. مع ذلك فقد كانت هذه الفترة فترة الجبهة الشعبية ويمكن للمرء الموافقة على الرأي القائل بأن "الشيوعية هي النزعة الأمريكية في القرن العشرين."

في بالتيمور ذهبت إلى أورستاو للقاء الآنستين إيتا وكلارابيل اللواتي كن موضوع حديث جيترورد شتاين الدائم. اسقبلتاني بترحاب كبير وأخذت أتردد عليهم بشكل منتظم. إضافة إلى أخيهم كانا يقيمان في شقتين واسعتين، كلتاهما مليئتان باللوحات، تقريبا لكل الرسامين، بدءا بموني، بالرغم أنهما ركزتا اهتمامهما على لوحات ماتيس ويزعمان بأنهما يملكان أكبر مجموعة من لوحاته الموجودة. أشرت إلى بيرمان؛ لم يكونا يتوفران على أي من لوحاته غير أنهما أبديتا اهتماما باقتناء بعضها. ذهبت إلى نيويورك وتحدثت إلى بيرمان عن امكانية بيع بعض من لوحاته. أعطاني الكثير من اللوحات بالحبر على سبيل العرض. بالنسبة لتلك اللوحات التي لم أبعها للآنسات فقد اقتناها أمين متحف بالتيمور. أحب بيرمان حقيقة الحصول على المال كما أنني شعرت بالسرور للعب دور الوسيط.

طلبت جمعية أصدقاء وأعداء الموسيقى الحديثة، جمعية أسست في هارتفورد، بكونيكتيكوت، من فيرجيل أن يقدم حفلا للموسيقى الحديثة في مسرح وادسوورث. كتب إلي رسالة يطلب بعضا من أعمالي الموسيقية وبعض المشاهد من الأناباز. آنذاك أينما حللت كنت أحمل معي نسخا لكل أعمالي الموسيقية، بدءا من ألحاني إلى الكورال والأعمال التالية. كنت حزينا لأنني لم أتمكن من حضور الحفل، ذلك أنني لم أستمع أبدا إلى القطعة وكنت أحن شوقا لاشباع فضولي بخصوص الأداء. غير أن فرص مغادرة بالتيمور كانت منعدمة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ونظرا لأن السيارة كانت من نوع الليموزين حيث يستوي السائق في المقدمة، كما هو الحال، فإن السيد فورمان لم يجد حرجا، كما قال، في "الحديث بلغات أجنبية بينما نقوم بجولاتنا المسائية الطقوسية في السيارة." أحيانا نتحدث باللغة الاسبانية التي كان يتكلم بها بطلاقة وأحيانا بالفرنسية. أحيانا أخرى كان حديثه ينساب باللغة الألمانية، لغته الأصلية، غير أن هذا كان يحرجني ذلك أنه كانت توجد دوما كلمة على الأقل في كل جملة لم أكن أدرك معناها. لم أتمكن أبدا من تعلم الألمانية.

بينما كنت في أوربا توفي جدي بولز، تاركا جدتي لوحدها في منزل كبير مع ماري التي كانت في عمرها لكنها كانت أقل رشاقة. بينما كنت في بالتيمور وصلت برقية تخبرني بوفاة جدتي بولز بسبب داء التهاب الرئة. ذهبت إلى الجنازة في ألميرا برفقة فيكتور كرافت والذي نظرا لأصوله الروسية لم يسبق له أن رأى هذا الوجه الخاص من الحياة الأمريكية ممثلا بعائلتي ووجد كل شيء مثيرا جدا للعجب. بعد مرور أشهر قليلة حينما تمت تسوية التركة توصلت بنصيبي، مبلغ ضئيل لكنني كنت في حاجة ماسة إليه. وضعته في البنك حتى يلبي حاجاتي في المستقبل.

لسبب بقي غامضا بالنسبة لي انتقل هاري دهام إلى ألمانيا وألقى بمصيره ضمن حركة الشباب النازية تحت قيادة بالدور فون شيراش. حينما كتب إلي يخبرني عن ذلك أقسمت أن أجعله يغير قناعاته. في الخريف عاد إلى نيويورك مليئا بالحماس. شرعت حملتي لأشق لتعصبه مجرى مخالفا. تكلل مسعاي بالنجاح حيث أنه بعد مرور أشهر قليلة فاجأني حينما بسط أمامي كراسة الحزب الشيوعي. لم أكن أتوقع أبدا أن يذهب إلى هذا الحد بالرغم من أنه اتخذ اسما حركيا. ومع ذلك فقد شعرت بالرضا لأنني كنت أعرف بأنه سيكون ذا أهمية كبيرة للحركة. خلال السنة التالية أنجز أفلاما للحملة الرئاسية لبراودر ودفع ثمن حافلات صوتية ليعرضها في أحياء في نيويورك.

ومع ذلك فقد تبدت سنة 1935 أسوء السنوات في حياتي. فلا مشروع للسفر بدا في الأفق كما أنه لا يوجد أي مؤشر بأنني سأتمكن على الاطلاق من العيش عن طريق كتابة الموسيقى. في ظل حالة اليأس هذه كنت أقصد مقر العصبة

ضد الحرب والفاشية وأدير لهم آلة نسخ، كما أقوم أيضا بطبع العناوين على المظروفات لتوزيعها. كنت أقصد كل يوم مكتبة العمال وأقرأ عناوين الكتب والدوريات والمناشير وكان لدي إحساس دائما بأن كل شيء غريب وطائفي على نحو لا أمل فيه، وبأن كل شيء موجه نحو أناس لا يمكن التأثير فيهم لأنهم متحزبون أصلا.

يقيم جون هاموند وجوزيف لوزي في شارع سولفان. كنت أقوم بزيارتهم والاستماع إلى أسطوانات الجاز التي يملكها جون. تبادلنا الرسائل أول مرة حينما كان تلميذا في هوتشكيس وكنت أنا في المدرسة الثانوية. بعد ذلك بسنوات التقيته وهو يهم بالرحيل إلى الاتحاد السوفياتي. بدا لي اهتمام ابن السفير الأمريكي السابق لدى اسبانيا وحفيد السيدة فاندربيلت بالثورة أمرا رائعا. أخذني جون إلى هارليم للقاء عازف بيانو، شاب كان يمد له يد العون. كان اسمه تيدي ويلسون. عمل جون على الدفاع على فرقة سكوتسبورو. في هانتسفيل عثر على شريط "عِرق" قديم أشاع السرور في صدره. كان الأمر يتعلق بعازف بيانو مغمور، لم يعثر له على أية أعمال مسجلة أخرى، رغم محاولاته الكثيرة. تتمثل فكرته في محاولة تحديد مكان عازف البيانو إذا كان لا يزال على قيد الحياة وحمله على القيام بإصدار أشرطة جديدة. في الأخير تمكن من انقاذ الرجل الذي كان اسمه ميد لوكس لويس. كان يقوم بتنظيف السيارات في مرآب بشيكاغو. أخذه جون إلى نيويورك حيث حقق بسرعة نجاحا باهرا وشرع في العزف في جمعية المقهى بساحة شيريدان. غدا أسلوبه القوي معروفا ودخل تاريخ الجاز. كان جو لوزي منشغلا بالمسرح الفدرالي الذي تكون مؤخرا و لم نكن نلتقيه بشارع سوليفان إلا لماما.

كان جورج أنتهايل وبوسك في البلدة، يعيشان بالشارع الخامس والخمسين شرقا. كنت أستمتع بتقديم مخطوطاتي لجورج والاستماع إليها وهو يعزفها على البيانو. لم يتردد أبدا بخصوص النوتات. كلما أخطأ النوتات الصحيحة يواصل العزف. ذات يوم أخبرني هاري دنهام بأنه سيأخذني في الزوال لزيارة الشاعر. التقيت جورج الليلة السابقة وتذكرت حادثا كان آرون قد رواه لي. خلال حفل وبينما كان جورج يعزف موسيقاه، وقف كامينز وتوجه إلى غرفة حمام مجاورة. انتظر أحد المقاطع النادرة وبعد ذلك وبينما لا يزال الباب مشرعا على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

آخره قام بسحب ماسورة الماء. هكذا أخبرت جورج بأنني ذاهب للقاء كامينز وسألته عن رأيه بخصوصه. "إنه ابن كلب،" أخبرني جورج دون أن يفصل في الموضوع.

لم يكن كامينز ابن كلب على الاطلاق. لقد ذكرني بأفراد عائلتي الغريبي الأطوار، متعصبون وسريعو الغضب. ولعل ما يميزه عنهم بغض النظر عن ذكائه وموهبته كانت قدرته على الاستمتاع بفعل الحياة. أخذني لأول عرض هزلي أحضره في حياتي؛ كان ذلك بمسرح باوري. كنا نكسر حبات الفول السوداني ونلتهمها خلال العرض.

كنت أتردد على حفلات الشاي التي تقيمها موريل دراير. غالبا ما كانت حفلات مجنونة وكان الناس يصلون ويغادرون باستمرار. كان العنصر الوحيد الثابت وسط هذه الضوضاء هو موريل درايبر ذاتها. دائما ما تعتلي عرشا مذهبا بينما يحظى بعض الضيوف بشرف حديث مقتضب عند قدم العرش بينما يحرم الآخرون من ذلك. في الأخير توطدت علاقتنا وطلبت مني أن أحضر العشاء. في ساعة متأخرة من الليل، أخبرتني بعد حديث مطول (آمل أن يكون جزء منه بهدف الدعابة): "يالك من شاب منحرف." شعرت بإطراء كبير، ذلك أنني لم أكن أعرف معنى الكلمة. حينما عدت إلى المنزل أخذت القاموس فورا وشرعت في البحث عن معنى الكلمة. حينها اندهشت فقاموس أوكسفورد يورد التعريف التالي: "بعيد، منزو، متعرج، غير مباشر ومتقطع." ظننت أول الأمر أنها كانت تحيل إلى طريقتي في حكاية قصة ما. حينما أشرع في حكاية حادث ما، فإن قصدي الأول هو إعطاء تقرير مجرد عن الأحداث الرئيسية ولا شيء غير ذلك وفي الأخير أضيف تنويعات على المادة التي أكون بصدد روايتها. لا شك أن المستمع سيدرك بأنني أحتفظ لنفسي بمعلومات؛ لا يمكن اعتبار هذه الخاصية شيئا محببا في الأصدقاء. في نهاية المطاف أعتقد أن رواية حكاية ما وفق تسلسل عكسي نظرا لعدم التأكد من مقدار الأشياء التي يجب ذكرها لا يمكن تمييزها عن رواية قصة وفق التسلسل ذاته لمجرد العناد أو على أمل الخداع.

قدم أصدقاء وأعداء الموسيقى الحديثة حفلا آخر خلال صيف 1935 الذي جرى بمنزل هارتفورد لصاحبه تشيك أوستين. واصل فرجيل التأكيد على

ضرورة اعتبار الموسيقى منتوجا يجب أن يؤدى عليه؛ وكما أصر في التأكيد فإن موسيقارا يتنازل عن موسيقاه هو مجرد حثالة. ينطبق هذا حتى على محاولة المضيف أو المضيفة لاستمالة المرء إلى عزف بعض المقاطع من العمل الذي يوجد قيد الإنجاز بعد انتهاء العشاء. وافق أوستين فرجيل الرأي؛ هكذا تم التعاقد مع كل من آرون وفرجيل وجورج أنتهايل وأنا للعرض في هارتفورد. كان للمناسبة جانبها السلبي بالنسبة لي: بشكل من الأشكال ضمن حالة السُكر العامة التي أعقبت تفرق الحضور في المساء، اختفت حقيبتي وبالتالي لم يكن بإمكاني بتاتا العودة إلى نيويورك في زي الحفلة الرسمي. كان على أوستين أن يعيرني قميصا وربطة عنق وجوارب حتى أتمكن من مغادرة هارفورد.

في وقت لاحق، ومرة أخرى بايعاز من فرجيل، تعاقدت السيدة موراي كراين مع أربعة أشخاص يتكونون من فرجيل وآرون ومارك بليتزشتاين وأنا لإحياء حفل. بعد حوالي الأسبوع على انطلاق الحفل، قضينا عشية في منزل السيدة للإعداد للبرنامج. مر كل شيء بسلاسة إلى أن غنى مارك من مجموعته *سيتأرجح سرير الطفل* التي كان على وشك إنهائها. كان عنوان الأغنية والمقطع الصادم كالتالي: "ثمة شيء بغيض بخصوص الأغنياء." بينما كان يقدم الأغنية بكل الحقد المضبوط الذي كان وحده قادرا على شحنه، كان آرون وفرجيل وأنا نسترق نظرات سريعة إلى بعضنا البعض وإلى السيدة كراين. يبدو أنها اكتشفت بأن الكلمات من أصل آرامي، لغة لا تفهمها. غير أنها بدت كما لو أنها تتابع الموسيقى باهتمام وتقدير. حينما أنهى مارك أغنيته مالت إلى الأمام وقالت بهدوء: "نعم إنها رائعة، غير أنني أشعر دائما أنه حتى تكون أغنية ما ذات معنى فعلى المرء أن يفهم الكلمات. كنت أصغي باهتمام وأعترف لك بأنني لم أفهم أي شيء. ولكن ليس هناك ما يدعو لأن تكون قادرا على الغناء. ربما لديك شيئ موسيقي صرف؟" حينئذ عزف مختارات من باليه *قابيل* اعتبرتها السيدة كراين مناسبة. مرت الأمسية بسلاسة واستلمنا شيكاتنا قبل المغادرة. شعرت حينها بحرج شديد، لقد بدا لي الأمر كما لو أنك تقبل مقابلا لمجرد أنك قمت بسحب كرسي مضيفتك. غير أن صرامة فرجيل انتصرت في الأخير: الملحن شخص محترف والمحترفون يحصلون على المقابل المادي. آملت أن نحظى بفرص أخرى. كانت الأزمة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الاقتصادية متفشية وهكذا بدا شيك السيدة كراين في غاية الكرم غير أننا لم نحظ بفرص مماثلة.

كنت آخذ بيرمان في نزهات مطولة على امتداد الواجهة المائية وعبر جسور الوادي الشرقي وهكذا لم يشعر أبدا بالسأم. بعد حين أخذ ينتج سلسلة من الصور لمنهاتن في حالة دمار، كما يمكن رؤيتها من بروكلين. فقد تلاشت الشرارة الأولى لمشروع الباليه. كنت قد وضعت نصف الموسيقى على الأقل في بالتيمور لكنني نادرا ما كنت أشتغل عليها منذ عودتي إلى نيويورك.

كلما قمت بزيارة هاري كنت أجد لديه جون لاتوش. يبدو لا توش شخصا يحب الترحال والخروج على المألوف في نمط حياته. يتناول كل ما يجده أمامه وينام إلى حد ما أينما اتفق حينما يهده التعب. أنا الذي كنت أعيش وفق قوانين أفرضها على نفسي بصرامة كنت أنتقد كثيرا سلوكه الأرعن غير أنه بدا أنه يفهم أن امتعاضي ينبع من غيرتي ومن أشياء أخرى. كان هاري ينظر إلى عدم انضباطه كشيء مسلم به ولا يحتج إذا ما جاء في الرابعة صباحا ليعلن بأنه يتضور جوعا. كان لا توش يعيش عن طريق تأليف كلمات الأغاني رغم أنه كان يلقب نفسه شاعرا وقد غضب أشد الغضب حين مناداتي له بمؤلف كلمات الأغاني. كان يجمع اللاجئين من ألمانيا ومن أوربا الوسطى كما يمكن لشخص آخر أن يجمع السمك الاستوائي. كان دائما متحمسا لاضافة عناصر جديدة لتشكيلته. بفضل لاتوش التقيت بفلاديمير دوكليسكي (لم يكن لاجئا، يُعرف في برودوادي بالدوق فرنون) الذي منحني عملا يتمثل في نقل أعمال موسيقية. كان العمل بسيطا غير أنه في ذلك الوقت لم يكن الطابع البريدي المحلي رقم 802 ضروريا على صفحة أجزاء الأوركسترا؛ حدث ذلك لاحقا. كانت أم فرنون سيدة روسية جميلة وطباخة ماهرة وكانت تدعوني في الغالب إلى العشاء. أصبح طبخها ظاهرة في ضاحية إيستر تايم.

كان هنري كوويل يدرس في المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي وكان يرغب في نماذج من موسيقى شمال افريقيا لعزفها أمام طلبته. كانت المدرسة تتوفر على تجهيزات لاعادة الانتاج رغم أن ذلك لم يكن مرضيا كثيرا. كانت الأشرطة المنقولة من الألمنيوم ويجب عزفها وذلك باستعمال أشواك أعدت كما لو أنها إبر.

تحمس هنري خصوصا لمجموعة موسيقى الشلوح وطلب مني أن أضع مجموعة من الأشرطة لبيلا بارتوك التي كانت تقيم في بترسبورغ. لاحقا أخبرني بأن بارتوك قامت بدمج المادة الموسيقية للشلوح في قطعة جديدة. بالتأكيد حينما أنصتت إلى الكونشيرتو، بدا التعديل واضحا غير أنني استطعت التعرف عليها خصوصا وأنني على معرفة بكل نوتة من القطعة التي استنسختها له.

كان لينكولن كورتشاين يدير مدرسة للباليه في ركن من الشارع التاسع والخمسين وشارع ماديسون ويتولى بلانشين مسؤولية الإشراف عليها. كان يفكر في تخصيص باليه لي غير أنه كان يريد بلانشين الذي كان موسيقيا محنكا أن يستمع أولا لبعض من مقاطع موسيقاي. واصلت أخذ بعض القطع القديمة التي كنت قد كتبتها في المرحلة الثانوية؛ بطبيعة الحال لم تحظ باستحسان بلانشين. غير أن المكان بدا في حالة من الفوضى بحيث كنت أخشى أن أترك لديهم أية قطعة مهمة بالنسبة لي. في الأخير وصل لنكولن إلى قرار بخصوص الموضوع، فقدمني إلى أوجين لورين الذي سيقدم اللوحات الكوريغرافية الخاصة بالعمل. مادمت بالنسبة للنكولن لا أعدو أن أكون رحالة فإن فكرة باليه يتمحور حول رحلة بحرية حول العالم ستكون مناسبة. كنت منشغلا لعدة شهور بوضع موسيقى البيانو. فعلا نظرا لقلة خبرتي ارتكبت الخطأ القاتل وذلك بالكتابة وفق أسلوب يستحيل بمقتضاه عزف الموسيقى عمليا على مستوى الأوركسترا، غير أنني لم أنتبه إلى ذلك إلا لاحقا. كانت دائما تبدو لي أفضل بكثير بواسطة البيانو قياسا بصيغة الأوركسترا.

في نفس الوقت كنت أضع موسيقى لسلسلة من الأفلام القصيرة من اخراج رودي بوركهاردت، مصور فوتوغرافي سويسري كان إدوين دينبي قد جاء به إلى أمريكا. كنت أعزف على البيانو، أغني وأصفر، وأفرقع لساني وأصدر أصواتا شبيهة بأصوات الطرق. كل هذا جزء من الموسيقى. في الفترة المبكرة من سنة 1936 قدم المشروع الموسيقي الفدرالي حفلا خصص كله لانتاجي الموسيقي. إضافة إلى الموسيقى، قدمنا فيلم هاري دنهام فِنوس وأدونيس. كان على هاري أن يضع يده أمام العاكس خلال اللقطات التي تتخللها مشاهد للممثلين وهم عراة. أحدثت الموسيقى المرافقة إضافة إلى الشاشة الفارغة أثرا أكثر تعبيرا مما كانت عليه بوجود الصور. كان الجمهور خليطا لا سبق له من الأشخاص المجهولين اجتذبتهم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

امكانية حفل مجاني، إضافة إلى ملحنين وموسيقيين جادين وبعض الأعضاء المتوهجين من مجتمع المقهى. رأيت سيسيل بيتون وناتالي بالي يشرئبون بأعناقهم في بعض المقاعد الخلفية. كان هناك أيضا أبي وأمي؛ خلال الفاصل كان أبي يهمس: "ها هنا حيث تذهب أموال دافعي الضرائب. يا إلهي." أما أمي فقد اتخذت موقفا أكثر واقعية إلى حد ما: "على الأقل لا يمكنهم أن يتراجعوا الآن عن تقديم الحفل. لو كان الأمر يتعلق بأشجار كانوا قد غرسوها في وقت سابق فإنهم سيقتلعونها مرة أخرى في الغد."

بدت أغلب الأعمال التي عزفت تلك الليلة جديدة تماما بالنسبة لي. على أي حال، شعرت بالمتعة وأنا أستمع لها على التوالي. تشكلت الجلسة التي تم الترويج لها كثيرا والتي أعقبت الموسيقى من أسئلة مكتوبة على قطع من الورق من طرف أعضاء الجمهور ويتم قراءتها بصوت عال من طرف مسيرة الجلسة ويجيب عليها الملحن. كانت تحديدا جلسة مزعجة. كان اليساريون معترضون على الموسيقى من حيث المبدأ.

كان أحد الأسئلة كالتالي: "هل تتناول الشاي بالسكر؟" لاحقا اعترف هنري برانت بأنه صاحب السؤال. في السنة الموالية حينما كنت أستمع لأوركسترا فيلادفيا وهي تتمرن على العديد من المقاطع تحت إشراف هنري، تساءلت إذا ما بدت على ما هي عليه نظرا لأنها كانت مرة أخرى في مزاج شيطاني.

كان دوروتي نورمان تابعا مخلصا لستيغليتز، وبسبب غيضه من النجاح الذي حققه عرض أرموري والشهرة اللاحقة التي عرفها المغتربون الأمريكيون خلال سنوات ما بعد الحرب، انتفض وذلك عن طريق تكوين مجموعة من الفنانين يعتزون بانعزالهم عن التيارات الفنية الأوروبية. لقب ستيغليتز هذا الحضن الدافئ من التعصب الجمالي بالمكان الأمريكي. وقد كانت زوجته جورجيا أوكيف التي تتميز بقوة شخصيتها قادرة على إظهار العداء نحو الذين يفترض أنهم يعارضونه دون مواربة.

بدا ذلك واضحا ذات مساء في شقة دوروتي نورمان حينما تم لسوء الحظ إثارة موضوع جيتررود شتاين. لعل الوتيرة والعداء اللذين أقصى من خلالهما ستيغليتز كلا من الكاتبة وكتابتها صدمني وهكذا قمت بهجوم مضاد بالرغم من

(أو غالبا بسبب) العديد من الايماءات الغامضة من الآنسة أوكيف بأن سلوكي غير منتظم. حاول المسكين دوروتي نورمان أن يلطف الجو غير أنه خلال ذلك الوقت أدى عنف الآراء المعبر عنها إلى تقسيم الحاضرين بين أقلية لا ترى أي عار في الاغتراب والأغلبية التي تعتبره سقوطا من النعمة. يتمثل الرأي الدوغمائي لستيغلر بأن الفنان الأمريكي لا يمكنه أن يعمل سوى في الولايات المتحدة. هكذا ما دامت جيترورد شتاين قد كتبت تقريبا كل أعمالها في فرنسا فلا يمكن أخذها مأخذ الجد. غير أنه بطبيعة الحال كان قد قال أكثر من ذلك. ما قاله هو أنها مغرمة بالاستعراض وأنها أنانية لا يمكن احتمالها، كما أنها مغرمة بالأصداء التي يحدثها صوتها وأشياء مشابهة خارج الموضوع. انتهى المساء بإحساس مر. كنت عاجزا عن معرفة أسباب لا عقلانية وحقد ستيغلير حينها، ذلك أنني أجهل الكثير من المعطيات. في وقت لاحق، أوضح لي موريس كروسر كل شيء.

في منتصف شهر تموز احتل فرانكو اسبانيا؛ أنشأنا فورا لجنة لدعم الجمهورية الاسبانية وقدمنا مسرحية لجمع التبرعات لحكومة مدريد. كتب كينيت وايت النص وأخرجه جوزيف لوزي أما أنا فقد وضعت الموسيقى وكان أورل روبنسون المخرج الموسيقى (ما يعني بأنه عزف على البيانو والـلآلات الموسيقية ووجهه الكورال.) كان عنوان المسرحية هو: *من يخوض هذه المعركة؟* كانت المسرحية عرضا وثائقيا حيا للوضعية السياسية في اسبانيا. اكتست المسرحية نبرة معادية للفاشية بشكل قوي كما كان مفترضا فيها أن تكون حتى تبلغ رسالتها بأن ما يجري على أرض الواقع هو احتلال أجنبي. حاليا لا يتحدث الناس عن الحرب الأهلية الاسبانية حيث تم ارتكاب تجاوزات من كلا الطرفين، كما لو أن الجانب المقاوم والجانب المعتدي كانا ملتزمان بنفس المعايير الأخلاقية. حصلت المسرحية على حوالي ألفي دولار، مبلغ يعد لا بأس به في خضم النكسة. تم إرسال المال مباشرة إلى وزير التعليم بمدريد.

كان فرجيل تومسون يقيم خلال الصيف في شقة ألفريد بار التي تربض في الطوابق العليا المطلة على ساحة بيكمان. أخبرني: "لدي عمل لك." ثم تابع: "أولا علينا الذهاب إلى الشارع الرابع عشر." ذات مساء أخذني معه لمقابلة ثنائي شاب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يدعى ويلز. كان الزوج مسؤولا عن المشروع 891 الذي أحدث مؤخرا للمسرح الفيدرالي وكان على وشك إخراج ترجمة إدوين دينبـــي لمهزلة لابيش التي أخرجها للسينما منذ مدة ليست بعيدة كالفلكانتي. كان الانتاج يحتاج إلى قدر ضخم مـــن الموسيقى، وكانت فكرة فرجيل تتمثل في أن أتولى أنا وضعها. خلال عشر دقـــائق من لقائنا، صدمني أورسون ويلز بملاحظته الباردة بأن الفاشية هي مصير اســـبانيا المحتوم. كم كان على حق؟ بعد مرور ستة وثلاثين سنة على ذلك بامكانه ابـــداء الرأي ذاته وبنفس القدر من الصواب.

بعد لقائي بأورسون كان علي التوجه إلى مسرح ماكسين إليوت ولقاء جون هاوسمان الذي رأى أن يضع اسمي ضمن قائمة الأشخاص الذين يستفيدون من أجر لا يتعدى ثلاثة وعشرين دولار وستة وثمانين سنتا في الأسبوع. بعد ذلك شـــرعت أنا وفرجيل في العمل حيث علمني كيفية اعداد سجل موسيقي، مقررا أيـــة مـــادة موجودة مسبقا وأي موسيقى جديدة علي أن أضيفها. وفي الأخير أشار إلى الكثير من الآلية الفعلية التي علي أن أملأها. يجب إنجاز العمل بسرعة. قضيت طوال اليوم في الشقة أعمل بجنون وسط الآلات الموسيقية. كان بار يشتغل محافظا لمتحف الفن الحديث وبالتالي فقد كانت شقته شيئا ما امتدادا للمتحف. تمكننـــا مـــن وضـــع الموسيقى في الوقت المحدد وهكذا بدأت *الحصان يأكل القبعة* في البرنامج. أخـــرج أورسون المسرحية كما قام بدور الأب أما زوجته فرجينا فقد لعبت دور الإبنـــة، وجوزيف كوتن دور عشيقها وآرلين فرانسيس دور الصديقة الأخرى للعشـــيق. استمتعت كثيرا بموسيقاي بحيث كنت أذهب إلى المسرح تقريبا كل ليلة لأســـابيع متتالية بعد افتتاح العرض. بعد بضعة شهور قرر أورسون إنتاج مسرحية مـــارلو: *الدكتور فاوست* وذلك باللجوء إلى ترسانة من الخدع السحرية. كان يفتـــرض في فرجيل أن يضع الموسيقى غير أنه عاد إلى باريس (رغم أنه على لائحة الأجـــر في مشروع 891) ولا يمكنه العودة في الوقت المحدد. هكذا حصـــلت علـــى العمـــل وأنتجت موسيقى أكثر انسجاما مما كان عليه الحال بالنسبة *للحصان يأكل القبعة*. أثناء عرض المسرحية عاد فرجيل إلى نيويورك وعند الافتتـــاح أخـــبرني: "حســـنا عزيزي أرى أنك تمكنت هذه المرة من فرض اسمك علـــى واجهـــة المســـرح دون الحاجة إلى أي أحد."

خلال الشتاء التقيت بشخص يدعى هاكر كان ينتج فيلما لنقابة الفلاحين العُمال وكان يرغب في وضع موسيقى لفيلمه. كانت هذه الجمعية سياسيا دون حظوة وكان لديها قيادة تروتسكية، أو كما كان متداولا حوالي نيويورك. كان هاكر قد حمل حوالي نصف دزينة من أعضاء المنظمة من منطقة نائية في كونتيكي؛ كانوا أشخاصا غريبي الأطوار يتحلقون حول بعضهم البعض ويتهامسون فيما بينهم. قبل أن أضع الموسيقى طلبت منهم أن يغنوا وهكذا دونت بعض الأغاني لاستعمالها كلوازم. سجلنا الغناء خلال نفس الحصة الموسيقية الآلية وتم إعطائي مجموعة من الأشرطة لموسيقاي، التي أخذتها معي لا حقا إلى المكسيك. كانت الموسيقى توحي بطابعها النضالي؛ حينما انصت إليها الملحنون المكسيك لا حظوا برضى: "كالروس."

عاد توني مع زوجته ماري كلير ايفانوف من باريس. تبدى فورا أن علاقتنا ستكون على ما يرام. تواصلت احتجاجات توني بشأن غياب مظاهر الحضارة في الولايات المتحدة؛ بشكل مثير للدهشة كنت غالبا أجد نفسي أعارض آراءه، ليس دفاعا عن البلد ولكن من باب الإعتراض على الأسباب التي يستعملها للنيل منه.

ذات ليلة ماطرة طلب مني لاتوش ملاقاته في بهو الساحة. حينما وصلت وجدته برفقة إريكا مان، أكبر بنات توماس مان، وفتاة أخرى جذابة لها شعر أحمر وأنف حاد. استقللنا تاكسي وأعطى لاتوش عنوانا للسائق في هارليم. بدت وجهتنا عبارة عن شقة ضوؤها باهت حيث يؤدي الضيوف واجب الدخول ويمنحون سجائر محشوة بالمخدرات. كان لاتوش يترجم مجلة إريكا مان المعادية للفاشية، البيبر ميل، وذلك بغية انتاجها بالمدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي. كانوا يدخنون ويتحدثون في أمور العمل. كان اسم الفتاة ذات الشعر الأحمر جين وقد بدت منطوية على نفسها. بعد مرور عدة أيام أخذت توني وزوجته لزيارة كامينز وماريان. كان لاتوش متواجدا برفقة جين. احتسينا قدرا لا بأس به من النبيد وأخذنا نتحدث عن المكسيك. بعد حين أعلن توني عن رغبته في الذهاب إلى هناك، إذ لا يزال حانقا بشأن غياب مظاهر الثقافة في نيويورك. أعتقد أن انزعاجه مرده إلى عدم تمكنه لا هو ولا ماري من التحدث باللغة الانجليزية. أخبرتهم بأنهم إذا ذهبوا فسأرافقهم. بعد ذلك أعلنت جين هي الأخرى عن رغبتها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في الذهاب إلى المكسيك ثم استأذنت وذهبت إلى الغرفة المجاورة لاجراء مكالمة هاتفية. بعد حين نادت علي. حينما دخلت إلى الغرفة أعطتني الهاتف قائلة بأن أمها تريد التحدث إلي. سألتني السيدة على الجهة الأخرى من الخط عن اسمي واقترحت علي أن أرافق جين إلى منزلها بعد مغادرة آل كامينز. "إذا كانت ابنتي ترغب في الذهاب إلى المكسيك برفقتك، فأعتقد أنه علي ملاقاتك أولا، ألا تعتقد ذلك؟" وافقتها الرأي وبعد ذلك رافقت جين إلى فندق موريس حيث تقيم. وجدت موافقة السيدة أور على هذه النزوة المفاجئة أمرا لا مفر منه. غير أنها كانت تنظر إلى الأمر بجدية وطلبت لقاء ماري كلير وتوني أيضا. رتبنا موعدا للعشاء خلال الأسبوع التالي.

الآن وأنا أهم بمغادرة البلد، قدمت استقالتي من مشروع المسرح الفيدرالي. حذرني المشرفون من تبعات هذه الخطوة: "سيكون من العسير عليك العودة مرة أخرى." عارض بيرمان فكرة ذهابي إلى المكسيك، معتبرا ذلك عملا غير مسؤول إذ كان يزعم أنه حينما يحصل المرء على أي عمل، فلا يجب عليه أن يفرط فيه. "أرى أنك لست على صواب،" أخذ يكرر المرة تلو المرة. وواصل: "لا يجب عليك أن تنقطع عن ممارسة عملك." للمرة الأولى كانت أمي وأبي فرحان لمغادرتي. ففكرة كوني متورطا في شيء يكرهونه كرههم لإدارة تقدم الأعمال ضايقهم بشكل كبير جدا، خصوصا أن الكل قرأ بخصوصها في الجرائد. الآن يمكنهم القول بأنني غادرت منظمة العار.

قصدت صاحب مطبعة صغيرة بشارع ستة وعشرين غربا وسلمته ثلاثة نصوص صغيرة بالإسبانية حتى يقوم بطبعها بحبر قرمزي على ورق دبق. كل نص من النصوص الثلاثة يصور تروتسكي على أنه الخطر الآني، ويطالب بعدم السماح له بالبقاء في المكسيك ويدعو إلى قتله. هز صاحب المطبعة حاجبيه إلى الأعلى حينما رأى شعاراتي؛ يبدو أنه يفهم الاسبانية قليلا. أخبرته بأنني أريد خمسة آلاف نسخة من كل واحدة على مقاس 6 بوصات ونصف. تردد قليلا وأراد أن يعلم لمن هذه المطبوعات: "إنها فقط لي،" أخبرته. أخيرا وافق بغضاضة: "لا يجب علي أن أقوم بهذا الشيء. هذا محل نقابة كما تعلم. لكن بيني وبينك فالرجل يشكل تهديدا. ستكون رهن إشارتك يوم الإثنين."

مع وجود الملصقات الخمسة عشر ألف معبأة بأمان ضمن حقائبي انطلقت مع آل توني وجين في حافلة إلى بالتيمور. لم يكن توني يملك أكثر من تسعة مائة دولار وما دام أنه كان عازما على البقاء في المكسيك لشهور عديدة فقد شعرت بأن عليه أن يأخذ معه قدرا أكبر من المال وأخبرته بذلك. كان جوابه: "يا لك من برجوازي حقير." ومع ذلك فقد كنت عازما على عدم السماح له بالسفر بذلك المبلغ الهزيل ذلك أنني لم أكن أرغب بأن أجد نفسي مرغما على اعارته بعض المال. خطرت ببالي فكرة إمكانية بيع بعض لوحاته للآنسات كون. بقينا لثلاثة أيام في بالتيمور حيث اقتنت الأخوات الكثير من لوحاته كما أنني تذكرت محافظة المتحف. كانت سعيدة بأن تستثمر في آل توني أيضا. وهكذا راودني شعور أفضل ونحن نواصل طريقنا جنوبا. حينما يحل الليل نغادر السيارات ونقيم في غرف الفنادق. على العموم كنا نقضي ليلتين في كل مكان وهكذا استغرقت الرحلة أسبوعين كاملين قبل الوصول إلى أورلين الجديدة، أبعد منطقة. بعد مضي أسبوع وصلنا إلى مونتيري ونزلنا بفندق متهالك. خلال ليلتنا الأولى هناك سحبت عارضة خشبية في غرفتي وتمكنت عن طريق التمدد على أرضية الغرف أن أنظر إلى الغرف السفلى حيث كان يجلس أربعة صينيين وهم يتبادلون أطراف الحديث. بدا لي هذا الحادث مقدمة مناسبة للمكسيك. في اليوم التالي ذهبت إلى الثانوية المحلية وتحدثت إلى التلاميذ بشأن توزيع الملصقات. كانوا كلهم متحمسين للفكرة وأعطيت مئة نسخة من كل نص لحوالي اثني عشر تلميذا. في ذلك المساء كانت هناك تظاهرة. تمت دعوتنا للمشاركة وتسلق إحدى الشاحنات التي تزحف عبر الشوارع. على متن كل حافلة يوجد شخص بجهاز ميكافون يطالب بمصادرة المزيد من الأراضي. ومن باب اللياقة نحونا، حيث كانوا يعتبروننا فرنسيين (و بطبيعة الحال لم يكن أي واحد منا كذلك) أضافوا إشارات جارحة إلى العدو الأول، تروتسكي، الذي منح بشكل خاطئ حق اللجوء السياسي من طرف الرئيس كارديناس. انزعجت حينما لاحظت بأن المئات من الملصقات علقت على جميع جنبات هياكل الشاحنات حيث بدت زائدة. استمع توني بحماس للمكسيكيين غير أنه أبدى احتقارا لافتقارهم للنظام. كان يقول بازدراء: "الثورة. هؤلاء الأشخاص لا يعرفون حتى معنى الكلمة."

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على أبعد نقطة من مونتيري كانت الأعمال لا تزال جارية لتعبيد الطريق الأساسي الذي لم يكن بعد قابلا للاستعمال. كانت الحافلات أكثر بدائية من تلك التي توجد في شمال افريقيا. كنا أنا وتوني وماري كلير فرحين بالمنعرجات الخطيرة والمناظر الطبيعية الغريبة والمتوحشة غير أن جين التي كانت قد عاشت حياة آمنة نسبيا في نيويورك وسويسرا وجدت كل شيء مرعبا. ليومين متتاليين ونحن نمر عبر الجبال كانت تجلس القرفصاء خائفة يغشاها المرض. كانت تتمدد على الأرضية في خلفية الحافلة دون أن تعير بالا لملاحظات توني الساخرة: "اسمعي أيتها الصغيرة. كان حريا بك أن تبقي مع أمك." أو: "لقد ضقنا ذرعا بك وبهواجسك" أو "أنك تقرفيننا بقصص بنات الأغنياء." في الليلة التي وصلنا فيها إلى العاصمة مكسيكو قفزت جين خارج الحافلة وأمسكت ببعض الحمالين وقالت: "أنا سأذهب إلى فندق ريتز." حاولت ثنيها عن ذلك غير أن توني وماري كلير كانا يريان بأنه علينا تركها لحالها. انتهينا نحن الثلاثة بفندق رخيص هو كال السادس عشر من أيلول. في اليوم التالي ذهبنا إلى الريتز وفشلنا في العثور على اسم جين ضمن قائمة النزلاء. بعد مرور ثلاثة أيام وجدناها في فندق غارديولا ملقاة في السرير تسترجع قواها من حمى متوهجة أصابتها ليلة وصولها. قالت بحزم بأنها ما أن تستطيع المشي، فإنما ستذهب إلى المطار وتستقل طيارة إلى الولايات المتحدة. حكينا لها قصصا حماسية عن صراع الثيران التي كنا قد رأيناها وعن الموسيقى بتينامبا والطعام بلاس كازويلاس وقبل أن نغادر وعدنا بالعودة عند موعد الغداء في اليوم الموالي لرؤية إذا ما كانت متعافية بما يكفي للخروج لتناول الطعام معنا. حينما ذهبنا لرؤيتها أخبرونا عند المكتب بأنها كانت قد أخذت الطائرة المتوجهة إلى سان أنتونيو.

برضا مشبع بالمرارة قال توني: "ذلك أفضل." كان متوترا لأن كل مساعيه خابت خلال الرحلة. كنت أعلم بأنه مساعيه قد خابت ذلك أنه خلال الرحلة من نيويورك إلى مونتيري تحدثت إلى جين طويلا. كانت لديها أفكارها الخاصة حول الموضوع. كانت عذراء وتنوي البقاء كذلك إلى أن تتزوج.

لكن ماري التي انزعجت من هذه المغادرة المفاجئة قالت: "لو لم تكن دنيئا لما كانت قد رحلت."

"لقد قلت بأنه من الأفضل أنها رحلت، ألم أقل ذلك؟"

كان من الواضح بأن جين كانت نقطة محرجة بينهما لبعض الوقت.

"أنت مقرف،" كانت هذه طريقة ماري كلير لانهاء حديث ما.

كان آرون قد سلمني رسالة لسيلفستر ريفيولاتاس وهو يقول بأنني سأحب كلا من الشخص وموسيقاه. ذهبت إلى مكان يبعد عن الزوكالو حيث توجد المدرسة الموسيقية التي يلقي فيها دروسه. عن طريق الصدفة وصلت إلى هناك خلال إشرافه على حفل للإحتفاء بغارسيا لوركا. فورا شعرت بالطبيعة المشعة لصوت الأوركسترا. كانت موسيقى لا يضاهيها أي شيء آخر. بعد العرض قدمت له رسالتي، وتأثرت مرة أخرى، هذه المرة بشكل أكثر عمقا، بطبيعة الشخص ذاته. كان لديه حقا وجه نبيل، تتخلله من جهة آثار جرح سكين مرعب مع تعبير عن صفاء نادر. كان تعبيرا، لسوء الحظ، يحافظ عليه مقابل الحياة ذاتها. كان ريفيولاتاس مدمنا على الخمور على نحو لا أمل فيه وكان يقضي ستة أشهر من كل عام في الحضيض. في الوقت الذي التقيته كان قد بلغ تقريبا نهاية مشواره. توفي في السنة الموالية. لم تترك له شروط الحياة في حي شعبي ناء أي خيار آخر غير الموت. لم يسبق لي أبدا أن رأيت مثل هذا الفقر في أوربا أو شمال افريقيا. لم تكن هناك جدران بالمعنى الصحيح للكلمة بين شقة وأخرى. يتمدد العازل إلى ما يقارب ثمانية أقدام ثم يتوقف. كما كانت ضوضاء الأصوات، وأجهزة المذياع والأطفال جهنمية. كم كان قاسيا أن يجد ملحن نفسه مرغما على العيش في مكان كهذا.

بفضل ريفيولاتاس التقيت فرقة المغنين الأربعة: أيالا ومونكايو وكونتريراس وكاليندو، كلهم ملحنون في العشرينات من عمرهم. كم كان رائعا أن يكون المرء في حضرتهم. ذهبنا معا إلى العاصمة وقضينا هناك عدة أسابيع رائعة. بعد ذلك اقترحوا تقديم حفل مخصص لموسيقاي حيث يقومون هم بالعزف. تم طبع البرامج واستئجار القاعة الصغيرة في قصر الفنون الجميلة غير أنه لم يكن يحضر للتداريب سوى بعض الموسيقيين وبالتالي لم تجر أبدا أية استعدادات. لا داعي للإشارة بأن الحفل لم يتم أبدا.

قبل مدة قليلة من مغادرة نيويورك كنت قد ذهبت لزيارة ميغيل كوفاروبياس، الرسام المكسيكي الذي كانت رسوماته الكاريكاتورية في مجلة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فانيتي فير قد خلفت لدي انطباعا ممتازا منذ خمسة عشر عاما خلت حينما كنت صبيا. أخبرني كوفاروبياس بأنه كان قد ذهب مع دييغو ريفيرا إلى وكساكا الجنوبية، إلى خليج تيهوانتبيك. جعلتني أوصافه أرغب في زيارة المكان. هناك توجد أجمل النساء في كل المكسيك حيث يستحممن في الوادي عاريات كل صباح. كما أن هناك واحة ستذكرني بشمال افريقيا كان يعتبرها المنطقة الأكثر غرابة وروعة في الجزء الغربي من العالم. كلما أثرنا موضوع تهوانتبيك مع المكسيكيين نجد أنهم يوافقون كوفاروبياس الرأي، بالرغم من أن ولا واحد منهم قام بزيارة المكان. يبدو من الضروري زيارة المكان بأنفسنا.

تبدت الرحلة إلى تهوانتبيك شاقة لكنها لم تخل أبدا من المتعة. أولا أخذنا القطار إلى فيراكروز؛ هناك انتظرنا القطار الأسبوعي الذي يربط فيراكوز بالحدود الكواتيمالية. كنا قد قررنا قضاء ليلة في مكان يدعى جسوس كارانزا. حينما وصلنا في المساء، ترجلنا عن القطار ومشينا إلى الفندق، بناية تبدو بائسة يسيرها مجموعة من الصينيين. مادمنا أننا لم نتناول أي شيء غير الفواكه مند البارحة فقد وضعنا أمتعتنا في حجرة الطعام وطلبنا صحونا كبيرة من حساء ساخن. للحساء مذاق رائع تتخلله قطع من الزنجبيل ضمن القطع الصلبة التي تطفو في المرق. كان الضوء المنبعث من مصباح الغاز كافيا ليمكننا ما أن أفرغنا الصحون من سائلها تمييز جثث الحشرات التي تستلقي في جوفها. لم يكن هذا مفاجئا ذلك أن الديدان تعتبر أشياء تؤكل في المكسيك. ومع ذلك فقد كان هذا كافيا ليسد شهيتنا ويدفعنا إلى الحركة. ترجلنا عن الطاولة وطلبنا رؤية الغرف في الأعلى. تمتد الشرفة خارج الطابق الثاني كما أن شباكها عبارة عن قضيب واحد من الأسلاك الشائكة. يبدو أن الغرف لا تحظى بالتنظيف إلا مرة واحدة كل سنة. تتكوم تحت كل سرير كومة ضخمة من القاذورات تم دفعها هناك بحيث لن تبدو عند أول نظرة. بسرعة نزلنا السلالم إلى الأسفل وأدينا ثمن الحساء. أخذنا حقائبنا وانطلقنا جريا نحو المحطة. لم نكن بحاجة إلى الاسراع ذلك أن القطار لن يتحرك قبل ساعة ونصف ساعة أخرى. ركبنا عربة مختلفة من الدرجة الثالثة، أكلنا بعض فواكه الأفوكا والموز واشترينا قارورة من مشروب روم مكسيكي يساوي بيسو ونصف وأخذنا نهيء أنفسنا للراحة والسعادة ونحن نشق طريقنا عبر الغابة خلال الليل.

تبدت هوانتابيك تجربة عصية على النسيان. كل ما كان كوفاروبياس قد قاله بشأنها كان صحيحا (باستثناء بأنه لم يخبرنا بأنه يوجد حراس من النساء خلال حصة الاستحمام المبكرة في الوادي يلقون الحجارة على كل رجل أو صبي يقترب لمسافة ألف قدم.) غير أن وصفه لم يهيئني للجو الخاص الذي يشيع في المكان. كنت أترقب منظرا طبيعيا يداني إلى حد ما المناظر الطبيعية الإفريقية التي تخترقها بلدات ذات منظر إسباني. غير أن الريف لم يذكرني بشمال افريقيا كما أن القرى رغم شبابيكها الأندلسية، لم تجعلني أذكر أبدا اسبانيا. كانت هناك بالفعل بعض الواحات لأشجار جوز الهند تعلو أشجار الأفوكا والموز. كما أن ريحا مشبعة بالرطوبة تهب دون توقف عبر الريف الذي لم يكن فعلا صحراء ولكنه خلاء يشكل حاجزا من الأشجار الشوكية العارية وأشجار الصبار التي يستحيل عبورها. بالنسبة لي كان المنظر أكثر مناعة من الصحراء كما أن النباتات تبدو معدنية غير أن الأشكال التي اتخذتها كانت أكثر ايحاء بالعدوانية من أي تشكل يمكن للصخور أن تتخذه.

نتناول وجباتنا في محل في السوق حيث يسحب الطباخ الدجاج من رؤوسه ثم يقوم بدق عنقه. كانت النساء في السوق يتوفرن على كل المال الموجود في البلدة وكن يقمن بجميع الأعمال ما عدا جمع الفواكه والعناية بالأطفال. في الغالب كنا نلقي نظرة إلى الفناء ونبصر رجلا يجلس بحذاء أرجوحة يهدهدها بلطف وبداخل الأرجوحة يوجد رضيع.

قبل مغادرة نيويورك كنت قد اشتريت آلة أكورديون مستعملة بمبلغ مائة وخمسة وعشرين دولارا. كانت الآلة مطعمة بأحجار الراين والياقوت والزمرد: شيء عجيب ذو صوت رخم من صنع ايطالي. خلال المساءات حينما كنا نذهب إلى الحديقة كنت أحمله معي؛ حققت شعبية كبيرة وسط أهل البلدة. بعد حين صرت أدعى السيد بابليتو.

حينما نسير تحت ضوء القمر كان هنالك حوالي خمسة عشر أو عشرين من الزباتيين إلى جوارنا.

كان فاتح أيار على الأبواب. عرضنا عليهم المساعدة للإعداد للاستعراض. اشتريت كل القماش المصنوع من القطن الأحمر في البلدة لصنع الاعلام. كانت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشعارات التي يرغبون فيما هي *من أجل مجتمع دون طبقات*، *تحية لشهداء شيكاغو* (يشير الشعار الأخير إلى أعمال الشغب التي اندلعت في تسعينيات القرن التاسع عشر والتي لم يسبق لي أبدا أن سمعت عنها قبل وصولي إلى تيهوانتيك.) استأجرت منزلا وقضى عشرة منا عدة أيام في قطع وخياطة وصباغة الأعلام. أضفت شعاري الخاص: "الموت لتروتسكي" إضافة إلى شعار آخر هو الشيوعية هي دين القرن العشرين. بدا لي الشعار الأخير تجسيدا لميول لازال سائدا في المنطقة وهو وضع صور فوتوغرافية لماركس ولينين في الزوايا إلى جانب صور السيد المسيح والقديسة مريم. لاحظت تكرار ذلك مرات عديدة وتمكنت من الحصول على تفسير بسيط: ماركس ولينين للرجال أما الآخرون فهم للنساء. خلال الأيام القليلة الأخيرة من شهر نيسان كانت الكنائس مليئة بالنساء. على السلالم يضعون روافد المذبح وأقواسا من الفواكه والورود وأغصان الأشجار. سينظم في كل كنيسة حفل يشمل الرقص والألعاب النارية. حينما حل اليوم، ضم الاستعراض ثمانين في المائة من السكان. سرنا لعدة أميال على طول طرقات مغبرة من قرية إلى قرية. كان بعض كبار السن يحملون رُضعا ويلوحون لنا من أبوابهم. تقريبا لايوجد أحد لمتابعة الاستعراض في القرى المجاورة لذا فقد عدنا أدراجنا إلى السوق المركزي حيث يوجد بعض البرجوازيين. هكذا يمكن رفع القبضات إلى الأعلى ليس للتحية ولكن في تحد لبعض الأشخاص بشكل خاص وهم يتابعون التظاهرة من محلاتهم أو من منازلهم.

بعد فاتح أيار وصلت بعثة من أهل الريف إلى فندق الجوهرة. تتكون المجموعة من تسعة رجال يجللهم الصمت والوقار كما يمكن فقط للفلاح المكسيكي أن يكون- كلهم ما عدا المتحدث الذي همس وهو يمسك قبعته بين يديه بأن أهل البلدة يرون بأنه تم إرسالنا من العاصمة لتلقينهم مبادئ الشيوعية. بطبيعة الحال كان جميع الأهالي يرغبون في تعلم مبادئ الشيوعية كما أنهم كانوا يتساءلون إذا ما كانت مدرسة ستفتح أبوابها في بلدهم.

بدا لي هذا سيئا للغاية. ضحك توني واعتبر الأمر طريفا أما ماري كلير فقد غمرها شعور بالأسى حيال هؤلاء الرجال الصغار. أصبت بالصدمة حينما وجدت نفسي محشورا في تصنيف خاطئ، مما يعني أنه علي تحمل المسؤولية. رفعت

منكبي وابتسمت. لا يمكنني أن أقوم بأي شيء كهذا. من الضروري الحصول على الإذن بالتدريس وهو ما لا أتوفر عليه. سأل المتحدث: "إذن فلماذا أرسلوك؟"

أجبت: "لم نُرسَل من العاصمة." ومع أنه سلم بالأمر، فقد أصر ألا يغادر خاوي الوفاض. "أخبرني فقط شيئا واحدا. ما معنى الشيوعية؟"

ونظرا لأنني عجزت عن إشفاء غليله، فقد أخرجت بعض الكتب والمنشورات باللغة الاسبانية، بما في ذلك كتابا يحمل عنوان "أبجدية الشيوعية" غير أنه لم يبد اهتماما. بعد حين أدركت بأن لا واحد من أهل القرية يعرف القراءة وبأنه الوحيد الذي يتكلم الاسبانية. فسر لهم ما قلته، سلموا علينا ثم خرجوا نحو الشارع.

لم يكن يفصلنا عن الحدود الكواتيمالية سوى يوم واحد ونصف بواسطة القطار وهكذا خطر ببالنا أن نغتنم هذه الفرصة ونعرج إلى الداخل قبل أن ننعطف شمالا مرة أخرى. ترامى القرب مجرد وهم ذلك أننا حينما وصلنا إلى الحدود بسوشيات تعرضت للطرد من طرف السلطات الكواتيمالية لأنني حينما كتبت كلمة لا شيء مقابل الدين في استمارة المعلومات الشخصية انتابتهم الشكوك بشأني. هكذا طلبوا مني الحصول على توصيات من ستة رجال أعمال في تاباشولا. عدنا إلى تلك البلدة التي هجرها الله حيث سبق لنا أن قضينا ليلة معا نحن الثلاثة في مزاج سيئ وقضينا يومين دون جدوى ونحن نسعى للحصول ولو على واحدة من تلك التوصيات وبعد أن تأكدنا بأن ذلك ضرب من المستحيل (ذلك أن أغلب الشخصيات البارزة هناك كانت ألمانية وبالتالي لم يأبهوا لمساعدتنا أو كسب ودنا.) استشرنا المكتب المحلي لنقابات تجار المكسيك. في اليوم الثالث أرسلوا رجلا رافقنا على طول سوشيتات حيث انتظرنا وتم تقديمنا خارج أوقات العمل إلى الموظف الذي لم يكتف بملأ استمارة جديدة لي فحسب، ولكنه جعل السلطات الكواتيمالية تختمها واستاجر قاربا لنقلنا عبر ريو سوشيات على الجانب الكواتيمالي. هكذا قمنا بزيارة سريعة لمدة ثلاثة أسابيع للجمهورية الصغيرة التي ازدانت شوارعها وطرقاتها بكل مظاهر الزينة قبل العودة إلى عاصمة المكسيك.

هذه المرة قررنا الإقامة في البلد. لم يكن توني قد أنجز أي عمل منذ مغادرته لباريس وكان يستشعر الإرهاصات الأولى لولادة مشاريع جديدة. أخذنا سكنا مع عائلة أمريكية كانت تقيم ولسنوات في قصر مالينش كان قد شيده هرنان كورتيز،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

محتل المكسيك، لحبيبته الأزتيكية. كان القصر عبارة عن بناية قديمة مترامية الأطراف حيث توجد غرف كثيرة ويقع حوالي منتصف الطريق بين تلالنيبنتلا وأتزكبولتزالكو. حينما حل الصيف توصلت ببرقية من لينوكولن كورشتاين يخبرني فيها بأن *باخرة الجندي الأمريكي الشمالي* سيتم عرضها بفيلاديلفيا وعلي العودة بأسرع وقت ممكن إلى نيويورك. انتابتني الهواجس: فمن جهة كنت أرغب في الاستماع إلى أوركسترا فيلاديلفيا وهي تعزف موسيقاي وبالتالي علي الذهاب غير أن روعة الفضاء الريفي حيث كنا نقيم وما يحيط به من مناظر طبيعية كئيبة كانت قد سلبتني قدرة المقاومة. لطالما توقعت صيفا طويلا أنصت خلاله للديكة وهي تصيح عبر أرجاء قصر مالينش، والآن بدأت الفرصة تتلاشى.

غرق توني في موجة من العمل الابداعي حيث راح يعمل بوتيرة رائعة. بالكاد يبدو واعيا بوجودي أنا وماري كلير. كانت اللوحات بغاية الجمال؛ حمل المجموعة الكاملة إلى نيويورك لا حقا ذلك الصيف. كانت صورا لأشجار استوائية ضخمة نصف ميتة تعيش بين غصونها قبائل كاملة من النساء الهندية العارية وقطعان كبيرة من الحيوانات. أحببتها أكثر قياسا بسلسلة لوحاته المغربية التي ظلت إلى ذلك الحين أفضل صور توني لدي.

تركته في مرسمه مع ماري كلير ونزلت إلى فيراكروز حتى أستقل سفينة إلى نيويورك. على متن السفينة تعرفت إلى امرأة من نيويورك كانت عضوة في الحزب الشيوعي. ونحن نبحر باتجاه مرفأ هافانا أخبرتها عن الملصقات المعادية لتروتسكي التي كانت بحوزتي والتي لا زلت أحتفظ بالمئات منها في واحدة من حقائبي. خطرت ببالها فكرة أن تأخذ بعضا منها إلى هافانا في تحد سافر لباتيستا. أثارت الموضوع في البدء بحماس ثم صمتت لهنيهة وكان بإمكاني أن أرى بأن شيئا ما يقض مضجعها. بعد حين أماطت اللثام عن كل شيء. زفرت: "هذا عمل فردي. العمل الفردي ممنوع."

أخبرتها: "حسنا. بطبيعة الحال، أنت تعلمين ما هو الأفضل." لم نثر الموضوع مرة أخرى إلى أن حان موعد رسو السفينة. حينها وقفت بجانبي وهمست: "لقد قررت أن أقوم بذلك. هل يمكن الحصول على بعض الملصقات؟" ذهبت إلى غرفتي وعدت محملا بمجموعة منها. حينما التقيت بها لاحقا ذلك اليوم على متن السفينة

بدت سعيدة بعملها البطولي. قالت بفخر: "كل الملصقات توجد على جدران المباني العامة. ولا تظن أن الأمر كان سهلا."

حينما وصلت إلى نيويورك شرعت مباشرة في إعداد *باخرة الجندي الأمريكي الشمالي* التي يجب أن تنجز خلال أسابيع قليلة. حينها دعا كرشتاين هنري برانت لمساعدتي. كان البالي عبارة عن متتالية من المشاهد التي تتعاقب ما بين ظهر السفينة والمرافئ التي ترسو بها السفينة. تكمن فكرتي في أن يتولى هنري انجاز مشاهد السفينة (التي تضم البداية والنهاية وبالتالي يستدعي ذلك مقاطع صوتية كاملة) بينما أتولى أنا المرافئ التي تتوقف عندها الباخرة. اتبعنا هذه الطريقة واستطعنا أن ننجز الموسيقى في الوقت المحدد حيث يديرها ألكسندر سمولينس بين المحطة التزويدية لفرجيل تومسون وعمل إليوت كارتر.

كانت ماريان تشايز وهاري دنهام يثيران بين الفينة والأخرى موضوع الزواج. خلال هذا الوقت كانا يقضيان كل وقتهم معا إلى أن ذهب هاري إلى اسبانيا لتصوير الحرب. تولى لا توش إلى حد ما ماريان بينما كانت تنتظر عودة دنهام. هكذا فقد كان هو الذي رافقها في رحلتها على متن القطار إلى فيلادفيا. كانت معي أمي وجين آور. لا بد أننا طلبنا مشروبات ونحن على متن القطار ذلك أنني أذكر أننا ضحكنا كثيرا خلال الرحلة. خلال هذه الفترة تحديدا قررت أمي بأن جين مجنونة.

التقيت جين في مناسبة أو مناسبتين إضافيتين خلال ذلك الصيف ولَشد ما رغبت في أن ترافقنا أنا وآل توني إلى كلينورة حيث أقمنا لمدة شهر في واحد من منازل العم تشارلز الموجودة بالغابة. لم يزالا منزعجان بسبب سوء تصرفها في المكسيك وهكذا بدلا من جين ذهبت معنا ماريان. ثمة باب يصل بين حجرتها وحجرتي. ذات صباح باكر فتحت ماري كلير الغرفة دون استئذان ووجدتنا معا بالرغم من أنه لم تكن تجمعني أبدا أية علاقة بماري كلير. تسبب هذا في حالة من الهستيريا وسلسلة من العراكات بينها وبين ماري دامت عدة أيام متتالية. حينما عدنا إلى نيويورك أغلقت على نفسي في الدور العلوي لشقة إدوين دنبي في شارع الواحد والعشرين. كنت أكتب أوبرا مستوحاة من نص سلمني إياه الشاعر تشارلز هنري فورد، مدير التحرير السابق لمجلة البلوز. كان موضوعها ثورة العبيد الموؤودة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تحت قيادة دنمارك فيسي الذي فاز في لعبة اليانصيب واشترى حريته. كان فورد مرتابا حينما أخبرته بأن قاعة خوانيتا للموسيقى ستشهد عرض الفصل الأول في حفل سيقدم تحت رعاية مجلة الجماهير الجديدة لجمع المال لعضو يعاني من المرض. باندهاش أخبرني: "انه فخ ستاليني." ومع ذلك فقد سمح بالعرض وكان رائعا.

كانت لدى فيرنون دوك فكرة تدشين سلسلة من الحفلات ستدعى الحفلات العليا السفلى يكون الهدف منها إثارة اهتمام الأغنياء بالموسيقى العصرية. للقيام بذلك اقترح تقديم موسيقى الصالونات الحديثة إلى جانب موسيقى الجاز لأنصار ذلك اللون الموسيقي المشهورين. استجابة لطلبه كتبت النص لمسودة كان قد طبعها. تبدو كنص على شاكلة المواد التي تنشرها مجلة فوغ. إنها النبرة التي يعتقد أنها الأوفرحظا للنجاح. قدمت الحفلات في قاعة الرقص على سطح شارع ريجيس؛ ذلك أن سيرجي أوبولنكسي كان صديقا حميما لفيرنون. في واحدة من الحفلات التي حضرتها عزفت على الطبل في قطعة من ثلاث حركات التي كنت قد ألفتها في المكسيك تدعى منتصف النهار. بعدها تابع العزف كل من ديوك إلنغتون وفرقته. ضم البرنامج العديد من الأمسيات غير أنه خلال هذا الوقت كنت قد غادرت البلدة.

لكن قبل ذلك، كنت قد استأجرت مكانين فيما بدا لي مواقع مثالية: واحد بساحة باتري في زاوية شارع واشنطون، في بناية من الطوب الأحمر العتيقة والمتآكلة. في الطابق الأول يوجد مقهى عربي ذلك أنه خلال ذلك الوقت كان شارع واشنطن حتى منطقة الريكتور مكانا يحمل حضورا شرق أوسطيا. من نافذتي في الطابق الثالث كنت أنظر إلى منتزه ساحة الباتري والأكواريوم. كلما رغبت في كأس قهوة تركية وحلويات معسلة أفتح بابي وأصفق مرتين. بعد ذلك يظهر نادل من المقهى الذي يوجد في الأسفل. ملأت الحجرة ذات السقف المنحرف بصور حجرية ملونة وكنت أحتفظ بآلة الأكورديون هناك. كانت غرفة مناسبة للاقامة حيث كنت أجلس إلى المائدة أنقل الموسيقى. لم أنم هنا قط أو ألمس السرير مخافة وجود البق.

يقع المكان الآخر برقم اثنين من شارع ووتر في بروكلين على الوادي الشرقي، تقريبا أسفل جسر بروكلين. هناك استأجرت غرفتين ووضعت جهاز

بيانو. بعد حين أخذت أستعمل المكان كمكتب عام. كانت التدفئة بواسطة البخار بينما كانت الغرفة في الشارع الواحد والعشرين تخلو من ذلك. كان هناك مكان للقيام بالتداريب العامة للاوبرا. كان أعضاء فرقة خوانيتا يشتكون من بعد المكان عن هارليم و لم يبد أنهم استوعبوا أسباب ميولي نحو هذا الحي. حينما جاء تشالز هنري فورد للاستماع وتوجه إلى النافدة رأى زورق السحب يتمايل في المرفأ عبر الشارع وطيور النورس تحلق حولها، قال بامتعاض: "يا لك من رومانسي بول."

كنت أنا وجين ننسج قصصا خيالية حول فكرة زواجنا وكيف سيكون الأمر ممتعا وصاعقا للكل، خصوصا لأسرة كل واحد منا. من الخيال إلى الواقع غالبا ما تضيق المسافة أكثر مما يتصور المرء؛ فجأة أخذنا نناقش الأمر بجدية. ستكون جين في الواحد والعشرين من عمرها بحلول عيد ميلاد واشنطن؛ كما أن مراسيم زواجنا جرت في اليوم السابق في كنيسة هولندية بروتستانتية صغيرة خضعت للإصلاح في العشرينيات. لم يكن أي شخص حاضرا غير أبواي وأمها و لم يبد أن أي أحد قد تفاجأ جراء ذلك مما جعل الأمور تبدو أكثر بساطة، إن لم تكن أقل دراماتيكية. قبل أن يكون لدينا الوقت للتفكير في الأمر وجدنا أنفسنا في طريقنا إلى باناما على متن باخرة تسمى كانو مارو.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

11

بعد عشرة أيام في باناما شاهدت جين خلالها من المناظر ما سهل لها لا حقا التوسل بالمكان كفضاء لروايتها *سيدتان حازمتان*، توجهنا إلى سان جوسي دوكستاريكا كمحطة أولى. للوصول إلى هناك استقللنا مركبة صغيرة في بلبوا كانت القارب الخاص بوليام، القيصر السابق لألمانيا، وكانت تشع بياضا. من بونتاريناس أخذنا القطار صعودا إلى العاصمة.

تعد سان جوسي واحدة من المدن حيث تتواثر الزلازل لدرجة تلاشى معها اهتمام الساكنة إلى حد ما بمفهوم العمارة. ذات ليلة اهتزت الأرض هزة عنيفة فغادرنا أسرتنا ونحن نهرول حول الغرفة بجنون حتى قبل أن نكون قد استيقظنا تماما. ومع ذلك فقد تراءت هذه الضاحية مصدر راحة وسكينة حيث تغيب كلية كل وسائل النقل في الشوارع.

جمعتنا صداقة بأشخاص يمتلكون ضيعة قطيع في مقاطعة كوانكاستي وهكذا رافقناهم إلى هناك. استغرقت الرحلة يومين. كان علينا أن نعود إلى بونتاريناس ونأخذ عبارة تمخر عباب البحيرات الضحلة وتعود في الأخير عبر واد ضيق يتميز بكثرة انعطافاته. ثمة أشجار ونباتات مثيرة تظللنا ونحن نكاد نلامس اليابسة، أما التماسيح فقد كانت تستلقي في الشمس على ضفاف النهر على مسافة لا تفوق خمسين قدما و لم تبالِ أبدا حتى بإغلاق أفواهها. كنا نقضي معظم ساعات النهار على ظهر الأحصنة في الضيعة وفي الليالي تهب ريح ساخنة هادئة تحمل أصوات عدد لا يحصى من الحشرات. على الساعة الخامسة والنصف كل صباح كانت فتاة تحمل لنا صحنا طازجا من الحليب. ومع أننا لم نكن نرغب في الاستيقاظ في هذه الساعة فقد اضطررنا لاتباع النظام كما هو. مع التاسعة صباحا تكون الخادم في انتظارنا عند البوابة. بعد حين يظهر مضيفنا ثم نرافقه ونمتطي أحصنتنا. كان يقوم كل يوم بجولة لاستقصاء جزء مختلف من أملاكه الواسعة. اشترينا ببغاء في طريق

العودة إلى بونتيراس ونحن نتصور ببلاهة بأن السلسلة حول ساقه ستسمح بتركه يتجول في أي مكان إلى حد ما. سرعان ما تبدى الأمر خاطئا حيث أحدث فوضى ونحن لا نزال في العبارة و لم يهدأ إلى أن كسر القفص الثالث وهرب منه.

قضينا شهرا بكوستاريكا ثم أبحرنا من بويرتو ليمون صعودا إلى بويرتو باريوس. لم يسبق لي أن زرت تشيتشيكاشينانغو في رحلتي الأولى إلى غواتيمالا السنة المنفرطة وكانت لدي رغبة قوية لزيارتها إضافة إلى الرغبة في الحديث مع الأب روسباخ، رجل الدين الذي يشجع السكان في الإستمرار في مزاولة تقديم القرابين في أفران السلالم الكاتدرائية، ذلك أن تلك الأفران كانت هناك قبل أن تؤسس الكنيسة وكان يسمح لهم أيضا بدفن مسيح خشبي من ستة أقدام في الأرض وراء المذبح ونبشه مرة أخرى صبيحة عيد الفصح. هكذا بما أن الأسبوع المقدس قريب فقد توجهنا إلى تشيتشيكاشينانغو وتحدثت إلى الأب روسباخ بخصوص طقوس كتاب الشعب التي يعرفها عن كثب لكنه لم يبد استعدادا لشرحها لنا. قضينا أسبوعين في حانة مايان هناك، ثم ذهبنا إلى أنتيغوا حيث سبق لنا أن تركنا طائر الببغاء على شجرة الليمون بضيعة السيدة اسبينوزا (لم نتمكن أبدا من حمله إلى الأسفل.) خلال العشيات كنا نأخذ الأحصنة ونقوم بجولات، عادة عبر الأراضي المزروعة بنبات القهوة وهناك تمكننا من جمع مجموعة جيدة من الغطاءات القديمة (تلك الملابس التي تصلح لجميع الأغراض: غطاء للرأس بالنسبة للنساء، أرجوحات للأطفال، أكياس ومناديل) من المستحيل الحصول عليها في أي سوق أو دكان، ولكن يمكن ببساطة شراؤها من على رؤوس النساء اللواتي كن يرتدينها وهن يسرن على طول الطريق.

ملأ الألمان المكان؛ كان عليهم أن ينزلوا إلى بويرتو باريوس وأن يستقلوا باخرة ألمانية للتصويت بنعم على الاستفتاء الذي عرضه عليهم هتلر. لكن ونظرا لكونهم من النازيين المتحمسين فقد اعتبروا الرحلة المجهدة شرفا أكثر منها محنة. ركبنا الباخرة من مدينة كواتيمالا صحبة أكثر من مائتين منهم، كل واحد منهم يحمل صليبا معقوفا على ياقته. ستأخذنا الباخرة التي تستعمل كمحطة للاقتراع إلى أوربا. في ذلك الوقت كان لشركة نورديوتشر لويد سفينتين تقومان بانتظام برحلة بين هامبورغ وبويرتو باريوس، سفينة الكاريبيا وسفينة الكورديليرا. أخذنا الكاريبيا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في رحلة العودة والكورديليرا في الذهاب. كلما توقفت الباخرة في الموانئ الكولمبية والفينـــزويلية إلا وتزايد عدد الألمان المجانين. حينما رست الباخرة بمرفأ اســـبانيا، اشتريت العديد من شرائط كاليبسو وشغلناها بهدوء على ظهر السفينة حيث كان الفونغراف بين كراسينا. لم يستطع الألمان تحمل تلك الموسيقى حتى وهي تعــزف بشكل خافت. توجهوا نحونا وألقوا محاضرة جدية حول الانتشار السيء للأشكال الرديئة من الموسيقى. بعد ذلك لم نعد نشغل الفونغراف سوى في قُمرتنا. كان آخر مرفأ أمريكي نتوقف عنده هو باربادوس؛ بعد ذلك انطلقت الباخرة مباشـــرة إلى لوهافر. في وسط أمريكا الوسطى مرت الحياة بسلاسة: فأنا وجين لم نتجادل أبدا؛ كما أن الفتور لم يصب علاقتنا أبدا. في باريس كان لديها أصدقاء وكنت مرتابــا بشأنهم. كان من المؤلم بالنسبة لي أن أعود إلى غرفة الفندق في وقت العشـــاء وأن أجد بأنها لم تأت بعد. وفي الأخير أتناول العشاء بمفردي وأعود مسرعا لأجـــد أن الغرفة لا زالت فارغة كما كانت. لم تكن جين الشخص الذي يعـــدل ســـلوكه نتيجة لاقتراحاتي.

أصدرت الجبهة الشعبية جريدة جديدة تلك السنة في باريس تحت اســـم *هـــذا المساء*، وكان هنري كارتي بروسون يشتغل فيها. للمزيد من الرواج طلبت منه إدارة الجريدة تصوير الآلاف من الأطفال الصغار في أحياء الطبقة العاملة بالمدينة. كانـــت الصور تظهر يوميا وكلما ظهرت صورة لصبـــي كان أبـــواه يتوجهـــان إلى مقـــر الجريدة ويطالبان بالجائزة النقدية. كنت قد تعرفت إلى كارتي بروســـون ســـنتين أو ثلاث سنوات قبل ذلك، ذلك أنني كنت قد التقيت به في منـــزل جورج انتهايل في نيويورك. كان يعرض صوره الفوتغرافية أمام جورج ولم يسبق لي أبدا أن شـــاهدت مثيلات لها. وهو يبحث عن مواضيع في هارليم أقام مع فتاة سوداء، وقد دأبنا علـــى زيارته وتناول العشاء معا، أحيانا بمطعم فادر ديفاين وأحيانا أخرى بمطاعم صـــغيرة ممتازة هو وحده يعرف بشأنها. الآن وأنا في باريس ذهبت لزيارته. تناولنـــا الغـــداء وأخذني للقاء زوجته الأندونسية. كان ذلك قبل ميونيخ ولم تكن له حتى ذلك الحين آمال بشأن المستقبل. حملت جدران المدينة شعارات معادية لليهود والأمريكيين.

اتصلت بجيرتورد شتاين وتحدثت معها لهنيهة. كانت تعد حقائبها للذهاب إلى بليغنين في اليوم الموالي ولم يكن لديها متسع من الوقت للقائنا. كان سترافينســـكي

يدير برنامجا خاصا بموسيقاه حيث تبدأ الأمسية وتنتهي بالعرض الأول من كونشيرتو. كنت قد اشتريت تذاكر الحفل؛ في اليوم الموعود أخبرتني جين بأننا سنتناول العشاء مع بعض الأصدقاء الذين سيحضرون الحفل أيضا وسيقلوننا بسيارتهم إلى مكان الحفل. تبدى أنهم دهام فاوتس وبراون جيسين. كان فاوتس قد دعاه للتو من التيبيت. لم أستطع أن أستدرجه لمعرفة سبب وجوده هناك، باستثناء أنه كان يمارس الصيد وبأنه قد حمل من هناك بعض الأقواس الضخمة. تحوي الرماح رؤوسا من القطن يتم مقعها في سائل سريع الالتهاب قبل الاستعمال وبعد ذلك تضرم فيها النار. ليبرهن عن بسالته في استعمال القوس الصعب، أخذ يطلق السهام عبر نافدة الفندق خلال حركة مرور المساء بممر الاليزي. لحسن الحظ لم تكن هناك تداعيات.

نشبت بيني وبين جين خلافات بشأن قدومها كل صباح على الساعة الثالثة صباحا. غير أن النتيجة كانت أنها انزعجت مني بدل أن تعدل عن تصرفاتها (بعد مرور عدة سنوات على ذلك تذكرت بأن هنري ميلر كان أخذ الأشخاص الذين كانت أحيانا تقابلهم خلال ذلك الوقت. آنذاك كنت أنظر إلى المسألة على أنها مسلية.) بعد حادث كان أكثر توترا من المعتاد، انطلقتُ إلى سان تروبيز بمفردي. لكن ما أن وصلت إلى هناك حتى شعرت تماما بالبؤس. أرسلت برقية إلى جين وألححت عليها لكي تلحق بي في كان.

بعد حين استأجرت منزلا صغيرا في ايزفيلاج تحديدا فوق غراند كورنيش. كانت جين تمكث في المطبخ تراقب امرأة بدوية وهي تعد وتطبخ الطعام. لأول مرة داهمتها الفكرة بأنها هي الأخرى يمكنها تعلم فنون الطبخ. كانت هذه بداية ممتازة لعمل طويل وناجح كطباخة. بالنسبة لي مثل ذلك الفرق بين الصحة وسوء الحال.

كان هناك شخصان في إيز كنا قد تعرفنا عليهما سابقا: إلزي هوستون، المغني الشعبي البرازيلي، وس. ل. م. بارلو، الملحن. كان بارلو سيد القرية والمالك الرئيسي لأهم الممتلكات. حول أحد منازله الصغيرة إلى ورشة تقضي فيها إلزي وقتها وهي تسرح شعرها الأسود الهندي الطويل وتطبخ الأطباق البرازيلية. لسوء الحظ، عند بداية مقامنا في ايز، اقترفت أرنستا، زوجة بارلو، خطأ دعوتي للعشاء دون جين. مما جعل صداقتنا تنتهي على نحو مؤلم. غير أننا كنا نقابل إلزي كثيرا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وازداد حبنا لها وما دامت هي تروتسكية متشددة، فقد ابتعدنا عن إثارة المواضيع السياسية.

قبل ذلك بسنوات قليلة كنت قد وضعت الموسيقى لأغنية من سطرين لبنيامين بيري، الشاعر السوريالي الفرنسي. كانت الأغنية كالتالي:

إذا ما صادفت امرأة في مكان ما

تشير إلى نابليون الثالث.

امنحها سيجارا

وخذها في رحلة إلى اسبانيا.

ذات يوم عزفت وغنيت الأغنية لإلزي. نظرت إلي بتركيز بعد أن أنهيت الغناء. "و لكن الكلمات من تأليف زوجي والمرأة هي أنا." بعد ذلك أخبرتني كيف أنه منذ فترة طويلة قبل زواجها ببيري في بداية تعارفهم تحدثت إليه ذات يوم عن نابليون الثالث. بعد ذلك أعطاها سيجارا أعجبها كثيرا بحيث حينما اقترح أن يذهبا في رحلة إلى اسبانيا وافقت فورا. انفصلا الآن وأظن أنها تتحسر على ذلك. تعزي نفسها برجل أعمال فرنسي تحس نحوه بالأسف.

مرة أخرى تلاشت إمكانية استراحة طويلة الأمد في مكان هادئ. وصلت برقية من هاري دنهام يخبرني فيها بأن أورسون ويلز يحتاجني في نيويورك. لقد قرر انتاج المهزلة القديمة لوليام جيليت في المسرح الزئبقي. كان هاري قد شرع في تصوير المشاهد السينمائية المرافقة وكانوا بحاجة إلي فورا لوضع الموسيقى.

خلال سفرنا كانت الأمتعة كثيرة تضم صنايق ضخمة للملابس وثمانية عشر حقيبة واسعة. كان من الصعب التحرك في ظل كل هذه الأمتعة، ومع ذلك فقد كان الأمر يبدو بسيطا قياسا بالحاضر.

أخذنا باخرة ألمانية أخرى، الأوربية، للوصول إلى نيويورك. ما أن وصلنا حتى ذهبنا إلى فندق شيلسي. قدم لي فريدريك كيسلر، المهندس النمساوي الذي كان قد وضع تصميم المنزل الفضاء الذي سبق لي أن قمت بزيارته في برلين سنة 1931 شقته الصغيرة التي توجد في الزقاق السادس والخمسين من الشارع السابع وهكذا كنت أقصد المكان كل يوم وأشتغل على النص الهزلي لجيليت. حينما أنهيت الموسيقى أخذتها إلى أورسون غير أنه كان قد قرر أن يقدم *موت دانتون* أولا

(قدمت مسرحية *الكثير من جونسون* في عرضها التجريبي في مسرح ستوني كريك بكونيكتيكوت، في الصيف الموالي. كان جوزيف كوتن مذهلا، غير أن الانتاج في غياب المشاهد المصورة لهاري الممتعة كان باهتا. ألفت مجموعة صغيرة من الأغاني ولقبتها موسيقى المهزلة.)

وصلنا إلى عتبة الإفلاس ذلك أننا صرفنا كل ما تبقى لدينا من مال زواجنا. بعد شهر العسل في أمريكا الوسطى حيث أقمنا بمنزل إيز وتخلينا عن كل شيء للعودة إلى أمريكا مقابل وعود لم تتحقق أبدا شعرت بغضب شديد. شعرت بأنه كان علي الحصول على تعويض مقابل عملي، أي ما قيمته أكثر من المائة دولار التي صرفتها. لكن دون جدوى. وجدت مكانا رخيصا للإقامة، في منزل قديم غريب في زاوية من الشارع السابع والشارع الثامن عشر تديره سيدة عجوز تدعى سوندر. كانت تقسم وقتها بين بناء المدفآت ورفوف الكتب لقاطنيها ومعاقرة الخمر مع أشخاص غرباء من الحي. كانت السيدة، كما كانت تُعرف لدى الكل، ما يمكن تسميته بمدمنة على الكحول. كانت تبتسم وبين الفينة والأخرى تستدين دولارا أو دولارين إذا لم تتوصل بواجب الإيجار في الوقت المخصص لذلك. حينما اندلع حريق في المدفئة والتهم الأرضية وحضر رجال الإطفاء كانت سوندر فقط تضحك وشرعت فورا في إعادة البناء بمفردها. تواصل العمل لفترة طويلة وقد صارت الرياح القاسية التي تهب في تلك الجهة من الغرفة غير محتملة بحيث قبلنا العرض السخي لصديق لقضاء الشهور الأكثر برودة معه في شقته.

على نحو ما التقيت السيدة ماكفار لاين، مديرة المشروع الموسيقي الفيدرالي. اعتبرت أن خلق وضع للمؤلفين الموسيقيين ضمن برامج المشروع سيكون أمرا رائعا، وذلك بمنحهم واجبات محددة لتأليف موسيقى يمكن استعمالها من طرف الفرق الآلاتية والصوتية. إذا ما استطاعت أن تجعل للمؤلفين الموسيقيين على لائحة المأجورين وضعا محددا، فسأكون، كما طمأنتني، على رأس الموقعين. غير أن المشكل يكمن في أنه كي يتم اختيار المرء للمشروع فيجب أن يكون في وضع عطالة. لم تكن هذه هي الحال حينما عملت في مشروع المسرح الفيدرالي.

حاولت إيجاد طريقة ما للحصول على الإعالة. نصحني العديد من الأشخاص بالتوجه إلى أقرب وكالة للاعالة. غير أنه كانت لدي فكرة أفضل. ذهبت إلى مقر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحزب الشيوعي وأخبرتهم عن مشكلتي وطلبت منهم المساعدة. تحدث إلي الشخص المسؤول بصراحة وواقعية. علي أولا أن أثبت أنني أقيم في غرفة رخيصة جدا، من الأفضل أن يكون ذلك في حي شعبي. ثم أذهب بعد ذلك إلى أقرب تجمع لتحالف العمال وأن أعلن بأنني بدون عمل. سيحاولون الدفع بقضيتي وجعل محقق يزورني في أقرب الآجال كما أنهم سيعملون جهد المستطاع كي يكون المحقق شخصا متعاطفا، غير أن هذا ليس مضمونا. أصعب مرحلة للحصول على الإعالة هو انتظار موعد مراجعة حالتك.

لا أزال أحتفظ بغرفة في شارع واتر في بروكلين ويبدو ذلك مكانا مثاليا للإقامة وانتظار قدوم المحقق ذلك أنه علي أن أكون متواجدا شخصيا حينما يصل. شكرت الموظف واتبعت تعليماته. وصل الشخص في أجل فاق توقعاتي وقد أبدى تعاطفا كبيرا حيال وضعي. كانت فتاة ذكية جذابة تدعى كامينيسكي، وتولي عناية كبيرة بالثقافة. شرحت لها بأنني في خضم كتابة أوبرا وعزفت لها بعض المقاطع من الفصل الثاني من دنمارك فيسي، العمل الذي كنت أعده آنذاك. أخبرتها كيف أنني تركت منزلي بفرنسا وعدت إلى نيويورك لأعمل لصالح المسرح الزئبقي، لكنهم تخلوا عني ووجدت نفسي في مأزق. استشاطت غضبا واعتبرت بأنه يمكنني مقاضاة المسرح غير أنني أكدت لها بأنني لا أفكر في قضايا المحاكم، ولكن فقط في الحصول على الإعالة. أخبرتني بأنها ستقوم بكل ما في استطاعتها لمساعدتي وتأمل بأن تحمل لي بطاقتي يوم الجمعة المقبل. اقترحتُ أن تأتي لتناول العشاء يوم الجمعة مساء بمطعم جون بيكر بساحة سوتن حيث أقيم أنا وجين فعلا. أثار الضيوف والشمبانيا والأعمال الفنية اعجاب الآنسة كامينسكي كثيرا. كانت فعلا تحمل معها بطاقة الإعالة وعادت إلى منزلها على الثانية صباحا تعادل سعادتها سعادتي.

أخيرا أصبحت في وضع يؤهلني للاستفادة من امتيازات بطاقة الإعالة. كنت أذهب مرة كل أسبوع إلى بروكلين حيث يمكنني الحصول على المساعدة وأعود محملا بحقيبة مليئة بالسكر والزبدة والخوخ والطحين. إن فكرة الحصول على شيء مجاني هي دائما فكرة مثيرة (بالرغم من أن ذلك المفهوم السيء، حسب أبي، هو الذي تسبب في انحدار البلد نحو الهاوية.) وبدأت أحصل على ثلاثة وعشرين

دولارا وستة وثمانين سنتا مرة أخرى كل أسبوع، هذه المرة ليس "كعامل باحث" ولكن كمؤلف موسيقي.

فكرت بأنه قد حان الوقت المناسب للالتحاق بالحزب الشيوعي وأخبرت هاري بنيتي فغدا سعيدا. كان لا توش قد التحق هو الآخر لكنه لسبب ما لا يريد الاعتراف بذلك. اكتشفت ذلك لاحقا. تم وضعي أنا وجين في فصل الاعضاء الجدد لمدة سبعة أسابيع. حينما سئلت تحت أي اسم أريد أن التحق قلت: "ماذا تقترحون؟"

حدق في الشخص ثم قال: "أوه نحن بطبيعة الحال نفضل اسمك الحقيقي."

"رائع."

هكذا التحقنا بصفوف الحزب الشيوعي كبول وجين بولز ثم أرسلنا بعد ذلك إلى فصل مضجر في الماركسية اللينينية في مدرسة العمال. احتجت جين حينما تصفحت الكتاب المدرسي: "لا أعرف ما أقرأ." أعلم ما كنت أقرأه غير أن ذلك جعل الأمر أكثر سوءا. حاولنا أن نعوض عن فتورنا حيال مبادئ الماركسية اللينينية وذلك بمشاهدة كل الأفلام الروسية التي تعرض في نيويورك.

لا زال مسرح الفرقة يقدم عروضه. كان روبرت لويس سيخرج *قلبي في الأراضي العليا* لوليام ساروين ويرغب في أن أضع الموسيقى. وضع شقة كليفورد أوديت تحت تصرفي لستة أسابيع، ذلك أن الأخيرة كانت توجد في الساحل، ولم تكن هناك أية انقطاعات إطلاقا. جلست إلى جهاز البيانو وقمت بالعمل.

خلال ذلك الربيع جمعتنا لقاءات كثيرة ببيل ساروين. كانت طريقته في رؤية الحياة من حوله تذكرني بطريقة كارتي بريسون باستثناء أنها تبدو أقل موضوعية وأكثر تقلبا. ومع ذلك فإذا بدا هذا الموقف صارما جدا، فإنه موقف شعري وشجاع وكنت أقدر أن كتابته تتسم بذلك الأسلوب الذي يمكن التعرف عليه مباشرة. انتقل لا توش إلى الشقة على سطح منزلنا الذي أنشأناه بسواعدنا على شارع الثامن عشر. جاء كريستوفر إيشروود لزيارتي في طريقه من لندن إلى لوس أنجلس حيث بقي منذ ذلك الحين.

قررت ماريان وهاري أن يتزوجا. جرت المراسيم بشارع توماس حيث عزف فيرجيل على الأورغان المقطوعتان التي كان قد كتبها للمناسبة وميز الواحدة منها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عن الأخرى بـ "المدخل" و"الخاتمة." تقريبا مباشرة بعد ذلك، كان على هاري أن ينطلق في عمل تصويري آخر، هذه المرة سافر بعيدا إلى الصين، ليقيم مع ماو تسي تونغ وآغنس سميدلي بسيان.

بفضل المال الذي حصلت عليه من *قلبي في الأعالي* توجهت إلى الجهة الجنوبية من جزيرة ستاين ودفعت خمسة أشهر إيجار لضيعة أحببتها على نحو خاص. انتقلنا إلى هناك حيث استقبلنا سَيلا مستمرا من الضيوف. عاد كولين ماكفي من إقامته ببالي التي امتدت ثماني سنوات وقضى معنا أياما كثيرة حيث كان يطهو كل مرة وجباته الأندونيسية الرائعة. كنت أعلم أن ليني برتشاين لديه حساسية نحو القطط وهكذا واريت عن الأنظار الرضيع ميلدريد، قطتنا السيامية، هناك بعيدا في مكان معزول بالمطبخ حينما يأتي لقضاء نهاية الأسبوع معنا. غير أن للحساسية طريقتها الخاصة في إدراك غريمها واستشعار وجوده دون الحاجة إلى العين المجردة. هكذا راح يعطس الليلة الأولى بكاملها ورفض أن يبقى يوما آخر.

كنت أذهب مرة كل أسبوع إلى المدينة وأوقع وأستلم شيكي. مقابل ذلك أقدم بعض الواجبات المحددة، ككتابة قطعة لثمانية (لديهم مثل تلك المجموعة في مكان ما في البرونكس) وشيئا من موسيقى البيانو من الدرجة الأولى للطلبة أو قطع كورالية لمجموعة كبيرة. لا تستغرق هذه الواجبات الكثير من وقتي لذا كنت أجد الوقت للقيام بعملي الخاص.

يقام المعرض الدولي بفلاشين ميداوز. ويضم برنامجه بعضا من أعمالي الموسيقية التي قدمها المشروع الموسيقي وهناك التقيت ببعض الموسيقيين على مائدة الغداء قبل أوان العرض. وبما أن معظم الحاضرين كانوا أعضاء في الحزب الشيوعي أو من المتعاطفين معه فقد غطت سحابة حزن محياهم حينما تم الاعلان ذلك الصباح عن اتفاق ريبنتروفف ومولوتوف. بمرارة صرح أحدهم: "حسنا ما العمل بعد الآن؟" أجبته بأننا سنواصل مسيرتنا إلى الأمام كما لو أن شيئا لم يحدث، ذلك أن الأمر سيتبدى مجرد خديعة سوفياتية لسحق النازيين. أشرت أيضا إلى أن التردد في القناعات في هذا الوقت لمجرد حدث كالاتفاق سيكون دليلا على أن قناعات المرء فيما تقوم به الحكومة السوفياتية لم تكن أبدا راسخة. وافقني الرأي إلى حد ما بعضهم لكن البعض الآخر واصل تجهمه.

كانت جيترود شتاين تصدر سلسلة من المقالات تحت عنوان: "ما هو المال؟" في جريدة ساترداي ايفنينغ بوست حيث اتخذت موقفا جمهوريا متعصبا. ترى شتاين أن روزفلت يخرب كلا من النسيج الاقتصادي والأخلاقي للبلاد وذلك بتغيير معنى المال وكذلك بتوصيف أفكار مسكوكة مسبقا ومصاغة للشباب حتى لا يقوموا هم أنفسهم بعملية التفكير. كتبت لها رسالة أخبرها فيها بأنني أعتبر روزفلت رئيسا ممتازا انتشل الولايات المتحدة من مخاطر الانهيار حينما كانت في مأزق كما أن هناك العديد من الشباب في حاجة إلى الأفكار الجاهزة ذلك أن أنظمتهم تعجز عن استيعاب الأفكار الجديدة تمام الجدة. لم ترد على رسالتي غير أنها اقتبست بعضا من كلامي في مقال لاحق لتمثل على ادعاءاتها السابقة.

فجأة توصلت برسالة من ماري أوليفر التي كانت قد قدمت لي العون بكل سخاء خلال سنتي الأولى في باريس. كان جوك قد قضى نحبه السنة المنفرطة وهي الآن توجد في الولايات المتحدة رفقة خادمتها الألمانية. كانت ترغب في زيارتي لمدة غير محددة ولديها ما يكفي من المال" للجعة والشمباينا إذا كان لدي ما يكفي للطعام." انتابتني الهواجس بأن وجودها سيتسبب في الكثير من المتاعب غير أنني لم أجد بدا من اخبارها بأن تأتي متى شاءت.

كخطوة أولى اتصلت ماري من أسوار والدورف قائلة بأنه علينا اللحاق بها لتناول العشاء وقضاء الليلة هناك وذلك بسبب بعد المسافة. وافقت على الدعوة عن مضض ذلك أن لا شيء يبعث على الطمأنينة. حينما وصلنا بدت ماري جميلة جدا في ثوبها الأنيق. خلال المساء أخبرتنا بأنها كانت قد أعارت مؤخرا ممثلة تدعى روت شاترتون مبلغ خمسين ألف دولار على أساس أن يعاد المبلغ في تاريخ محدد. لقد حل موعد تسديد الديون منذ مدة، لكن الآنسة شاترتون لم تتمكن من الوفاء بالتزاماتها. كنتيجة لذلك أصبحت ماري مفلسة إلى أن تمكن محام من إلحاق نسبة مائوية من المداخيل الأسبوعية للممثلة. وحده هذا المبلغ الزهيد يبقي ماري على قيد الحياة. بعد حين ستجمع النقود التي ستحصل عليها من بيع بعض المجوهرات. وإلى ذلك الحين عليها أن تبقى متقشفة جدا. فسرتُ لها بأن وسيلة سندي الوحيدة هي ثلاث وعشرين دولارا وستة وثمانين سنتا أتقاضاها كل أسبوع وعبرت عن شكي بأننا سنتمكن نحن الأربعة من العيش بواسطتها. صرخت ماري: "بالطبع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سنتمكن. فالطعام رخيص بشكل رائع في هذ البلد. كما أن لديك طعام الإعالة أيضا. سيكون الأمر سهلا لأنني سأدفع ثمن المشروبات."

كانت الخادم امرأة بدينة تكاد تكون فظة في وجومها. كان من الواضح أنها تعتبر ماري مجرد شخص معتوه. بعد مرور بضعة أسابيع من الإقامة معنا قامت بزيارة غامضة إلى شيكاغو. علمنا لاحقا بأنها كانت تعمل لصالح الحكومة الألمانية، مجرد جاسوسة.

باتت كمية الكحول التي تستهلك في الضيعة في تصاعد مستمر. كانت ماري تتصل بأقرب مخزن للمشروبات الذي كان يقع على مسافة عدة أميال وتجعل المدير يتعهد بأن يحمل لها في سيارته الخاصة بعض القنينات بعد أن يقفل المخزن. ما أن يصل حتى يشرع في الشرب دون انقطاع. وبعد ذلك تجد مبررا لعدم دفع ثمن المشروبات. حينما غادرتُ كانت ديونها قد تجاوزت المائتي دولار. توسلت لجين كي تغادر برفقتي (ذلك أنه لا يوجد سبيل آخر لجعل ماري تقوم بأي شيء بسرعة.) غير أنها أخبرتني بأنها تقضي هي الأخرى وقتا ممتعا ولا ترى ما يدعو لقطع حبل المتعة بهذه الطريقة العبثية. حذرتها أنها إذا لم تأتِ معي، فلن أتحمل مسؤولية الفاتورات التي ستصل بعد مغادرتي. غير أن جين أكدت لي أنها تنوي مغادرة الضيعة الواقعة على طريق وودرو حينما تكون جاهزة وذلك في الوقت المناسب. نصحتني بأن أهدئ من روعي. فجأة امتنعت تماما عن تناول المشروبات الكحولية وذلك من خلال المعاينة المطولة لما يحل بالأشخاص حينما يتناولون الكثير منها. أعطى الامتناع عن تناول الكحول بطبيعة الحال طابعا حادا للتعبير عن احتجاجاتي، غير أنه من وجهة نظر الشخص الذي يتناول الكحول فلا يوجد شيء أسوء في الوجود من شخص انقطع عن تناولها ويعكر صفوه. بعد ذلك توصلت بفاتورة بعثتها جين، بمبلغ مائة وثمانين دولارا من شركة الهاتف، إضافة إلى قائمة بالاتصالات الأخيرة الطويلة المسافة لماري. كانت دائما تقول: "توجد كاتوشا في دبلين. هيا نتصل بها ونبهجها قليلا." أو كانت تخبر عامل الهاتف: "أريد أن أتصل بلندن. لماذا لا، هذا سخيف." وبعد ذلك تعطي الرقم وتقوم بالاتصال. كانت ماري في غاية الكرم معي، كما أنها صديقة، وبالرغم من أنني كنت قلقا بشأن ما سيقع، فلم أتمكن من حمل نفسي على الحديث إليها.

كتبت إلى شركة الهاتف رسالة أخبرهم فيها بأنني على الإعالة ولا يسعني تأدية فاتورة الهاتف.

توجد غرفة في أعالي كولمبيا في بروكلين تتيح منظرا رائعا لضاحية منهاتن السفلى وللمرفأ. أخذت الحجرة، واستاجرت بيانو وواصلت العمل. حينما قمت بزيارة للضيعة لأرى ماذا يجري هناك، وجدت أن ماري قد حصلت على خادمة نمساوية مقتدرة تولت مسؤولية المنزل وتديره بشكل مثالي. كانت تنوي حمل زوجها على نقل الصناديق والأمتعة إلى نيويورك إلى شارع الثالث عشر غربا حيث استاجرت ماري شقة، وهناك ستتدبر أمور المنزل. بدا الأمر كله ضربا من الجنون، غير أنني لم أنبس بأي شيء. كانت جين تزورني مرات عديدة وتقضي المساء برفقتي في بروكلين غير أنها كانت تزعم بأنها لاترغب في الإقامة هناك. وعلى أي حال فإن ماري مريضة كما أنها غدت تحبها كثيرا وتشعر بأنها في حاجة لمساعدتها حتى تستعيد توازنها. أعلنتُ: "لكن صحتك ستنهار. لا يمكن لأي شخص أن يتناول كل هذا الكم من الكحول."

كانت الشقة التي استأجرتها ماري في الطابق السفلي من بناية خالية من الأثاث بينما توجد حديقة في الخلف. لم تكن تتوفر على أي نقود، غير أن لا أحد يصدق ذلك؛ هكذا أخذت فواتير اللحم والمواد الغذائية تتراكم لدى مخزن خاص في زاوية الشارع السادس. كانت تصلها كل يوم مجموعات من الورود الأرجوانية من بائع الورود. بعد ذلك قصدت مركزا تجاريا وطلبت لقاء المدير. لتقديم نفسها أرته جواز سفرها البريطاني حيث انتبه إلى أنها تقيم في سوري. تواتر الحديث فاكتشفت ماري، كونها مستمعة حذقة ومتحدثة جذابة بأن الشخص لديه اهتمام شغوف بلورنس الجزيرة العربية. بعد ذلك تذكرت ملاحظات قالها لورنس لها خلال العشاءات الكثيرة التي تناولها في منزلها، بعد أن كان قد امتطى دراجته النارية. كما حكت عن الجدالات بينه وبين ه. ج. ويلز وأخبرته عن بعض التفاصيل الفاضحة الصغيرة في حياته. حينما طلبت أن تفتح حسابا في البنك، وافق مباشرة وحينما حذرته بأنها ستؤثث الشقة بكاملها، طمأنها بأن كل شيء على ما يرام وعليها أن تشتري كل ما ترغب فيه. بعد ذلك تحدثا لمدة عشرين دقيقة حول لورنس بينما كانت ربة المنزل النمساوية تجلس في الخارج في حجرة الإنتظار.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حينما خرجت ماري ببطاقتها، ذهبت إلى الأسفل واشترت نافورتين آليتين والعديد من السجادات البيضاء، وبيانو، وملاءات، وصحون فاخرة، وسكاكين وملابس من الكتان. كانت الشقة جذابة وكانت تسهر على تسييرها السيدة النمساوية. مباشرة تقريبا بعد ذلك تمددت ماري في سريرها. ذلك أنها كانت قد وضعت جانبا احتياطا كبيرا من الشراب والعديد من صناديق الطعام التي أذكر أنها كانت أرخص أنواع الطعام المعلب التي يمكن أن يحصل عليها المرء بتسعة سانتات للعلبة الواحدة من متجر واناماكر.

كانت ماري تتمدد في الفراش وتتناول الكحول. وبعد ذلك تقوم بما تسميه بالتحليق الذاتي. كانت تنادي: "إنني أغادر جسدي،" سواء كان هناك من يسمعها أو لا. قالت بأن السقف يسبب لها المشاكل حيث لم تتمكن أبدا من اختراقه وكانت محاولاتها تذهب هباء. دأبت ماريا أوسبنسكايا، الممثلة الكبيرة، على القيام بزيارتها والمكوث إلى جانبها خلال تمارين التحليق هذه. في هذه الأثناء أخذت ماري تزعم بأنها البنت غير الشرعية لغوردجييف. ربما كان الأمر كذلك، ذلك أنها تبدو شبيهة به. بالتأكيد فإنها لا تبدو ابنة العمدة البريطاني الصلف والقديم الطراز الذي تم تقديمه لي باعتباره أبيها الشرعي.

يتشكل أصدقاء ماري من علية القوم الذين يعتقدون بأنها شجاعة جدا بحيث أنها تعيش على ذلك المنوال. حاولوا أن يحملوها معهم إلى أعلى البلدة، لكنها لم تبرح مكانها. كانت ذروة هذا الفصل حينما وصل أوتو هابسبورغ وزوجته، أولياء العهد في النمسا، لتناول العشاء. حينما تم تقديم المرأة النمساوية في المطبخ، انحنت أمامه للحظة وهي تهمس: "سيد النمسا."

خلال موسم الشتاء ذهبتُ مرات ومرات لزيارة أودن الذي كان يقطن في منزل لا يبعد سوى بحوالي وحدة سكنية واحدة عن مكان إقامتي في أعالي بروكلين. كنت أحدق فيه بكثير من الرهبة. فمعرفته إضافة إلى الطريقة الغريبة التي يعبر بها عن نفسه حينما يتحدث ضاعفت من شعوري الدائم بعدم اليقين من معنى كلماته. غير أن هذا في حد ذاته يعد لعبة ممتعة إن لم تكن فاشلة.

ذات ليلة قام كورك وكونستانس أسكيو الذي يدير الصالون المنتظم الوحيد في نيويورك بدعوتي أنا وجين لتناول العشاء رفقة سلفادور وغالا دالي. غشت

المراسيم العشاء وتخللت العتمة الغرفة المضاءة بالشموع حتى أنه حينما وضع كبير الخدم صحن السلاطة إلى جانب دالي قبل أن يوزعها في الأطباق، فإن دالي حدق فوق السطح المغبش لأوراق الخس الباهتة العلوية وقال إن ذلك يذكره بسويسرا. بعد حين حكى قصة عن فتاة صغيرة تاهت خلال عاصفة ثلجية في جبال الآلب. حينما كانت توشك على الموت، وصل قديس يحمل برميلا صغيرا من الشراب حول عنقه. هاجمها الكلب بعد ذلك والتهمها. أضاف دالي وهو ينظر إلى صحن السلاطة كما لو أن القصة لا تزال تشع هناك في الهواء فوقه: "هذا جميل."

أما غالا فقد لجأت إلى الخيال خلال الأمسية. فأيا كان مجرى الحديث العام، فإنها تعيده بذكاء إلى الفكرة المحددة التي اختارتها والتي تتمثل في أنه علي أن أشتري قفصا كبيرا وأن أحبسها بداخله وبعد ذلك آتي وأنثر الطعام لها بينما أصفر. كانت تخبرني وهي تنظر إلي بعينين ماكرتين بشكل مرعب: "أريد أن أصير ببغاءك."

ذات نهاية أسبوع، كتب بيل ساروريان مسرحية لقبها *زمان حياتك*. أخرجها إيدي داولينغ وحققت نجاحا باهرا. بعد حين، كتب بيل مسرحية أخرى *أغنية الحب الحلوة القديمة* التي حصلت عليها عصبة المسرح وسلمتها لداولينغ ليتولى إخراجها. استاءت كل من تيريزا هيلبورن ولورنس لانغنر بسبب مقاربة داولينغ الفجة للنص. هكذا طُلب مني وضع الموسيقى. ذات يوم بعد التمرن على مشهد طوال الزوال، قال داولينغ: "علينا أن نحصل على بعض الصخب في هذا العمل. بيل لماذا لا تغادر لتناول زجاجة جعة وتعيد كتابته؟ سنمرن الأطفال خلال هذه الأثناء." كان لانغنر غاضبا. صرح: "هذه ليست مسرحية هزلية." وبعد ذلك أخذ يدب في الشارع جيئة وذهابا في الظلام خلف قاعة الاجتماعات ماسكا بي بعنف عند نقطة ودافعا بي معه إلى الخارج. همس لي: "علينا نحن الفنانين المبدعين أن نرص صفوفنا." غير أن ساروريان كان مستعدا تماما لاعادة كتابة المسرحية واستمر في ذلك حتى بعد أن أخذت المسرحية تُعرض في جولتها السابقة للعرض ببرودواي. لم يبد على والتر هوستون، الذي يلعب الدور الرئيس، أنه يعير بالا لحقيقة الأمور وهي أن عليه أن يتعلم سطورا جديدة، وأحيانا مشاهد جديدة كاملة، كل يوم. تخللت صعوبات كثيرة العرض خلال الانتقال من مكان إلى آخر ذلك أنه كان هناك عدد كبير من الأطفال الصغار

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ضمن الممثلين وكانت أمهاتهم دائما في الجوار يشتكين دون انقطاع من غياب التدفئة في غرف الملابس.

كان أوليفر سميت الذي كان في الثامنة عشر من عمره خلال الصيف الذي قضيناه معا بمنزل العمة ماري في الثانية والعشرين من عمره الآن. كانت لديه موهبة خاصة على ما أعتقد لتخطيط المنصات. جاء إلى فيلادلفيا عند اقتراحي بينما كنت أنا وجين هناك خلال الاستعدادات لمسرحية *أغنية الحب الحلوة القديمة*. كنت أرغب في أن يطلع سارويان على رسوماته. حينما ألقى نظرة عليها خلفت لديه انطباعا جيدا بحيث طلب من أوليفر أن يصمم مسرحيته المقبلة، *سلام إلى هناك*. لم تكن عائلة أوليفر تحبذ اطلاقا ما كان يقوم به ابنها وهكذا حينما كان بحاجة للألف دولار للذهاب إلى هوليود حيث كانت تجري امتحانات الالتحاق بنقابة مصممي المسرح تلك السنة رفضوا منحه المصاريف اللازمة. قصد العمة ماري التي باعت بعضا من مجوهراتها وهكذا سمحت له بالذهاب إلى كاليفورنيا، وأن يجتاز الامتحان. تم اختياره إضافة الى مرشح آخر هو سلفادور دالي وهكذا عاد إلى نيويورك لمباشرة عمله على تصميمات سارويان.

كانت تيدي غريفت ابنة ستانتون غريفيت، الساحر المالي الذي يملك حديقة ساحة ماديسون ويجني مدخوله من شركة ستاندارد أويل وشركة بارامونت للانتاج السينمائي. كانت تبدو الآن رفقة لا توش منذ سنة أو سنتين؛ وكانت قد أمضت معنا نهاية الأسبوع في جزيرة ستايتن وقمنا بدورنا بزيارتها في بيتها في كنعان الجديدة وهكذا فقد سعدنا كثيرا حينما أخبرنا لا توش بأنهما سيتزوجان. خلال هذه الفترة كان لا توش قد تألق بفضل أغنيته *أغنية للأمريكيين*. كان قد طلب مني أن أضع الموسيقى لأغنيته الطويلة؛ غير أنني شعرت بالحرج إزاء موضوع الأغنية؛ ثمة تنازلات كثيرة للذائقة الشعبية. بعد ذلك قصد لا توش أورل روبنسون، المؤلف غير الرسمي للحزب الشيوعي، فوضعها في القالب المناسب لكي تتخذ طابعا شعبيا كبيرا. دأب لا توش أن يستفزني بخصوص رفضي: "ألا تحب أن تكون أنت الذي وضع موسيقى "أغنية للأمريكيين"؟ لقد قصدتك وطلبت منك ذلك، أيها السافل. ولكنك لم ترغب في ذلك." أشرت إلى أن موسيقاي كان من الممكن أن تجعل الأغنية مختلفة تماما، وبالتالي فلن تحظى بأي

نجاح شعبي. لم يعجبه كلامي، ذلك أن هذا يشير إلى أن للموسيقى دور طاغ في صوغ الأغنية.

خلال هذه الأثناء حلت فترة النظر في حالة الإعالة. كنت آمل أن أبقي حقيقة وجود أبي خفية عن اللجنة لكنهم علموا بذلك أخيرا وبعثوا بمحقق إلى منزله. كان الرجل الذي أرسلوه أسودا؛ طلبوا إليه أن يستعمل بيت الخدم بدل المدخل الأمامي حيث سبق أن قدم نفسه أول الأمر. كان تقريره على الشكل التالي: "ليس في حاجة ملحة." وبسرعة تم تشطيب اسمي من لوائح الإعالة وأيضا من مشروع الموسيقى الفدرالي. ابتهج أبي قائلا: "هذا أمر رائع."

خلال هذه الأثناء طلبت مني شعبة الزراعة أن أضع الموسيقى لفيلم يتم تصويره من طرف مصلحة التصحر حول منطقة ريو غراند فالي. كان التعيين والشيكات التالية موقعة من طرف هنري ولاس، مما أثار غضب أبي أكثر ضد الحكومة: "يا إلهي إلى أين يسير هذا البلد؟" فمن منطلق أخلاقي صرف يرى أنه لا يجب منح عضو في الحزب الشيوعي تحت أي ظرف من الظروف تمويلات حكومية. كان يجد صعوبة في فهم كيف يمكنني أن أحمل نفسي على قبول ما يجب أن أعتبره مالا قذرا. كما لم أقدر أنا الآخر أن أعترف له أو لغيره بأن اهتمامي ب"الحركة" لا يتعدى ما أعتبره امكاناهما المزعجة والمهدمة. فالحزب إطار قوي يمكنه أن يتسبب في الكثير من المشاكل وهذا يبدو سببا كافيا لدعمه. ولدعم اعتقادي بصحة موقفي ترددت على اجتماعات الجمعية الألمانية الأمريكية التي كانت تعقد في قاعة في الشارع الثالث. كانت هناك مجموعة من رجال الأمن يصطفون على طول الجدار بالقرب من المدخل خلف البهو. يتواصل اللقاء لحوالي الدقيقة يغني خلالها الجمهور على ايقاع الأرجل التي تدق الأرض: "اقتلوا اليهود، اقتلوا اليهود، اقتلوا اليهود." ذات ليلة حينما كنت أهم بالمغادرة باكرا أخبرني رجل أمن عند الباب: "يجب أن تبقى في الجوار فهؤلاء الناس يعدون شيئا ما." وفقا لتعليمات الحزب الشيوعي الأمريكي التحق هاري فعلا بالرابطة ويعمل ضمن أعضائها. لطالما كرهت فكرة ما يمكن أن يتعرض له إذا ما اكتشفوا الخدعة.

لم تكن جين متحمسة لفكرة مرافقتي إلى مكسيكو الجديدة والبقاء برفقتي بينما أشتغل على الفيلم هناك؛ غير أنها أبدت استعدادا لمرافقتي إذا ما ما تمكنت من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اصطحاب صديق لها يدعى بوب فولكنر يعيش في باتشين بلاس ويعمل لدى مجلة نيويوركر. كنت في غاية الحماسة لمغادرة نيويورك فلم أبالِ لمن سيرافقها. كنت أعلم بأن بوب يسرف في الشرب كما كنت أعلم أيضا أن هذا هو السبب الحقيقي لرغبتها في اصطحابه. كانت قد أخبرتني أخيرا بأن رؤيتي للعالم تصيبها بكآبة عميقة بحيث حينما تكون معي فكل شيء يبدو سوداويا. النتيجة هي، كما تقول، أنها لا يمكن أن تبقى معي سوى لفترات قصيرة، وهكذا عليها أن تفر بين الحين والحين من الكآبة الغامرة التي أخلقها. (لاحقا اعترفت بأنها تخاف من أن تكون لوحدها معي خصوصا بعيدا عن نيويورك.) كانت تأمل أن تجد في بوب الذي يحب الضحك بشكل متواصل قوة موازية إلى حد ما. من جهتي تصورت بأنه بإمكاني التحكم في الأمور والعمل على أن لا تتناول الكثير من الكحول.

سبق وأن تقدمت منذ سنوات خلت بطلب للحصول على منحة غوغنهايم لتسجيل الموسيقى في افريقيا وتم رفض طلبي. مؤخرا قدمت الطلب مرة أخرى، دون أن أغير أي شيء في المشروع القديم. هذه المرة طلبوا مني الحضور إلى المكتب وملء الاستمارات، وتم تصنيف المشروع في خانة "الموسيقى الابداعية." ونظرا لعجزي عن التفكير في أي شيء آخر فقد كتبت بأني أفكر في وضع أوبرا. حسب المدير، يمكن أن أحظى هذه المرة بالمنحة. سبق أن تحدثت إلى بيل ساروايان بخصوص امكانية منحه نصا لموسيقاي، وبالرغم من زعمه بأنه لم يسبق له ولو لمرة أن ذهب إلى الأوبرا، فقد أخبرني بأنه سيرسل لي شيئا ما حينما أصل إلى ألبوكيرك.

ونحن نسرع نحو الجنوب الغربي على متن باخرة سانتافي من شيكاغو، لاحت السماء أكثر نقاء ولمعانا. شعرت أن الحياة تتفتح مرة أخرى وتكتسي معنى جديدا: إحساس غامض يغمرني كلما انتقلت إلى أماكن غريبة. كنت أنوي مواصلة الرحلة إلى المكسيك وأن أبقى هناك أطول فترة ممكنة ما أن ينتهي الفيلم.

كانت ألبوكيرك سنة 1940 بلدة صغيرة جميلة من القياس المناسب. وجدنا شقة على مسافة حوالي ميل إلى الشمال في الضاحية العتيقة حيث توجد ساكنة من محبي نيو مكسيكو، مواطنون منتظمون جدا يأملون في أن يصبحوا بوهيميين عن طريق العيش بجوار "الناس الحقيقيين"- أي الهنود والاسبان. كان هؤلاء النساء

والرجال ذوو النوايا الحسنة جيراننا؛ كانوا يتمتعون بروح الصداقة، وبحس اجتماعي. ذلك النوع من الأشخاص الذين يقرأون روايات توماس وولف ويتركون جرار الخمر مفتوحة على المائدة. لا شك أنني أزعجتهم بعزفي الذي لا ينقطع أبدا على البيانو لكنهم لم يحتجوا أبدا.

كان الشخص الذي ينجز الفيلم هو ريتشارد بوك؛ كان يتمتع هو وزوجته سالي بحس الحضارة والجمال والأدب كأي برجوازيين واعين بذلك. كانا يقيمان في الريف، في منزل واسع الأرجاء من الطين، الشيء الذي يعد ثراء. غير أنه ثراء له وجوه سلبية، اكتشفت ذلك بعد حين، حينما نادت علي ذات صباح سالي إلى غرفة الصغار لتريني حشرة سوداء ترقد في غطاء للرضع.

ثمة حانة لا تبعد كثيرا عن المكان الذي نقيم فيه حيث تم مزج شراب بوب بمسحوق هذه الحشرة السامة. ترتاد هذه الحانة على نحو منتظم امرأة تدعى ديزرت روز كانت قدرتها على تناول الكحول عجيبة. ذات مساء دعتنا إلى منزلها لتناول بعض المشروبات. لديها طفل صغير وكلب ضخم يشعر بأنه جزء من العائلة. انتقل الحديث إلى الحرب في أوربا وامكانية التورط فيها. فجأة قامت ديزرت روز التي كانت مشاعرها دائما من النوع الأفضل كأمريكية، بالتعبير بحماس عن ولائها: "يمكنني أن أخبركم بأنني لم أنشئ كلبي لكي يكون دخيرة للمدافع." ثم تمادت في حماسها فلم تنتبه لضحكنا وواصلت إدانتها للحرب.

كنت أحبذ إبعاد آل بوكز عن شقتنا قدر الإمكان، غير أن جين شعرت بأن أصول اللياقة تقتضي استضافتهم، خصوصا وأننا كنا في الغالب ضيوفهم. كان يساورني شك بأن فكرة وجود بوب معنا كانت تستهويها كثيرا. لقد كان ذلك واحدا من المخططات التي تستثير خيالها المسرحي. وهكذا وبشكل نموذجي دعت ديزرت روز أيضا للموعد ذاته. كان وقع هذا اللقاء على آل بوكس جديرا بالمشاهدة. في البدء سلموا بالأمر ذلك أن روز معروفة بين جيرانها بكونها سكيرة غريبة الأطوار، غير أن هذا الشعور سرعان ما زاولهم حينما أدركوا بأنهم في حضرة شخص بدائي. أصابهم الامتعاض. حدقت في جين لأنها تسببت في هذه الوضعية المحرجة. لقد سبق لي أن سألتها: "من يقترض أن يكون هذا البوب؟" فكان ردها: "إنه أخي." وهكذا تم تقديمه على هذا الأساس للضيوف. اضافة إلى التوتر الذي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سببه حضور ديزت روز التي كانت تهذي فإن كلا من جين وبوب نسيا أدوارهما وكان كل واحد منهما يشير إلى "أمه" على حدة. بدت الحيرة على محيا آل بوكس، غير أن ذلك لم يدم مرة أخرى طويلا، حتى حينما حاول بوب أن يجعل الأمر كله مجرد خيال: "أمي في جولة مع بارنوم وبيلي. لديها رأسان." وكما كل الكوابيس فإن المشهد بلغ أخيرا نهايته.

لعل ما جعل ألبوكيرك مكانا مناسبا للإقامة هو الطبيعة الريفية التي تترامى في الأفق. كل ما علي القيام به هو مجرد الخطو نحو الوادي والسير شمالا حيث لا يبدو من الطبيعة في وحشتها سوى الشكل المركب للصخور والرمل والخشب والحصى. بعد ذلك يمكنني أن أسير لأميال ولأميال بينما يغشى الصمت والسكينة المكان وأنا أضع مخططات لموسيقاي. اقترب موعد الانتخابات المكسيكية. وبما أن مصير اسبانيا بين يدي الجنرال فرانكو لا يزال ماثلا في أذهان الجميع فإن الليبراليين كانوا يخشون بأن يفوز الجنرال ألمزان الذي لا يتورع عن الاعلان عن نزعته الفاشية. حينها ستندلع الحرب الأهلية وستغلق بطبيعة الحال الحدود وبالتالي ستتلاشى فرص الوصول إلى مدينة مكسيكو. كلما اطلعت أكثر على الوضعية كلما جاهدت لانهاء موسيقى "جذور في الأرض" وعبور ريو برافو إلى كويداد خواريز قبل أن تندلع الاضطرابات. كان موظفو وزارة الفلاحة يرون بأنه علي القيام بزيارة جبال جيميز حيث لا يزال يعيش العشرات من الالآف من الفلاحين الاسبان كما هم على طبيعتهم. يربض المكان عاليا وسط الصخور؛ أحيانا يمكنني أن أتتخيل نفسي في قرية ما نائية وفقيرة في الأندلس. في ظل ظروف أخرى كنت سأنبهر لا محالة بهذا المنعزل الإثني. اقترح موظفو الحكومة أن يقوموا بنقلي بواسطة طيارة صعودا وهبوطا على امتداد سهل ريو غراند حتى يغمرني "احساس بالمكان،" غير أنني رفضت الاقتراح ذلك أنني لا أحب الطيران إلا في حالات الضرورة. هكذا قمنا بجولات على متن السيارة. قبل أن أنهي تماما الموسيقى توصلت بنص ساروريان الذي يحمل عنوان: "أوبرا أوبرا." لم يكن نصا بالمعنى الصحيح للكلمة كما لم يكن نص أربعة قديسين مسرحية في ثلاثة فصول. كان العمل في حاجة إلى شخص من نوع موريس كروسر ليضعه في القالب المناسب. فقدت البوصلة وشعرت بالتيه، غير أنني أخذت العمل معي حينما غادرنا حتى أقوم بدراسته.

أمضينا أسبوعا كاملا في زاكاتيكاس. الآن وقد عبرنا الحدود لم أعد أشعر بالعجلة للذهاب إلى أي مكان ومع ذلك فقد كنا قد وعدنا ببغي ولويس رايل بزيارة المكسيك في منتصف شهر تموز، وهكذا واصلنا سفرنا عبر الطريق المتأرجحة للخطوط السككية المكسيكية. وصلنا إلى العاصمة خلال اندلاع المشاكل وكنا في الاميدا صبيحة الانتخابات، نختبئ وراء المتاريس الحجرية كالآخرين، حيث يُسمع أزيز السيارات والشاحنات وهي تمرق موزعة الرصاص دون تمييز. استمر إطلاق الرصاص طوال اليوم وكانت هناك أصوات انفجارات مدوية من حين لآخر. فاز أفيلا كاماتشو بالانتخابات، لحسن حظ الجميع. نسينا التهديدات الفاشية للجنرال ألمزان وشرعنا في البحث عن مكان للاقامة. وأنا أذكر قصر مالينش أردت العثور على مكان مشابه، ولو كان في منطقة نائية لكان ذلك أفضل.

وجدت ما كنت أبحث عنه في حاجلبا، ضيعة قديمة على علو عشرة آلاف قدم على طريق تولوكا. كانت مكانا واسعا يحتوي على العديد من الغرف تحف بباحة عظيمة. تحد قمم الجبال كل الجهات وكان بركان تولاكو ينتصب هنالك بكل تفاصيله عبر سهل واسع. عادة ما أجلس في غرفتي الموحشة في الطابق العلوي وأتملى هذا المشهد. كان لروعة المناظر الطبيعية أثرا ساحرا علي، وكنت أذكر ملاحظة توماس مان بأن التواجد بين أحضان منظر طبيعي رائع يحول دون الرغبة في الابداع.

كانت حاجلبا منزوية ونائية بحيث من المستحيل الحفاظ على الخدم. عادة ما يغادرون فنضطر للذهاب إلى العاصمة لنرى إذا ما كانت الوكالة ستمنحنا بديلا فوريا يمكننا أن نصطحبه معنا في سيارة الأجرة. كان المكان كئيبا؛ ونظرا لسحرها فقد تضاعف الاحساس بالكآبة أكثر وأكثر. تؤكد الخادمات بأن أرواحا شريرة تجوب الغرف خلال ساعات الليل. كانوا يغادرون أماكنهم الخاصة بعد أن نكون قد آوينا إلى الفراش بفترة؛ يقرعون الباب بسرعة ويهمسون: "سيدي، سيدتي، ثمة وقع للأقدام." وكان هذا إيذانا بأنهم سيقضون الليلة معنا في ركن من الغرفة. إذا كان هناك وقع أقدام فإن اللياقة تقتضي بأن نسمح لهم بالنوم في غرفتنا. لا يتكرر هذا الموقف كل ليلة، كما أنه لا يتكرر مع جميع الخدم. غير أنه يتكرر بانتظام مع بعضهم. في غرفة النوم الرئيسية توجد بندقية محشوة تنتصب عند رأس السرير. كنا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ننظر إلى البندقيات العتيقة خصوصا كديكور مسل إلى حد ما، غير أن الخدم كانوا ينظرون إليها بإجلال واحترام.

ذهبت إلى مركز الحزب وعرضت عليهم خدماتي. كانوا يرغبون في معرفة مكان اقامتي. حينما أخبرتهم قرروا تنظيم رحلات بواسطة الحافلة كل يوم أحد إلى حالبجا لفائدة السياح الذين يرغبون في زيارة ضيعة حقيقية من الطراز القديم. لم تتكرر الزيارات إلا مرتين. يتشكل الزوار غالبا من الأمريكيين مع وجود بعض الأوربيين. شاهدوا قطيع الماشية (كان لدينا خمسة وثمانون بقرة والمئات من الأغنام) وكنيسة صغيرة وباحة واسعة. ومع ذلك فقد تمنوا لو كانوا في المكسيك العاصمة غير أنه كان عليهم أولا تناول الغداء حيث سبق لهم أن أدوا على ذلك للوكالة قبل أن يشرعوا في رحلتهم. لم تُعر جين بالا لهذه الوضعية. كان هذا سيزيد من مداخل الحزب المكسيكي، أكثر مما كنا سنمنحهم نحن. شيئا فشيئا رحت أشعر بالضيق وبوادر الغثيان. بات من المستحيل تناول الطعام ذلك أن مجرد التفكير فيه يصيبني بالرجفة. لاحظت بأن للعلو دخل بجهازي الهضمي وهكذا قررت أن أغادر المكان فورا. ذهبت إلى العاصمة. كانت لو وبيغي رايل هناك رفقة ايستبان فرانسيس، الرسام الاسباني، وكانوا على وشك الذهاب إلى أكابولكو على متن السيارة. ذهبت معهم؛ كانوا قد استأجروا منزل بيل سبراتلين على الشاطئ، منزل كبير رائع على قمة التلال، على شكل جرس مائل تشكل قصبته سطحا واسعا يربط جزئي أماكن الاقامة. ساعدني كثيرا قضاء اليوم بكامله على الشاطئ لمدة أسبوعين؛ استرجعت شهية الأكل لكنها حملت معها همّا حقيقيا. توصلت ببرقية من جين تعلن فيها عن قدومها هي وبوب وتطلب مني أن أجد منزلا فورا. كانت لو خادمة مكسيكية كبيرة السن تزوجت لاحقا بدولريس ديل ريو. وجدت منزلا له فناء مساحته مائة وخمسين قدما وتظلله أشجار الافوكا والليمون. ثمة باحة واسعة مغطاة بين الغرف وحديقة تعلق فيها الأرجوحات.

وصلت جين وبوب رفقة قزمين هنديين جاحظي العينين كانا قد عثرا عليهما في تولوكا، شاب وفتاة سيشكلان تحت إشراف المرأة المحلية التي تكبرهم سنا طاقم الخدم. رووا حكاية غريبة عن صاحبة الضيعة، السيدة النبيلة التي كنا قد قمنا بزيارتها في منزلها الفاخر في المدينة حينما وقعنا عقد الإيجار. كانت قد أحضرت

قائمة من صفحات عديدة لأشياء تقول بأنها ضاعت من الضيعة. تضم هذه الأشياء، ضمن أشياء أخرى، الأثاث، وآليات المزرعة ورداء حمام. أمام هذا الوضع اكتفوا فقط بالتحديق في اللائحة. اختار بوب أحد الأشياء الضائعة جزافا. ثم وضع ثمن غير معقول يكفي لشراء عشرين منها وأثار انتباهها إلى الثمن الذي تطلبه مقابلا له. لا تكمن القيمة في الشال كما أوضحت ولكن في الثقب الذي أحدثه الرصاص. فقد كان أخوها يرتديه حينما أطلق النار عليه وقضى نحبه. بعد مماكسات طويلة تم اختزال الفاتورة إلى مائة دولار. أغاظني هذا الحادث كثيرا غير أني مادمت قد تركت جين تتولى القيام بالعمل المضني المتمثل في اخراج الأشياء من الضيعة فلم أستطع أن أقول أي شيء.

بعد حين راح الهنديان في نشيج. فكما أوضحا، فقد اشتاقا كثيرا إلى أمهما. كما لو أنه أمر طبيعي لأشخاص في سن الثامنة عشر أو العشرين أن يحتاجا إلى رعاية الأم. أصابهما السهاد والأرق لأن أمهما توجد بعيدة عنهما. حاولنا أن نخفف عنهما وذلك بجعلهما يستحمان في البحر بلوس هورنوس غير أنهما رفضا مجرد لمس حبات الرمل. مع نهاية الشهر كان لزاما وضعهما في الحافلة وإرجاعهما إلى ديارهم. لم يتأقلما أبدا في أكابولكو.

كان المنزل ملجأ لكل أصناف الطيور. كل ما على المرء القيام به هو أن يفسح لها المجال بين أدغال الحديقة فتعبث كما تشاء. لم يكن الحال كذلك بالنسبة لإثنين من السلاحف؛ فقد حرصا على معاشرة الناس. كان أحدهما ينام فوق رأس جين وقد اتخذ من شعرها غطاء. كلما تأخرت في النوم فإنه يلازم مكانه. تعلمت عدم محاولة انتشالها من مكانها ذلك أن مقاومتها تتخذ شكلين: بادئ الأمر تغطي عينيها بشدة بقدميها وتصدر أصوات سريعة، وبعد ذلك تغرس فجأة أسنانها الصغيرة المرعبة في يدي.

ذات صباح حينما كنا نهم بالذهاب لقضاء اليوم في الشاطئ وصل شخص إلى الباب وطلب لقائي. كان شابا ذا وجه مدور وقد لفحته أشعة الشمس ويرتدي سروالا مهلهلا كبيرا وقميص بحار مخطط. قدم نفسه على أنه تيني ويليامز. كان كاتبا مسرحيا أوصاه لورنس لانغنر من عصبة المسرح بلقائي. طلبت منه أن يدخل ووضعته في أرجوحة، موضحا بأنه علينا الاسراع إلى الشاطئ مع الأصدقاء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حملت له الكتب والمجلات والروم وكوكا وأخبرته بأن يطلب الساندويشات من الخدم كلما شعر بالجوع. وبعد ذلك غادرنا. بعد مرور سبع ساعات عدنا إلى المنزل ووجدنا ضيفنا لا يزال مستلقيا وسيماء الرضا تعلو محياه وهو يقرأ في الأرجوحة. توالت لقاءاتنا كل يوم إلى أن غادر.

بعد وقت قصير ذهبت جين إلى تاكسكو لقضاء نهاية الأسبوع رفقة بعض الأمريكيين. بقيت لبعض الوقت هناك ثم أرسلت تلغراما تخبرني فيه بأنها استأجرت منزلا. شعرت بالضيق ذلك أن تاكسكو هي البلدة الوحيدة في المكسيك حيث لا أطيق العيش. سبق أن قضيت أسبوعا هناك مع توني وماري كلير ثلاث سنوات قبل ذلك. كما أن الجو البوهيمي الذي يعم المكان عن قصد أصابني بالكآبة. استحوذ الأجانب على المكان وهكذا بات قبلة للعديد من الزوار.

انتقلنا إلى تاكسكو؛ كان المكان أكثر راحة كما أن جين بدت أكثر سعادة، لكن بعد أكابولكو وجدت هواء الجبل الهادئ خانقا. اعتراني الأسى دون أن أشعر بالأسف حينما طلبت عصبة المسرح في نيو يورك حضوري فورا. تم توقيع عقد من طرف هيلين هاييس وموريس إيفانس للعب أدوار فيولا ومالفوليو في مسرحية *الليلة الثانية عشر*. كان الانتاج يحتاج إلى موسيقى.

كان نمط الأحداث معروفا لكن هذه المرة ستنتظر جين عودتي. سأضع الموسيقى وأعود في ظرف ستة أسابيع ونستأنف حياتنا في كازا هول. كان السفر جوا جميلا آنذاك. كان لدي مكاني الخاص حيث يوجد سرير. هكذا بين دفء الملاءة والأغطية هجعت معظم الرحلة.

بعد الفوضى التي اعترت *أغنية الحب الحلوة القديمة*، كانت *الليلة الثانية عشر* بسيطة وسلسة نسبيا. بالرغم من أنها تطلبت جهدا كبيرا حيث اخترت لونا موسيقيا أريد له أن يبدو معقدا وعتيقا. قمنا بجولة حول نيوهافن وبوسطن وبالكاد شرعنا في العرض في نيويورك حينما تم استدعائي من طرف تيريزا هيلبورن ومنحت نص ليبرتي جونز الذي كان فيليب باري قد أنهى كتابته للتو. كان بإمكاني ملاحظة بأن هذا العمل سيكون عملا موسيقيا وسيحتاج إلى قدر ضخم من الجهد. وهكذا بعثت ببرقية إلى جين وطلبت منها أن تلتحق بي حيث لم تكن لدي أية فكرة عن المدة التي قد يستغرقها العمل.

الآن وقد قامت ألمانيا باحتلال الاتحاد السوفياتي فإن موقفي إزاء الحزب الشيوعي خضع لتغيير. بدا يقينا بأن الولايات المتحدة ستتورط في الحرب آجلا أو عاجلا. إذا كنا سنصبح شركاء للروس فعلي أن أغادر الحزب. ذهبت إلى المكاتب بالمقاطعة العشرين في دائرة كولومبوس وعبرت عن رغبتي في الاستقالة. بجهد ابتسم الرجل الذي كان يستمع إلي. أخيرا قال: "أيها الرفيق، ألا تعلم بأنه لا يمكنك الاستقالة من الحزب. يمكن فقط طردك."

"حسنا إذن أطردني."

أخبرني بأن العملية معقدة ولا يمكن الشروع فيها من طرف جانب واحد. وللتخفيف من حدة غضبي، أضاف بأنه قد تم اتخاذ قرار بطرد جين. غير أنه سيتم الإحتفاظ باسمي على قائمة الحزب.

"يمكنكم اعتباري عضوا غير أنني لن أؤدي أية واجبات ولن أحضر أية اجتماعات أخرى وبالنسبة لي فأنا لم أعد في صفوف الحزب."

قال بهدوء: "هذا يتعلق بك." بعد ذلك أخبرني بأن المقاطعة توصلت بتقارير مقلقة بشأن إقامتي في المكسيك، خصوصا في أكابولكو، مما جعله يرتاب في مدى جديتي كعضو. فكما أخبرهم المخبر، فقد كنت أقيم هناك فقط، أستمتع بوقتي.

بغضب أخبرته: "كنت في عطلة."

كنت أحاول تذكر من يمكن أن يكون قد راقبني هناك في أكابولكو.

"لا يمكنك أن تكون في إجازة من الصراع الطبقي، أنت تعلم ذلك أيها الرفيق."

"ماذا إذن؟ أليس بإمكانك أن ترى بأنني لست مناسبا للحزب؟"

مرة أخرى اكتفى بالابتسام: "يناسبنا أن نحتفظ بك في الحزب." وكان هذا تعليقه الختامي. غادرت المكتب حائرا لكن شعورا بالرضا الداخلي يملأني.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

12

حينما عادت جين من المكسيك كانت لا تزال منشغلة بإتمام فصول روايتها *سيدتان حازمتان*. قضينا الشتاء بأكمله في نيويورك أحاول جاهدا أن أفي بالتزاماتي الموسيقية العديدة. لم يكد يمر وقت كبير على بدء عرض مسرحية *الليلة الثانية عشر* ببرودواي حتى عرضت علي عصبة المسرح مشروعا أكثر طموحا. كان فيليب باري قد أنهى للتو كتابة سيناريو *ليبرتي جونز*، عمل أراد له أن يكون تحفة سياسية تتخللها موسيقى. لا زلت أذكر المداخيل الموسيقية المائة والثمانية والخمسين والألحان وهي تعزف خلال أغلب ساعات الليل. شكل ذلك تحديا بالنسبة لي إذ كان العمل ضخما وصعبا. ومع ذلك فقد تمكننا في الأخير من عرضه في فيلادلفيا حيث تم تقديم العرض التجريبي بمسرح فورسيت. خلال الحفل الذي تلا العرض الافتتاحي تم تقديم جين للضيوف على أنها: "زوجة بول المكسيكية، الصغيرة والمَرحة." وهكذا حاولت هي الأخرى أن تتقمص الدور كاملا، بدءا باللَّكنة وصولا إلى الأشياء الأخرى.

كان ليونارد برنتشاين بفيلادلفيا بمعهد كورتيس وكنا نلتقيه يوميا. طلبت مني شركة باليه نيويورك أن أقوم بوضع عملين موسيقيين قديمين في أسرع وقت. ونظرا لانشغالاتي فقط طلبتُ من ليني أن يتولى العمل نيابة عني. حينما أعرب عن استعداده وافقت على العرض فورا. هكذا وجد ضالته في الجانب الآلي، خاصة في عمل بوغني الذي نظمه بالطريقة الأكثر عنادا والأكثر استحالة فجعل تلك المقاطع التي تعزف على الآلات الوترية من نصيب آلات النفخ. لم يكن ذلك اطلاقا ما كانت تريده شركة البالي، أخبرني لا حقا وبسرور (ذلك أن كلا العملين سيحملان فقط اسمي) وبالتالي فقد تمت اعادة ترتيب الموسيقى الخاصة بحفلي البالي من جديد.

بعد أن تم تقديم مشروع *ليبرتي جونز* بنيويورك، كتبت بعض المقاطع الموسيقية لنص لليليان هليمان يحمل عنوان *مراقبة على الراين*. بعد ذلك خطر ببال

لنكولن كورشتاين خاطر لا يتعلق فقط بمشروع بالي جديد ولكن أيضا بالمكان الذي سأقيم فيه بينما أنجز العمل. كان لنكولن قد أقنع جورج دافيس الذي كان آنذاك المحرر الأدبي لمجلة *بازار هاربر* أن يوقع على عقد الرهن لمنزل من الحجر البني في شارع ميداغ على مرتفعات بروكلين. كان الهدف من وراء ذلك توفير مكان للاقامة بثمن معقول لمجموعة من الأشخاص يشتغلون في الفنون. كانت جيبسي رُوز لي قد أقامت في المنزل بينما كانت تكتب أُحجية تحمل عنوان *سلسلة جرائم ج* التي ظل جورج دافيس يزعم أنه مؤلفها الأصلي. وبعد أن أنهت الكتاب، انتقلت من المنزل. كنت أنا وجين نشغل الحجرتين الفارغتين.

بالنسبة لي كان المنزل نموذجا للمعمار الألماني. كان مجهزا بما يسمى الآن تحفا، وهي عبارة عن نماذج من بشاعة القرن التاسع عشر الأمريكية انتقاها جورج من على أرصفة الشارع الثالث وشارع فولتون ببروكلين ومزجها معا بعناد نزق لخلق نسخة ساخرة لمنزل جدته بمشيغان. عموما كان المنزل دافئا جدا وهادئا إلا عندما يكون بنيامين بريتن يعمل في باحة الطابق الأول حيث كان قد وضع جهازا بيانو أسود ضخم من نوع شتينواي. يقيم في الطابق الأول جورج بينما يقطن أوليفر سميت وجين وأنا في الطابق الثاني، أما بريتن وأُودن وبيتر بيرز، المغني البريطاني، فيحتلون الطابق الثالث. وفي العلية يوجد غولو، ابن توماس مان الأصغر. لاحقا، بعد أن غادرنا المكان انتقل كارلوس ماكلرز إلى مكاننا إضافة إلى ريتشارد رايت وزوجته وابنه. كانت تجربة في العيش المشترك، وأظن أنها كُللت بالنجاح والفضل في ذلك يعود إلى أن أُودن هو الذي تولى مهمتها. كان حذقا بشكل استثنائي في الحصول على المال الضروري منا حينما يحين موعد ذلك. كان لدينا طباخ ماهر وخادمة هائلة (و قد كنت أشك بأن أية خادمة أخرى كان يمكنها الحفاظ على المنزل نظيفا تماما.) وكنا نتناول وجبات مبخرة يتم تقديمها بانتظام وبدقة في غرفة الطعام الأرضية والمعتمة، حيث يجلس أُودن على رأس المائدة. عادة ما نبدأ وجبة بالاعلان: "لدينا لحم مشوي وصنفان من الخضار وسلاطة ومقبلات ولن يكون هناك أي نقاش سياسي." كان أُودن يحظى بما يكفي من مهابة الرجل النبيل التي تجعل الآخرين يلتزمون بالنظام؛ بشكل صحيح إلى حد ما كان لا يطيق النقاش أو الملاسنات خلال وجبات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الطعام. مارس اثارة خاصة على جين التي عرضت بأن تقوم بـرقن مسـوداته، وبشكل مدهش وافق على عرضها. هكذا كان عليها أن تستيقظ كل صباح على الساعة السادسة وأن تنـزل السلالم إلى الطابق السفلي لتلتقي بـه في حجـرة الطعام حيث يعملان لثلاثة ساعات أو ما يعادلها قبل الفطور طالبين بين الحـين والآخر المزيد من فناجين القهوة من المطبخ.

في القبو وراء المدفأة كانت هناك غرفة صغيرة حيث وضعتُ بيانو مسـتقيم وكنت أعمل هنا حتى ساعة متأخرة من الليل في وضع الموسيقى لعمـل رعـوي لفائدة قافلة البالي الأمريكية. تنهض الفلسفة الجمالية للبالي على احتفالات سـابقة لمجيء المسيحية كما كان يقوم بها هنود المكسـيك؛ متتاليـات صـوتية تتوسـل بالكلمات الفعلية وتنثر الأغاني بين ثنايا المقاطع الموسيقية. لم أنصت لهـا إلا بعـد مرور ست سنوات؛ خلال تلك الأثناء لم أعد أذكر أي شيء بشأنها بحيث كـان لدي الانطباع بأنها قد تكون من تأليف شخص آخر وإن كنت مع ذلـك قـادرا على الاستمتاع بها.

في هذه الأثناء كان سلفادور دالي يقوم بين الفينة والأخرى بانجاز رسـومات لمجلة بازار هابر؛ وما أن يتم طبعها حتى يحملها جورج إلى المنـزل ويقوم بوضعها في اطارات. تمثل إحدى هذه الصور خُطاطة رائعة بقلم الرصاص لهاربو مـاركس وهو يعزف على قيثارة أوتارها من الأسلاك الشائكة بينما تتراءى في الصحراء التي تشكل خلفية الصورة زرافات تلتهمها النيران بشكل مثير. كان جورج قد تـرك وراءه اللوحة على النافذة وغادر الغرفة. خلال غيابه هبت عاصفة شتوية. حينمـا عاد إلى المنـزل وجد لوحة دالي ممقوعة بالماء وملطخة بينما لا تزال النافذة مشرعة على آخرها. أسرع نحو سوسي، الخادمة، وشرع يؤنبها، مشيرا إلى اللوحة المرة تلو تلو المرة: "كيف يمكنك أن تفعلي بـي هذا سوسي؟ لقـد تضـررت كـثيرا." اعتادت سوسي على مثل هذه السلوكات، غير أنها تعاطفت وحركت رأسها يمينا ويسارا: "نعم السيد دافيس، أنت محق. لا ريب أن ذلك سيء للغاية. لقد كانـت صورة جميلة لأمك."

تقيم في المطبخ قطة ضالة كانت قد صدمتها سيارة في وقت سابق. في جنبها يوجد جرح مرعب لم يندمل بعد. اعتقدنا أن الطعام المنتظم ومكانا دافئا للنوم قد

يعجلان بشفائها وبالتالي فقد سمحنا لها بالبقاء في المطبخ "بين الأقدام،" كما يقول الخدم. ذات ليلة خلال حفل امتد حتى وقت متأخر من الليل كان العديد منا يقف في المطبخ لتحضير القهوة. وبينما كان دالي يتجول في الجوار، شاهد القطة وغـدا شاحبا حينما انتبه إلى أنني لاحظت ردة فعله. اعترف لي: "أكره القطط وخصوصا تلك التي تحمل جروحا." لم تكن هذه الملاحظة لطيفة، حتى لو كان المقصود بها شخص يخشى القطط ولا شك أنني بادلته النظرة ذاتها التي ارتسمت على وجهه عقب رؤيته للقطة.

بدا شكي بأن منحة كوهايم لا يمكن أن تجد طريقها إلي في محله. إضافة إلى المال الذي كنت أجنيه من الأعمال الأخرى وما يصلني أسبوعيا من فوائد على مسرحيات *مراقبة الراين* و*الليلة الثانية* عشر أحسست بأنه لا جدوى من البقاء مدة أطول في نيويورك وهكذا توجهت مرة أخرى رفقة جين جنوبا. عبرنا إلى فيرا كروز ثم إلى فورتين لبضعة أيام. كما يذكر كل من ذهب إلى هناك فإن السهل كله يفوح برائحة أزهار الغردينيا. كل صباح كان سطح المسبح بفندق رويز كاليندو صفحة من مئات الورود مما جعلني أفكر بشراء ما يكفي من هذه الزهور لنثرها فوق السرير. كنا نحملها إلى الغرفة خِلسة على مراحل متفرقة خلال اليوم بدل أخذها كلها دفعة واحدة حيث لا يجوز رؤيتنا ونحن نتجاوز مكتب الاستقبال. حينما كان لدينا ما بدا كمية كافية من الورود نثرناها فوق السرير، ثم خلعنا ملابسنا واستلقينا هناك. كان ينتابني طفح جلدي حاد وبالتالي فإن التجربة لم تكن لتنسى بأي حال من الأحوال.

ذهبنا إلى العاصمة المكسيكية لقضاء أسبوع. كان لوراي هناك؛ التقيت به ذات صباح في حانة الريتز إضافة إلى ليوبولد ستوكفسكي الذي عرض علي آنذاك وهناك أول كأس من شراب الميسكال و، يجب أن أضيف، جعلني أتناول معه بعض الديدان. غالبا ما كنت أشاهد الرخويات المطحونة بينما يتم مزجها بالملح على جانب من يد الشارب على وشك احتساء كأس من شراب الميسكال وكنت غالبا ما أرفض المشاركة في هذه الطقوس. الآن وقد عرضها علي ستوكفسكي فقد شعرت بضرورة أن أضع جانبا تقززي. إضافة إلى الملح وعصير معجون والمشروب الذي يفوح منه مذاق البنزين بدت التجربة دون طعم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذات ليلة خلال حفل أقيم في نيويورك أخبرتني كاتريني هيبورن بأن أخاها الأصغر ريتشارد سيبعث لي بمسرحية كان على وشك إنجازها وأنه علي أن أتوقع وصولها في أية لحظة. حينما وصلت إلى تاكسكو كانت المسرحية بانتظاري في المنزل إضافة إلى رسالة من هيبورن تطلب مني فيها إذا ما كان بامكاني وضع الموسيقى للأغاني التي تتخلل النص. تبادلنا الرسائل لبعض الوقت واتفقنا على المقابل المادي. بعد ذلك صرت مستعدا للشروع في العمل. كان هذا يعني بأنه علي أن أجد بيانو، مطلب يعز في تاكسكو أكثر منه في طنجة. ما دام أن الايقاع بدل اللحن هو العنصر المركزي في فلسفتي الموسيقية فقد كنت عاجزا عن التأليف دون إمكانية وجود آلة بيانو. يمكنني أن أصغي بكل وضوح لخمس نوتات في نفس الوقت وبعد ذلك يصير ذهني مشوشا. عرضت علي امرأة روسية تدعى تاماري بكل كرم استعمال جهاز البيانو الذي تملكه. وهكذا شرعت في العمل. سار التأليف الفعلي بشكل ممتاز غير أن الساعات الاضافية الكثيرة التي كان علي أن أقضيها في الترتيب والنقل لم تكن سهلة. كنت أرغب في خصوصية مطلقة غير أن ذلك بدا مستحيلا في المنزل. كانت جين وبوب هنالك (لا يزال يشاركنا المنزل وكان قد أمضى الشتاء كله لوحده هناك.) كانا يحبان العلاقات الاجتماعية والمشروبات.

قررتُ أن أجد منزلا صغيرا منزويا حيث يمكنني أن أنصرف إلى انشغالاتي كل يوم في هدوء تام. ومادامت كل المناطق المأهولة تفتقر إلى السكينة فإن بحثي عن مكان تتوفر فيه علامات الراحة كان يجب أن يتم على ظهر حصان. كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة للابتعاد بما يكفي عن البلدة. بعد العديد من الجولات الطويلة وجدت ما كنت أبحث عنه. كان المنزل يبعد بحوالي ساعة عن مكان إقامتنا إلى جوار قمة حافة تطل على هوة حيث يترامى الهدير الخافت لشلال. يربض المنزل الطيني الأحمر الصغير ذو الغرفة الوحيدة والشُّرفة المغطاة بالقش تحت أشجار الأفوكادو أمام فضاء مفتوح يترامى جهة الجنوب.

كل عشية حينما يغرق الجميع في القيلولة أركب الحصان الصغير الذي استأجرته وأتوجه إلى منزلي للعمل لثلاث ساعات متتالية. توجد في الغرفة طاولة وكرسي أما الشُّرفة فقد كانت تحتوي على أرجوحة كنت قد اشتريتها في

تيهاونتيك. كلما أصابني التعب جراء ترتيب حب *كنـار* إلا وألقـي بنفسـي في الأرجوحة وأتعلق هناك في الهواء لخمس دقائق لا أنصت خلالها سـوى للصـوت الخافت البعيد للشلال اللامرئي. إلى حدود علمي لم يتم انتاج المسرحية مطلقا كما أن الموسيقى هي الأخرى لم تبث بتاتا.

كان ماتا اشاورين، الرسام السوريالي الشيلي الذي كنا قد تعرفنا إليه سـابقا في نيويورك، يمتلك منـزلا بتاكسكو. بمساعدة باجاريتو، زوجته، بلور أسلوبا في العمـل تشكل على مر السنين. كان يلقب هذه الطريقة "الرسم الميتافيزيقي،" وهـي طريقـة اعتباطية تسم عملية الرسم لديه. تشد باجاريتو عصابة حول عينيه، ثم تمـده بفرشـاة وتسمح له بأن يختار لونا وأن يضع بعضا منه على الفرشاة. بعد ذلك تقـوده صـوب لوحة بيضاء فارغة سيتمكن في الأخير من ملامستها بفرشاته، واضعا هنـاك علامـة صغيرة. يكرر العملية قدر ما يشاء مستعملا الفرشاة والألوان الأخرى، وبعـد ذلـك ينطلق من هذه النقط الرئيسية الاعتباطية التي كان قد تم فرض ألوانها مسـبقا بشـكل جزافي، فينـزع العصابة عن عينيه ويشرع في نسج الأشكال الرابطة بينـها. تكـون اللوحات المنجزة غريبة ومتوهجة على نحو غامض. كما أن ماتا كان دائمـا شخصـا وسيما يتحدث دون انقطاع فيبدو أحيانا مثل بيغاء مستثار، خصوصا حينما يضحك.

بعد أن نشأ خلاف بيني وبين بوب بشأن ما اعتبرته سهراته حتى وقت متأخر من الليل وما يرافق ذلك من ضوضاء انتقل إلى منـزله الخاص. بدت دوائر جـين من المعارف تتسع يوما بعد يوم. كانت هناك على الدوام حفلات حيث يتنـاول كل الحاضرين الكثير من الشراب وكانت هناك امرأة امريكية تـدعى هيلفشـيا بركينـز كنا نلتقيها كل يوم. كانت لديها مقطورة تجرها سيارة وكانت تأخـذنا معها إلى السوق في ايغوالا حيث إضافة إلى الفواكه والمنظر كنا نشـتري دائمـا كميات كبيرة من أواني الفخار. كانت جين تجلس كل صباح في السطح تشـتغل على روايتها *سيدتان حازمتان*. كنت لا أزال أحتفظ بمنـزلي الصغير الذي يشرف على السهل غير أنني كنت أقصده لماما. بدل ذلك كنت أقوم برحلات إلى الجبال في أعالي تاكسكو.

بعد حين حل أُوليفر سْميث هو ووالدته وإيفان برنكوف، زوج أمه. كمـا كان يرافقهم رسام مكسيكي شاب اسمه أنتونيو ألفاريز كان فخورا جدا بأصـوله

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الهندية؛ حينما كان صبيا تم وضعه في حوض حمام مليئ بدم العجل. ذهبنا كلنا إلى أكابولكو للإقامة من جديد في منـــزل سبراتبليغ الساحلي. كان الطعام جيدا هناك كما أن الشمس والتزحلق على الأمواج والرياح أشاعت جوا أفضل. عاد الكل إلى تاكسكو بعد ثلاثة أسابيع أو ما يقاربها غير أنني بقيت هناك أقـــيم في خيمـــة في الطابق الأرضي في فندق كوسطا فيردي في كاليتا. ذات زوال شاهدت هنـــديا في الساحة يجر أُسلوتا صغيرا بواسطة سلسلة. دأبت تلك الأيام على شراء الحيوانـــات والطيور كما أن الأسلوت كان شيئا لا قِبل لي به. كان حيوانا صـــغيرا رائعـــا ذا عينين ضخمتين زرقاوين كالياقوت وقوائم تشبه القبضات. اشتريته وأخذتـــه إلى الخيمة حيث بدا سعيدا. خلال الليل كنت أستلقي على ظهري وكان هـــو يقـــوم بحركاته دون كلل: يتقدم إلى الأمام حتى قدمي ثم يعود إلى الوراء ودائما يحك فكه على ذقني كلما هم بالانعطاف. كان يواظب على نفـــس الايقـــاع كلمـــا قـــام بالحركات ذاتها ويصدر صوتا شبيها بهدير محرك. فكرت بأنه سيكون تعويذة رائعة للمنـــزل في تاكسكو. ونظرا لأنني عزمت الذهاب عبر الحافلة فقد وفرت قفصـــا واسعا وضعت الحيوان فيه وحملته إلى محطة الحافلة ساعتين قبـــل الموعـــد المحـــدد لانطلاقها بحيث لا يستطيعون أن يدعوا بأنه لا يوجد له مكان على سطح الحافلة. وصلت في وقت الانطلاق فنظرت إلى الأعلى: كان كل شيء هناك في الســـطح تحت غطاء سميك. نشب نـــزاع بيني وبين السائق، وبائع التذاكر، والميكـــانيكي والحمالين. فكما أخبروني، فقد فات الأوان لإنزال الأمتعة، ذلك أن الحافلة علـــى وشك المغادرة. غير أنني صرخت في وجوههم بأن الحيوان قد يموت فكان ردهم: "ربما."

بسرعة تسلقت إلى سطح الحافلة وسحبت الغطاء عن الأمتعة. هكذا في فورة غضب جارفة أخذت ألقي بكل الأشياء إلى الساحة: الصناديق والعلب والأكياس، أشياء ما كنت أجرؤ في ظروف عادية حتى على رفعها. كان القفـــص ملقـــى في الأسفل. انتشلته وحملته معي إلى أسفل السلم. وبعد ذلك استأجرت سيارة أجـــرة إلى تاكسكو. حينما وصلنا إلى الجبال أثارت رائحة هواء الليل المتسرب عبر النافذة الحيوان فانتصب على قائمتيه الخلفيتين وأخذ يتشمم الهواء. كنت أتوقع أن يقـــوم بقفزة مباغتة وهكذا منذ ذلك الحين واصلنا السفر والنوافذ تكاد تكون مغلقة.

حينما عدت إلى تاكسكو لم أكن على ما يرام. تناولت الدواء وواصلت حياتي بالرغم من أنني لم أكن قادرا على تناول الطعام، وحينما تمكنت من ذلك كنت غالبا ما أشعر بالألم بعد ذلك. لاحقا تناهى إلى سمع بعض الأشخاص في مجلة الحياة خبر الأسلوت فبعثوا إلي برسالة يطلبون فيها إذا ما كان بإمكانهم إنجاز فيلم وثائقي والتقاط بعض الصور. وافقت على طلبهم غير أنه غداة وصولهم شعرت بعياء بحيث لم أستطع مشاهدة العمل الذي أعدوه: كان ذلك يتمثل في جعل حمامة بيضاء طليقة على السطح (كانت مقيدة بحيث تمشي بصعوبة) وجعل الأسلوت يتعقبها. هنا أخذ الطاقم بطبيعة الحال بتصوير الفيلم والتقاط الصور. كانت نهاية الحلقة المصورة، كما كان متوقعا، هو القتل المؤجل والتهام الحمامة غير أن النهاية الفعلية للقصة جرت في اليوم التالي حينما كنت في حالة من الإنهاك والمرض لا عهد لي بهما. كان علي أن أرى أدالبيرتو، الخادم الهندي الصغير، وهو يدلف إلى غرفتي بانتشاء، ممسكا بجلد مرقط يقطر دما لأصدق حقيقة ما جرى. كان ينشد وقد علت محياه ضحكة عريضة: "لقد اخترقت عظام الطائر أحشاء الحيوان."

كانت هذه الفترة سيئة. كنت مريضا بحيث لا أذكر الرحلة إلى العاصمة أو الأيام القليلة الأولى في المستشفى البريطاني. كنت مصابا بحالة حادة من اليرقان وقد صار لوني داكنا وعيناي بلون صُفار البيض. كان الحقد الذي راكمته خلاه تلك الأيام التي كنت فيها طريح الفراش نحو تاكْسكو حادا بحيث طلبتُ من جين التخلص من الأثاث والمنزل. أقمنا ذلك الخريف في شقة في العاصمة. فكرت بأنه حان الوقت للشروع في مشروع الكوكنهايم. قررت أخيرا أن أكتب الأوبرا وذلك بالاشتغال على نص لغارسيا لوركا بدل ليبرتو لساروريان. استأجرت بيانو وشرعت في العمل. لم يمر وقت طويل قبل أن أقع مرة أخرى طريح الفراش، غير أن المرض هذه المرة حمل اسم الصفراء المستفحلة وتم إرسالي إلى مصحة في الريف خارج كويرنافاكا. هناك لم أكن أتناول سوى الروز المغلي دون ملح. بعد كل إطعام كانت ممرضة تضع كمادة حارقة على كبدي وتلفني بحزام عريض. بعد أسبوعين كان بامكاني الوقوف على رجلي. وأنا أعيش في المستشفى وجدت مكانا للعمل في اماتيتلان بالجوار حيث كانت سيدة أمريكية تتوفر على بيانو جيد. كنت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كل زوال أستأجر دراجة هوائية وأذهب لمواصلة عملي على موسيقى الأوبرا. ذات زوال أنهيت العمل مبكرا وسقت دراجتي عائدا إلى كويرنافاكا عبر مركز المدينة لأستريح قليلا في مقهى بالساحة. وأنا جالس هناك سمعت شلالا مفاجئا من الأخبار ينبعث من المذياع. تم قصف كل من سان فرانسيسكو ولوس أنجلس، كما أن هاواي كانت بين يدي اليابانيين. ركبت الدراجة فورا وعدت إلى منزل جاك كريك حيث كانت جين تقطن. كانوا هم أيضا قد سمعوا الأخبار غير أنهم كانوا منشغلين بلعبة البادمينون و لم يكترثوا للأمر. في اليوم التالي نشرت الوطنية، وهي جريدة حكومية، نفس الأخبار التي كنا قد استمعنا إليها على الأثير. بعد ذلك بعد أن تم تأكيد حقيقة بورل هاربر بما لا يدع مجالا للشك تم حذف الأجزاء المتعلقة بتفجيرات كاليفورنيا والاحتلال الياباني (كان المحرر قد ذهب ذلك اليوم إلى كاليفورنيا وهذا ما يفسر كل شيء.)

بينما لا زلت في المصحة حملت إلي جين المسودة الكاملة لروايتها *سيدتان حازمتان* . كنت قد سمعتها تقرأ أجزاء منها بصوت عال السنة الماضية في نيويورك حينما كانت لديها غرفة صغيرة غرب الشارع الحادي عشر حيث تذهب كل يوم للكتابة. أحيانا كانت تستدعي بعض الأصدقاء المقربين من أجل تناول المشروبات وتقرأ عليهم فصولا من روايتها. كان العديد من الأشخاص على علم جزئيا بالكتاب لكن ولا واحد منهم سبق له أن قرأه بالكامل. لا أظن أنني أخبرتها حينها عن مدى تقديري للرواية، لكن ربما قد أكون فعلت. آمل ذلك، ذلك أنني أذكر أنني انتقدتها بسبب أخطائها المطبعية والنحوية والبلاغية. في فورة غضب صرختُ: "لا تسمحي لأي شخص بقراءة هذه المسودة الحقيرة." كانت هادئة جدا بشأن ذلك فطمأنتني قائلة: "إذا ما كان هنالك ناشر فهو سيعتني بهذه الأمور. لا ينشر العمل أبدا لمجرد أنه يخلو مطلقا من الأخطاء المطبعية، أيها التعيس."

حينما غادرت مصحة الدكتور فورسبورغر اقترح علي مغادرة العاصمة لفترة من الوقت حيث العلو لا يساعد على عمل الكبد بكل سهولة. كنا في العاصمة المكسيكية لمدة وجيزة وبعد ذلك انتقلنا رفقة هيلفيشيا بوركينز وأنتونيو ألفاريز إلى تهوانتبيك.

كان المكان تحديدا كما كان عليه سنة 1937 باستثناء وجود المزيد من الأطفال الصغار الذين كانوا يلعبون البيسبول. كانوا لا يزالون ينادون على بعضهم البعض باللغة الزباطية وأحيانا كان أحدهم يصرخ: "خطأ."

بقينا ربما لستة أسابيع بتهوانتبيك. كانت هناك أعياد تقريبا كل ليلة، معظمها على مسافة يمكن للمرء أن يقطعها مشيا على الأقدام من الفندق. لم تكن تهوانتيك بلدة بقدر ما كانت جهة، تجمعا لقرى صغيرة تتمحور حول سوق مركزي. ونظرا لغياب المواصلات إضافة إلى أن الشوارع تغطيها الرمال فإن هدوءا مباركا كان يعم أجواء المساء حينما تخطو خارج الفندق إلى الشارع، هدوء يسمح بسماع الطبول. وحتى لو كنت في إحدى القرى البعيدة، فيمكنك سماعها، والتوجه نحوها. كانت أماكن الرقصات هي هي، باحة مغطاة بالقش، وصفوف من المصابيح تملأ المكان ضياء. فمن جهة هناك بعض الآلات الموسيقية الافريقية والطبول كما توجد الكراسي حول الجهات، كلها مملوءة بشباب يشاهدون الفتيات والنساء يرقصن معا. في الأخير يشارك بعض الرجال في الرقص ولكن فقط حينما تطلب منهم النساء ذلك. تناسب هذه السلبية غير المبررة التي يبديها الرجال الزباطيون بشكل جميل ملاحظتي بأنه بالنسبة لهم يعد رضع ثدي امرأة منتهى الرغبة الجنسية. خلال الدعابات المتبادلة، والأغاني القصيرة والأحاديث التي تدور بين الرجال حينما يجلسون في الحديقة اكتشفت بأنه إذا ما منح الواحد منهم ثديا ليرضعه فذلك أعز ما يطلب.

ذات يوم أخذني أحدهم أنا وأنتونيو في جولة عبر الوادي على طول منصة السكك الحديدية الى سانتا ماريا، ليرينا الضيعة حيث تربى القطط ليتم بيعها بعد ذلك كطعام. كان الأمر حتى ذلك الحين مجرد شك بالنسبة لي غير أنها كانت هناك داخل طوابير من الأسيجة، كل واحد منها كبير بما يكفي لاحتواء قطة سمينة بحيث لا تقوى على الحركة. منذ ذلك الحين داخلتني الريبة إزاء لحم الأرانب كلما شكل وجبة بفندق الجوهرة. من المستحيل تمييز أي نوع من اللحم يتناول المرء بالرغم من القطع السوداء والبيضاء للفروة التي توجد في القدر.

ذات يوم لمحت هنديا عجوزا يحمل طبلا رغبت في اقتنائه كثيرا. في البدء رفض التخلي عن طبله ذلك أنه يعزف عليه في منصة المحطة حينما تتوقف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

القطارات ويجمع بعد ذلك قطعا نقدية من المسافرين. كان الصبي الذي يرافقه ينفخ في ناي ويقوم فعلا بالتوسل للمسافرين. بعد كؤوس من الشراب تلك الليلة سمح العجوز لأنتونيو بالحصول على الطبل مقابل أحد عشر قطعة نقدية. أخذت الطبل إلى العاصمة المكسيكية ووضعته في غرفة الأمتعة بفندق كارلتون حيث كان المسير شخصا ألمانيا مرحا يدعى أوسكار شواب. بسخائه سمح لي ولجين بتخزين عدد كبير من العلب والصناديق.

لم تكن تلك السنة جيدة بالنسبة لأحوالي الصحية. مرة أخرى أصاب القصور كبدي وكان علي بالتالي العودة إلى المصحة في كويرنافاكا. حينما تماثلت للشفاء ثم اكتشاف بأن الورم الذي تم اقتلاعه من فكي سنة 1923 ظهر مرة أخرى، لكن هذه المرة بحجم أكبر وبالتالي يجب إزالته. استغرقت العملية زمنا طويلا بحيث كان على طبيب الأسنان أن يبعث إلى مخزن سانبورن للأدوية من أجل بوصة أخرى من المخدر حينما كان في منتصف العملية. كانت نتائج العملية كارثية: تورم وجهي وعنقي على نحو خيالي. حينما جاء طبيب الأسنان لعيادتي في المستشفى في اليوم التالي حمل دزينتان من أزهار الجمال الأمريكي ذات السيقان الطويلة حتى إذا ما وافتني المنية فيمكن للمرضات استعمالها حول التابوت. كان قد ارتكب خطأ وأحدث قطعا في الغدة أسفل الفك السفلي. بعد أسبوعين غادرت المستشفى غير أن فكي لم يعد إلى حاله أبدا.

فجأة عبرت جين عن رغبتها في العودة إلى الولايات. كانت لديها فرصة للذهاب في السيارة مع هيلفيشيا بوركينز في المقصورة التي تجرها السيارة. وبدا ذلك أمرا سهلا للتخلص من كل الأشياء المكدسة في المخزن بفندق كارلتون. ذهبت إلى كوادالاخارا للراحة. كانت المدينة تغوص في إيقاع بطيئ بينما يقل ارتفاعها وتعج بأجراس الكنيسة وعربات يجرها الأحصنة. داخلني احساس بأنني أعيش خلال العقد الأول من القرن العشرين غير أن بلدة أجيجيك حيث قضيت بعض الأسابيع لا حقا في منزل دون بابلو هوير على ضفة بحيرة شابلا كانت أكثر بدائية غير أنها كانت معاصرة على مستوى الاحساس. زرت منزل لورنس الصغير في شابلا بغرفه الخانقة وجوه الذي يشبه الشوارع الخلفية. خلال هذا الوقت كانت قراءاتي كلها باللغة الاسبانية، وذلك من أجل المواظبة على النظام.

هكذا تعرفت على كل القصائد الشعرية والمسرحيات لغارسيا لوركا، روايتي أدلفو بيو كاساريس ومذكرات رفائيل ألبرتي ودفاتر الأيـام الاسـتعمارية المبكـرة في المكسيك لصاحبها بارتولمي دولاس كاساس وبادري ساهاكون. وللمـرة الأولى تعرفت على قصص بورخيص؛ كان مجرد فتح هذا الباب واكتشاف عالم كامـل يتراءى وراءه شيئ يبعث على الرضى: أدب سررتُ به وأحسست بـالقرب منـه قربـي تقريبا من الأدب الفرنسي.

ودون سابق انذار استنتجت بأنه لم تعد تتملكني الرغبة في البقـاء لوحـدي بالمكسيك. كانت العمة ماري قد توفيت للتو وكان هولدن هول الذي كانت قد تركته لأبـي ولعمي شارلز فارغا. فكرت أن أسرع إلى هناك وأن أمـلأ المكـان الفارغ، وهكذا كتبت إلى جين مقترحا بأن تقوم بالترتيبات اللازمة لكي تنتقل إلى هناك في أقرب وقت ممكن. (أو من الأفضل أن تنتقل إلى هناك أولا قبل أن أصل.) ما حصل فعلا هو أننا أقمنا في المنـزل كرباعي، نفس الرباعي الذي كـان قـد ذهب إلى تهوانتبيك. لبعض الوقت كان أنتونيو يرغب في وضع حد لحياته وبالتالي فقد ابتلع قارورة من الكبسولات، جرعة فوق الحد المطلوب. حينمـا عـدت إلى العاصمة كان مشلولا جزئيا ويرقد في المستشفى. كان أسـتاذه، شـاعر يـدعى خوسي فيريل، الذي كانت ترجمته الاسبانية لرامبو قد ظهرت للتو، يرى بأنه يجب أن يخضع للعلاج في نيويورك. وما دام قد استطاع بعد حين المشي فقـد وافقـت على أخذه معي إذ لا زلت أذكر أن لدى لاتوش طبيبا يصنع المعجـزات يمكـن اللجوء إليه فقط في الحالات الحرجة.

لايزال لدي العديد من الأشياء في حانة في كارلتون وهكذا طلبت نقلـها إلى غرفتي استعدادا للسفر. اختفى الطبل بالرغم من أن جين كانت قد أخبرتني بأنهـا ستتركه وراءها. بعد أن بحث الجميع عليه دون جدوى أرسلت برقيـة إلى جـين بهولدن هول أسألها عن مكان الطبل. فشواب يزعم بأنه لا يوجد في الحانة."

منذ الرحلة التي قمنا بها إلى المكسيك قبل زواجنا حينما شرحت لها بتفصـيل الموضوع تملك جين ما يمكن أن يعتبره الكثير من الناس خوفا شديدا مـن رجـال الأمن. فبرقيتي بدل أن تُرسل إلى هولدن هول وقعـت في يـد عناصـر مكتـب الاستخبارات الفيدرالي الذين كانت لديهم أسباب خاصة للاعتقاد بأنهـا رسـالة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مشفرة. في زوال خانق حل رجلان يعلو الاتزان سيماءهما في لباس رجال الأعمال إلى الهولدن هول. قدما نفسيهما وتم إدخالهما إلى الخزانة حيث كانت جين جالسة. بعد ذلك فتحا *حقائبهما* وأخرجا بعض الأوراق وأخذا يداعبانها. كانت هيلفيشيا خلال هذه الأثناء قد التقت الخادمة فأخبرتها عن هوية الزائرين. حينما سمعت ذلك طارت عبر السلالم الخلفية إلى غرفتها. أغلقت الباب وشغلت نفسها بإضرام نار في المدفأة. غير أنه في جو أغسطس حيث تنعدم الرياح، بدل أن يصعد الدخان عبر الماسورة إلى الأعلى انسحب إلى الأسفل وأخذ يملأ مدفأة الغرفة السفلى التي كانت هي المكتبة. أخذ الرجلان يحدقان في بعضهما البعض، فقال أحدهما:

-الجو حار اليوم لاشعال النار، أليس كذلك؟

هزت جين كتفيها ثم قالت: "إنهم يجربون المدخنة."

نهض أحد الرجلان وأخذ ينظر إلى الكتب التي تحيط بالجدران: "بعض الكتب القديمة هنا مهمة جدا."

-إنها لعمة زوجي.

حينها التفت الاثنان نحوها: "نعم نريد الحديث إليك بخصوصه." وهكذا بدأ استجواب سريع، طالبين من جين تأكيد مجموعة تواريخ وأمكنة وأسماء، وهكذا توغلا أكثر فأكثر في الماضي إلى أن صارت عاجزة عن تذكر أي شيء. اعتبرا هذا السلوك رفضا من جهتها للإجابة عن أسئلتهما غير أنهما تركا الأمور تتخذ مجراها وواصلا جمع معلومات اضافية.

-و أين كنتما في شهر آذار من سنة 1938؟

- باناما.

أخيرا حانت لحظة التوقف. فسحا المجال للصمت لكي يعبر عما كان يجول في ذهنهما. بعد حين قالا:

- السيدة بولز إنكم تتنقلون كثيرا، أليس كذلك؟

-لا شك في ذلك.

بعد ذلك أصبحا في غاية الجدية: "السيدة بولز لماذا يسافر زوجك كثيرا؟"

هزت جين كتفها مرة أخرى ونبست: "أنا لا أعلم شيئا. لعل أعصابه متوترة."

أخيرا أثاروا موضوع البرقية. كانوا يمسكون ويلوحون بها في الهواء قائلين: "هذه البرقية هي من زوجك في العاصمة المكسيكية. هل يمكنك أن تخبريننا عن معناها؟"

لم يقتنعوا على الإطلاق بتفسير جين، حتى حينما أضافت بأن الطبل يوجد فعلا بأمان في فندق شيلي بنيويورك. كانوا يرغبون في معرفة سر قلقي بشأن طبل، كما أبدوا اهتماما أكبر بشواب وسألوا جين إذا ما كانت هي الأخرى قد ذهبت إلى بوديغا وعن الطريق المؤدية إليها. لكن حينما شرحت لهم معنى كلمة بوديغا (حانة)، عادوا إلى شواب. بعد التلغرام انتقلوا إلى مكالمة هاتفية جرت بين لاتوش وجين أسبوعا قبل ذلك، محادثة يبدو أنهم يتوفرون على نصها المكتوب.

-هل تذكرين مالذي تحدثت بشأنه؟

لم تتذكر جين شيئا ما عدا أن لاتوش كان قد وصف لها وصفا دقيقا غداء تناوله للتو مع إليانور روزفليلت كما أنه كان قد أضاف بأنه على باقي أعضاء الحكومة أن يكونوا من شوارب مختلفة (تم منعه من الحصول على جواز سفر وكان متحمسا جدا للذهاب إلى الكونغو.) غير أن جين لم يكن عليها أن تواجه كل هذا ذلك أنهم واصلوا استجوابهم: "من يكون فريدك فون فينفيتس، السيدة بولز؟" كان اللقب مجرد دعابة بيننا نحن الثلاثة؛ فما دامت أم لاتوش يهودية فقد كان يزعم بأن أمي هي الأخرى يهودية وكان اسمه الاحتقاري لي كلما أراد أن يمازحني هو فريدريك فون فينفيتس. بعد أن غادر الرجلان المنزل نزلت هيلفيشيا إلى الأسفل. كان سبب توترها أنها كانت تتوفر على بعض الرسائل من أحد معارفها الذي يقبع حاليا في السجن لمدة طويلة لقبوله خمسة وسبعين ألف دولار من اليابانيين للقيام بأعمال دعائية في الولايات المتحدة. كما يبدو جليا أنها لم تكن على وعي بالتزامات الرجل حتى ذاعت الأخبار في الصحافة. ومع ذلك ففكرة وجودها وبحوزتها رزمة من الرسائل موقعة من طرفه أرعبها كثيرا. حينما أحرقتها قررت أن تغطي على آثارها وذلك بمواصلة حرق أوراق أخرى لا علاقة لها بالموضوع، حتى إذا ما اقتحم رجلا الاستخبارات الغرفة وألقوا القبض عليها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

متلبسة فلن يعثرا على أي شيء. كان لهذه المواجهة الغريبة في غيابـــي جانبـها الآخر بعد عودتي إلى واتكينـز غلين. كان أنتونيو يقوم بجولات طويلة مشيا على الأقدام عبر المضايق وعلى التلال المجاورة. أينما ذهب كـان الأشـخاص يقفـون مختبئين وراء ستائر نوافذ المزرعة ويقصدون هواتفهم. بعد ذلك يتصلون بالشـرطة لاخبارهم بأن رجلا يابانيا يبعث مظهره على الريبة قد مر بالجوار. لم أسـلم أنـا الآخر من المضايقة حيث اعتقلت مرتين، مرة تحت تهديد السلاح، وتم استجوابـي حتى تم الاتصال هاتفيا بالعم تشارلز في كلينورا. كان عليه أن يأتي إلى واتكينـز غلين والكشف عن هويتي قبل أن يطلقوا سراحي. كان ذلك صيف 1942؛ كانت صافرات الهجومات الجوية وانقطاع التيار الكهربائي أمرا عاديا. وصل الخوف من الأجانب ذلك الحد بحيث أننا لم نجرأ على الحديث بالانجليزية في المناطق العامة ممـا يعني أنه علينا أن نهمس بين الحين والآخر بالاسبانية ونحن نتحدث لأنتونيو.

كنت أحاول اتمام *وتبقى الريح*. كانت الغرفة الموسيقية في هولدن هول هادئة وواسعة. لم أكن أتوقع شروط عمل أفضل من هذه. بطبيعة الحال كان أفراد العائلة يأتون للزيارة. كانت ماري الطباخة الايرلندية التي كنا قد حملناهـا معنـا مـن نيويورك والتي كانت تعاقر الخمر سرا مرنة وكانت تلبـي أكثر الطلبات المطبخية غرابة. والنتيجة أننا تمتعنا بوجبات رائعة. يحمل أبـي وأمي بعض الأحيان شراب البوربون والجين لكن أبدا الخمر الشيء الذي حظي باهتمام أكبر من طرف جـين وهلفيشيا النهمتين. وجد أنتونيو صعوبة في فهم سر العناية التي نوليها للطبخ ذلك أن أغلب الحديث في المنـزل يدور حول الأكل. فقد عافت نفسه الأكـل نظـرا لغياب صلصلة الفلفل التي تعد أساسية في الطعام المكسيكي (و كان يتناولها حارة، كلما استطاع إلى ذلك سبيلا.) بحيث كان كل الطبخ الأمريكي بالنسبة له عـديم الطعم وتقريبا غير مميز.

ذهب أنتونيو إلى نيويورك وأخذ يخضع للعلاج تحـت إشـراف مـاكس ياكبسون. كان ظهره وكتفه وذراعه تحمل بقعا قصديرية أرجوانية كبيرة، كمـا أن الذراع تكاد تكون مشلولة تماما. خلال مراحل العلاج أقام في منـزل لاتوش في تورتل باي. كان بيتي بارسونـز الذي كنا قد تعرفنا عليه سابقا في تاكسكو قد فتح للتو معرضا صغيرا للفن وقدم عرضا للوحاته. باع الكثير من اللوحـات

وعاد إلى المكسيك معافى ولديه بعض المال. لم يمر وقت كبير قبل أن أسمع من فيريل بأنه كان قد ذهب إلى أكابولكو مع بعض الأصدقاء لقضاء أسبوعين أو ثلاثة وذات صباح أعلن لهم بأنه سيذهب بمفرده لتقصي المستنقعاب وراء منطقة لا كويستا. لم يعد إلى أكابولكو منذ ذلك اليوم. تم القيام بالعديد من محاولات البحث عنه دون جدوى فالناس في كل المناطق يذكرون أنهم شاهدوه يمر بالجوار لكن جوابهم كان واحدا: بأنه كان في طريقه إلى مكان آخر. بعد عامين كتب إلي فيريل مرة أخرى. كان قد قضى أسبوعين في تعقب بعض الآثار لكن دون جدوى.

كانت هيلفيشيا تبحث عن منزل صغير بمساحة مائة أو مائتي هكتار حيث تريد أن تستثمر أموالها وهكذا اقترحت جولة على متن الدراجة النارية عبر فيرمونت ونيوهامبشاير. كانت أوراق أشجار القيقب على وشك "التحول"، وسيكون الأمر جميلا. طلبت منها أن تعفيني من عناء ذلك بحيث أريد العودة إلى نيويورك ومواصلة العمل. فانطلقت هي وجين. عدت إلى المدينة وأخذت غرفة بفندق شيلي حيث شرعت في ترتيب الأوبرا. كانت الماركيزة دوكازا فويرتي، منظمة الجمعية الموسيقية بباريس، تأمل في اطلاق سلسلة مشابهة من الحفلات بنيويورك لاحقا ذلك الموسم وكانت ترغب في أن تكون الأوبرا جاهزة للانتاج. كانت هي الأخرى مهتمة بالأكل ذلك أنها وصلت مؤخرا من أوربا حيث ندرة الطعام؛ لاحقا ذلك الموسم أخذت هي وجين يتناوبان على تحضير وجبات مما يمكن أن يحصل عليه المرء في أسواق واشنطن. وهكذا تمكننا من مواصلة الأكل بشكل جيد.

كان مارسيل دو شون يعيش في البيت الإضافي لكيسلر. أحيانا كنا نتناول الغداء معا في مطعم اسباني في الشارع الرابع عشر. كان انسانا لطيفا، هادئا وذكيا جدا. بعد حين، انتقل إلى العلية تاركا البيت فارغا. عرضه علي كيسلر مقابل ثمن معقول. يوجد سطح صغير يتيح منظرا جيدا للضاحية الوسطى من نيويورك والمرفأ. وباستثناء البيانو الذي حملته معي فقد كان المكان مؤثثا تماما وواصلت العمل. وبالمقابل كنت أقضي أوقات فراغي مع جين وهيلفيشيا في وافرلي بلاس حيث كانت لديهم شقة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت بيغي كوكنهايم قد عادت إلى نيويورك من أوربا واستأجرت منزلا في ساحة بيكمان ملأت جدرانه باللوحات السوريالية. بعد حين التحق بها ماكس أرنست وتزوجا. كانت فكرة بيغي التالية هي تشييد رواق للفن لا مثيل له. كلفت كيسلر للقيام بذلك؛ خلق رواقا بقي ماثلا في ذاكرة كل من رآه. لسوء الحظ لم يعمر الصرح طويلا ذلك أنه حينما غادرت بيغي إلى فينيس أمرت بتفكيكه وتدميره. حقق رواق فن هذا القرن نجاحا كبيرا؛ كانت بيغي تفرض ثمنا للدخول وكانت غالبا ما تجلس طوال اليوم في الطاولة عند المدخل تبيع كتابا يحمل الاسم نفسه الذي يحمله الرواق وتجمع ثمن التذاكر من الزوار. لم تكن هناك حاجة لقيامها بهذا العمل، فأي من المشغلين يمكنه أن يقوم بذلك غير أنه في تلك الحالة لن تشعر بدبيب المال وهي تشد قبضتها عليه، كما أوضحت لي.

كنت أكتب مقالات في النقد الموسيقي في مجلة الموسيقى الحديثة لسنوات عديدة. فكر فرجيل تومسون بأنه علي الالتحاق بطاقم هيرالد تريبيون حيث هو الناقد الموسيقي وأن أزودهم بمقال يومي. بدت الفكرة مهمة ومثيرة غير أنني كنت قلقا بشأن الوقت الذي قد يستغرقه ذلك. فخمسة وأربعون دقيقة، الوقت المتوفر في المعدل لانتاج نص، لم تبد لي كافية لتنظيم وكتابة تقرير نقدي حرفي. أكد لي فرجيل بشيء من الطمأنينة بأن القلق يساور الانسان فقط في الليلة الأولى أو الثانية. تسلمت العمل، ووجدت بأنه كان على حق بالرغم من أنني عانيت من صداع الرأس لمرتين أو ثلاث خلال الأسبوع الأول من رتابة العمل. شعرت بالاعتداد بالنفس بأن يكون لدي عمود يظهر بشكل منتظم؛ حينها لم أعد أذكر لماذا كنت أعتبر ظهور اسمي على الدوام مطبوعا أمرا ضروريا. لا شك أنني اعتقدت بأن الجمهور إذا تعرف على الاسم بغض النظر عما إذا كان هناك مدلول معين مرتبط به، فإنه سيبقى إلى الأبد. من المحتمل جدا أنه كانت لدي نظريات خرافية بشكل مواز. كما أنني شعرت بالحاجة لتبرير قضاء الكثير من الوقت في القيام بأعمال ثانوية بدل كتابة الموسيقى. ذلك أنه خلال التفكير في الموضوع وجدت أن السبب الوحيد الذي يدفعني للقيام بذلك هو الزيادة في مدخولي الشهري. لم أشعر بمتعة الانتماء إلى الهيرالد تريبيون إلا بعد مرور سنة حينما لم أعد أحس بأي توتر يرتبط بالنشاط. بعد ذلك أخذت أقوم بدعاية لعمود منتظم

لموسيقى الجاز في عدد الأحد تمكنت من جعله أحد الأركان الأساسية في الجريدة. وقد فتح هذا العمل الباب أمام الموسيقى الشعبية ما دمت أعتقد أن أي نوع من الموسيقى المسجلة (باستثناء الموسيقى الشعبية التجارية تحديدا) يجب تغطيته. فورا بدأت الشرائط تتقاطر تقريبا كل يوم؛ لم يكن لدي ما يكفي من الوقت للاستماع إليها كلها. كانت أعمدة سوداء معقوفة من الشرائط تتعالى وغدت تتطاول يوما بعد يوم.

كنت على وعي تام بأن نيويورك هي من أكثر المدن روعة في العالم، وقد تكون من مسافة أو من الأعالي، مدينة جميلة على نحو مدهش. الآن أكتشف أنها حتى من الداخل كانت في الغالب تشد الأنفاس. مادمت كنت أغطي الحفلات كل ليلة من الأسبوع، أحيانا في العشية أيضا، وأستعمل أغلب ما تبقى من الساعات في كتابة الموسيقى أحسست بالحاجة للخروج بين الحين والآخر. كان علي ابتياع دراجة هوائية بريطانية خفيفة وأن أقوم بجولة حول شوارع مانهاتن. بدأت جولاتي للتمرن وواصلتها للمتعة الصرفة. كانت الشوارع والأزقة فارغة من وسائل النقل وخلال الليل يحل ظلام دامس حيث ينقطع التيار الكهربائي. وكلما كانت الليلة مُقمرة فإن أية جولة على متن الدراجة عبر الضاحية السفلى لمانهاتن يصبح رحلة على أجنحة حلم الصمت والظلام في المضايق بينما ينعكس ضوء القمر على التلال. خلال جولاتي المتكررة تمكنت من رسم العديد من المسالك حسب المدة الزمنية التي يمكن أن أخصها للدراجة. ذات ليلة حينما كنت أركب دراجتي شاهدت براين جيسين وتوقفت للحديث معه. كان الآن في الرابعة من جنسياته المتلاحقة كما أخبرني بأنه يؤسسس لفرع محلي للنقابة في شركة لبناء السفن بنيو جيرزي. بعد ذلك بزمن قصير التحق بالجيش.

طلبت مني المصلحة الإنتقائية التابعة للخدمة العسكرية الالتحاق بمراكزها لإجراء فحص طبي. باكرا جدا ذات صباح كان علي أن أكون في مستودع الأسلحة في الجهة الشرقية. أقامت النساء عوارض صغيرة وكن يقدمن الحلوى وفناجين القهوى. بعد ذلك ضج بنا الشارع الرابع حتى الحديقة ومن هناك إلى القصر المركزي الكبير. كان يبدو غريبا أن يكون على المرء أن يدخل إلى مكتب الطبيب النفسي عاريا تماما وأن يجلس قبالته بينما يقوم هو بطرح أسئلته ويدلي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رأسه إلى جهة. "ماهو شعورك حيال الجيش؟ أتعتقد أنك ستحبه؟" قلت له بـــأن ما يقلقني حقا هو شكي بأنني سأكون قادرا على النوم. شرحت له أنني مؤلـــف موسيقي وأعيش ليل نهار محاولا الهروب من الضوضاء إلى حد أنني أضع أقراطـــا شمعية في أذني للتخفيف من حدة الضجيج. حدجني الطبيب فجأة بنظرة تنم عن اهتمام مباغت. مدد يده بهدوء وسحب مقصا على طول سطح المكتب بعيدا عن متناولي. بعد ذلك قال شيئا غريبا جدا بنبرة جعلته يبدو كما لو أنه يناقش الأمر مع طفل صغير. "لا أحد سيؤذيك." لم أجب. كنت أفكر في القول "أعلـــم" أو "ألن يفعلوا؟" غير أنه كان قد استرسل في مجموعة من الأفكار التي تثير اهتمامـــه ومن تم تقدم لاستجوابـــي. وفي الأخير جعلني أعترف بأنني أشـــعر بالكراهيـــة نحوه. فرحا بهذا الاعتراف انطلقت من هنا. في الأخير كتـــب "غـــير مقبـــول. شخصية مضطربة نفسيا." عدت إلى البيت واحتسيت كأســـا مـــن الويســـكي وواصلت عملي.

خلال ذلك الشتاء كنا نقضي نهاية الأسبوع من آن لآخر مع صامويل بـــاربر وجيان كارلو مينوتي بجبل كيسكو. كان سخاء ضيافتهم يفوق نقط الاخـــتلاف بينهم. كان جيان كارلو مهتما بتقنيات المسرح، بالمظهر والخداع. أما سام فقـــد كان رومنسيا (بالرغم أنه يتبدى في موسيقاه رومنسيا قبل الأوان.) كانت تـــالولاه بانكهيد التي لا تبعد كثيرا تأتي لتناول المشروبات. كانت فخورة بقـــدرتها علـــى القيام بركلات عالية في الهواء وذات مساء تمكنت من ركل لوحة كبيرة من علـــى الجدار.

كانت لدى كسينيا وجون كاج شقة بالشارع التاســـع والخمســـين بجـــادة ماديسون. كنا نتناول الطعام حيث يتم اعداد الوجبات آنا من طرف كسينيا وآنا من طرف جين. كانت كسينيا شقراء آلسكية متوحشة، يندغم جانبها الروسي مع الجزء الآخر الإيسكيموي. كانت تبدو كذئب جائع ذي عينين مائلتين خضراوين. كانت في الغالب تضحك، وقد كان ذلك جيدا ذلك أنه حينما لا تكون الأمـــور على ما يرام فيمكن أن تستحيل إلى شخص مرعب. كان جون محبوبا. وصلت إلى هذا القرار حينما رأيته يتدحرج على الأرضية في حالة من النشوة والرضـــا وهـــو يصغي إلى تسجيل لموسيقاه. لعل ما حببه إلى نفسي ليس ما كان يقوم به فـــذلك

شأنه الخاص، ولكن كونه لم يشعر بأي حرج على الاطلاق وهو يقوم بذلك على الملأ. إن الطريقة العفوية لسلوكه هي التي جعلتني أحبه.

كان يفون دوكاسا فورتي قد جمع المال لحفلات ليلية، لتقديمها في متحف الفن الحديث. كان المساء الذي خصص للأوبرا من فصل واحد من تأليفي ويبقى *الهواء* من نصيب فيديريكو غارسيا لوركا. وضع أوليفر سميث واحدا من أفضل تصاميمه. أعطيت ليني برنشتاين الموسيقى، ذلك أنه كان قد وافق على إدارة الأوركسترا. كما قامت ميرسي كانينغهام بتصميم الرقصات ولعب دور البهلوان. كان على الموسيقيين أن يعزفوا في ظل ظروف صعبة إذ كانوا يجثون في الأماكن الضيقة التي صممها أوليفر. أما ليني فقد قاد الأوركسترا وهو يقف على الجدار الخلفي حيث يتوارى عن أنظار الجمهور. قام بأكثر مما يمكن أن يقوم به أي شخص آخر بموسيقاي. كان مشكل الأوبرا يكمن في كون نصها مقتطف من مسرحية سوريالية. فلم تكن معنية بتأسيس معنى معينا أو التوجه إلى أي مكان في حد ذاته؛ كما أنها لم تكن أوبرا بالمعنى المحدد للكلمة ولكن أوبرا اسبانية، تتخللها أغنيات فردية، حوار، وأجزاء آلية ورقصات وكورالات. بعد انتهاء العرض أقيم حفل. ثم الطلب من أحد الممثلين مغادرة القاعة حينما حاول أن يقذف بثمرة أناناس كبيرة عبر صورة تشليتشيو للمضيفة.

وبينما كنا نقيم في هولدن هول ظهرت *سيدتان حازمتان* حيث وافقت دار كنوبف على نشرها. كنت دائما أقدر كتب بوررزوي على مظهرها الخارجي لكن اكراهات زمن الحرب جعلت من رواية جين للأسف الشديد تبدو شيئا غير مميز يمكن أن يصدر عن أي ناشر آخر. كما أن تعليقات النقاد أصابتها بخيبة أمل حيث أن أغلبهم تجاهل الرواية باعتبارها عملا غضا أو عبثيا.

كان لورنس فايل قد حصل على مكان واسع وجميل بجوار بحيرة صغيرة في كونكتيكوت. كان هنالك منزل شاغر في المبنى المجاور. لم تزل بيغي كوغناهايم التي تزوجت في وقت ما بفايل صديقة حميمة وهكذا أشارت إلى امكانية استئجار المكان المجاور لمنزله في موسم الصيف. نصحها بألا تفكر في الأمر إطلاقا ذلك أن أصحاب الأراضي التي تتوفر على واجهة على البحيرة اتفقوا ألا يستأجروا أو يبيعوا منازلهم لليهود. اتصلتْ بي وطلبت مني إذا كنت لا أجد حرجا بأن أوقع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العقدة باسمي وبعد ذلك "دعوهما" لقضاء الصيف. أخبرهما بأنني لا أجيد الخداع غير أنني سأقوم بذلك. كان علي أن أذهب إلى وسط المدينة إلى مكتب عال فوق برودواي وأن أتحدث إلى رجل مرح. استلم الشيك مني ووضع عقدة كراء لمدة ثلاثة أشهر باسمي. ذهبت جين وأنا مع بيغي وكينيث ماكفيرسون ذات نهاية أسبوع. كان في المنزل المجاور سبيل بيدفورد وأصدقاء وهكذا تناولنا معا وجبة رائعة. حينما انتهى الموسم سلمتني بيغي المفاتيح فأعدهما إلى صاحبها في الضاحية السفلى من برودواي.

كانت بيغي وكينيت قد اشتريا منزلين متشابهين ومتجاورين في شارع ايست فيفتين. شيدت كل واحدة منهن غرفة واسعة جدا في الطابق الأعلى للاستماع. كلما كان هناك ضيوف مشتركون كانا يشرعان بعض الأبواب الثنائية الواسعة التي كانا قد وضعاها ما بين الغرفتين وبالتالي تصبح الغرفة واحدة. في الطوابق السفلى كان المنزلان منفصلين تماما. حتى لا يشعر الناس بالملل وهم ينتظرون المصعد في منزلها طلبت بيغي من جاكسون بولوك بأن يرسم جداريات ضخمة لملأ جدران الغرفة. عدنا إلى منزلها بعد الغداء ذات عشية ووجدنا بولوك يقف ضمن علب الصباغة يعتلي إحدى الطاولات وينظر إليها بحدة. همستْ بعد أن صعدنا إلى المصعد: "يا له من رجل رائع."

أرادت بيغي أن تصدر سلسلة من الألبومات لفن الموسيقى المعاصر تسمى تسجيلات من هذا القرن. قررت أن تبدأ بموسيقاي. كان هناك في نيويورك عازف ناي فرنسي وعبر فرجيل جعلته يوافق على تعلم سوناتة الناي من انتاجي. لقد تم انجازها منذ احدى عشر سنة و لم تكن معروفة تماما. جعلت بيغي ماكس أرنست يضع تصميما للغلاف، وكنا على أهبة إطلاق الانتاج. بعد حين كانت الألبومات تباع على طاولة في مدخل الرواق.

أخذت عطلتي في تشرين الأول وذهبت لاصطحاب جين من فرمونت. لم نكن قد سافرنا قط إلى كندا وكنا نتحرق شوقا لمعرفة ما يوجد وراء الحدود. استقللنا قطارا يتجه إلى مونريال. ونحن نقرأ أو ننظر عبر النوافذ بدت جين في حالة طبيعية، لكن مع مرور الوقت لا حظت أنها تطلب كأسا بعد كأس من الويسكي. حينها فات الأوان للحيلولة دون ذلك. في مونريال ترجلنا عن القطار وأخذنا

مصعدا حملنا إلى غرفة الانتظار الرئيسية. حينما وصلنا نهاية المصعد، فقدت جين الوعي. ساعدني الناس على تمديدها على مقعد وطلبوا لنا سيارة أجرة. في الفندق عادت جين إلى وعيها دون أن تذكر ما حدث.

بالرغم من أن مونريال كانت مملة فإن كيبيك لا تزال تحافظ على طابعها الفرنسي. لا تشبه اللغة أي شيء كنا قد سمعناه من قبل. في الفندق يشيرون إلى فيلم ينطق بالانجليزية على أنه مشاهد باللغة الانجليزية[1]. كان مبعث الغبطة لي بأن أكتشف بأن مكانا غريبا كهذا يوجد بجوار نيويورك، ناهيك أنه يمكن الوصول إليه فقط بواسطة القطار. بشكل عبثي، حينما عدت إلى نيويورك بدت المدينة أقل تهديدا وضررا لأنني أعلم بأن كيبيك توجد بالجوار.

تُوجت مساعي اليانور روزفيلت لصالح لاتوش بمنحه جوازا للسفر وبمغادرته لاحقا إلى الكونغو حيث أمضى سنة يتنقل من مكان إلى آخر ويعد نصا لفيلم وثائقي حول المستعمرة. فجأة عاد إلى نيويورك رفقة أندري كوفان، المخرج البلجيكي الذي أخرج الفيلم. جعلني أنا وكوفان نتحدث وهكذا وافقت على وضع موسيقى الفيلم. كان الفيلم من انتاج الحكومة البلجيكية في المنفى وكانت هناك وفرة من المال. كانت تنتابني أفكار عما إذا كان الأمر منطقيا أو حتى أخلاقيا بالنسبة لي بأن أرتبط بجهاز الدعاية الاستعمارية ذلك أنه لا توجد أية اشارة في الفيلم إلى امكانية حصول الكونغوليين أبدا على استقلالهم. هُم سعداء كما هم، يعملون مع (لصالح) البلجيكيين كما أن الكونغو هي دولة عظيمة غريبة وجميلة تنبض بالحياة. النهاية. ومع ذلك حينما أخبرني بول روبسون بأنه سيقرأ تعليق لاتوش فقد انتابني شعور أفضل.

عاد كوفان إلى الكونغو وأخذ يبعث لي بطرائد مملوءة بشرائط الموسيقى المحلية. حاولت كتابة بعض المتتاليات التي ستبدو كموسيقى الأقزام حيث يعزف كل شخص نوتة واحدة فقط لكنه سيعزفها كجزء من تصميم إيقاعي يتردد بشكل منتظم. في البدء خلق هذا صعوبات بالنسبة للتسيير حينما وصلنا مرحلة التسجيل. غير أن الأمور كانت في نهاية المطاف على ما يرام. حينما أنهى الفيلم قام البلجيكيون بتقديم عرض خاص في قاعة العروض في متحف الفن الحديث. أخذت

(1) vu aingla

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أمي وأبـــي؛ ذهبنا مع بول روبسون إلى شقته بعد ذلك لتناول مشروبات. حظي الرجل باعجابهم تماما." لكن لماذا عليه أن يعيش مع امرأة بيضاء؟"

أرادني أوليفر سميت أن ألتقي الماركيز دوكوسيفاس الذي حصل على حـــين غرة على كنـــز ويعتزم بالتالي إنشاء شركة باليه. ذهبت لعدة حفلات أقيمـــت في منـــزل الماركيز حيث بدا شخصا غريب الأطوار إلى حد كبير. كان لديه مجســـما جميلا بدا لي منحوتا من العاج وقد رُص في إطار من الذهب الثقيل. حينمـــا أراني هذا المجسم أسر لي بأنه يريدني أن أقوم بإنجاز بالي إلى جوار سلفادور دالي إذ يعتقد بأننا سنشكل ثنائيا رائعا. بدت الفكرة جديرة بالاهتمام لأنها تـــنم عـــن موقـــف غريب: أن يرى أن ثمة ما يجمع بيننا. لم يكن يومن بما كان يصرح به، لكنني لم أع ذلك إلا لاحقا. قمت بزيارته المرات تلو المرات لتناول الغداء. كان يحضر الطعـــام بنفسه وبعد ذلك أقوم بعزف قطع له سواء على البيانو أو نســـتمع لتســـجيلات لموسيقاي. كانت دائرة تركيزه تضيق شيئا فشيئا؛ أخيرا أخبرني بأنه عثـــر علـــى الموضوع المناسب، وأنه يعلم نوع الموسيقى التي يرغب فيها. وقع اختيـــاره علـــى قصيدة لفيرلان: في منتزه مقفر وبارد. ثم إخبار دالي في أوربا وأخذ الأخير يرســـم مجموعة من الصور لم يريني الماركيز منها سوى تلك التي ستستثمر كخلفية. كـــان هذا مشهد حديقة من نوع بوكلينغ حيث تبعث أشجار الصنوبر السامقة الكآبـــة والبخار.

"هذا هو المطلوب،" صرخ الماركيز وهو ينقر اللوحة بحماس، ذلك أنه كمـــا حدثني فهو شخص متقد. "ستكون كهذا، موسيقاك، حلوة وطيفيـــة وســـيغيض الزمن إلى الأبد. هذا هو جوهر الباليه الذي نود انجازه."

بعد أن وقعت العقد ألفت الموسيقى المطلوبة ورتبت عناصرها. بعـــد ذلـــك سافرت بالطيارة إلى المكسيك لمدة شهر، ذلك أنـــني كنـــت أرغـــب في زيـــارة مانـــزانيلو التي لم يسبق لي أن زرتها من قبل- ارتأيت أن أفضل وسيلة للوصول إلى هناك هو الذهاب إلى كوادلاخارا وأن أستقل طائرة. حينما وقـــع نظـــري علـــى الطيارة الصغيرة لشركة بانيي ترسو في المطار تحسرت كثيرا على قراري. إضافة إلى ربان الطائرة لا يتسع المكان سوى لمسافرين آخرين. حافظ رجل على دفع المروحة لتشغيل المحرك. حينما تمكن أخيرا من ذلك ملأت بقع من الزيت الأصفر الـــثخين

النافذة الجانبية للطيارة. بعد تنظيف ذلك أقلعنا محلقين فوق بركان كوليما مباشرة نحو الساحل الهادي. في مانزيلا تصعد الجبال مباشرة وراء السهل الساحلي الضيق حيث يجب أن نحط. قام ربان الطائرة بالمناورة ليبصر في آخر المطاف بأن المكان يموج بالأحصنة وهي تقفز إلى الخلف والأمام. لم يكن هناك ما يمكن القيام به. هبطنا وسطها وبأمان.

وجدت فندقا جيدا تحديدا شمال مانزيلوا على شاطئ سانتباغو دو كوليما ونزلت هناك. كان لمالك الفندق شاحنة قديمة غير مغطاة فكرت بأنها ستكون وسيلة مثالية للسياقة عبر الغابة. ذات يوم أقنعته بأخذي أنا وأخيه إلى أبعد نقطة على الطريق. من هناك مشينا على الأقدام ونحن نقتفي طريقا باهت المعالم عبر الأعشاب الكثيفة. فجأة انتبهت إلى ثعبان ضخم رائع يرقد دون حراك عند قدمي، وتخفي الأوراق والأعشاب أطرافه عن الأنظار. تجمدت في مكاني فانتبه رفيقي إلى ذلك. أصدر المالك صوتا من الامتعاض ثم رفع بندقيته وأطلق عدة طلقات. حينما كنا نحمله إلى الشاحنة التقينا هنديا عجوزا له لحية بيضاء صغيرة. حدج الثعبان بنظرة أسى وقال: "إنه من الخطايا قتل ثعبان." ساورني نفس الشعور وكنت أتحرق لمعرفة المسوغ الذي سيسوقه العجوز غير أنه واصل مسيره. تحدث المالك عن خرافة لدى السكان المحليين بأن الثعابين لا يجب قتلها. لا شك أن هذا كان يكره أن يموت. بينما كنا نتجه على متن السيارة صوب الفندق التف الثعبان أسفل الأرضية المفتوحة جزئيا عند قدمي. خلال تلك الأثناء اتفقنا بأن الجلد سيكون من نصيبي مادمت أنا الذي كنت على وشك أن أدوس عليه. هكذا أصبح في عهدتي وأحسست بالغباء حينما عدنا إلى الفندق وكنا عاجزين عن فكه عن أي شيء كان يتعلق به في أحشاء الحافلة. تركناه هناك لفترة، بعد ذلك سحبناه بسهولة. في اليوم التالي أخذ المالك في تطهير الجلد والاعتناء به. بعد مرور يومين أو ثلاثة قطعت العملية من أجل الطيران إلى أوروابان. أخبرني: "لقد عالجنا الجلد تقريبا. عليك وضعه تحت أشعة الشمس وسيجف." في أرواابان اتبعت نصيحته ومددت الجلد بين كرسيين.

ذهبت لقضاء الليل جالسا فوق بعض الحمم بينما كانت تبرد، وكنت أحدق فوق باريكوتين، البركان الذي قذف بحممه السنة الماضية والذي بلغ مداه حتى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الآن أكثر من ثلاثة آلاف قدم فوق الهضاب والوهاد المجاورة. كانت الحمم ترتفع إلى الأعلى طوال الليل كل عشر دقائق بهدير رائع، صوت أعمق وأكثر إثارة داخليا من كل الأصوات التي سمعتها في حياتي- المئات من اللاجئين يغطيهم الغبار يتحركون على طول الطرق بين المناطق المهدمة وأورويان. كان كل شيء يرقد تحت غطاء من الرماد الرصاصي الرائع.

صبيحة اليوم التالي اسيقظت بينما كانت رائحة رهيبة تنبعث في الجو. وأنا أرقد في السرير أتشمم، صرت واعيا أيضا بصوت معدني غريب لا ينقطع وهو ينبعث من السطح. وقفت وخطوت إلى الخارج. صار الجلد صفحة سميكة من المئات من الزنابير، تبدو قاتلة سوداء وصفراء، كما أن الرائحة التي تنبعث منها لا تصدق. عدت إلى الغرفة وأغلقت الباب و لم أجرؤ على العودة إلى السطح مرة أخرى قبل أن أغادر إلى غوادلاخارا. اشتريت دزينة من الأحزمة المصنوعة من جلد الثعابين، بعض المخفضات وبعض الشباشب كبديل عن الأشياء التي كنت آمل الحصول عليها من جلد الثعبان.

كانت بعض الرحلات الجوية حوالي المكسيك مبعث الخوف فالكثير من القرى حيث على الطائرات أن تحط لاستقبال المسافرين والدواجن لا تتوفر على منصة للهبوط على الاطلاق. يحلق ربان الطائرة فوق قمم الأشجار على التلال ثم يهبط وسط المروج حيث ينتظر المسافرون هناك في العراء ملتفين حول متاعهم. ما أن يصبحوا في الطائرة حتى تجثو كل النساء مباشرة على الأرض متدثرات تماما ويصلين. كان طنين دعواتهن يطن في أذني أما الرجال فإنهم يكتفون برسم علامة الصليب والنظر خارج النافذة. غالبا ما أجد نفسي أتخذ قرارا- ألا أستقل طائرة أخرى إذا ما تمكنت من مغادرة التي أركبها الآن حيا.

لا تزال العربات متراصة في طابور على امتداد الساعة في كوادالاخارا، كل واحدة مشدورة إلى حصانيها الهزيلين. لشد ما أحببت استئجار واحدة في العشية والذهاب إلى تيكيلا حيث يوجد فندق مهترء يقدم عشاء صالحا للأكل. أحيانا أصرف العربة وأقضي الليلة ومع حلول الفجر أستقل التاكسي إلى كوادالاخارا.

عندما عدت إلى نيويورك استأنفت متابعاتي النقدية للسهرات بمجلة هيرالد تريبيون وحضرت العروض الأولى لأوركسترا بالي *ندوة عاطفية*. كانت تبدو

تحديدا كما كنت آمل. ونظرا لانشغالاتي لم أتمكن من مشاهدة العروض الأولى للرقص، غير أنني تمكنت من حضور تمرينات اللباس. شعرت بخيبة أمل وأسى وأنا أشاهد المنصة وما يجري فوقها. كانت خصلات من الشعر تتدلى من ابط ايغليفسكي وماري جين لتصل حتى منصة قاعة العرض. كان هنالك رجال بلحى طولها اليارد يركبون دراجات هوائية بطيش عبر المنصة وكانت هنالك سلحفاة آلية ضخمة تشكل قشرتها أضواء ملونة (دعابة دالي الصغيرة) تتحرك على غير هدى هنا وهناك، تكاد تتسبب في الغالب الأعم في الفوضى ووقوع الممثلين. أخذت أبحلق في العرض دون تصديق. كان الماركيز قد طمأنني مرارا بأن هذا البالي لن يحتوي على أي من خدع دالي العادية؛ سيكون نص فيرلان المبتدأ والخبر. شعرت بأنني كنت ضحية خدعة كبيرة ليس من طرف دالي الذي لا تعدو أن تكون الموسيقى بالنسبة له مجرد شيء يستخدمه المرء في بداية المساء وينتهي في الختام كما لو أن الغرض منها إشاعة الدفء في القاعة. كان يجلس مباشرة أمامي رفقة غالا، يشاهد العرض. فجأة استدار نحوي وقال: "للأسف أنك لم تكن هنا البارحة. تبا لقد كان المنظر رائعا. لقد بكيت." أردت أن أرد عليه: "حقا؟ الآن حان دوري." بدل ذلك ابتسمت ابتسامة بلهاء وقلت: "حقا؟"

في ليلة الافتتاح كان الجمهور راقيا وصاخبا. ما أن رفع الستار عن *ندوة عاطفية* حتى انفجرت التصفيرات. ومع تواصل العرض كانت هناك تقريبا على الدوام صراخات الاستهجان والتصفير. كنت يائسا ذلك أن موسيقاي يمكن أيضا الاستغناء عنها بالرغم أنها كانت واضحة. في الحفل المقام بعد العرض، كان دالي فرحا إذ اعتبر الاستقبال الضوضائي انتصارا: "ها هم الأمريكيون يتعلمون."

حال عملي بالهيرالد تريبيون دون مشاهدة عروض أخرى. شاهدت البالي مرة أخرى لاحقا حينما كانت الظروف أكثر هدوءا. صارت أصوات الاحتجاج عبارة عن قهقهات غير أنها لم تكن كمشهد أكثر اقناعا من المرة السابقة.

فجأة ظهر تينيسي ويليامز مرة أخرى، له شوارب وبرفقة مارغو جونز ودونالد ويندهام. كان يحمل نصا مسرحيا جديدا تركه لي. قرأت النص ونال اعجابي. بالنسبة لمسرحية تهدف إلى انتاج ببرودواي في ذلك الوقت فقد كان إلى حد ما عملا تجريبيا إذ كان من المفترض استعمال أجزاء لونية منعكسة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كتعليقات موازية أو كحواشي للحوار والحركة. عندما التقيت تينيسي مرة أخرى، تم الاتفاق على الانتاج وبالاضافة إلى العقد ورفضي الاعتيادي كتابة أي شيء إلى أن أكون قد وضعت المقابل المادي مسبقا في البنك، وجدتني لا أتوفر سوى على ثلاثة أيام لتأليف وتنظيم الموسيقى. لم تكن هناك أية صعوبات. في كانون الأول ذهبنا إلى شيكاغو من أجل العرض التجريبي للمسرحية. تمت ازاحة الاسقاطات من النص مما نتج عن ذلك كما أعتقد مسرحية مؤثرة صارت سحرية بحضور لوريت تايلور. حققت مسرحية *حديقة الحيوانات الزجاجية* نجاحا حتى قبل أن تصل إلى نيويورك، وبعد الافتتاح ببرودواي صار تينيسي بين ليلة وضحاها شخصا ذائع الصيت. قامت أمه بزيارة لنيويورك. أذكر جلوسي إلى جوارها في طاولة في بهو الفندق بينما يستجوبه في نفس الوقت العديد من الأشخاص.

خلال هذه الأثناء تعرضت أذناي لضغط كبير فأصبحت أعاني من صعوبات كبيرة في السمع. ثمة طنين الصراصير وصوت أجراس الكنائس ورفرفة الأجنحة في أذناي، كما أن السجل العالي لسوبرانو أو ناي يتعرض للتحريف قبل أن يجد طريقه إلى وعيي. طمأنني أحد الأطباء بأن لوزتي الحلق كانت في حال سيئة نتيجة التجفيف المعدي لها. كان هذا مجرد تخمين وتخمين خاطئ تماما، كما اكتشفت بعد استئصال اللوزتين. قضيت عشرة أيام في هاركنيس بافيليون أتعافى. كانت هذه المدة أطول مما يفترض أن تكون عليه ذلك أن الجروح تفتحت في اليوم الخامس وأخذت الدماء تتدفق من جديد. من غرفتي بمنظرها الثلجي المطل على الهودسون أخذني أوليفر سميث إلى فندق بالتيمور حيث واصلت فترة النقاهة لحوالي أسبوع. ذات عشية هناك بينما كنت ممددا في الفراش أتصفح مجموعة من المجلات عثرت على مقال لسيريل كونولي في مجلة الأفق يتضمن وصفا لآخر مسرحيات سارتر التي أنتجت للتو في لندن تحت عنوان *الدائرة المغلقة*. أثار اهتمامي النقاش الدائر. حينما وصل أوليفر أعطيته ملخصا لما كنت قد قرأته وهكذا انفعل مباشرة كما أن النقاش الاضافي زاد في تأجيج حماسه. كانت فكرته إذن هي ايجاد سارتر والحصول على الحقوق الأمريكية للمسرحية. وما دام أن سارتر يوجد تلك اللحظة في الولايات المتحدة فقد بدا ذلك أمرا ممكنا. تمكن أوليفر من الحصول من الجهة الحكومية التي كان يقوم سارتر بجولة تحت رعايتها على كل المواعيد والأماكن لبرنامجه. أخذ

يبعث برقيات إلى مدن في التكساس وبعد ذلك إلى نيو أورلينز حيث توصلنا بأول الردود. تم ترتيب لقاء في فندق ستاتلر بواشنطن. استقللت أنا وأوليفر القطار وتناولنا غداء مطولا مع سارتر. بينما نحن نتناول الغداء مر على النص بتفصيل وأنا أقدم ترجمة آنية لأوليفر الذي كانت رغبته في الحصول على حقوق المسرحية تتزايد بوضوح. تم توقيع العقد ونحن نحسو القهوة وعدنا إلى نيويورك وقد أنجزنا مهمتنا. بعد يومين ذهبت تيريزا هيلبورن ولورنس لانغنر إلى فندق ستاتلر للحصول على حقوق المسرحية لعصبة المسرح؛ كم كانت خيبتهم عظيمة حينما وجدا أن الحقوق كانت من نصيبينا.

كانت فكرة أوليفر تكمن في جعلي أشتغل على ترجمة النص بينما ينصرف هو إلى انتاج المسرحية، والبحث عن ممثلين أوربيين للعب أدوارها. ما أن حصلنا على الحقوق حتى تراجع ضغط عامل الزمن تراجعا كبيرا؛ وبالتالي لم أشرع في الترجمة إلا بعد مرور أشهر على ذلك. ما شغلنا حينها هو الاستقرار في مناطق عيش جديدة. كانت منطقة المدق بنسختها المريحة للحياة العائلية جزءا من الماضي البعيد يغلفه الحنين كنا أنا وأوليفر وجين نستحضرها بحنين. أوليفر الذي كانت لديه قناعة أقوى منا بأهمية مكان جيد للعيش أخذ خطوات لترجمة الخيال إلى واقع. حصل على الطوابق العليى الثلاثة لمنزل قديم واسع في شارع ويست تينت. جعل المالك يهدم بعض الجدران ويزيل طبقة الجبص من الجدران الأخرى، تاركا فقط الآجر وجعلني أنا وجين وهيلفيشيا نلتحق بالمغامرة. وقعت هيلفيشيا العقد بالنسبة للطابق الثاني، وأخذ هو الطابق الثالث بينما أخذت أنا الطابق العلوي. هكذا كانت ورشتي تحظى بوهج الشمس كما لو أنها مرسم. انطلقت إلى الخارج وحصلت على آلة بيانو مستعملة من نوع شتينواي مقابل ألف دولار ووضعتها تحت ضوء السماء. كانت جوانبها في نفس الزاوية. كان البيانو هو السند الأول الذي وضع على خشبة المسرح لتشكيل فضاء المشهد الجديد الذي جرت حركاته في شارع 28 ويست تينت.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

13

إلى أن تركت ورائي الإقامة الصغيرة لم أكن واعيا بأنني كنت أتوفر على ما ينيف على أربعة وعشرين قصة. كم كان ممتعا العودة من جديد إلى أحضان المنزل، تاركا ضوضاء الشارع دوني بينما يملأ جنبي شعور بالهدوء والسكينة لا يقطعه سوى القرقعة الباهتة لخطواتي حينما أصعد السلالم. بدأت مرحلة جديدة ما أن صارت طوابقنا الخاصة مؤثثة كليا. كان العمل والنوم نشاطات خاصة بينما الأكل والاستمتاع عموما مشتركة. وُضع الطباخ في الوسط في الطابق حيث يقيم أوليفر لكن مادام كل طابق يتوفر على مطبخه الخاص فقد كان بالإمكان تقديم الوجبات من أي واحد منها.

كانت فترة مضطربة وإلى حد ما مربكة، غير أنها كانت على العموم فترة زخم وعطاء لكلينا. خلالها ألفت الكثير من الأعمال الموسيقية، بما في ذلك موسيقى لسبعة عروض، كما أن جين كتبت مسرحيتها *في المنزل الصيفي*. وخلالها اكتشفتُ فجأة طريق العودة إلى الكتابة الإبداعية، أرض كنت أعدها مستغلقة علي على الدوام.

كانت بيغي كلانفيل هيكس رفيقتي وأنيسة وحدتي خلال السنتين والنصف. كنا مؤلفين بنفس المذاقات الموسيقية وهكذا لم يكن مفاجأ بأن تلذ لنا عشرتنا. كان زوجها ستانلي بايت هو الآخر مؤلفا موسيقيا بريطانيا ينتمي إلى تقليد مغاير، وكان ينزع نحو العنف. حينما يكون ثملا، وقد كان كذلك بانتظام، لا يجد سبيلا للتعبير عما يضمره سوى بضرب بيغي ورميها بين أرجاء الشقة. مرة وقع نظري على شريط من الدم يقود من ناصية الشارع إلى البناية ومن تم صعودا مباشرة إلى باب شقتهم. حينما أثرت الأمر مع بيغي قالت: "لقد ضربني ستانلي الليلة قبل البارحة. إنه يقوم بذلك دائما. ألا تعلم؟" أخبرتها بأنني سمعت شيئا بهذا الخصوص لكن لم تكن لدي فكرة بأن الأمر بهذا السوء. فزفرت بأسى: "أوه. نعم."

كانت بيغي تبدي إعجابا كبيرا ببعض أعمالي الموسيقية فقامت بنسخ نسخا مثالية للكثير من الأعمال غير المنشورة بخطها الموسيقي الواضح. وهكذا حافظت على بعض الأشياء التي لولاها لضاعت كما يقع لأغلب المخطوطات التي لا يوجد منها سوى نسخة واحدة.

ذات يوم توصلت جين بمظروف شديد المتانة من المقاس القانوني. ضم المظروف ثمانية أوراق مكتوبة بخط عادي وكانت تحمل توقيع أنيس نين. ساعدت جين في فك رموز الخط اليدوي. كانت الرسالة خلاصة لكل الأخطاء التي تمكنت الآنسة نين من العثور عليها في رواية *سيدتان حازمتان*. استشطت غضبا ذلك أن لا واحد منا يعرف صاحبة الرسالة باستثناء عن طريق الاسم. غير أن جين اكتفت فقط بالضحك. بعد مرور وقت قصير ذهبنا للتبضع-بالشارع الثامن خلال هبوب عاصفة ثلجية. عند نهاية شارع ماكدوغال ابتدرتنا امرأة قصيرة القامة ونحت جين جانبا. تحدثا معا لمدة أربعين دقيقة بينما كنت أنيخ تحت المحمولات وأحرك قدمي في الثلج الذي يزداد عمقا. لقد كانت أنيس نين تراجع مع جين النقط التي ضمتها رسالتها. حينما انطلقنا مرة أخرى، صرخت بغضب: "و لكن ماذا كانت تريد بحق الرب؟" فقالت جين: "أوه لا شيء. انها تريد فقط أن أعلم كم أنا كاتبة سيئة."

حينما حل سارتر بنيويورك، التقيت جين بحفل أقيم يوما أو يومين قبل مجيئه إلى الشارع العاشر للغداء مع صديقه البرتغالي دولوريس اهرنرايش. وأنا أتناول معطفه من على كتفيه سمعت جين تلاحظ بأنهما كان قد التقيا سابقا في منزل بساحة واشنطن. هز سارتر كتفيه وقال: "آه. ربما. لا أذكر." غير أن جين ألحت بعد ذلك. "أما أنا فلا." بدا لي ذلك سلوكا غير مهذب فانفجرت ضحكا.

لم يفطن سارتر الذي كان شخصا متجهما جدا إلى أي شيء وشرع في الحديث غير أن ضحكي جعل جين ترى هي الأخرى مزحته الصغيرة في السياق الذي رأيته فيها. نظرتْ مرة أخرى إلى سارتر وهرعت خارج الغرفة حتى لا تنفجر أمامه بالضحك. كان سارتر شخصا مشهورا ويبدو غريب الأطوار وكنا نحن متوترين. ما فهمناه أنا وجين هو أن ما أن يقع نظر المرء عليه مرة فلن يستطيع أبدا نسيانه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعد الغداء بينما كنت أتمدد على أريكة في الشقة الصغيرة، أخذ سارتر يذرع الغرفة جيئة وذهابا يحدثني لساعدات عن جان جيني. أحيانا كان يرتعش من فـــرط حدة عواطفه. كان إعجابـــي بسارتر كبيرا ذلك أنني كنت قد قـــرأت *الجـــدار والغثيان*؛ لذا فقد قررت أن أقرأ بعض أعمال جان جيني. لم تكن الكتب متوفرة في نيويورك غير أن جيان كارلو مينوتي سمح لي بالاطلاع على نسخته السويسرية من كتاب *معجزة الزهرة*. وبما أنه لا قِبل لي بهذا النوع من الكتب فقد اعتبرته مجـــرد كتاب اباحي وهكذا أبعدته عن دائرة التأمل الجدي. غير أن الكتاب طبعـــا أبى أن يكون مصيره على هذا النحو المهين. بعد مرور ثلاث سنوات قرأت الكتاب مجددا؛ الآن وقد خبا الوهج الاباحي فقد تراءت المأساة بكل وهجها فراجعت موقفي من جيني.

لسنوات عديدة كان تشارلز هنري فورد يشرف على مجلة المنظر. بـــدأت المجلة على شكل جريدة غير أنها مع مرور الأيام نمت بتدرج على مستوى الشكل إلى أن صارت منشورة فنية وأدبية ضخمة إلى حد ما وسلسة جدا. خلال هـــذه الأثناء التحقتُ بهيئة التحرير. في البداية كتبت نصوصا في نقد موســـيقى الجـــاز وبعد ذلك شرعت في القيام بترجمات لمواد ارتأيت أنها ستثير اهتمام فورد. هكذا نشر ترجماتي الانجليزية لخورخي لويس بورخيص ورامون ساندر وفرانسيس بونج وأندري بيير دو مانדياغريس، إضافة إلى أجزاء من أعمال شـــيريكو الأســـبوعية وبوبول فوه لكويشي. في ربيع 1945 أشرفت على عدد من مجلة المنظر يحتـــوي على نصوص من تأليفي، وترجمات لي وصور فوتوغرافيـــة التقطتـــها بأمريكـــا الوسطى والجنوبية. لسبب ما، ارتأى باركر تايل ضرورة اعادة كتابة التصـــدير الذي وضعته. بقيامه بذلك جعل التصدير يبدو مغايرا تماما لما رغبـــت فيـــه في البدء. اعتذر عن ذلك غير أن الضرر كان قد حصل. لا شك أن لا أحد لاحـــظ الفرق.

كنت أقرأ بعض الكتب الاثنوغرافية إضافة إلى نصوص من ثقافتي الأرابـــيش وتاراهومارا التي ترجمت ترجمة حرفية. شيئا فشيئا أخذت تنتابني الرغبة لابتكـــار أساطيري الخاصة انطلاقا من وجهة نظر الفكر البدائي. يكمن السبيل الوحيـــد إلى ذلك في الطريقة السوريالية القديمة والتي تتمثل في التخلي عن الـــتحكم الـــواعي

وتدوين أية كلمات مباشرة. في البدء تمخضت عن هذه التجارب أساطير حيوانية وبعد ذلك حكايات أخرى تتقمص شكل كائنات "انسانية بالأساس."

ذات أحد ماطر استيقظت في ساعة متأخرة، وضعت ترموسا من القهوة إلى جانب سريري وأخذت كتابة أسطورة أخرى من هذه الأساطير. عمت السكينة المكان و لم يعكر صفو ذهني أي أحد وهكذا واصلت الكتابة إلى أن أنهيتها. بعد أن قرأتها عنونتها "العقرب" وقررت تقديمها للآخرين. حينما نشرت بمجلة المنظر توصلت بالتهنئات وواصلت ابتكار أساطير أخرى. بعد حين تحول موضوع هذه الأساطير من طابعها البدائي إلى المعاصر، غير أن أهداف وسلوك الشخصيات الرئيسية بقيت على حالها كما في الأساطير الحيوانية. عبر هذه البوابة الصغيرة غير المنتظرة مرقت زاحفا إلى تربة الكتابة الابداعية. في الماضي البعيد كنت قد قررت بأن العالم من التعقد بحيث يصعب علي أبدا كتابة أعمال إبداعية؛ فما دمت قد عجزت عن فهم أسرار الحياة فلن أستطيع ايجاد نقط مرجعية يمكن أن تجمعني بالقارئ المفترض. حينما وافقت مجلة بارتيزان على نشر قصة "فصل بعيد" بالرغم من أن مجلة هاربر بازار كانت قد اقتنت حكايتين أو ثلاث فقد شعرت بدبيب الانتصار يدب بين جنبي: فمعنى ذلك بأنني سأتمكن من مواصلة الكتابة الابداعية.

بعد حلول الجو الساخن عبر أوليفر عن رغبته بزيارة أمريكا الوسطى وطلب مني اصطحابه إلى هناك. حصلت على إذن من الهيرالد تريبيون بتمديد عطلتي بشهر. كانت جين قد ألحت على الذهاب إلى فيرمونت حيث قالت بأنها تشعر كما لو أنها في منزلها الخاص. أخذت أنا وأوليفر طيارة إلى هافانا وقضينا حوالي أسبوع بفندق الناسيونال. بعد ذلك أخذنا طائرة أخرى إلى فاراديرو الذي تبدى شاطئها الأبيض سبب هلاكي. كنت حذرا بأن أبقى في الماء خلال الوقت كله الذي أكون فيه في الشاطئ وذلك لتجنب لهيب أشعة الشاطئ غير أنني لم آخذ في الحسبان الانعكاس الذي يشبه المرآة للرمل المحاري في ذلك الماء الصافي. قضيت يومين في السرير في الناسيونال ممددا على بطني. يأتي الطبيب مرتين في اليوم ويقوم بمعالجة ظهري. حينما تعافيت ذهبنا إلى سانتياغو لرؤية المقاطعة الشرقية حيث كانت لدى أوليفر رغبة قوية لركوب قارب شراعي عبر بور أو برانس حتى أننا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قضينا يوما للعثور والحديث مع القنصل الهايتي هناك. لحسن الحظ، نظرا لحالة القارب الصغير الذي كنا سنذهب على متنه قرر أوليفر العدول عن الفكرة وعدنا أدراجنا إلى هافانا. بعد ذلك ركبنا الطيارة إلى السلفادور التي كانت آنئذ، على الأقل بالنسبة للسائح، نسخة لسويسرا بمناخها القاري، صغيرة وممتعة. يبدو مطار ايلوبانغو كالنزول على شفة كوز. كان حطام الطائرات التي لم تستمكن من الهبوط بنجاح متناثرا هناك يغطي الأشجار الضخمة التي تقع مباشرة أسفلنا. في اليوم الذي غادرنا فيه البلدة لاحظنا حالة من التوتر بين السالفادوريين ونحن نجلس في انتظار موعد رحلتنا. ما أن صرنا في الجو حتى توجهت الطائرة جنوبا. كان من المفترض أن نتوجه إلى غواتيمالا لذا فقد انتابني فورا القلق. لكن أوليفر قال بأريحية: "هون عليك. هم أدرى بالوجهة." بعد حين وصلنا إلى المحيط الهادي وبدا خط الساحل يتلاشى ويتلاشى في الأفق. واصلنا الطيران إلى الأمام دون أن يتراءى أي شيء في الأسفل سوى سطح البحر وهو يعكس أشعة شمس الظهيرة. كانت المرأة في الجهة المقابلة تبدو باهتة ومتوفزة. واصلت سؤال أوليفر: "ألا يمكنك أن ترى بأننا لا نسير في الطريق الصحيح؟" حينما احتجبت اليابسة لخمسة عشر دقيقة أو أكثر، أخذت الطائرة تحلق في دائرة واسعة ببطء وأخذنا ندور وندور إلى أن صرت على يقين بأن قبطان الطائرة قد فقد عقله. أخذ الناس يضغطون على المنبهات لتحضر المضيفة لكن دون جدوى. للحظات تبادلوا نظرات ترشح بالريبة ثم أشاحوا بسرعة عن بعضهم البعض. أخيرا أخذت الطائرة المسلك الأيمن واتجهت إلى الشمال الغربي. بعد هنيهة ظهرت المضيفة من قبرة القبطان وشرعت تتحدث بحماس مع مسافر في المقدمة. أخذ الخبر مدة طويلة ليزحف إلينا. لقد كان هناك تمرد في السالفادور ذلك الزوال وكان ربان الطيارة يحاول تحديد مكان ركام طائرة تم قصفها في البحر من طرف عناصر موالية للجيش. كانت هذه هي القصة كما بلغتنا. غير أننا كنا نجهل من قصف من.

في غواتيلاما سافرنا على متن السيارة عبر الجبال إلى ألتا فيراباز، تلك المنطقة الغريبة بمناظرها الخلابة التي تجعل المرء يستحضر من حافظته تلك الصور الساحرة على صفحات اليوميات التي تُعلق على بعض جدران المطابخ. بعد ذلك هبطنا بواسطة السيارة ثم قطار صغير عبثي ينعطف عبر الغابة إلى مركب الوادي الذي

سيحملنا انطلاقا من الضفاف الموحلة التي تغطيها التماسيح إلى بحيرة إيزابال وأخيرا على طول الوادي إلى خليج الهوندوراس. كانت هناك حشرات مرعبة في كيريغوا حينما ذهبنا لمعاينة الأعمدة الحجرية التي تحمل نقوشا تذكارية. كان أوليفر قد اشترى عددا كبيرا من المجسمات التي تنتمي للفترة ما قبل الكولمبية. غير أنها صودرت حينما وصلنا إلى المطار للعودة إلى هافانا.

كان ويفريدو لام أبرز رسامي كوبا وكان أوليفر يتحرق شوقا للقائه وزيارة محترفه. مادام لام كان قد رسم غلاف العدد الذي كنت قد أشرفت عليه من مجلة المنظر فقد هاتفته وقدمت نفسي. كان لام شخصا رائعا من أصول صينية افريقية، نحيفا جدا ويبدو على الأقل عشرين سنة أصغر من سنه الحقيقي. منذ شبابه كان يعيش بباريس. لم ألتق به منذ تلك السنة. غير أنني بين الحين والآخر أتوصل بتحياته عن طريق أحد أصدقائنا المشتركين.

ذهبت لزيارة الكاتبة الكوبية ليديا كابريرا، إحدى المشاركات في مجلة المنظر. حينما أشرت إلى رغبتي في التعرف على بعض المظاهر من طقس ديني افريقي رتبت الأمر ودعتنا لاحتفال أقيم بعد مرور أيام قليلة. أخذتنا إلى هناك في سيارة ذات زجاج مذهب. لم يكن ذلك وسيلة مناسبة بتاتا لزيارة أحد أكثر المناطق فقرا وبؤسا في هافانا. كان الجو تلك العشية بالنسبة لي مألوفا يغشاه الضباب: كان بمثابة انتظار وصول ضيف في منزل مغربي. جلسنا لساعات عديدة في غرفة صغيرة تطل على باحة فارغة- أي باستثناء مذبح بدائي حيث يوجد عند قدميه شيء ذو وجه وضعه شخص ما، نوع من الفواكه، حيث الأجراس تصطك بها. في ساعة متأخرة استقدموا شاة. كان واضحا بأنهم كانوا يأملون بأن نغادر حتى ينصرفون إلى ما يعتزمون القيام به. لا أحد منا كان يرغب في مشاهدة الشاة وهي تذبح، هكذا فقد ودعناهم. مع توالي المشاكل التي كنا نواجهها خلال السفر عبر الجو بتُ أكثر توترا. بغض النظر عن المدة الزمنية التي يتم "اقتصادها" فلم أكن أتصور أي سبب معقول لاستعمال الطائرة إذا ما كانت هناك طريقة أخرى للوصول إلى المكان الذي يقصده المرء. بين هافانا وميامي وجدنا أنفسنا في خضم عاصفة قوية: كثيرا ما تتجه الطائرة إلى الأسفل كمصعد تقطعت أسلاكه. أقسمت مرة أخرى بأن أبقى من الآن فصاعدا على اليابسة، قسم لا يمكن الوفاء به

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بسهولة. أشعر بأن الانسانية اخترعت مفاهيم الزمان والسرعة لتدعم وهمها الأساسي بأن تجربة الحياة يمكن النظر إليها من وجهة نظر كمية.

حينما عدنا إلى نيويورك، قرأت العناوين الرئيسية حول هيروشيما وناكازاكي وأحسست بمرارة كوني مواطن ينتمي إلى بلد يحكمه أشخاص لا يملكون الكثير من الذكاء الأخلاقي وأخذت أتساءل عن عدد السنين التي تلزم قبل أن تصبح الولايات المتحدة عرضة لنفس المعاملة على يد الآسيويين. لعلنا بهذا الهاجس الماثل في الذهن أبدا ظللنا مشغولين منذ ذلك الحين بتقليص عدد سكان هذا الشعب تحديدا.

قام شويلر واتس الذي أخرج الحركة المسرحية في *ويبقى الهواء* بترجمة أونديد لجيغودو. وبالرغم أنه لم يكن يتوفر على أي منتج، فقد زارني لكي أضع الموسيقى. أخذت العمل واستأجرت بيانو من نوع هاموند نوفاكورد، آلة أكبر حجما إلى حد ما قياسا بآلة هاموند الأخرى. إن الفرق الأساسي بين الآلتين يتجلى في استمرار صدى النوتات بعد أن تكون الأصابع قد انسحبت عن المفاتيح. أتاحت هذه الامكانية فرصة خلق كل أنواع الأصوات المائية التي إذا ما مزجت بآلات أخرى ستعطي طابعا للموسيقى. استغرق وضع الموسيقى شهورا عديدة؛ خلال ذلك الوقت طلبت مني عصبة المسرح وضع موسيقى عمل فرانز وارفل *جاكوبفسكي والكولونيل*. على الموسيقى أن تنبض بالحنين إلى باريس ما قبل الحرب. كل هذا مر بسلالة شديدة وعدت إلى *أونديد*. أكملت العمل لكنه ذهب مع أدراج الرياح.

بات وقتي يضيق يوما بعد يوم. حينما حلت نهاية السنة استقلت من منصبي في الهيرالد تريبيون على أساس أن أواصل كتابة مقالات منتظمة بالنسبة لعدد يوم الأحد.

عملت على ترجمة *الدائرة المغلقة* كما ألفت أعمالا موسيقية وحققت خطوات متقدمة بخصوص مسرحية من تأليف آرتر كوستلر *حانة الغسق* التي كان بإمكانها أن تحيا لو أنها أخرجت إخراجا صحيحا غير أنها لاقت حتفها لسوء الحظ في بالتيمور. بعد حين أخذت مسرحية عنوانها *الراقص* نسخة ممسرحة من فصول من حياة نيجينسكي. كانت هذه المهمة صعبة حقا. أحيانا يفترض النص من الموسيقى أن تتخلى عن وظيفتها كموسيقى خلفية وأن تأخذ طابع موسيقى

الحفلات. حدث ذلك حينما بدأ نيجينسكي الذي لعب دوره انطوان دولين بالرقص بصخب. كان ذلك نوعا جديدا من المشاكل يجب حلها موسيقيا ولهذا السبب فان العمل عليها كان متعة. كان العرض فاشلا بالرغم من ذلك.

في نفس الأثناء عُرض علي انجاز الموسيقى الخاصة بمسرحية *نهاية الأرض*. كل ما أذكره هو أن الانتاج لم يستغرق وقتا كبيرا، وفعلا فقد انتهت المسرحية قبل أن ينتهي الأسبوع الأول من عرضها.

خلال ذلك الصيف أقمت أنا وجين في ساوتامبتون مع جون ويهلاين. كان المنزل يتمدد هادئا وواسعا قبالة الشاطئ حيث نخلد إلى النوم وهدير الأمواج المرتطمة يملأ أذنينا. في هذه السكينة استطعت أن أهتدي إلى الموضوع الذي كنت أبحث عنه والذي سأفتتح به حفلي. حدث ذلك ذات صباحا بعد أن ملأت صحن الحمام بالماء وحبست الماء. واصلت قطرات الماء تساقطها وهكذا استلهمت الموضوع من تعاقب قطرات الماء وهي تتساقط في صحن الحمام.

على نحو ما تمكن ريتشارد هيبورن من الاتصال مرة أخرى واقترح أن أقضي نهاية الأسبوع في فينويك بكونكتيكوت حيث يملك أبواه منزلا يقابل الماء. هنا في هذا المكان كان لقائي الأول بجمعية ناشئة تتمثل فلسفتها في غياب كل القيود. يموج المنزل بالعديد من الأطفال الصغار الذين يجدون الحرية الكاملة للقيام بأي شيء يرغبون فيه وفي أي وقت شاؤوا. خلال أوقات الطعام تسود الفوضى والتمرد وبطبيعة الحال بدت كل هذه الأشياء أمورا لا مناص منها. بقدر ما تبدو العائلة متحضرة بقدر ما كان أفرادها غير مكترثين لهذا الجنون. شعرت بالضيق والحرج حينما لاحظت بأنني أنفعل بحدة وسط جو الوضى الذي يخلقه الصغار، وقد تساءلت إذا لم يكن السبب في ذلك يعود لكوني أعيش دون أطفال. لم يكن لكاترين هي الأخرى أطفال ومع ذلك لا يبدو أنها تكترث للضوضاء. غير أن هؤلاء الصغار كانوا، بطبيعة الحال، أقاربها كما أنها يمكنها متى شاءت أن تهرب من هذا الجو وذلك بالذهاب مع أبيها في قارب طوال اليوم؛ أما الآخرون فلا يبارحون المكان وعليهم مجاراة ما يحدث.

خلال الخريف عدنا إلى البلدة حيث واصلت العمل على الكونشيرتو لآلتي البيانو، *الرياح والصدى* التي طلبها كل من كولد وفيزدال. أخذ خوسي فيرير يتردد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

علينا وكان يصطحب معه فردا آخر من عائلة فيرير، شاب نحيل أشقر يلقبه ميل. كان ميل قليل الكلام غير أن خوسي يعوض عن فراغاته. كان يعتزم انتاج مسرحية *سيرانو ذي برجراك* وكان له تصوره الخاص عن كل مشهد على حدة. بعد أن ناقشنا العرض لحوالي الأسبوعين شرعت في العمل على الموسيقى مستعملا كإحدى الآلات بيانو نوفاكورد، ذلك أنني لا زلت احتفظ بالبيانو الذي كنت قد استأجرته في الأستوديو. كان عرضا جيدا وقد برمج بعناية حيث أخرجه جوسي ولعب الدور الأساسي. حقق العرض نجاحا كبيرا وكان هذا تغييرا جميلا في سلسلة الهزائم التي منيت بها تلك السنة.

خلال هذه الأثناء عُرض علي عمل ممتاز: كان علي أن أقضي سنتين في أمريكا الجنوبية متنقلا من عاصمة إلى أخرى وأن أسجل كل الموسيقى التي يحتوي عليها الأرشيف الوطني لكل بلد على حدة. كان هذا جزءا من سياسة الجوار الجديدة التي باتت تنتهجها الحكومة الأمريكية. حينما رن الهاتف من واشنطن، فيما يفترض أنه تأكيد لعرض سابق، أعلن صوت مجهول بأنه في حالتي "يستحيل" المشروع ولا داعي للإفاضة في الكلام. أدركت فورا بأن هذا يعد إشارة مبطنة إلى روابطي السياسية في الماضي وهكذا تجاهلت الأمر.

قدِم جون هيوستن من الساحل الغربي لادارة ترجمة *الدائرة المغلقة*، فأوليفر الذي سينتج المسرحية بشراكة مع هيرمان لفين كان قد شاهد مسرحية *الصقر المالطي* مؤخرا وكان مقتنعا بأن هيوستن هو الشخص المناسب لإخراج العمل الجديد. ما دام أن عدد الممثلين في المسرحية لا يتجاوز الثلاثة فقد ارتأى امكانية اللجوء إلى ممثلين فرنسين. هكذا تمت الاستعانة بكلود دوفان وأنابيلا وكان البحث جاريا عن ممثلة أخرى للقيام بدور ايستيل. على نحو ما وقع اختياره على روث فورد لهذا الدور وتم تقديم العرض. كانت فكرته لاستعمال كيسلر لتصميم الاطار فكرة سديدة غير أن الممثلين الأجانب شكلوا على الدوام عائقا. كنت أقدم لأنابيلا دروسا يومية للتمرن على النطق باللغة الانجليزية؛ بعد مرور أسابيع قليلة بات من الممكن فهم كل ما تتلفظ به ولكن فقط بعد تركيز من جانب المستمع. كان دوفان أفضل حالا مع أنه هو الآخر ينزاح خارج السياق حيث أن الكلمات تصدر عنه كما لو أنها وضعت عبر جهاز تشويش إذاعي. بين هذين النطقين

الفرنسيين الطاغيين أحدثت نبرات روت فورد الجنوبية التي يمكن التعرف عليها بكل سهولة صدمة وذلك بسبب حدتها. كنت قلقا بشأن هذا الجانب غير أن ليلة الافتتاح بددت مخاوفي وشكوكي. أحب الجمهور فورد، و لم أعلم سر ذلك إلا لاحقا حينما اكتشفت بأنها أنجزت دورها جزئيا تحت تأثير التنويم المغناطيسي. كانت هذه إحدى حيل هيوستن. خلال الحرب العالمية الثانية كان قد استعمل التنويم المغناطيسي كعلاج نفسي لمساعدة حالات العياء المرافق للقتال. كان الفيلم الوثائقي الذي أنتجه حول هذه الحالات دع *بعض الضوء يسطع* مؤثرا بشكل مذهل. غير أن الجيش منع توزيعه وهكذا أقبر إلى الأبد. كان هذا المظهر الخاص من شخصية جون يثير اهتمامي، هكذا واصلت الحديث معه بشأنه إلى أن أخذ في الأخير يضم حلقات التنويم المغناطيسي في الاستعدادات. ما وجدته آسرا في هذه التجارب هو الطريقة التي يكشف بواسطتها عن المرونة الشديدة للنفس الانسانية. ذات عشية جاء تايرون باور وبه فضول للمشاهدة فقدم جون عرضا جيدا. كان قد أعد كلا من أنابيلا وروت فورد إلى درجة أنه يستطيع أن يعرضهما لحالة من اللاوعي وذلك فقط بنقر أصابعه بالقرب من وجهيهما. كانت أنابيلا ترتدي قميصا لفت أكمامه إلى الوراء. طقطق جون أصابعه ومد يديه ليجعلها تقف مستقيمة على قدميها ثم حمل قلما معدنيا وأشعل سيجارة. بعد ذلك قال لها: "ستشعرين بدغدغة. الآن سألمسك برأس قلمي." ثم ضغط بسيجارته على ظاهر راحتها بقوة تكفي لاطفائها. ندت عن أنابيلا ضحكة قصيرة وحكت يدها قليلا. وبعد ذلك قال جون: "الآن سألمسك بسيجارتي." ثم ضغط القلم بلطف على يدها الأخرى فتأوهت من الألم. حينما أعادها إلى وعيها جعلنا نراقب يديها. لا توجد علامة في اليد التي اطفأ فيها السيجارة بينما توجد بقعة حمراء قانية في المكان الذي كان قد لمسها فيه برأس القلم.

دفعني هذا للتساؤل. كان الحريق المزيف أمرا عاديا غير أن ما بدا عسيرا على الفهم هو أن جلد اليد الأخرى قاوم لفح النار وبقي سالما. إلى أي حد يمكن للحم أن يبقى عصيا على الاحتراق؟

اقترحت بأن يقدم اوليفر حفل عشاء وأن يجعل جون يستعرض مهاراته في وقت لاحق ذلك المساء. كللت المغامرة بالنجاح إذ استطاع أن يعيد روت فورد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى بلدة فولتون، بكونتيكي، إلى سن الثامنة حيث تتذكر حادثا عن كثب لعجوز أسود على طريق السكة الحديدية. خلال العديد من المناسبات ذلك المساء حاول جون أن يمارس حيله على كل من جين وأنا غير أنه على نحو حتمي أخذ يقول بقوة: "انكما تقاوماني." وبالرغم من أن كلانا كان يرغب في خوض التجربة (أو حسب جون نتخيل بأننا نرغب في ذلك بينما نحن في الواقع نخشاها)، فلا أحد منا استطاع أن يخوضها. يؤكد جون أن الأمر كان سيكون بسيطا لو أن قبولنا للفكرة كان قبولا تاما. من المرجح جدا أنه كان على صواب؛ في ركن قصي في ذهني يتضمن التنويم المغناطيسي عملا مريبا: التحكم المطلق في وعي الإنسان من طرف شخص آخر. ما يبدو طبيعيا هو أن الجهاز النفسي يتصدى لهذه الامكانيات.

ثمة صعوبات بشأن مسرحية *الدائرة المغلقة*. أراد جون أن تحظى الإحالات التي ترد في اشارة إلى ماضي الشخصية الذكورية عند وصولها إلى النار بطابع محلي؛ عن طريق الاستعاضة بدوافع سياسية بدل أخرى ميتافيزيقية يأمل أن ينعش الجدال بالنسبة للجمهور الأمريكي الذي يعتبره عاجزا على العموم عن تقدير الأساس الوجودي للمسرحية. كنت معترضا على أي تغييرات تمس جوهر النص؛ غير أن وضعي الثانوي في المغامرة تم توضيحه خلال سلسلة من اللقاءات التي تمت الدعوة إليها للقيام بمجموعة من التعديلات النصية التي تهدف إلى "أمركة" المادة. خلال واحد من هذه اللقاءات أدلى والد جون الذي عادة ما كان يشار إليه في الصحافة الأمريكية بالممثل القيدوم والتر هيوستن باقتراح ظاهره حسن لكنه سيكون كارثيا. اقترح أن يتم تقسيم المسرحية إلى فصلين وذلك بواسطة فاصل استراحة. اعترضت على ذلك وذلك بالقول بأن المسرحية ستفقد خلال هذه المساحة الزمنية معظم ما راكمته من زخم؛ لا يمكن أن يكون هناك فاصل استراحة في الجحيم الذي خلقه سارتر. غير أن صوتي تلاشى وسط ضوضاء قرقعة كؤوس الخمر والنصائح الحرة. بعد ذلك قرر جون بأنه كي يشعر جمهور نيويورك بأنه معني بهذه المسرحية فيجب أن يكون البطل عميلا. ما أن شُرع هذا الباب حتى توالت الاقتراحات من كل حدب وصوب. بهذا الشكل فقدت المسرحية معناها وغرقت في لجة التعتيم. تناهى إلى علم سارتر ما يجري وأرسل لي برقية احتجاج من باريس غير أن جون كان يرى بأن سارتر محاط بمجموعة من الفضوليين يأملون في نسف الإخراج الأمريكي

للمسرحية. على العكس كان يعتقد بأن ما يقوم به هو للإيضاح بدل التشويش على المسرحية. من المرجح جدا أن المسرحية حظيت باعجاب ورضا شريحة واسعة من جمهور نيويورك عن طريق تقديمها على هذا النحو غير أن تلقيحها بمفاهيم سياسية في جدال هو فلسفي أصلا جعلها لا تبدو غير أخلاقية فحسب ولكن منحرفة عن مقاصدها. ومع ذلك فقد رضختُ لإملاءات المنتجين. كان هيوتسون قد ربط موافقته على العرض بتلقيه نسبة مائوية عالية من الأرباح لذا فقد كان الآمر الناهي. تم اقحام الفسحة في الانتاج بشكل نهائي كما أن تمارين الملابس تضمنت اقتراحا باضافة لهب الجحيم وأعمدة النار وسط المنصة حينما يشرع باب الجحيم–اضافة مسرحية لا ريب ستكون محط سخرية سارتر. يالها من نعمة أنه لم يكن في نيويورك. وحتى لو كان هناك فلا يسعه القيام بأي شيء لحماية عمله من التحريفات الايديولوجية التي لحقته. لم تكن هذه التحريفات كثيرة أو كبيرة الأهمية غير أن مجرد وجود واحدة منها كان يكفي لتقويض مسرحية محكمة البناء كما هي *الدائرة المغلقة*. كان ينحى باللائمة علي ذلك أن المسرحية هي رسميا من اقتباسي وتحمل توقيعي.

استغرق العثور على عنوان مناسب جهدا كبيرا. وضعت أنا وجون وأوليفر قوائم لمئات العناوين المقتبسة من الإنجيل، ودانتي، وميلتون، وبو، وإليوت ولكن لا واحد منها كان ينطوي على الخاصية الاختزالية للعنوان الأصلي. أخيرا ونحن نهم باختيار أحد العناوين الأدبية الأقل اجحافا ألهمني قطار الأنفاق بكلمات مناسبة، كلمات صلفة لكنها تبقى فعالة. فكلما هممتَ بمغادرة قطار الأنفاق وذلك بالاستعمال القسري للبوابة الدائرية إلى الداخل تشعر برجة فعلية؛ في نفس الوقت تبصر أمامك الكلمات التالية *دون منفذ*. خطرت ببالي كعنوان للمسرحية؛ فإلى جانب رنات كلماتها وشكلها اللذين نالا إعجابي، تنطبق الكلمات على المسرحية تماما. حاولت أن أرى أثر العنوان على جون هيوستن فكان رد الفعل ايجابيا. هكذا قررنا بأنها ستكون عنوان المسرحية. كان ستيوارت جيلبورت يهيء ترجمة أدبية للمسرحية لصالح دار كنوبف، ذلك أن حقوقي تقتصر فقط على ترجمة النص للعرض. كنت أتوقع أن يبتكروا عنوانهم الخاص غير أنهم استعملوا عنواني. لم يقتصر الأمر على ذلك؛ فقد كانت بلونش كنوبف وجيستين أوبراين يحضران

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العروض التجربية ويجلسان في المقاعد الخلفية، ويقومان بتدوين ملاحظات كثيرة وهما يشاهدان العروض. لم يضايق هذا الأمر سواء جون أو أوليفر.

مع توالي العروض التجريبية، بت أكثر توترا. كان كل مشهد قصير يخضع لجهد كبير ودقة متناهية إلى حدود درجة من الكمال ليتم الانتقال بعد ذلك إلى المشهد القصير الموالي الذي يعالج بنفس الدرجة من التفصيل والحدة إلى أن يصبح هو الآخر كاملا مكتملا. لو كنا نصور هذه المشاهد في وضعها التابث بكل تميزها وألقها لكنا صنعنا تحفة فنية. غير أن الممثلين نظرا لطبيعتهم البشرية فهم يجدون عناء في استحضار كل ذلك الكم الهائل من التفاصيل التي تعلموها خلال العروض التجريبية. وفي عرض متصل يكون المرء واعيا بقطائع محددة بين المشاهد كما لو أن كل مشهد يتم تصويره من زاوية كاميرا مختلفة شيئا ما. ومع كل هذه الاعتراضات على الانتاج فإنه لغريب حقا أن يتم عرض المسرحية لمدة طويلة وأن تحصل على جائزة نقاد المسرح لأفضل مسرحية أجنبية للسنة.

في سنة 1940 بعد العرض الإفتتاحي *لليلة الثانية عشر* بمسرح شوبرت بنيوهافن تحمل تورنتون وايلدر أعباء النزول إلى قبو المسرح للبحث عني. حينما وجدني هنأني كثيرا على الموسيقى. الآن عند افتتاح *دون منفذ* تحمل أيضا الكثير من العناء فقط ليعبر عن عدم رضاه عن اقتباسي. كان على حق؛ لقد كانت الترجمة عادية غير أنه أضاف وأهداني نصيحته: "لا تفارق موسيقاك وستكون على أفضل حال."

خلال خبرتها الطويلة في الطبخ غدت جين ماهرة في إعداد بعض الأطباق الاحتفالية؛ وكان أحد هذه الأطباق هو البط بالليمون. تسربت هذه المعلومة إلى أنابيلا؛ فوجدت جين نفسها مدعوة من طرف أوليفر لتقديم الطبق في حفل عشاء. كأغلب المتخصصين، شعرت بأن الخطر يتهدد سمعتها وهكذا انصرفت إلى العمل بكل جد وأناة دون معيل ذلك الزوال سوى جرعات متكررة من زجاجة السكوتش التي كانت تضعها بجوارها في حوض غسل الأواني. خلال العشاء وصلت أنابيلا وكلود دوفان رفقة آخرين وتم تقديم مشروبات لهم. بقيت جين في المطبخ. أخيرا ارتأى أوليفر بأن الوقت مناسب لتناول الطعام فتوجه ليعلم الطباخة بذلك فأخبرته بأن كل شيء جاهز وبأن السيدة بولز قد آوت إلى فراشها. تناولنا

العشاء وعبارات الثناء لا تنقطع: "هذا البط هائل"، "رائع"، "ممتاز." غير أن جين لم تكن حاضرة لتسمع كل هذا المدح.

خلال هذه الفترة تحديدا دُعيت إلى حفل عشاء حيث وجدتني الرجل الوحيد في طاولة تضم العديد من النساء، لا أذكر بكل تأكيد سوى ثلاثة: ايستر ستراتشي آرتر وإلزا شابريلي وجانيت فلانر. لم يكن مفترضا أن أكون هناك على الإطلاق؛ ذلك أنه تم ضمي فقط تحت إلحاح جين. كان العشاء فاخرا واستمر لوقت طويل إضافة إلى الخمور والحديث. فجأة قالت إحدى السيدات وهي تتقمص دورها الأكثر مرحا: "الآن السيدة الشابة بولز ماذا لو تقدمين لنا وجهة نظرك حول وضعية العالم." وضعت جين المنديل جانبا وهمست: "اعذروني للحظة." بعد ذلك غادرت الغرفة. انتظرنا عودها، لكن دون جدوى. بعد حين ذهبت لرؤية سبب غيابها. كانت نائمة. حينما سخرت منها لاحقا أخبرتني: "لقد ذهبت إلى غرفة أخرى ولملمت أطرافي في الأريكة. ماذا كان عساي أن أفعل؟"

كان لاتوش وديوك إيلنتون، ربما قد ألهمهما نجاح *قُمرة في السماء* (التي أنجزها لا توش وفرنون دوك سبع سنوات قبل ذلك والتي اختارت إضافة إلى الممثلين موضوع الفقر) قد كتبا موسيقى سموها *إجازة المتسولين* وذهبنا إلى هارتفورد لمشاهدة الافتتاح. بعد العرض وجدنا أنفسنا في حانة. كان لاتوش هنالك يجلس رفقة ليبي هولمان. تحدثنا إليها طويلا. لاحقا كنا غالبا نرافقه لقضاء نهايات الأسبوع في منزلها الكبير في الأحراج. كان شيئا ممتعا وعظيما أن يكون المرء برفقتها وكانت تحظى بتوهج خاص أكسب الحياة في منزلها روعة وجمالا.

أخذتُ الآن أشتغل على ترجمة مسرحية جيرادو *معتوهة شايو* لمنتجين شابين حصلا على الحقوق وكانا يرغبان في اقتباس تام في غضون ستة أسابيع. كان هذا يعني قطيعة مطلقة في برنامجي اليومي وتبني خطة عمل مركزة وجديدة. هكذا من أجل المزيد من التركيز سافرت عبر الجو إلى جامايكا. كانت مونتيغو باي قبلة للسياح. بعد يومين أو ثلاثة هناك انتقلت إلى أوشيو ريوس حيث قضيت أغلب الوقت. كان الفندق فارغا باستثناء شخص أو شخصين. أنهيت العمل في الوقت المحدد وعدت إلى نيويورك. في ليلة وصولي شاهدت بالي *الحياة الرعوية* لأول مرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وخلف ذلك لدي أثرا حسنا. تضمن البرنـامج أيضا المقطوعـات الحيوانيـة لسترافينسكي، الثعلب، بملابس رائعة من تصميم ايستبان فرانسيس.

كانت مسرحية أخرى، على *شارع وايتمان*، في حاجة إلى موسيقى قصـيرة. بعد ذلك اتصل بـي مخرج ألماني يدعى هانس ريشتر تم ارساله من طرف لاتوش. أذكر أنني شاهدت أحد أفلامه مند عشرين سنة خلت في دار المسـرح الخـامس وأثرت انتباهه إلى ذلك. أعتقد أن ذلك فاجأه. كان ريشتر ينهي الآن تصوير فيلم بتعاون مع ماكس أرنست، مارسيل دوشون، مان راي، وكالدر. كان بحاجـة إلى العديد من المقاطع الموسيقية المتفرقة فقصدني أنا وجون كايج ودافيد دايموند مـن أجل وضعها. كنت قد كتبت في الماضي موسيقى لفيلم قصير حـول كولاجـات *أسبوع من الطيبوبة* لأرنست؛ اختار أرنست نفس المادة الأساسية الخاصة بجزئيـه من هذا الفيلم الجديد، الرغبة. كان أكثر أعماله قيمة، *أسبوع من الطيبوبة*، سلسلة من الكولاجات وكل جزء مخصص إلى مظاهر من عنصر مختلف. لقد تم اقتـراح *الرغبة* على أساس بعض الصور في الكتاب الذي يحمل عنوان الماء. تركت متتاليات محددة رهن تصرف ماكس حيث استعملها وهي تنسـاب إلى الخلـف ملازمـة صراخات وتصفير الكورال. لم تكن عملا معياريا سنة 1947. تم تشكيل الفـيلم الآخر من طرف كالدر، وهو عبارة عن محركات تدور وتطفو وسمي *بالي*.

في وقت ما تبادر إلى ذهن أوليفر الذي أصبح مديرا لمسرح الباليه بأنه علي أنا وجيري روبينـز أن نشترك في إنجاز باليه. كان جيري يضع الخطـوط العريضـة لعمل سيلقبه *تفاعل*. كان يقصد مكاني على الشارع العاشر في العشيات وكـان يستغرق في الحديث عنه. كان يعمل بشكل يختلف جدا عن الكوريوغرافين الذين كنت قد تعاملت معهم في الماضي. بالنسبة لي كان كل شيء يتلفظ به مغلفا بطابع ذاتي صرف، حتى يكاد يكون مستغلقا. بالنسبة لجيري فإن ذلك يرتبط نوعا مـا بالتحليل النفسي الذي كان يخضع له حينها. لم نتمكن أبدا مـن التوصـل إلى أي شيء خلال نقاشاتنا وأخيرا تركنا المشروع. لاحقا كتب مورتون كولد الموسيقى.

من وجهات نظر متعددة يمكن اعتبار هذه الفترة في الشارع العاشر وجـودا متميزا وخصبا، وبالتالي وجودا مُرضيا. صحيح أنني كنت غزير الانتاج خلال هذه السنوات غير أنني كنت أجدني دائما رهن تصرف شخص آخـر. كنـت أضـع

الموسيقى التي كانت تسعف لاضفاء طابع جمالي أو تأويل أفكار الآخرين؛ هذا شيء مسلم به، طبعا، في كتابة الموسيقى الوظيفية. يكمن الحل في البحث عن ملجأ في كتابة موسيقاي الخاصة. قمت بذلك فعلا؛ كان العملان من تكليف كولد وفيزدال. كان ممتعا جدا تأليفهما وبطبيعة الحال الاستماع إليهما حينما يتم عزفهما. لكن حينما أنهيتهما لم أواصل العمل على موسيقاي الخاصة. على العكس قبلت أعمالا مسرحية أخرى وكنتيجة لذلك لم أحقق أبدا حالة الحرية التي كنت أسعى وراءها. من وجهة نظري كنت فقط في حالة انتظار. صارت الآثار السلبية لهذا المنحى واضحة شيئا فشيئا خلال الربيع. كان لدي الوعي برغبة تتصاعد ببطء للخطو خارج دائرة الرقص التي صرت دون علم مني متورطا فيها. أحسست بأنني سأواصل المشاركة فيها إلى أجل غير مسمى إذا أنا لم أقطع الخيط الذي يشدني إليها. بسعادة، لم يتسن للحلم بموضوع الفرار أن ينتهي إلى فكرة جامدة؛ من حيث لا أدري كان القرار قد اتخذ لصالحي.

ذات ليلة منعشة خلال شهر أيار، بينما كنت نائما في غرفة هادئة، انتابني حلم. لم يكن الأمر غريبا؛ فعادة ما تنتابني الأحلام وأحيانا أستيقظ وأُدونها مباشرة حتى بدون أن أشعل النور. كان الحلم مميزا بالرغم من قصره وخلوه من أية أحداث طريفة اللهم تلك المتتاليات من الشوارع المتغيرة. بعد أن استيقظت، كان الحلم قد تبدد مخلفا وراءه كنهه في حالة من الدقة الشديدة: بقايا مذاق حلو وهدوء لا نظير لهما. قبل غروب الشمس كنت أسير ببطء عبر شوارع متداخلة ونفقية. وأنا أسترجع المكان في ذهني، شعرت بالأسى لترك المكان وراء ظهري. لاحظت بعنف بأن المدينة السحرية توجد فعلا. إنها طنجة. تواتر وجيب قلبي فغمرتني ذكريات باحات وسلالم أخرى، لا زالت ندية رغم مرور ستة عشر سنة عليها. ذلك أن طنجة التي تسكعت فيما كانت هي طنجة 1931.

صبيحة اليوم التالي كانت المدينة لا تزال ماثلة في ذهني، ندية وقوية حين تذكرها كما أن الذكرى الحية عنها تواصلت يوما بعد يوم إضافة إلى الشعور الغريب بالسعادة الهادئة التي هي في جوهر الحلم الذي رافقها بشكل حتمي. لسرعان ما أدركت أن طنجة يجب أن تكون المكان الذي أرغب أن أكون فيه أكثر من أي مكان آخر. أخذت أتداول في امكانية قضاء الصيف هناك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خلال هذه الأثناء كانت تساورني فكرة تجميع كل قصصي وعرضها على أشخاص محتملين على أمل أن تصدر في مجلد. طلبت مني منشورات دايل أن أزور مكاتبهم، ليس بطبيعة الحال ليخبروني بأنهم سيصدرون هذا الكتاب ولكن ليقدموا لي نصيحة مفادها أن لا ناشر سيقتني مجموعة من القصص القصيرة وضعها شخص لم يسبق له أن أصدر رواية. حسب رأيهم، فوكيل الأعمال ضروري؛ عرضوا علي أن يتصلوا بأحد الوكلاء. كان الوكيل موضوع النقاش هو هيلين شتراوس، عن وكالة ويليام موريس. أسبوع أو عشرة أيام بعد أن تناولنا العشاء معا، في الوقت الذي كنت قد منحتها قصصي، اتصلت بـي لتخبرني بأن دار النشر دابل داي قد عرضت أجرا مقدما لكتابة رواية. ما أن وقعت العقد حتى شرعت في وضع مخططات رحلتي إلى طنجة. لقد حظيت شمال افريقيا لدي بطابع أسطوري على الدوام. فمجرد اتخاذ القرار بالعودة إلى هناك جعل المكان أكثر واقعية وأحيى لدي المئات من المشاهد المتوارية الصغيرة التي انبثقت في وعيي من تلقاء ذاتها. استقللت حافلة بالشارع الخامس ذات يوم للذهاب إلى وسط المدينة. ما أن بلغنا ساحة ماديسون حتى عرفت مواضيع الرواية وعنوانها. قبل الحرب العالمية الأولى كانت هناك أغنية شعبية تسمى "هناك في الأسفل وسط أشجار النخيل الواقية." يوجد تسجيل لها بالعبارة في كلينورا وغبَ وصولي هناك كل صيف منذ سن الرابعة، كنت أبحث عنها واستمع إليها كثيرا قياسا بالأغاني الأخرى. لعل ما أثار اهتمامي حقا لا يكمن في الأغنية التاسعة ولكن في الكلمة الغريبة "الواقية." مما كانت أشجار النخيل تقي الناس وكيف كانوا على يقين من هذه الحماية؟ آه حبيبتي انتظريني هناك حيث تغيب الشمس حوالي الساعة الثامنة..."

ستجري أحداث الكتاب في الصحراء حيث توجد فقط السماء، وهكذا ستكون السماء الواقية. هذه المرة على الأقل لن يكون علي أن أستلقي لليال دون نوم أبحث عن العنوان المناسب. من حيث الجوهر تشبه الحكاية "فصل بعيد"، القصة القصيرة التي كنت قد نشرتها للتو بمجلة بارتيزان ريفيوز وستنكتب، أحسست بيقين، ما أن أضع الشخصيات وألقي بها في مشهد من مشاهد شمال افريقيا. خلال الوقت الذي وصلت فيه إلى وسط المدينة كنت قد قمت بأكثر القرارات أهمية بشأن الرواية. بعد ذلك قررت أن لا أعيرها أي بال حتى أشرع في الكتابة الفعلية.

كان غوردن ساغر قد أصدر للتو رواية حول الأيام التي قضيناها بتاكسكو تحت عنوان، *اجر أيتها الخراف، اجر*. كان مستاء من التعاليق التي صدرت ويتوق للذهاب إلى مكان ما بعيد وأن يشرع في كتابة عمل جديد. هكذا حينما قررت الابحار إلى الدار البيضاء على متن س. س. فرنكاب قرر غوردن الابحار أيضا معتبرا أنه يستطيع العمل في المغرب أو، في حالة فشله، أن يواصل سفره إلى ايطاليا. صبيحة اليوم الذي كنا سنغادر وصل غوردن باكرا إلى الشارع العاشر، ساعات قبل وقت ركوب الباخرة. ونظرا للكم الهائل من الأمتعة التي سآخذها معي اتصلت بوكالة لكراء سيارات الكاديلاك وطلبت منهم أن يرسلوا لي سيارة لتقودنا إلى جنوب بروكلين. تناولنا الغداء وشرعت في جمع أغراضي. حالا اكتشفت بأن جواز سفري مفقود على نحو ينذر بالخطر. كان في الصباح فوق حقيقة للكتب. الآن لا يمكن العثور عليه في أي مكان. بحثنا وبحثنا إذ كنا نتوقع وصول السيارة بعد نصف ساعة. كان غوردن يبحث في كل حقائبي. كان يعتقد أنه من الراجح أن أكون في لحظة ما قد وضعته دون وعي مني داخل واحدة من هذه الحقائب. واصلنا البحث في كل مكان. قبل وصول السيارة بلحظات، تمكنت من العثور عليه مطمورا تحت مجموعة من الملابس الداخلية لجين في خلفية درج مكتب. كان ذلك لغزا؛ زعمت جين بجدية بأنها لا تعلم شيئا عن الموضوع. غير أن لا أحد غيرنا يوجد في الشقة. نظرنا إليها باتهام. ضحكت: "أنت تعلم بأنني لا أريدك أن تذهب." ثم استطردت، "اذن فلابد أن أكون أنا الذي أخفيت الجواز."

غادرت الشقة ببساطة، كما لو كنت أغادر فقط لقضاء نهاية الأسبوع في مكان ما (كانت فكرة سيئة جدا، كما بدا بعد ذلك) وحملت معي الكثير من الأمتعة واستقللت الباخرة. كانت الغرفة كبيرة والبحر هادئا. خلال الرحلة كتبت قصة طويلة حول شخص ينغمس في المتع. كانت القصة تتمخض بشكل غامض لمدة ستة أشهر، منذ زيارتي لجاميكا. أنهيتها في اليوم السابق لوصولنا إلى الدار البيضاء وسميتها "صفحات من نقطة باردة." بعد ذلك وصلنا اليابسة وتكلف المغرب بالباقي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

14

بعد أنسام الصيف الرطبة التي كنا نستنشقها على متن بـاخرة فورنكايـب كانت الرياح الجافة التي تهب في المغرب منعشة. عشت حالة متواصلة من التـوتر. كان الجو ساخنا وكنا نقطع الأميال تلو الأميال كل يوم مشيا على الأقدام نجوب أنحاء مختلفة من مدينة فاس. كان التواجد في هذه الأمكنة الطبيعيـة، واستنشـاق روائح أشجار التين والأرز وأحراج النعناع والاستماع إلى خرير الماء الذي ينساب بسرعة أكثر من اللازم مصدر متعة لا تنقطع. لا تـزال فـاس في أوج عصـرها الذهبـي؛ بالكاد تغير أي شيء منذ آخر مرة قمت بزيارتها-أي قبل الحرب بمـدة طويلة. كما أن ضجيج حركة المرور لا يتعدى شقشقة الأجراس المعلقـة علـى الأحصنة التي تجر العربات جيئة وذهابا بين باب بوجلود والملاح. خارج أسـوار باب الحديد حيث تطل غرفتي عبر سهل وادي الزيتون، كانت هناك ممرات ظليلـة حيث يصر الهواء خِلل أجمات الخيزران السامقة. كان الطعام جيـدا فشـرعت في كتابة روايتي.

لم يستطع غوردن أن يتحمل الأجواء السائدة في فاس فشعر بالكآبة والضيق، وهكذا قرر الذهاب إلى مراكش للإلتحاق بصديق. بعد أن ودعت المدينة التقيـت شخصين شديدي الغرابة، أما وابنها. كان سلوكهما غريبا بحيث شـد انتبـاهي. خلال حلقة غريبة من المصادفات تمتد على مدار شهرين أو ثلاثة كنـا نلتقـي في باحات الفنادق: أولا في فاس، بعد ذلك في طنجة ثم في جزر الخالـدات وأخـيرا بقرطبة. وبعد ذلك سلكوا طريقهم الخاص. خلال هذه الأثناء كانت الأم وابنـها قد اتخذا موقعا قويا على صفحات كتابـي كشخصيات ثانوية. الآن يبدو ضـم هذه الشخصيات أمرا تعيسا، ليس لأنني وظفتها ولكن لأنها بـدت شخصـيات كاريكاتورية. كنت قد اخترت مسبقا طريقتي في اختيار التفاصيل الوصفية. سيمد الخيال بنية وطبيعة المناظر الطبيعية (أي بواسطة الذاكرة.) كما أنني سأدعم كـل

مشهد بتفاصيل مأخوذة من المعيش اليومي قد أصادفها خلال عملية الكتابة، بغض النظر عما إذا كان التقابل الناتج مناسبا أو غير مناسب. لم أكن أعلم أبدا ما الذي سأكتبه في اليوم الموالي لأنني لم أعش بعد أحداث ذلك اليوم.

بعد اختفاء الأم وابنها بقرطبة، توجهت إلى روندا للاقامة في أحد فناديقي المفضلة لأيام ما قبل الحرب، فندق فكتوريا، على تلها العالي فوق الجبال والسهول المحيطة. هنا اشتغلت بقوة وبحماسة؛ فسكون الليالي وأنسام الجبل الحلوة شكلت معينا لا ينضب.

حينما عدت إلى طنجة أقمت أولا في أحد الفنادق ثم في آخر إلى أن وجدت أخيرا فندق الفرحار على الجبل والذي يواجه مباشرة المكان الذي كنت أقمت فيه أنا وكوبلاند سابقا. هنا تمكنت من الحصول على منزل صغير من غرفتين بمدفأة ومنظر جميل جمالا يسحر اللب. اشتريت ببغاء أمازونيا كان يقهقه وصرت مرة أخرى واعيا بالفرق الكبير بين منزل موحش وآخر يملأه ببغاء. كتبت إلى جين وأخبرتها بأن المغرب لا يزال على حاله وبأن الحياة هنا لم تختلج بأي تغير وبأن عليها أن تأتي في أقرب وقت ممكن. كانت الرواية تتقدم بخطى حثيثة حتى المشهد الذي يقضي فيه البطل بسبب التيفويد.

دأب المغاربة على الحديث عن المَعجون وهو عصارة القنب الهندي. عادة لا أرفض أي غليون من الكيف حينما يجد طريقه إلي، غير أنني ما دمت لا أبتلع أبدا الذخان، فإنني بقيت في منأى عن تأثيره ولا زلت أعتبر الكيف أحد أنواع التبغ السيئة المذاق. هكذا أثارت اهتمامي فكرة المعجون خصوصا بعد أن استمعت إلى أوصاف حية عن العجائب التي تحدث تحت تأثيره. حصلت على عنوان لمنزل في شارع ابن خلدون حيث يمكن للمرء أن يقرع الباب ويسلم المبلغ الضروري وبعد مرور بضع دقائق يحصل على علبة صغيرة. وكما كان مفترضا، اشتريت قطعة كبيرة من المعجون مقابل عشر بسيطات. كانت أرخص أنواع المعجون وبالتالي كان مذاقها قديما جدا كقطعة حلوى يعتليها الغبار وعديمة المذاق. غير أن هذا لم يؤثر على قوتها بأي حال من الأحوال. عدت إلى الكوخ على التل وبعد ذلك صعدت إلى أعلى الجبل للاسلتقاء تحت أشعة الشمس على ظهر صخرة تربض عاليا فوق المضيق. بين الحين والحين أرفع رأسي لأنظر عبر المسافة إلى الخط البعيد الذي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تشكله سلسلة الجبال في اسبانيا. فجأة شعرت بتغير، تمددت في سكون مطلق، ينتابني شعور بأنني أطفو في الهواء، وأرتفع لملاقاة الشمس. لمدة طويلة لم أفتح حدقتي. بعد ذلك شعرت بأنني ارتفعت بمسافة بعيدة عن الصخرة بحيث صرت خائفا من فتحهما. لاحقا أخذ ذهني يشتغل على نحو لم أتوقع أبدا امكانيته. أردت أن أنهض عن الصخور، أن أصل إلى سفح الجبل وأن أعود أدراجي إلى المنزل على وجه السرعة. حينما عدت إلى فندق الرحار كانت الشمس قد غابت. بامكاني رؤية ضوئها الأرجواني وهو ينسحب من على الفيلات التي تشكل تخوم التلال عبر السهل. كانت هناك أشجار الصنوبر خارج الكوخ تقف عارية مباشرة في مواجهة هبوب رياح الشرقي التي تزأر عبرها على نحو يفوق هدير الأمواج على الصخور. أشعلت النار في المدفأة، وأعطيت قطعة من الموز إلى الببغاء وصنعت ابريقا من الشاي. بعد ذلك استلقيت على السرير في الضوء الخافت وأخذت أحدق في اللهيب في المدخنة. لمدة طويلة لم أتحرك. ضمن أشياء كثيرة كنت أحاول تخيل موت بطل الرواية. لاحقا تلك الليلة دونت الكثير من التفاصيل وفي اليوم الموالي كتبت الكثير من أجزاء المشهد. كنت دائما أتجنب عن وعي كامل الكتابة حول الموت لأنني أعتبرها موضوعا تصعب معالجته بأسلوب يليق بالحدث؛ بدا معقولا إذن أن يتولى اللاوعي المهمة. لا ريب أن المعجون قدم حلا يختلف كلية عما كنت سأفكر فيه.

كانت الرياح تهب في طنجة وكانت المدينة تبدو كئيبة؛ كنت أتجول لأيام بالضاحية العليا وبالقصبة إلى أن تعرفت على كل شارع وكل زقاق. مباشرة بعد ذلك أخذت أستفسر عن المنازل الفارغة. كانت كلها رخيصة بشكل عبثي. يتراوح ثمن العشرات من التي عاينتها بين ألفي دولار بالنسبة للمنازل الكبيرة ذات الباحات المغطات ومائتين وخمسين دولارا لمنزل ريفي يحتوي على غرفتين وحديقة وفق أسلوب اسباني. أرسلت برقية إلى أوليفر سميت أسأله إذا ما كان يرغب في المساهمة في شراء منزل بطنجة. وافق على العرض فاخترت منزلا يوفر منظرا رائعا، بالقرب من ساحة أمراح. كان الحصول على مفاتيح المنزل أمرا سهلا، غير أن الأوراق الإدارية استغرقت الجزء الأكبر من السنتين التاليتين. مادمت أعتبر أنه من غير الحكمة القيام باصلاحات ووضع أنابيب الماء إلى أن

أحصل على العقد فلم أتمكن من الانتقال إلى المنزل إلا سنة 1950 غير أنني أكملت اجراءات الشراء الآن ويمكنني السفر إلى فاس مليئا بالرضا مما صنعت.

هناك قمت بتحريات بشأن المعجون وتم توجيهي إلى محل حلاق يوجد خلف زاوية مولاي ادريس حيث كانت هناك دائما أربعة أو خمسة حُقق من المعجون في درج اضافة الى المقص. شعرت بأنني عثرت على سر رائع لتغيير معالم الكون ذلك أن كل ما علي القيام به هو وضع بعضا من هذه المادة على قطعة حلوى والتهامها. انخرطت في سلسلة من التجارب تهم كيفية التعاطي مع المادة التي لا تزال عالما مجهولا بالنسبة لي. كان الهدف هو تحديد الظروف القصوى المناسبة لتناول كمية معينة، الوقت المناسب في اليوم لذلك، نظام الطعام المناسب والجو النفسي والمادي العام الأكثر اسهاما في المتعة خلال التجربة. تعد كؤوس كبيرة من الشاي الساخن ضرورة ملحة كما أن الغسق يعد أفضل وقت لتناول الجرعة. يكون الأثر بطيئا، أي بعد ساعة ونصف أو ساعتين، ومن المحبذ أن يكون ذلك خلال وجبة العشاء التي يجب أن تقتصر على حساء يليه شريحة صغيرة من اللحم وسلاطة لا تبدو أنها تحول على الاطلاق دون التأثير السريع للمعجون. من اللازم أن يكون المرء راضيا عن كل مظاهر الوجود مسبقا. ذلك أن أقل انشغال، أو أية جزئية صغيرة من الضباب على المستوى العاطفي، ستجد طريقة لتبرز إلى الوجود خلال تغير الوعي وقد تتخذ أبعادا عملاقة، وهكذا تدمر الرحلة الباطنية تماما. ان عملية تناول المعجون عملية دقيقة ومادام نجاحها أو فشلها يرتبط أساسا بالشخص الذي يتناوله فإنها أيضا وسيلة ذاتية بامتياز لقضاء الوقت. لا يجب أن تكون هناك انقطاعات أو مفاجآت بأي حال من الأحوال. يجب أن يقع كل شيء حسب الجدول الزمني الذي تحدده المادة من تلقاء ذاتها.

منذ شهور عديدة خلال الصيف تعرفت على السيد عبد السلام الكتيري، وهو سيد فاسي يتمتع بحس كبير من الفكاهة ولديه العديد من الأبناء والبنات. بمنزله تعرفت على العديد من الشباب كلهم من أبناء فاس سيحتلون بعد عقد من الزمن مناصب عالية في الحكومة المغربية. خلال هذا الوقت كانوا يتابعون دراستهم بثانوية مولاي ادريس. كما التقيت أيضا بأحمد اليعقوبي الذي سيصبح رساما في المستقبل. كان منزل السيد الكتيري الكبير يسمح بوجبات غداء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مطولة رسمية إلى حد ما وحفلات العشاء التي كانت دائما متعة في ذاتها. خلال السنوات التي كنت أتردد فيها على المكان تناولت الطعام على الأقل في ثماني غرف وباحات مختلفة. داخل المنزل تعيش العائلة كرحالة، يغيرون باستمرار الأثاث من منطقة إلى أخرى ودائما يزعمون بأن الوضع الحالي هو الأكثر متعة. غير أنهم لا يسافرون أبدا. ذات مرة أعلن السيد الكثيري باعتذار بأن المنزل يوجد في حالة فوضى عارمة ذلك أن زوجته غادرت لمدة أسبوعين. كانت تقوم بزيارة لأختها بالقرب من باب فتوح في الضاحية الأخرى من المدينة. فإضافة إلى أكداس الأمتعة وصعوبة نقلها إلى المكان البعيد (مساحة ميلين على الأقل) فلم تتمكن العائلة أن تصل إلى النظام في المنزل. في الأخير بقيت السيدة الكتيري تقريبا شهرا وعادت من رحلتها مجهدة كليا. جعلني حلول موسم الشتاء في فاس أفكر في الصحراء حيث بالرغم من امكانية الجو البارد فإن السماء على الأقل تكون صافية. كان لدى الببغاء قفص نحاسي قوي أحطته بحزامين من الصوف؛ فدون هذا الإجراء كان سيتجمد لا محالة. أخذت القطار إلى وجدة وقضيت أياما كثيرة هناك أجمع المعلومات الضرورية.

بين مدينة وجدة المغربية وكولمبشار الجزائرية يمر خط السكك الحديدية القديم فوق المنبسطات العليا. في الصباح الذي استقللت فيه القطار كانت هناك عاصفة ثلجية تتشكل شيئا فشيئا؛ خلال ساعات اليوم كان الثلج يتسرب من الأسفل في المقعد الخشبي المتهالك الذي أجلس عليه حيث كنت المسافر الوحيد في الدرجة الأولى. عند محطة توقف عاينت الدرجة الأخرى التي لا يفصلها عن مقعدي الوحيد سوى سلسلة من عربات النقل. كانت هذه المقطورة تعرف بالدرجة الرابعة ويتمدد على طولها كراسي. في واحدة منها كان هناك مجموعة من المغاربة الذين أوقدوا نارا على الأرضية وكانوا يتقرفصون حولها، يدفئون أيديهم من قر الليل. بطبيعة الحال أخذت أرضية القطار في الاحتراق و لم يمر وقت طويل قبل أن يتوقف القطار ليقوم السائق ورجل الاطفاء بإخماد اللهب، وسط تقريع وتوبيخ لأهل البلد. كان القطار قد انطلق على الساعة السادسة والنصف صباحا وعلى الساعة التاسعة والنصف وصل إلى كولمبشار. عند منتصف الطريق خلال فترة توقف طويلة في قرية جامدة ترزح تحت غطاء سميك من الثلج أخبرني عامل فرنسي

بأن رجال الجمارك الجزائريين يقومون عادة بالتأكد من هوية المسافرين وتفتيش أمتعتهم في القطار عند الوصول. حينما توقف القطار أخيرا لم أبرح مكاني، تقرفصت حتى لا يزايلني الدفء وكنت أحدق في جسم الليل الكثيف. كان بعض الأشخاص في برانيسهم يتحركون عن مسافة، بعضهم يحمل قناديلا. لم يأت أي من رجال الجمارك للتحقق من جواز سفري أو أمتعتي، هكذا بعد هنيهة مددت كل حقائبي عبر النافذة إلى رجل عرض أن يحملها. خلال الوقت الذي حملت فيه الببغاء إلى المنصة كان هناك سبعة أشخاص، كل واحد منهم يحمل حقيبة ويضعها على رأسه وهكذا انطلقنا عبر العتمة، متجنبين البرك الكبيرة حيث كان الثلج قد سقط وذاب خلال اليوم.

خلال أيام الأسبوع التالية تلاشت آثار العاصفة وواصلت رحلتي بواسطة شاحنة لنقل البضائع إلى تاغيت، وهي من بين المناطق الأكثر شاعرية التي لم يسبق لي أبدا أن رأيت نظيرا لها. يُدار الفندق الصغير الذي يقع في قمة الصخور بارتباط مع القلعة العسكرية المجاورة. كان هنالك خادم عجوز وحيد يقوم بكل شيء؛ لحسن الحظ لم يكن هناك سوى سيدة سويسرية كانت تدرس في زيوريخ وتقضي مواسم الشتاء في الصحراء. كانت علاقتنا على ما يرام وكنا نقوم معا بنزهات طويلة على الأقدام في الواحة جنوبا. ما جعل تاغيت تتمتع بطابع خاص هو موقعها إذ تشرف من جهة على الحمادة الصخرية بواديها المقطوع والملتوي والذي تمتلأ جنباته بأشجار النخيل ومن الجهة الأخرى كثبان عالية من الرمال الذهبية الليمونية، لا يتجاوز الوصول إليها سوى خمس دقائق من المشي على الأقدام انطلاقا من الفندق.

خلال رحلة صغيرة تمتد على ستة أو سبعة أسابيع كنت أنشغل باستطلاع المنطقة بهدف ترك معاينتها معاينة كاملة إلى زيارات لاحقة حيث يكون لدي متسع من الوقت. كنت أود الذهاب إلى أقصى منطقة في الجنوب على طريق جاوا مع العلم أنني كنت أدرك بأنه سيتم اعتراضي عند نقطة ما وبالتالي علي العودة إلى الشمال مرة أخرى. ذهبت إلى بني عباس التي لا يزال الكثير من الناس يخلطونها بسيدي بلعباس، المقر السابق للفيلق الأجنبي الفرنسي. وبالرغم من غياب أية علامة تدل على وجود أي موقع كتيبة في أي مكان من هذه المنطقة فإن القلاع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الصحراوية تتراءى كأماكن لأي فيلم أُنتج حول الكتيبة الأجنبية. يطغى منظر القلعة على الفضاء العام حيث يربض عند قدميها الجزء الذي شيد مؤخرا من البلدة. لم تكن التلال العالية بعيدة تماما (بالرغم من أنها ليست قريبة على نحو مؤثر كما هو الحال بتاغيت.) في الاتجاه المقابل وفي الأسفل توجد مساحة خضراء كانت تشكل الواحة. لا تتراءى القرى الطينية في الأفق؛ كنت قد عثرت عليها على حين غرة وأنا أتجول عبر أشجار النخيل. بين الفينة والأخرى كان علي المرور عبر أنفاقها المعتمة الطويلة حتى أتابع مسيري. ببني عباس يوجد مبنى يطل على منظر رائع يمكن مشاهدته عبر الفندق، أسفل القلعة، غير أنه يشرف على الصحراء لعدة أميال. في هذا المكان كان الفرنسيون قد شيدوا رواقا مفتوحا للعبادة. عادة عند الغروب يتجمهر الرجال المعممون هنا. كل واحد منهم يحمل حصيرة الصلاة؛ يسلمون جماعة في مواجهة الحمادة الفارغة.

ظاهريا تبدو تيميمون بلدة سودانية ومن هنا سر روعتها. بدا لي فندق ترانس أتلانتيك تحفة فنية وقررت أن أقيم فيه لبعض الوقت. كان الطعام قليلا غير أنني تناولت مرة شريحة من لحم الجمل هناك. وفي ليلة أخرى أتحفنا صاحب الفندق بلحم الغزال. كل صباح أستلقي في سريري أدرس التصاميم الافريقية المنقوشة على الجدران الطينية لغرفتي وأواصل كتابة الرواية.

كلما حللت ببلدة صحراوية أجعل نصب عيني أن أقدم آيات احترامي لكل من رجال العسكر والدين، المؤسستان الضروريتان لإقامة والحفاظ على أي نظام استعماري. يعيش الضباط الفرنسيون حياة مترفة؛ غالبا ما يرغبون في دعوة ضيف على مائدة عشائهم. هنا تبدى القبطان حكواتيا ممتازا. بعد وجبة ذات مساء روى حكاية أثارت خيالي بشكل خاص. في السنة المنصرمة تم قتل ثلاثة تجار مسلمين في طريقهم جنوبا عبر الصحراء. صادر القاتل قافلتهم وواصل الرحلة إلى الوجهة التي كان يقصدها الضحايا حيث تعرف زملاؤهم على البضاعة. نقلوا ريبتهم وتوجسهم إلى السلطات العسكرية الفرنسية التي على نحو مفاجئ أذنت لهم بالقيام بما يرونه مناسبا. هكذا حملوا الرجل بعيدا في الصحراء وطمروه إلى العنق في الرمل. وبعد ذلك تركوه ليموت هناك. بقيت القصة المزعجة على نحو غامض تراودني غير أنني لم أكن مستعدا لكتابتها إلا بعد مرور سنة على ذلك.

واصلت رحلتي إلى أدرار. للذهاب إلى ريغان كان يفترض الحصول على إذن خاص كما أن إرسال وثيقة ما يستغرق الرد عليها وقتا طويلا. بعد أسبوع انطلقت شمالا مرة أخرى، هذه المرة بواسطة الطيارة. كان هنالك فقط الربان وأنا. مشدودا إلى كرسي بجانب الربان في القبرة، كنت مرغما على ابداء سروري حينما شرع في حركات قصف خيالية للناس في السوق وكاد يصطدم بمئذنة مسجد أدرار. ونظرا لأننا كنا نحلق دون ما يدلنا على وجهتنا، فقد كان علينا لزاما أن نحط عند غروب الشمس. باكرا في الصباح التالي انطلقنا مرة أخرى. بلغنا الجزائر في ذلك اليوم. بفندق القديس جورج كانت هناك رسالة من جين تخبرني فيها بأنها كانت قد وصلت إلى طنجة وأنها تنتظرني.

حتى تتدراك أربع سنوات من معرفتي بالمغرب، قضت جين فصل الخريف في باريس تتردد على مدرسة اللغات الشرقية، وكنتيجة لذلك أصبحت تتوفر حين وصولها إلى طنجة على إدراك أساسي لتكوين الكلمة والنحو العربيين. ولدعم ذلك، ومباشرة بعد وصولها إلى هنا، كانت قد قررت مواصلة دراستها تحت إشراف أستاذ مغربي. بالرغم من أنها كانت قد ذهبت إلى مراكش خلال هذه الفترة، فإن قدرتها على الإستيعاب كانت كبيرة بحيث حين التقينا، أقل من شهرين على وصولها إلى المغرب، كانت تجيد الحديث باللغة العربية دون أي فرق ملحوظ قياسا بمستواي. لكن نظرا لأن قاموسي كان يتسع لمفردات أكثر ولأنني كنت أتكلم بطلاقة، فقد تصورت بأنني أتقن اللغة العربية أكثر منها. ما يزعج حقا بشأن اللغة العربية في صيغتها المغربية هو تغيرها حسب المنطقة؛ هكذا فإن الكلمة التي تستعمل في طنجة ليست غالبا تلك التي تستعمل في فاس وهكذا دواليك. بعد حين استقر اختيار جين على اللهجة الطنجاوية، بينما كنت أشعر براحة أكبر وأنا أستعمل المفردات والنطق الفاسيين. كانت تسخر مني كلما تلفظت بكلمة ما. تواصلت هذه اللعبة الصغيرة بيننا لسنوات عديدة، إلى أن استسلمت أخيرا وتعلمت كيفية استعمال اللسان الطنجاوي، بالرغم من أن ذلك كان يبدو لي ضربا من العبث. كانت مواقفنا نحو المغرب تختلف. فبينما كانت تحب الطبيعة الهجينة والقذرة لطنجة (ذلك أن المدينة كانت مطعمة بقدر كبير من التفاصيل الاسبانية، حيث يعيش الآلاف من الاسبان جنبا إلى جنب مع المغاربة.) كنت أفضل الطابع الرسمي القروسطي لفاس، حتى في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حالة مالكها. كان اعجابي بفاس إعجابا سياحيا، غير أن طنجة شدت جين لأنه هنا كان لديها أصدقاء مسلمون يمكنها التردد على منازلهم. كانت تحب رفقة المغاربة، أساسا وكما تزعم، نظرا لحس الفكاهة لديهم. كاليهود، يقضي المغاربة حياتهم رفقة عائلاتهم: يرتابون من بعضهم البعض، يسخرون ويشتمون، ومع ذلك يضحكون سوية خلال ذلك. خلال السنوات المبكرة من إقامتنا في المغرب كانت حياتنا تشبه حياة الرحال. بالكاد يمر أسبوع دون أن نغير مكان إقامتنا. كنا نتنقل بين طنجة وفاس، بين الرباط ومراكش، لنختبر ردود فعلنا المشتركة إزاء المدن، والأشخاص والمطاعم. (كانت لدي أولوياتي الخاصة التي لا تتفق حتما مع أولويات جين.) لا يزال المغرب يحدث صدمة لدى زائره للوهلة الأولى. كنت قد أخبرت جين عن الاحتفالات التي شهدت طقوسها خلال أيامي الأولى بالمغرب، غير أن أوصافي على ما يبدو لم تكن حية بما يكفي لاعدادها للصدمة التي ستتلقاها في البدايات الأولى لإقامتها حينما قامت بزيارة مولاي ابراهيم. رُفقة صديقتها جُودي كانت قد وصلت إلى طنجة بينما لا أزال أنا غارقا في الصحراء. ذهبت الاثنتان جنوبا إلى مراكش. خلال ذلك الوقت لم تزل المامونية فندقا ممتازا. كان الجو صحوا وزاهيا؛ من شرفتهما يمكنهما رؤية صفحات ثلوج جبال الأطلس وهي تشع. فجأة طرق سمعهم اسم مولاي ابراهيم. إنه في الجبال-هذا ما استوعبوه جيدا- وكان لديهم الانطباع بأنهم سيذهبون إلى حفل ريفي حيث ستكون الموسيقى والرقص. طلبوا من المسؤول عن الفندق أن يعد لهم غذاء في المنتزه، ووضعوا بعض زجاجات الخمر والويسكي إضافة إلى الطعام في سيارة أجرة، وأخبروا السائق بأن يتوجه إلى ضريح مولاي ابراهيم. لعل من بين الأشياء التي لم يخبرهم بها أي أحد هو أن "الضريح" تجمع لحجاج في مكان يرتبط على نحو ما بقديس محلي خاص، غالبا مكان الضريح. شيء آخر هو أن هذا الضريح الخاص تدور فصوله في مكان أعلى بكثير مما يمكن لأي عربة أن تحتمل. فكما أوضح السائق، ستبقى العربة في الأسفل في السهل وسيبقى معها. يمكن للسيدتين أن تتسلقا كل الطريق إلى هناك إذا شاءتا أما هو فسيبقى إلى جوار سيارته.

كان الصعود وعرا فعلا، كما أخبرتني جين، عبر غابة من الأشجار الصغيرة وحول صخور ضخمة. بعد نصف ساعة من التسلق أخذ يتناهى إلى سمعهم هناك

في الأعلى أصوات وافترضوا أنهم على وشك الوصول إلى الحفل. لحظة بعد ذلك كان حوالي ثلاثون رجلا يركظون بأقصى سرعة إلى الأسفل باتجاههما، أعينهم جاحظة كما لو أنها قطع من الرخام بينما أفواههم فاغرة. كانوا يصرخون ووجوههم وملابسهم حمراء ملطخة بالدماء. قالت جودي: "آه، يا إلهي." لم تنبس جين بشيئ، بقيت جامدة لا تختلج في انتظار الهجوم. جرى الرجال بمحاذاتهم، وهم لا يزالون يصرخون، ثم تواروا في الجهة السفلى من الجبل. بعد الاستراحة لفترة على صخرة بجوار الطريق، قررتا العودة إلى السيارة بدل مواصلة الصعود. كان رجال عيساوة قد شاركوا للتو في حفل التهام ثور حي؛ وبالتالي فنظرا لحالتهم النفسية المتغيرة تلك فهم على الأرجح لم ينتبهوا للمرأتين النصرانيتين اللتين تقبعان هناك وسط الصخور.

لم تنته مفاجآت جين عند هذا الحد. فقد تعرضت مرة أخرى لتجربة صادمة خلال المرة الأولى والأخيرة التي حاولت فيها تناول المعجون. كان ذلك في قصر الجامعي بفاس. كانت أم أحمد اليعقوبي، الطباخة الماهرة، قد أعدت لنا ذلك اليوم كمية من المعجون على شكل حلوى، فحملها أحمد خلال المساء بعد العشاء. كنت الأوربي الوحيد الذي سبق له أن تناول هذه المادة وبالتالي فقد أصدرت تحذيرات متكررة لجين ولجودي ولإدوين دنبي بضرورة تناول قطعة صغيرة في البدء وبعد ذلك انتظار حتى يسري مفعولها قبل تناول المزيد. احتسينا فناجينا من الشاي مرارا ووضعت أسطوانة على الفونغراف بينما كنا نشاهد أحمد يقوم برسم لوحات على أوراق الفندق. حينها همست جين: "عليك الذهاب إلى المدينة الجديدة غدا والحصول على بعض الأوراق اللائقة والحبر الهندي." وبعد ذلك طرق سمعي ملاحظتها التالية: "آه هذه المادة لا فائدة منها." حينما استدرت كانت تلتهم قطعة كبيرة من المعجون، متعللة: "لا فائدة منها." ثارت ثائرتي فنبرت بغيظ: "لكنني أخبرتك بأن مفعولها بطيء. لقد تناولت أكثر من اللازم."

لم تعرني بالا. كان الليل يتساقط كالمطر على الفضاء. قامت جين، وقد توجستُ خيفة من صواب رأيها. ذهبت إلى غرفتي ونمت. في الصباح الموالي كانت في حالة شديدة من التوتر. فكما تزعم، فبالكاد هجعت كما أن ليلتها كانت شريطا مطولا من الرعب. في البدء انتابتها خشية من أن شيئا ما يحدث لي، وبعد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذلك حينما استولى عليها تأثير المخدر تماما، صارت على قناعة بأنني سأتسلل إلى غرفتها وسأقتلها. أخيرا انتبهت إلى يديها وبدت لها أطرافها لغزا محيرا. حينما لمحت أصابعها تتحرك شل الرعب إرادتها. بشكل غير منطقي تماما، ومنذ ذلك اليوم غدت عدوا مستطيرا لكل أنواع القنب الهندي. كون تجربتها كانت نتيجة الإفراط بدا لها ملاحظة غير مواتية. كانت تكرر دائما: "أي شيء يمكن أن يحدث أشياء مرعبة كهذه خطير."

في الربيع عدنا إلى فاس وأقمنا بفندق بيلفدير. كنت على وشك إنهاء *السماء الواقية*، كما أن جين كانت منغمسة في روايتها القصيرة *مخيم الشلال*. ومع حلول الصباح كنا نتناول الفطور في السرير في غرفة جين، وبعد ذلك أذهب إلى غرفتي، تاركا الباب مفتوحا بيننا حتى نتبادل الآراء كلما شعرنا بالحاجة إلى ذلك. خلال مرحلة من كتابة روايتها وجدت جين صعوبة في تخيل جسر تحاول تشييده فوق مضيق. كانت تنادي تحديدا: "ما معنى شيء ناتئ، تحديدا؟" أو "هل يمكنك القول بأن جسرا يتوفر على دعامات؟" أنا، المنغمس في كتابة الفصول الأخيرة، كنت أجيبها بكل ما يخطر ببالي، دون أن أغادر حالة السكون الطوعية التي كنت فيها. تهدأ جين لفترة، ثم تنادي مرة أخرى. كان انسياب الماء مباشرة تحت نوافذها يغطي على كل الأصوات ماعدا الأصوات النافذة؛ لذا فقد كان على حديثنا أن يكون مهما بحيث يستحق عناء الصراخ. بعد ثلاثة صباحات أو أربعة شعرت بأن شيئا ما ليس على ما يرام. لم تبرح جين الجسر. نهضتُ ثم ذهبت إلى غرفتها. تحدثنا لبرهة حول المشكل، فاعترفتُ باستغراب، "لماذا عليك تشييد هذا الشيء الملعون؟ لماذا لا تقولين فقط بأنه يوجد هناك وتدعين الأمور كما هي؟" حركت رأسها يمنة ويسرة: "إذا لم أعرف كيف يشيد الجسر، فلا يمكنني تخيله."

بدا لي هذا الأمر عصيا على التصديق. فلم يخطر ببالي أبدا أن مثل هذه الاعتبارات يمكنها أن تدخل في عملية الكتابة. ربما للمرة الأولى في حياتي شعرت بالمعنى الخفي لملاحظة جين حينما تصرح، كما تفعل غالبا، بأن الكتابة "صعبة جدا."

خلال هذه الأثناء سألت ليبي هولمان كريستوفر رينولدس، ابنها الذي يبلغ السادسة عشر، عما يرغب في القيام به خلال عطلة الصيف، فكان جوابه: "أريد

الذهاب إلى إفريقيا مع بول بولز وأن أقوم بمغامرة تقطع الأنفاس." وصلت معه ليبي في تموز، حوالي شهر على وصول أوليفر سميث. قمنا برحلة طويلة رائعة عبر الجبال والصحراء. نظرا لأنها لا تزال تذكر تجربتها المكسيكية المريرة منذ عقد من الزمن كما لو أنها حدثت بالأمس، ألحت جين على البقاء في طنجة. كنا قد أشرنا إلى أننا نعتزم عبور جبال الأطلس الكبير، وكان هذا كل ما كانت بحاجة لسماعه.

غالبا ما كانت الحرارة لا تطاق، وكنا نقضي ساعات اليوم نرقب بعضنا البعض بغيرة ونحن نتناوب على أخذ جرعات من أي سائل متوفر في السيارة. كان هذا شهر رمضان، لذا فإن السائق كان يمتنع عن لمس الماء حتى غروب الشمس. آنئذ، وأينما حللنا، وسط قرية طينية أو على حافة منحدر، يوقف السيارة ثم يسحب ترموسة الماء وبيضة مطبوخة جدا. بعد هنيهات من الصمت نحرص عليه من جهتنا بينما يقوم هو بالإنتعاش قليلا، يشرع في السياقة مرة أخرى فنواصل حديثنا.

كانت ليبي قد قرأت مؤخرا مسرحية *بيرما* لغارسيا لوركا وكانت ترى فيها مناسبة جيدة لها للغناء والتمثيل. اقترحت أن أحاول وضع موسيقى لها. ناقشنا الموضوع ونحن نتمشى في الواحات، ونحن نستلقي على رمال الشاطئ، ونحن نركب السيارة عبر المناظر الطبيعية الجحيمية للأطلس الصغير، وفي مجموعة من غرف الفنادق عبر المغرب. للقيام بالعمل، ارتأيت أولا القيام بترجمتي الخاصة، فوافقت على الأمر.

حينما غادر الآخرون وذهبت أنا وجين إلى فاس، توصلت ببرقية من تينيسي يسألني فيها إذا كان من الممكن العودة إلى نيويورك لوضع موسيقى *الصيف والدخان*، التي تمت برمجتها لموسم الخريف. كنت قد أنهيت *السماء الواقية* وأرسلتها إلى دار دابل داي للنشر وهكذا قررت الموافقة على العمل. تركت جين في فندق فيلا فرنسا بطنجة، وعبرت إلى نيويورك. بسخاء منحتني ليبي مكانا للإقامة في منزلها الكائن في المدينة على شارع الواحد والستين، أمر جعلني أعيش عن كثب الفرق الهائل بين إقامة جميلة وأخرى كئيبة.

حينما كنت أضع الموسيقى، كان غور فيدال يزورني تقريبا كل يوم في موعد الغداء، فنخرج لتناول الطعام معا. كان غور قد أوقع كلا من تينيسي وترومان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كابوت في خدعة حكاها لي بالدارجة، كما هو الحال. كان قد اتصل بتينيسي على الهاتف، ونظرا لكونه يحسن تقليد الأصوات بشكل مذهل، فقد تقمص دور ترومان خلال هذه المناسبة. بعد ذلك، وهو غارق في الضحك، جعل تينيسي يبدي ملاحظات لاذعة بشأن أعمال غور. تحدثا قليلا ثم أقفلا الخط. بعض مرور أيام قليلة، التقى غور تينيسي وخلال الحديث ألمح على نحو غير مباشر لكنه واضح إلى بعض ملاحظات تينيسي على الهاتف. أدرك تينيسي بما لا يدع مجالا للشك بأن ترومان قد اتصل بغور وأعاد بشكل ماكر حديث الهاتف. كنتيجة لذلك، فقد كان غاضبا من ترومان، وقد كان هذا هدف غور من الخدعة.

لم تكن هناك صعوبات في إنتاج *الصيف والدخان*. ذهبنا في جولة إلى بوفالو، كليفلاند وديترويت. لسبب غامض رافقنا جيسي روزلي. كل صباح بعد الفطور أذهب إلى غرفة تينيسي وكنا نتبادل الحديث عن عرض الليلة السابقة. كان مارلو براندو يحاول جاهدا إقناعه باضافة اسمه إلى قائمة المساندين لمنظمة ليبرالية جديرة بالمساعدة. كان تينيسي ويليامز مرتابا بعض الشيء، ذلك أن وكيل أعماله، أودوي وود، قد رجاه بألا يرتبط بأية مجموعة حتى ولو كانت ذات توجه سياسي ولو من بعيد. كان براندو يتصل من نيويورك، وكنت أجيبه وأتحدث معه عن المسرحية، وأخيرا أخبره بأن تينيسي يوجد في الحمام وبأن يتصل به لاحقا.

في الأيام الأولى من شهر كانون الأول استقللت أنا وتينيسي وفرانك ميرلو سفينة ساتورنيا إلى طنجة. كان شهرا عاصفا بامتياز. هبت الريح بعنف فاق مستواها العادي واقتلعت أشجار الكاليبتوس كما أن أمطارا طوفانية عنيفة كانت تغسل الطرقات والجسور في المنطقة الدولية. كان تينيسي قد جلب معه في رحلته إلى المغرب سيارة. بقينا في طنجة حتى بات الذهاب إلى إسبانيا أمرا لا مفر منه، فبدا لي القرار رائعا. كان الجو ماطرا أيضا في مالقة. أقمنا في فندق ميرامار العتيق حيث جلسنا في غرفنا الباردة الضخمة نرقب السماء المنسولة خيوطا من مطر وهي تتساقط في البحر الأبيض المتوسط. عُدنا أدراجنا إلى طنجة حيث كانت الأمطار أكثر غزارة وعنفوانا. قبل حلول أعياد الميلاد بأربعة أيام انطلقنا دون جين إلى فاس، عند عقبة الخمر، حدود المنطقة الإسبانية. كان هناك مكتب لرجال الجمارك حيث قام جنديان إسبانيان أشعثا الشعر بدور الجمارك. كانت السيارة تتهادى تحت

عبء الكثير من الأمتعة لذا كان لزاما حملها كلها إلى الأرض، فتحاها وفحصاها تحت الوهج المتردد للمصباح. لم تبد العجلة على الجنديين ذلك أننا كنا المسافرين الوحيدين الذين يعبران الحدود، فأخذا كل ما يلزمهما من الوقت لتفحص أمتعتنا، وخصوصا أمتعة تينيسي. لابد أنهما افترضا ألا أحد منا يفهم الإسبانية، ذلك أنهما أخذا في توزيع الأشياء فيما بينهم. كان الواحد منهم يخبر الآخر: "ذلك لي،" أو "ذلك لن يكون سيئا" وهم يكدسونها بارتياب على سطح طاولة كبيرة بعيدا عن المنضدة حيث كنا نقف. نبس أحدهم: "لديه ثلاثة أمواس حلاقة،" ثم وضع اثنين منها على الطاولة. بينما صرح الآخر باندهاش: "كل هذه الملابس لشخص واحد؟" وبتظاهر واحد علقا ثلاثة بدلات على معالق وأخذا يحدقان فيها كما لو أنها معروضة للبيع في دولاب. حينما تساءل تينيسي: "ماذا يفعلون؟ أخبرهم بأنني سأمر رأسا عبر منطقتهم، ولن أتوقف حتى." كان واضحا أن هذان الاثنان سيتسببان لنا في الكثير من المتاعب مهما قلنا لهم. بقيت مطرقا وأنا أشاهد فصول هذه اللعبة تتواصل. حينما وضعا آلة الكتابة لتينيسي على الطاولة في الركن المظلم، انفجر في سورة غضب. بمساعدة فرانك، أرغم تينيسي الجنود على إرجاع كل الأشياء إلى الحقائب، ثم عدنا بالسيارة إلى طنجة يتعاورنا الاحباط والخوف.

في الصباح التالي اتصل تينيسي بالكتيبة الأمريكية وقدم احتجاجا مطولا على سوء المعاملة الذي تعرضنا له في عقبة الحمرا. وعد الموظفون بالاتصال بالقنصل الإسباني وأن يتحروا المسألة. ثلاثة أيام بعد ذلك انطلقنا مرة أخرى. هذه المرة، حتى قبل أن يزيل رجال الدرك السلسلة التي تمتد عبر الطريق، أخذوا يصرخون "دبلوماسيون." عبرنا الحدود حتى دون الحاجة إلى إبراز جوازات سفرنا. بعد وقت قليل، حينما وصلنا إلى الحدود الفرنسية، كان لدينا السبب للتحسر على مرورنا السريع عبر عقبة الحمرا. ذلك أن الشرطة هناك دققت النظر في جوازاتنا للتحقق من طوابع الدخول لكنها لم تجد أي شيء. هكذا فقد كنا في البلد بشكل غير شرعي وكان علينا أن ننتظر ساعات طوال بينما يحاولون الاتصال بالمنطقة الدولية للتأكد من هوياتنا. بعد ذلك علمنا أنه كان علينا أن نطلب قواسيم البنزين هناك بعقبة الحمرا (كان بنزين العربات لا يزال قليلا بسبب الحرب.) منذ ذلك الحين كانت الرحلة شاقة. سقنا عبر الأمطار المتساقطة على طول طرقات ثانوية للبحث

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عن أشخاص يقال بأهم على استعداد لبيع قواسمهم الزائدة. كان الوحل المتدحرج والصخور تغطي شيئا فشيئا أجزاء من الطريق، فأخذ تينيسي يشكو كثيرا من "الإرتجاجات،" لازمة كان يكررها تلك السنة كلما ساءت الأمور. وصلنا إلى فاس قبل حلول منتصف الليل بقليل، تحديدا في الوقت المناسب لحفلة ليالي أعياد الميلاد المقامة بكل بدخها بقصر الجامعي.

ذلك الشتاء توجهت أنا وجين إلى الصحراء حيث قضينا ما يناهز الشهر. انبهرت لكل ما رأته فقالت باندهاش: "لعلها أقل الفضاءات خطرا على وجه البسيطة." في تاغيت كتبت قصة "عصا من الحلوى الخضراء" وقمت برقنها. حينما أقمنا ببني عباس كانت هناك سيدتان سويديتان تقيمان في الفندق. كانت واحدة تحظى بعشيق يعمل مدرسا بالمدرسة الفرنسية في المنطقة، بينما كانت الأخرى وحيدة وكانت تعيسة بسبب ذلك. اقترحت عليها جين أن تجد لنفسها عشيقا من أبناء البلد، غير أن الفكرة أرعبتها. وهكذا كانت تقضي سحابة يومها تتسكع جيئة وذهابا على طول الطريق الرئيسية للقرية، تبحلق إلى الأمام.

في الربيع ذهبت إلى باريس. كان كولد وفيزدال سيقومان بعزف كونشيرتو من إنجازي وأردت أن أصغي إليه مرة أخرى. وجد الموسيقيون الفرنسيون القطعة صعبة للغاية نظرا لإحساسهم الإيقاعي غير المتطور، لكنهم تمكنوا في الأخير من عزفها. كان آرون كوبلان متواجدا في باريس، وهكذا حدث لقاؤنا مرة أخرى منذ سنين عديدة. أذكر نيد روريم وهو ينتقل من مكان إلى آخر، تلفه دون انقطاع سحابة من الكحول، كما أذكر حوارا مطولا مع جيمس بالدوين ذات ليلة في حانة في شارع القديس جرمان. كما حدث أن جلست أنا وغور في الحانة السفلى لبهو روايال نراقب المرتادين الأدبيين للمكان. مر سارتر بجانب طاولتنا إذ كان يهم بمغادرة المكان وانحنى وهو يهمس: "صباح الخير." كنت على يقين بأنه سيتجاهلني هكذا حينما بادرني بالتحية تجمدت في مكاني وأخذت أنظر إليه دون أن أنبس بكلمة واحدة.

عاد ترومان كابوط إلى باريس حينها. وكالعادة كان غور يحاول جاهدا أن يحيل حياته إلى جحيم. حينما أعلن ترومان بأنه ينوي قضاء الصيف في طنجة، قرر غور دون أن يعلن عن ذلك علنا أن يصل هناك قبله وأن يواصل لعبته. ذهبت أنا

أولا ثم لحق بـي غور أياما قليلة بعد ذلك. في العشية التي سيصل فيها ترومان أخبرني: "هيا معي إلى المرفأ. راقب وجهه حينما يقع نظره علي." حينما مرقت العبارة إلى المرفأ، تدلى ترومان فوق الحاجز الحديدي، تعلو محياه ابتسامة عريضة وهو يلوح بمنديل حريري طويل جدا. حينما رأى غور يقف بجانبي، قام بحركة بهلوانية روتينية وعلا الشحوب والخيبة وجهه. لثوان عديدة اختفى كلية أسفل العارضة الحديدية. حينما انتصب واقفا مجددا، تلاشت ابتسامته ومعها المنديل الذي كان يلوح به. تواصلت إقامة غور في طنجة زمنا كان كافيا لجعل ترومان يعتقد بأنه سيقضي الصيف كله هنا. وبعد ذلك غادر بهدوء.

استقر دافيد هربرت، الابن الثاني لأورل بيمبروك، في طنجة لسنوات عديدة وغدا بالتالي ضمير المكان الاجتماعي. منذئذ، وعبر السنوات، لم يأل جهدا لإقناع أصدقائه بأن يصبحوا مُلاكا هنا، وكنتيجة لذلك فإنه لم يولِ نفس العناية لأولائك الذين لا يشكلون مادة طنجاوية جيدة. في صيف 1949 لم يكن قد انتقل بعد إلى منـزله بجامع المقرة على الجبل وكان يقيم بمنـزل غينيس على المرشان مع سيسيل بيتون. لم تكن طنجة تروق فعلا لترومان، غير أن حضور سيسيل بيتون جعله يرابط هناك الصيف في فندق الفرهار معي أنا وجين. تميز الموسم بإقامة بعض الحفلات الممتازة، بما في ذلك الحفلة التي يستحيل نسيانها والتي أقامتها الكونتيسة دو لافاي. أفرغت حجرة البالي من الأثاث، تاركة فقط لوحات أوبوسان على الجدران، وبعد ذلك غطت الأرضية بالقش حتى تكون مسرحا لمروضي الثعابين والبهلوانيين. أضرم المغاربة نارا وسط الغرفة وجعلوا من المكان يبدو أليفا. كانت هناك حفلة أخرى على الشاطئ بمغارة هيرقل، حيث زينت سيسيل الكهف وكان كل ما يقدم هو الشمبانيا والحشيش. كان ترومان يدعي بأنه يخاف من العقارب، فكان لزاما حمله بواسطة مجموعة من المغاربة إلى أسفل التل. بين الصخور والقناديل توجد أوركسترا أندلسية لا يمكن رؤيتها تماما. يستلقي الضيوف تحت ضوء القمر على أفرشة تتمدد على الرمل، وبين الحين والحين يذهبون للسباحة ويتحلقون حول نار كبيرة. بدا الصيف ذروة الازدهار في فترة ما بعد الحرب في المنطقة الدولية. مباشرة بعد ذلك أخذت تبرز النتوءات في الواجهة، وأخذت تزداد اتساعا مع مرور الوقت إلى أن تداعت المؤسسة لبنة لبنة في انتفاضات 1952.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حينما غادرت سيسيل بيتون في نهاية الصيف، طلب منا دافيد هربرت أن ننتقل إلى منزله وأن نقتسم مصاريف العيش. خلال تلك الفترة وقعت جين نهب الحصبة وكنت أذهب كل يوم لمعاينة المنزل الصغير في المدينة الذي يتم ترميمه. نشرت رواية *السماء الواقية* بلندن، ومادامت تعاليق الصحافة كانت جيدة جدا فقد رأى جون لسيمان بأنه علي الحضور شخصيا. كانت دار دابلداي قد رفضت الكتاب، ذلك أنهم كانوا يعتبرون بأن تعاقدهم معي كان بشأن رواية بينما أنا كتبت شيئا آخر. لم يحددوا طبيعة المادة التي قدمتها لهم، غير أنهم رفضوها قطعا. بعد ذلك أرسلتها إلى جيمس لافلين، على الجانب الآخر من فضاء النشر، آملا أن يضيفها إلى لائحة سلسلة توجهات جديدة، وهو ما قام به فعلا.

عرض علينا دافيد هربرت مرافقته إلى إنجلترا والإقامة بويلتون. بدا هذا العرض امتيازا سخيا إذ يتضمن ضمن ما يتضمن القدرة على السياحة في أرجاء المنزل العظيم من الداخل، كما هو. من هناك أردت أن أنطلق إلى مكان ما في المناطق الاستوائية، ربما كان ذلك نتيجة إنهائي للتو قراءة كتاب ميشو *همجي في آسيا*. انتابتني رغبة خاصة للذهاب إلى آسيا. بدا الوقت مناسبا مثل أي وقت آخر. يمكننا الذهاب إلى إنجلترا، وحينما أغادر إلى الشرق، ستعبر جين إلى باريس لقضاء الشتاء هناك.

تسللت أنا وجين إلى فاس لإلقاء نظرة أخيرة قبل مغادرة المغرب. هناك وجدنا أحمد اليعقوبي ينجز لوحات ضخمة للمهرجانات القروية. لم يكن يعرف بعد بأن هناك كائنات تدعى الفنانين. كما أنه لم يسبق له أن رأى لوحة. غير أنه أحرز تقدما أسلوبيا عظيما خلال السنة، وكان يشتغل بمفرده في منزل أبيه بالمدينة.

ذات يوم ذهبنا إلى منزل السيد كثيري لتناول الغداء. كان قد أخبرنا بأن عمه سيكون حاضرا وبأننا سنجده شخصا مثيرا للاهتمام. كان العم سيدا عجوزا يبدو من خلال مظهره ولحية بيضاء طويلة في غاية النبل وينشق السعوط ويحكي الدعابات. بعد الغداء، خلال القيلولة، نهض على حين غرة وسار نحو بيانو قديم مركون في زاوية، وشرع، ليس بالضبط في العزف، ذلك أنه لم يحاول حتى القيام بذلك. كان فقط يضرب بكلتي يديه بكل ما استطاع من قوة وأحيانا بساعده.

لإحدى عشر دقيقة تقريبا كان ينهال ضربا على البيانو. ماعدا جين وأنا لم يعتبر أي من الحاضرين الأمر مسليا، غير أننا تحاشينا النظر إلى بعضنا البعض. حينما توقف عازف البيانو المبجل، التفت إلى جمهوره وشرح القطعة التي كان قد عزفها للتو وذلك بالإعلان بكل طمأنينة: "مانشيستر." كان العجوز قد حل في المدينة الصناعية في شبابه عند نهاية القرنِ وافترض بأن ارتجاله يعد وصفا معتمدا ومفهوما لها.

من مكان ما، قبل أن نغادر طنجة بمدة وجيزة، اشترى دافيد جَروا كهدية لجين. كان حيوانا صغيرا نشيطا جدا لقبته "مانشستر." أقنعنا أستاذ جين السابق للغة العربية، سعيد كوش، أن يحتفظ بالبيغاء خلال غيابنا، وهكذا استقل ثلاثتنا، دافيد وجين وأنا بالإضافة إلى مانشستر الذي وضع في حقيبة السفر الخاصة به الباخرة القديمة، الكئيبة، إلى مارسيليا. كانت سيارة دافيد الجاغوار تربض في المرآب. من مارسيليا انطلقنا في جولة تذوقية إلى سهل الرون. ضم البرنامج بطبيعة الحال الأهرام في فيين ومكانا صغيرا في مورسو حيث توجد فقط ستة أشياء، كلها ممتازة ومضرة في نفس الآن لأي شخص مثلي يعاني من الكبد الكولنيالي. لم أفاجأ حينما قضيت ثلاثة أيام ممددا في السرير في ليون بسبب نوبة. كانت جين ودافيد يقومان بزيارة مطعم إثر مطعم ليوني، وبعد ذلك يعودان إلى الفندق للجلوس في غرفتي والحديث المطول عن هذه الولائم. كانت فكرة الأكل في حد ذاتها مثيرة للامتعاض، فالأوصاف ومناقشة تكوينات الطعام المستمرة شكلت نوعا من أنواع العذاب بالنسبة لي.

مادامت قوانين الحجز في المملكة المتحدة تمنع حمل مانشستر إلى إنجلترا، فقد اقترح دافيد بأن تجد جين مكانا خاصا بالكلاب في باريس حيث يمكنها تركه خلال مغادرتها. بدل ذلك، قدمت جين الجرو لترومان الذي حمله معه إلى نيويورك.

كان دافيد يعيش في إقامة في ويلتون، ولكن في منزل صغير يعرف بمدرسة المنتزه. شكل المنزل الكبير، حيث يعيش أبوه، أورل بيمبروك، المقر الرئيسي للمارشال مونتغومري خلال الحرب. بينما كان الجنود يقيمون هناك، تسرب التعفن بشكل ما وأصاب بالضرر السقف وجدران غرفة البالي؛ كانت الغرف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تخضع لعملية الترميم حينها وقد تطلب ذلك ثروة، تكلفت الحكومة البريطانية بدفع تسعين ألفا منها كتعويض عن الأضرار.

كان لدي مضيف أدبـــي في شخص ناشري جون ليمان الذي سمح لي بكرم بالبقاء في منـــزله كلما ذهبت إلى لندن. أذعت النبأ بأنني أبحث عن باخرة للعبور إما إلى سيام أو سايلون وسأستقل بعد ذلك أية باخرة تتجه إلى إحدى الوجهتين. انشغلت كل من السيدة سيبيل كولفاكس وسيريل كونولي بالأمر. فجـــأة كنـــت على وشك التوجه إلى كولمبو. كنت آمل بأن أذهب إلى سايلون، على أي حـــال، بسبب كراسات دافيد التي كنت قد اطلعت عليها للتو في ويلتون. كان هناك ألبوم يكاد يكون كله مخصصا لجزيرة صغيرة فاتنة حيث كان قد أقام مـــع والديـــه في منتصف الثلاثينيات من القرن الماضي. توجد تابروبان مباشرة على الشاطئ عنـــد القمة الجنوبية القصوى لسايلون. هكذا رسمت صور الطبيعة البادخـــة وحفظـــت التفاصيل الجغرافية في ذهني حتى أقوم بزيارتها في حالة إذا ما كان العبور الأول نحو سايلون.

عند نهاية إقامتنا بويلتون دعتنا السيدة جولييـــت داف إلى العشـــاء. كـــان سومرسيت موغام ضمن المدعوين وقد بدا منـــزعجا إلى حد ما. لم يســـبق لي أن رأيت رجلا له مثل تلك الأقدام الصغيرة. هو الآخر فطن إلى ذلك وعمـــل علـــى إبرازها باعتداد حيث جلس واضعا رجلا فوق الأخرى. كان يعتزم الذهاب لاحقا في ذلك الشتاء إلى المغرب، وكان بديهيا أن أعد له برنامجا للرحلة. رسمت له جولة من خمسة أسابيع، هناك في أرضية حجرة المعيشة للسيدة جولييت.

كانت الباخرة التي سأستقلها، باخرة شحن بولندية تدعى الجنـــرال والتـــر وستغادر من ميناء أنتفورب. عبرت القناة إلى تلك البلدة الكئيبة ثلاثة أو أربعة أيام قبل أن يحين موعد السفر بعد أن حصلت على تلقيح ضد الحمى الصفراء بلنـــدن. كانت الشوارع رطبة بسبب الضباب؛ كان المكان يشبه مكانـــا في روايـــة مـــن روايات سيمنون. للهروب من هذا الجو الخانق اتصلت هاتفيا بأنـــدري كوفـــان، المخرج السينمائي الذي كان قد أنتج فيلم كونغو، وكما كنت أتوقع، دعـــاني إلى بروكسيل لنهاية الأسبوع. تناولت الكثير من الطعام الجيد وبعد ذلـــك أســـرعت بالعودة إلى أنتفورب حتى أتيقن بأن الباخرة لن تتحرك دوني (ذلك أنـــه كمـــا في

جميع بواخر الشحن فان الربان ليس متأكدا بشأن يوم المغادرة.) في العشية التي أبحرنا فيها اقتنيت نسخة من مجلة التايم ووجدت قراءة لرواية *السماء الواقية* إضافة إلى صورة فوتغرافية لي أخذها إدوين دنبي. كان المقال يشيد بالرواية عن مضض؛ أشد ما فاجأني هو تلقيبهم لها، بالعمل "الإباحي."

حسب المعطيات التي تمكنت من جمعها لم يكن على متن الباخرة سوى ثلاثة مسافرين آخرين، راهبتان وكاهن. خلال وجبة العشاء، بعد أن سحبنا الماسورة، وكنا نتحرك بصعوبة عبر الضباب، دلف شخص آسيوي صغير القامة في بدلة عمل داكنة بسرعة إلى غرفة الطعام وسأل بخفة إذا ما كان هنالك بعض الأرز. لم يكن المضيف في مزاج ليلبي رغباته، غير أنه في النهاية أقر بأنه يمكن طبخ الأرز. عاد الرجل الصغير إلى غرفته؛ لم نره مجددا لأيام عديدة.

كانت هناك صعوبة في التواصل على المائدة. كبديل عن اللغة الفلمنكية، تتكلم الراهبتان بعض الفرنسية، بينما يتحدث الراهب نوعا من الإنجليزية. تبدت الباخرة حوضا قديما وقذرا؛ فنظرة سريعة لا تدع مجالا للشك بهذا الشأن. على متنها كان الجاسوس جيرهاردت آيزلر قد هرب إلى بر الأمان وراء الستار الحديدي.

كانت السلاسل تحدث قرقعة على الجدار المعدني المحاذي لوسادتي طوال الليل بحيث لم أستطع أن أخلد إلى النوم حتى عندما تناولت الأقراص. كانت الباخرة تتمخض وتتلوى كجمل؛ كان مبعث الضيق التفكير بأنني سأكون رهينتها على مدار الأيام والليالي الأربعة والعشرين القادمة. عند الساعة السادسة صباحا نهضت الراهبتان والراهب لإقامة شعائر الصباح في غرفة الطعام. عند الفطور، وسط حديث صعب في لغاتنا الثلاث، صرح الأب فجأة: "الآن يجب أن أتقيأ." وهرول خارج الغرفة.

بقي البحر عاصفا حتى تجاوزنا الساحل البرتغالي. في الليلة التي عبرنا فيها مضيق جبل طارق، وقفت على ظهر السفينة أحدق بحنين عبر سجف الظلام إلى الجهة الجنوبية من الباخرة. كانت هبة من الحنين قد تملكتني. عدت إلى الداخل وتمددت في قمرتي. بعد ذلك شرعت في كتابة شيء ما آملت أن يغدو نواة رواية حول طنجة. كان المشهد الأول على التلال المقابلة للنقطة التي كنا نعبرها تلك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اللحظة. يقف دِيار على حافة التل وينظر إلى بواخر الشحن وهي تمخر عباب المضيق. انطلاقا من ذلك المشهد نما الكتاب في كلا الاتجاهين، إلى الخلف كسبب وإلى الأمام كنتيجة. حينما وصلنا القناة كنت قد اتخذت قرارات بخصوص شكل الرواية ووضعت خطاطات لتوضيح الحوافز وكنت أخطو خطوات ثابتة في كتابة *دعه يقع*.

شهدت باخرة الجنرال والتر وقائع غريبة. غداة الصباح الأول بعد الفطور دخلت إلى قمرتي ووجدت المضيف البولندي يقرأ نسختي من التايم. كان قد وضعها مفتوحة في الدرج الأعلى للمكتب؛ حينما دخلت، أغلق الدرج بركبته وأخذ يكنس الأرض. عرضت أن أعيره المجلة، غير أن هذا أحرجه فقط. تجمدت ملامحه وحرك رأسه علامة الرفض. في البحر الأبيض المتوسط، بعيدا عن قرطاجنة، واجهنا عاصفة قوية بحيث أننا لم نبرح مكاننا خلال فترة أربعة وعشرين ساعة، ولكننا في المقابل انتهينا فعلا بعض الكيلومترات وراء النقطة التي كنا قد بلغناها في اليوم السابق. كان المكان ذاته هناك غربا، وكذلك نفس المنارة. لم يكن البحارة ماركسيون فعلا. ألقوا باللوم بشأن العاصفة على وجود كاهن على متن السفينة. كان معلوما جدا، كما أخبرني العديد منهم، بأن وجود كاهن على متن قارب غالبا ما يتسبب في الهلاك.

خلال أعياد الميلاد كانت الشمس تلقي شواظها على البحر الأحمر. كان الربان يقتلع الصباغة طوال اليوم من جوانب السفينة ذلك أنه ليس عضوا في الحزب الشيوعي. كان الرجل الذي يتخذ القرارات على متن الباخرة مجرد ميكانيكي. في البلدة الكئيبة لدجيوتي بمقهى على ناصية شارع تحيط به غربان تقتات على لحم الجيفة احتسى الربان الحزين الجعة وشرع يبثني همومه. من الصعب، أسر لي بتذمر، أن يكون المرء ربانا، إذا لم يكن صاحب القرار على متن السفينة. كان مفهوما أنه لا يحب الإهانة أمام طاقمه، خصوصا أن يتم اختياره للقيام بهذا العمل المضني خلال أحد أيام أعياد الميلاد.

بدجيبوتي، إلى جانب الغربان التي كانت تحلق دون انقطاع، كانت ساحة أرتور رامبو تتمدد. أخذت صورة للجدار حيث حشرت علامة السير ذات اللون الأزرق والأبيض. كانت الشمس حارقة وكان الذباب في كل مكان. تقع المدينة

الأوربية على تلال سفلي تهب عليه بين الفينة والأخرى أنسام خفيفة من الخليج. يقتصر وجود الأفارقة في "الحي الأهلي،" في مستنقع متعفن خلف التل.

أبحرنا شرقا. لم تصدر سلاسل الماسورة أي صوت منذ بورسعيد. أخيرا التحق بنا على المائدة الهندي الصغير الذي كان قد طلب الأرز وأعرب بوضوح تام عن عدم رضاه عن المبعوثين المسيحيين. غدا الحديث شبيها بحديث الطرشان. باستثناء بعض الكلمات باللغة الفلمنكية كان الكاهن والكاهنتان صامتتان. كانت أشد الأمكنة راحة بالنسبة لي هي السرير، وما أن أكون هناك حتى أشرع في العمل.

لشَدَّ ما خامرني الوهم بأنني على وشك إضافة بلد آخر، ثقافة أخرى، إلى تجربتي الكلية، والوهم الإضافي بأن القيام بذلك سيكون في حد ذاته أمرا ذا قيمة. كان فضولي بشأن الثقافات الغربية لا يرتوي وقد ملك علي روحي. كان لدي اعتقاد هادئ بأن العيش وسط أشخاص لا أفهم دوافعهم يعد شيئا جميلا. كانت هذه القناعة غير المنطقية تماما محاولة لشرعنة فضولي. وحتى لا أتيه بسبب اللقاء الأول بأرض مجهولة حاولت أن أسطر أكبر عدد من الصفحات قبل أن نحط الرحال.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

15

في لُجة انشغالاتي نسيت استيهاماتي وتوقعاتي عن سايلون -كنت أفترض أنها ستكون تصعيدا للغز مغلق كنت قد راكمته عن المغرب، إضافة إلى طبائع خاصة بالمكان: فِيلة، معابد بوذية وغابات استوائية. على أي، أظهرت التجربة الجديدة في كولمبو بأنها بعيدة كل البعد عن الواقع وبالتالي فقد انمحت بسرعة. لم تكن سايلون مغربا ممتازا؛ لقد كانت ببساطة مكانا مختلفا تماما وافق على نحو سريع صحتي. كنت على الدوام منتشيا بالضوء، بالطقس وبالمناظر الطبيعية. هذه الحالة من النشوة جعلتني أتمشى معظم ساعات اليوم. كانت شهيتي للطعام جيدة وتناولت كميات كبيرة من الأرز والبهار الهندي بفندق جبل لافينيا، حيث كنت أقيم. كان يقع على الشاطئ على مسافة حوالي ثمانية أميال جنوب القلعة بكولمبو حيث كان الصوت الوحيد الذي يتناهى إلى سمعي من سريري هو تلاطم الأمواج.

خلال أسبوعي الأول في كولمبو تناولت الغداء مع الملكة الأم لساراواك؛ كانت تقيم آنئذ بهونغ كونغ وتقوم بزيارة قصيرة لسايلون. كانت حياتها على جزيرة بورنيو حياة خارقة للعادة. آملت أن أعرف شعورها إزاء التحكم في مصير مليون شخص. غير أن كل حكاياتها كانت تتعلق بشكل أو بآخر بالحب الخالد الذي يعبر عنه رعاياها نحوها، وليس بمشاعرها إزاءهم. بدكان للكتب بكولمبو ذلك الأسبوع التقيت أيضا رجل دين أنغليكاني، ذكي وطيب، دعاني إلى منزله. عيناي غير المدربتان لم تلحظا أي اختلافات عرقية ملحوظة بين السيد المبجل كوينمان وزوجته؛ ومع ذلك فقد تسبب زواجه بفراق بينه وبين أمه دام لسنوات عديدة، ولم يشرعا في زيارة بعضهما البعض مجددا إلا مؤخرا. توضح السيدة كوينمان: "إن عائلة زوجي تنتمي إلى السكان المحليين". كان الأمر بسيطا. تحت الاحتلال البريطاني فقد السكان المحليون انتماءهم العرقي بالاختلاط بالوافدين الجدد. يستعمل مصطلح "وافد" للدلالة على السكان من الذين اختلطوا بالأوربيين

(على العموم الهولنديين أو البرتغاليين أو الفرنسيين.) وما دام الوافدون يشكلون فقط جزءا ضئيلا من الساكنة، فقد كان واضحا بأنه مع زوال الحكم البريطاني للبلد الآن، فإن جماعتهم لن تعمر طويلا. كنت فضوليا بشأن أم السيد المبجل كونيمان. بعد أن طلقت أباه، تزوجت بمزارع شاي إنجليزي وتعيش في مزرعة بعيدة في أعالي البلد. بدا هذا شبيها بالمكان الذي كنت أحلم بزيارته ومن خلال الاهتمام الذي أبديته بالموضوع قدر مضيفي ما يجول في خلدي. في الأسبوع التالي دعاني كل من السيد والسيدة تريمر للإقامة بمالدينيا.

كان المكان ذا جمال طبيعي عظيم حيث كان يربض وسط التلال الغابوية ويطل على سهل الوادي. كان السيد والسيدة تريمر تحديدا ذلك النوع من البشر الذين كنت أرغب في زيارتهم. وُلد كليهما بسايلون ويتحدثان إلى بعضهم باللغة الجديدة والتاميلية وكان لديهم معين لا ينضب من المعلومات والحكايات بخصوص البلد. قضيت معهم أسبوعين، وبعد ذلك، بعد أن وعدت بالعودة مرة أخرى، استأنفت سفري. في رحلة إلى الساحل الجنوبي ألقيت نظرة خاطفة على أشجار النخيل التي تنمو على الجزيرة الصغيرة حيث كان دافيد هوربرت قد عاش، بعد ذلك انعطف القطار وتوارت عن الأنظار.

بعد مدة قصيرة على وصولي إلى سايلون، توصلت بسلسلة من الرسائل من غور فيدال، بعضها من طنجة والبعض الآخر من لندن. لاستيعابها كان علي أن أقرأها وفق نظام كتابتها. كان قد قرر فجأة أن يقضي معي الشتاء في سايلون، وبالتالي اقتنى تذكرة العبور إلى كولمبو على متن باخرة الرئيس الأمريكي. صبيحة موعد الانطلاق وصل باكرا إلى المرفأ، في وقت كاف لاستقلال السفينة التي كان يفترض أن تبحر منتصف النهار. حينما لمح بأن لا سفينة ترسو في المرفأ، ارتبك. سرعان ما تنبه بأنه على نحو ما أساء الحساب، فبدل أن يكون اليوم هو الخميس، فقد كان الجمعة، وبأن الباخرة كانت قد أبحرت البارحة منتصف النهار. تسلم أمتعته وعاد يجر ذيول الخيبة إلى منزله.

في الأيام الأخيرة من فصل الربيع عبرت إلى جنوب الهند حيث توجهت أولا إلى مادورا. كانت كل خدمات الفندق تقع في الطابق العلوي فوق محطة القطار لتمكين الضيف، كما تم إخباري، من النظر من نافذته إلى المنصة والتأكد من أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قطاره لم يصل بعد. كلما وصل قطار، يمكث في المحطة وقتا طويلا جدا ويتسبب في قدر كبير من الضوضاء. لعل وفرة الناس في كل مكان كانت بالمرة مثيرة ذلك أنها من منظوري الخاص تبدو احتفائية بشكل غامض، ومزعجة لأنني أعلم جيدا بأن الوجود المحض لأي شخص هو تهديد للآخرين. جنوب الهند مكان لا يمكن للمرء أن يبقى محايدا حياله. كانت ردود فعلي تنوس باستمرار بين حدين: فرحة قوية وامتعاض جارف. ربما لو أنني لم أزر المعبد في مادورا، لبقي المؤشر ملتصقا بنقطة الامتعاض/النفور وبقيت هناك، غير أنه لسبب ما فإن المعبد جعل كلا من الفوضى والضوضاء والقذارة تأخذ مكانها الطبيعي. هكذا بات الأمر عاديا حتى أنني بالكاد انتبهت إلى وجودها في وقت لاحق. بالكاد يمكن للمرء أن يبقى ولو لساعات قليلة في أجواء المعبد دون أن يجد أن العالم قد تغير شيئا ما بعد العودة مرة أخرى إلى الشارع.

لا يشبه المعبد بمادورا أي شيء آخر سبق لي رؤيته. بإمكان ماكس أرنست، إذا ما منح حرية مطلقة، أن يبتكر بعضا من الغرف الداخلية حيث تنتصب أشكال الآلهة المصبوغة العملاقة. عند المدخل لأحد هذه المعابد حيث ألقيت نظرة، وخلف عناقيد الأبخرة الصاعدة إلى الأعلى، ارتسم فيل أرجواني تصل قامته إلى أربعين قدما على عرش ضخم. دفعني حارس بعنف إلى الوراء وقد كان لا يرتدي أي شيء ماعدا لحية طويلة وثوب أصفر يقي عانته. كان يشير خلفه ويصرخ بعنف: "إله! إله." بعد ذلك دفعني مرة أخرى، دون أن يخلو ذلك من عنف، وأشار إلى الوجهة التي كنت قد قدمت منها، وهو يصيح: "إلهة! إلهة."حينها أدركت بأنه يحق لهمجي مثلي أن يحدق في صورة لإله من قبيل بارفاتي ولكن ليس إلى إلهة من قبيل كانباتي.

لو كانت هناك موسيقى يمكنها أن تختزل روح هذه الأجواء، لكانت هذه الموسيقى تلك التي كانت تنداح بين أعطاف سرادق ناء من المعبد يقصده عدد قليل من الزوار. هناك في حلكة العتمة وقفت أنصت لوقت طويل. تهيء هذه الموسيقى جو الخلود المناسب لمكان العبادة بنجاح يفوق بقدر كبير الموسيقى التي اعتدنا سماعها في الكاثدرائيات الأوربية.

تبدو الساحة الرئيسية من حيث الأسلوب والتصميم أقرب إلى دالي منها إلى أرنست. ثمة حوض مربع واسع تتدلى من أحد جنباته درجات تقود في الأسفل إلى

الماء الذي تكسوه الرغوة. يغمر الساحة فيض من الأشعة الخضراء المشعة والفاتكة، حيث أن الماء والزبد يشعان خُضرة فيبدو الرجال العراة الملتحين المنغمسين فيها هم أيضا بنفس اللون. بين هذا الفناء والمدخل كان هناك سوق مغطى يحتوي على أكشاك لبيع جميع الأشياء، ابتداء من الأشياء التي تتعلق بالمطبخ إلى صور منقوشة في أعواد الصندل لكريشنا وسارسواتي التي اشتريت منها أعدادا كبيرة قبل العودة إلى منزل الراحة في محطة القطار. هناك خلال العشاء تحدث صاحب الفندق بحماسة عن الآلهة الخمسة للمعبد التي تبرز في الأفق قبل أي شيء آخر حين اقترابك من المدينة. تغطي الآلاف المؤلفة من الصور المنحوتة كل سور عال جدا؛ حسب صاحب الفندق، هناك أكثر من خمسين ألف مجسم لهذه الآلهة في كل معبد على حدة. كنت على الدوام أكن حبا خاصا للتفاصيل في تصميم العمران؛ فالمعابد المكتظة بالرموز تبدو نموذج العمارة الأصلي.

يعد السفر عبر القطار جنوب الهند تجربة جديدة. تترامى المقصورة على شكل عربة واحدة حيث تفضي أبوابها الوحيدة إلى السكك. لا يوجد ممر يمكن عبوره؛ تحتوي كل مقصورة على مرحاض وحمام. بشكل مفاجئ، كان الضخ يعمل. كان ذلك شيئا مفيدا بالنسبة للمسافرين ذلك أن حرارة النهار تبقى فوق المائة في الظل، كما أن نظام التهوئة لم يكن معروفا آنذاك. يتم توفير الطعام من طرف شركة سبانسر حيث يصعد العمال على متن القطار محملين بصينيات من البهار الهندي الممتاز وأطباق ثانوية. يضعون طاولة في مقصورة المسافرين ثم يقفزون من القطار حينما ينطلق مرة أخرى. بعد مرور حوالي الساعة، في المحطة التالية، يأتي المزيد من رجال سبانسر، يقدمون الفاتورة ويزيلون الصينيات والأطباق. بعد ذلك يستلقي المسافر على فراشه ويرشح عرقا.

ذهبت إلى تريفاندروم لبضعة أيام. كانت هناك حديقة رائعة للحيوانات بالقرب من الفندق والمعبد تستوطنها أعداد هائلة من الخفافيش الضخمة التي تنطلق مباشرة مع الغسق وتبقى هناك معششة لفترة في السقوف المظلمة قبل أن تتوارى عن الأنظار فوق المدينة. غير أنني في تريفاندروم واجهت شكلا من العداء لا يقل برودة لكونه كان مقصودا. كانت التقنية بسيطة إذ تتمثل في الزعم بأن الشخص الموجهة إليه لا يوجد أصلا. ذات عشية خرجت أحمل رزمة من الرسائل أبحث عن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مكتب البريد. مررت عبر شوارع المدينة أسأل المارة: "مكتب البريد من فضلكم؟ أي اتجاه؟" وألوح برسائلي. لم يتوقف أي شخص ليجيب على سؤالي. لم يكلف أي من المارة نفسه عناء النظر إلي لفترة أطول مما قد يستغرق التحديق في عيني ثم الرحيل بعد ذلك إلى اللانهاية. أخيرا عثرت على مكتبة صغيرة حيث يجلس شخص إنجليزي وراء المكتب. سألته عن مكتب البريد وأشرت إلى السلوك الغريب لسكان البلدة. أخبرته بأن ذلك قد يكون مرده إلى "أنهم لا يفهمون أي شيء غير لغتهم المحلية". فأجاب: "لا إنهم يفهمونك جيدا، أؤكد لك ذلك."

حينما وصلت إلى رأس كاموران قررت أن أتوقف عن السفر لفترة وأعمل بشكل مكثف على رواية *دعه يسقط*. كان هناك فندق كبير وبهيج يطل على البحر وكنت أنا المقيم الوحيد. كنت أعمل عاريا بجوار الضوء الحارق للقناديل الزيتية، وحينما غدت الحرارة فوق ما يمكنني أن أستمتع به فكرت في العودة إلى سايلون.

كان علي الذهاب إلى توتيكورين من أجل استقلال القارب إلى كولمبو. كانت هناك رحلتان أسبوعيا. ضمن كل المدن التي زرتها، تعد توتيكورين الأكثر قذارة. أقمت في الغرفة الوحيدة المخصصة للمسافرين فوق محطة القطار. لم أحاول بتاتا أن أتخيل أين كان يمكنني أن أنام خلال تلك الليالي الثلاث لو لم تكن الغرفة فارغة. كان الهواء مشبعا بالتغوط الإنساني، داخل وخارج المحطة. استبد بي الفضول بشأن هذه الرائحة النفاذة، فأثرت انتباه الرجل القائم على المحطة الذي يقيم في الأسفل في مكان ما خلف المطعم إلى ذلك. الرائحة، كما أخبرني، لا مناص منها حينما يهب النسيم من البحر، فمئات الآلاف من الأشخاص الذين يعيشون في المدينة لا يتوفرون على نظام تصريف صحي، لذا فإنهم يحرصون جدا على استعمال الشاطئ. في الواقع، كما أردف، لا أحد يقترب من الشاطئ لسبب آخر.

تبدى القارب الذي يبحر إلى كولمبو امتدادا عائما لتوتيكورين. تنغل جدران القمرة بحشرات ضخمة مشعة، أما الهواء الساخن لغرفة المحرك فإنه ينقذف عبر الباب إلى الممر. أما الباخرة فقد كانت مكتظة بمعز أصابها دوار البحر. كانت مربوطة في مجموعات، فكانت بالتالي عاجزة على البقاء مستقيمة بينما يمخر

القارب عباب البحر. لمدة خمسة عشر يوما بعد عودتي إلى سايلون كنت أذهب كل صباح إلى ضابط طبي في الحي للتأكد من أنني لم أصب بالكوليرا.

تجولت لهنيهة في سايلون وأقمت لعدة أسابيع في كاندي بفندق الملكة. كنت منشغلا على الدوام، أحيانا على الموسيقى لييرما، وأحيانا أكتب قصة قصيرة، وأحيانا أخرى، ولكن ليس غالبا، أضيف فصولا جديدة للرواية التي كنت أحرز فيها تقدما متواصلا. لاحقا التحقت بالسيد والسيدة تريمر في بانداراويلا وقضيت بضعة أيام أتجول معهم بالسيارة على طول الطرقات. بعد ذلك أخذوني معهم إلى إقامة مالدينيا.

كنت مسرورا بالعيش مرة أخرى على إيقاع منزل آل تريمر. كان هناك بيانو مستقيم قديم في إحدى الغرف حيث أقضي ساعات الزوال في كتابة الموسيقى لييرما. حوالي الرابعة مساء من كل يوم، بينما تغطي سحب المطر السماء، أجلس للعمل. إن نبرة كل وتر في الآلة القديمة تبدو مجرد نبرة رمزية، إن لم تكن متشابهة. كانت الأمور عادية إلى حد ما على الأقل، حتى العشية التي جلست فيها للعمل. دفعت المفاتيح ووجدتها معاقة بشكل غريب. افترضت أن المطر قد تسبب في انهيار مفاجئ إضافي للآلة، وهكذا نقرت بقوة على المفاتيح. بعد ذلك قفزت من البيانو ووقعت أرضا من على الأريكة. كان هناك ثعبان ضخم، يزحف عموديا من السطح المفتوح للبيانو، يراقص لسانه الأسود في اتجاهي، كما لو أن حبلا خفيا يسحبه إلى الأعلى. واصل الثعبان الصعود إلى الأعلى، إلى أن اختفى حول عمود في السقف، بعد ذلك رفع ما تبقى من جسمه من البيانو وواصل الصعود إلى ذلك الجزء الواسع من المنزل الذي يقع بين السقف والعوارض الخشبية. بالنسبة لي تعد رؤية ثعبان بطول ثلاثة أقدام يخرج من البيانو ويختفي في السقف حدثا خارقا، غير أن مضيفي تصرفا بشكل عاد إلى حد ما. قالت السيدة تريمر: "أتساءل لماذا نزل إلى البيانو؟" فأجاب زوجها: "ربما هناك شقوق في السقف. سأجعل سرينغهام يلقي نظرة عليه."

لكن نظرا لأن الموسم هو موسم العَلَق فقد حذراني في المقابل من الخروج في وقت متأخر من الزوال. فما أن يتوقف المطر وترسل الشمس أولى أشعتها الحارقة على العشب الندي، حتى تخرج هذه الحشرات من الأرض، مشعة سوداء، الآلاف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

منها (لا يتعدى طولها بوصة واحدة.) تنحني وتمدد أجسادها وهـي تتحـرك إلى الأمام وتلوح بأفواهها المربعة في اتجاه أي شيء يكون موضوع هجومها. ذات يوم وقفت هناك وراقبتهما بينما كانت تتحسس وجودي وشرعت تزحـف نحـوي. كان المشهد كما لو اقتطع من أفلام الخيال العلمي، كما لو أن الأرض ذاتها تبعث بأنابيب سوداء صغيرة لا حصر لها. لكل واحدة منها هـدف وحيـد يتمثـل في الإمتلاء بالدم. في يوم آخر تركت واحدة منها تطمر فكيها في كاحلي. لم أشـعر بأي شيء وهي تحدث الجرح، بعد حين ضغطت بعقب سيجارتي في موقع الجـرح إلى أن فكت قبضتها. اندفع الدم بغزارة من الجرح المربع الصغير وخلـف علامـة يمكن رؤيتها إلى الآن، بعد مرور أكثر من عشرين سنة.

استقللت باخرة إلى لندن. التقيت بجون ليمان في تيلبوري، ونـزلت مـرة أخرى ضيفا عنده لبضعة أيام. بعد ذلك ذهبت إلى باريس للالتحاق بجين بفنـدق الجامعة. كانت كارسون ماككالرز تقيم هناك أيضا. كانت لديها غرفـة مقابلـة للشارع تعج بضجيج الشارع المنبعث من الأسـفل بـالرغم مـن رحابتـها. في الصباحات نأخذ فطورنا ونصعد إلى غرفة كارسون ونتحدث معها بينما نتنـاول فطورنا. كانت أودورا ويلتي تقيم في الفندق خلال جزء من الوقت؛ كانت تحيـا وهي تتحرق شوقا لرسائل من الولايات المتحدة، أساسا لمتابعة مغامرة ليل آبنـر. كانت كل رسالة تتوصل بها عبارة عن المقتطعات التي اقتطعت من الجرائـد منـذ الرسالة السابقة. لكوني لم أسمع قط بليل آبنر، فقد وجدت انشغالها به قمة الغرابة.

التقيت ببراين جيسين. كان قد قضى للتو سنة ببوردو حيث يقوم بأبحـاث لمشروع فولبرايث ويبدو الآن حرا طليقا. اقترحت عليه الذهاب إلى طنجة لفتـرة من الزمن، ووافق على ذلك. انتهت الأشغال بالمنـزل في المدينة أخـيرا وبـات جاهزا. لم تكن جين مستعدة لمغادرة باريس، فقد كانت تشتغل بجـد في الفنـدق وهكذا كانت سعيدة هناك. أخذت القطار عبر مدريد إلى جزر الخالدات وعبرت إلى طنجة. حوالي أسبوع على ذلك وصل براين.

كان المنـزل صغيرا لكنه يتألف من طوابق عديدة. استقر براين في الطـابق الثاني، وأنا في الرابع، في القلعة التي بنيتها على قمة البناية الأصلية. يمكن لأي منـا أن يدخل أو يخرج دون أن يقترب من إقامة الآخر. كطباخ حصلنا علـى الخـادم

الذي كان قد اشتغل لدى دافيد هوربرت السنة الماضية. كان قد عمل لدى باربارا هوتي قبل ذلك ويقصد منـــزلها بين الفينة والأخرى؛ فقد كان منـــزلها قريبا مـــن بيتنا. أحيانا ونحن ننهي تناول الغداء، كان يأتي ويقف في المدخل علـــى الباحـــة، ماسكا بمنشفة في يده ويخبرنا بقصص طريفة عنها.

بعثت ليبـــي هولمان ببرقية تخبرني فيها بأنها ستنطلق بالســـيارة مـــن إنجلتـــرا وتريدني أن أنتظرها في مالكا. انتقلت إلى هناك ولمدة شهر كامل كنـــت وإياهـــا نجوب الأندلس، لنستقر أخيرا في طنجة. تحدثنا دون انقطاع عن بيرمـــا؛ حينمـــا تمكننا من الحصول على بيانو، كما كان الأمر في إشبيلية وغرناطة، عملنا معا على بعض الأغاني المنجزة. عشية مغادرتها للمغرب نحو نيويورك، توصلت بأخبار تنبئها بوفاة ابنها كريستوفر في محاولة لتسلق جبل ويتني.

ذهبت وبراين إلى فاس. في غفلة من الزمن ودون أن ندرك ذلك، كنا نحيـــا الشهرين أو الثلاثة الأخيرة من عمر الحياة الاستعمارية المتميزة بالانفتاح، والبساطة والروح العتيقة في المغرب، (في ذلك الشتاء شجع الفرنسيون الكلاوي من أجـــل إرسال جنوده إلى الرباط وتهديد السلطان، وهكذا بدأت فترة من التـــوتر. بـــدل التوصل إلى التهدئة تصاعد التوتر باستمرار إلى أن فجر خلع الملك بالقوة الحـــرب الإرهابية ضد الفرنسيين.)

أخيرا واصلنا الرحيل إلى مراكش. لاحقا في الخريف حينما عدنا إلى طنجـــة، بقي براين مرة أخرى في المنـــزل، غير أنه هذه المرة بمفرده. لم أر ضرورة التعامـــل مع الصعوبات التي أعلم أن الشتاء سيحملها في طريقه إلى المنـــزل الصغير. وهكذا توجهت صوب فندق جديد كان قد فتح أبوابه مؤخرا في الجهـــة القصـــية مـــن المارشان. كان الشتاء بغيضا، ذلك أنه بحلول أعياد الميلاد كانت الأمطار المتهاطلة تفوق كل الكميات خلال عطلة الشتاء برمتها.

وصلت امرأة من باريس تحمل رسالة من ترومان كابوت. كان اسمها ناديـــة باتسيفيتش، وكانت تعتزم كتابة مقال حول الصحراء لمجلة فـــوغ. لـــيس هـــذا فحسب، فقد كان منظرها يوحي بأنها هي الأخرى تنتمي لإحدى صفحات تلك المجلة. قامت بزيارتي مرات ومرات حيث كنا نتناول العشاء بفندق فيلا ميمـــوزا ونناقش مسار الرحلة. في الأخير اقترحت علي أن أرافقها. كنت مشغولا كـــثيرا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بكتابة دعه *يسقط*. هكذا مع التوقفات والفواصل كان الكتاب يتقدم ببطئ أكثر مما توقعت، فكانت ردة فعلي الأولى على الدعوة الرفض.

استمر تهاطل الأمطار. لاحظت السيدة باتسيفيتش، التي كانت قلقة بشأن حالة الطرق وفشلها في قطع الصحراء، إذا انتظرت أكثر من اللازم، بأن الوسيلة الوحيدة للهروب من الجو الرديء هو السفر إلى الجنوب. حينما تهاطل المطر على جدار غرفة نومي، وغطى الأرضية بكاملها، وواصل زحفه تحت الباب إلى الممر، غيرت رأيي، وبدت إمكانية فترة وجيزة في الصحراء جذابة بشكل يقيني. وافقت على الذهاب معها.

كانت الرحلة مشؤومة منذ البداية. في فاس ما أن استقرتْ في غرفة فندقها حتى أخذ حوض المرحاض في غرفة الحمام يلقي بمحتوياته إلى الأرض. غيرت الغرفة. وحينما لمست الصنبور، وقع وانفجر الماء من الجدار مباشرة عبر الغرفة. كان لزاما منحها غرفة ثالثة.

استمر المطر في التساقط. على طول الطريق شرقا، وجدنا كميات كبيرة من الوحل تغطي جزئيا الطريق. حينما وصلنا إلى وجدة، علمنا بأن الطريق جنوبا غير سالكة بسبب الثلج وبالتالي كان لابد من حمل السيارة عن طريق القطار إلى كولمبشار. استقللنا نحن أيضا القطار ووصلنا هناك قبل السيارة بأيام كثيرة. حتى الآن كان الأمر عاديا. أصيبت نادية باسيفيتش بالتهاب حاد خلال يومها الأول في كولمبشار ذلك أنها اختارت قضاء الليلة في ملحق الفندق الذي يقع في الجهة المقابلة من الشارع. كان سقف الملحق حديث التشييد وكان المطر يتسلل عبر شقوقه. حينما ذهبت لزيارتها في الصباح، كان سريرها مبللا تماما، وكانت في حالة بدت لي خطيرة. لحسن الحظ فقد كانت تتوفر على قدرات استشفائية عجيبة.

أخيرا وصلت السيارة، وتمكننا من المرور عبر حواجز الجمارك الجزائرية. بالرغم من أن نادية لازالت تعاني من سعال حاد وارتفاع الحرارة، فقد ألحت على السفر جنوبا إلى إيغلي عبر السيارة حيث كان الأوربيان الوحيدان هناك قبطانا فرنسيا شابا وزوجته. وافقا على السماح لنا بقضاء الليلة في منزلهما، بالرغم من أنهما اعتذرا لعدم وجود مكان بالنسبة لنادية باستثناء طاولة المطبخ. كانت في حالة من المرض بحيث لم تعر بالا لأي شيء آخر. أعطوني فراشا من القش خارج

حضيرة الخراف. كان نصف السقف قد اختفى فكان ضوء القمر القوي المشع يتلألأ عبر السقف وهكذا سرعان ما أفقت. استلقيت مستيقظا أستمع للخرفان وهي تخنخن. في الصباح وجدنا نادية على الطاولة، بينما كان رأسها يتدلى داخل الفرن. ذلك أن "الدفء ساعدها كثيرا وهي تشعر بحال أفضل."

في تاغيت بقي سوء الطالع ملازما لها. في إحدى الليالي استيقظتُ على صوت أنينها وخربشتها على نافذتي. مر وقت طويل كأنه دهر قبل أن أعي تماما ما يجري حولي، بعد ذلك وجدتها مكومة في السطح. كادت تختنق ذلك أنها تركت موقد الفحم الخشبي مشتعلا بكل براءة عندما خلدت إلى النوم. كان علي أن أذهب إلى القلعة مع الثالثة صباحا وأن أستدعي القبطان الذي يتولى مسؤولية الذخيرة الدوائية الوحيدة في المنطقة. بدا في غاية الإنزعاج والوجوم لأنني جعلته يصحو في هذه الساعة ناهيك عن أنه لا يستطيع أن يقوم بأي شيء. غير أنه رافقني إلى الغرفة. وبنبرة نمت عن فقدان الصبر أخبر السيدة: "لا يحق لأمثالك أن يأتوا إلى الصحراء." كان هذا الحادث بداية عداوة بينهما استمرت إلى أن غادرنا المنطقة. حينما عدنا إلى كولمبشار قصدت المقر العسكري وقدمت شكاية ضد تصرفاته.

حينما عدت إلى طنجة أخبرت براين بأن الرحلة ولدت لدي الحنين لامتلاك سيارة خاصة، حيث يمكنني الذهاب حيثما شئت وأن أغادر كلما أحسست بالرغبة في ذلك. فكان رده: "حسنا، لماذا لا تشتري واحدة. يمكنك فعل ذلك." نزل ذلك علي كالصاعقة، ذلك أنه لم يخطر ببالي أبدا أن أكون مالكا محتملا لسيارة، كما أنه لم يخطر ببالي بأن المال شيء يمكن إنفاقه. دأبت على ادخاره بشكل آلي، بحيث أنفق أقل قدر ممكن. كان اقتراح براين يضارع صوت الشيطان. شرعت في تأمل السيارات، وفي بحر أسبوعين اشتريت سيارة جديدة من نوع الجاغوار.

حينما وقع نظر مالكة فندق فيلا ميموزا الإنجليزية على السيارة، أعلنت فورا بأن ما ينقصني هو سائق. طمأنتها بأن ذلك ضرب من المستحيل، ذلك أنني لا أنوي تحمل أعباء أجر سائق. ذات صباح حينما عدت من المدينة، فتح خادم الباب في حالة من الترقب، صارخا: "سائقك ينتظرك." كان هناك شاب ينتصب بخشونة أسفل السلالم. تقدمت السيدة الإنجليزية إلى الأمام وفسرت لي بأنها أخذت على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عاتقها أن تطلب من الطباخ أن يرسل قريبه لكي أختبره كسائق. فقد كان يعمل لدى أمريكي تعرفه، وتعتبره شخصا فعالا. توجهتْ إلى السائق: "ضع قدميك معا. وقل "سيدي"، ألا تملك جاكيتة أفضل من هذه." أخبرها الشاب بأنه سيعود لاحقا خلال اليوم بجاكيتة مختلفة. ثم أخبرتني، "عليك أن توفر له بدلة." هكذا وجدت نفسي، وأنا أتراوح بين الانزعاج الأولي وغبطتي النهائية، مسؤولا بالمرة على سيارة وعلى سائق. اقترح براين أن نقوم برحلة لترويض الجاغوار.

في البداية ذهبنا إلى فاس ومراكش، وبعد ذلك انطلقنا نحو الأماكن الأكثر وعورة حيث لا توجد سوى ممرات. قبل أن نغادر مراكش، صادفت عبد القادر الذي كنت قد اصطحبته معي إلى باريس منذ عشرين سنة خلت. تمكن خلال هذه الأثناء من جمع ما يكفي من المال لشراء ضيعة صغيرة لأشجار الزيتون وبيت على الطريق باتجاه بلدة بن جرير وهناك كان يعيش. يقود دراجته الهوائية فقط حينما يرغب في التزود بالمؤن. سأل عن هاري، وحينما أخبرته بأنه قضى في الحرب، قال: "المسكين لم يكن محظوظا."

عانت الجاغوار الأمرين في رحلتها الأولى؛ فقد قطعت المئات من الأميال من الطرق الصخرية عبر جنوب المغرب، كما قطعت الوديان، وكان علينا سحبها من الرمال المتحركة حينما عبرنا الحدود إلى الصحراء الجزائرية. وفي الأخير واجهتنا عاصفة رملية ليومين متتاليين حيث لم نستطع أن نحرز أي تقدم ذلك أن الماء في المبرد تبخر ما أن قطعنا ميلا واحد. استغرقت رحلتنا الصحراوية ثلاثة أو أربعة أشهر. واصلت كتابة الرواية حيثما حللنا؛ ربما لم يكن التمسماني السائق المثالي في هذه المناطق. كان الاحتقار الذي يشعر به عند رؤيته لهؤلاء الأشخاص المتخلفين (إذ كيف يمكنهم ألا يكونوا كذلك، حسبه، وهم يعيشون في هذه الأرض المتخلفة،) يبدو جليا في جميع المناسبات. ربما نظرا لبدلته التي تبدو مثل البدل العسكرية ونظرا لأحذيته المشعة وجواربه فإنهم لم يعترضوا على سلوكه الاستعلائي.

بينما نحن في فاس، حيث قضينا بعض الأسابيع خلال رحلة العودة إلى طنجة، توصلت بأخبار من جين. كانت ترغب في مغادرة باريس الآن واقترحت أن أقود السيارة حتى الحدود الفرنسية لأخذها من هناك. تميزت رحلتنا عبر إسبانيا

بسورات من الحماس كلما ظهرت الخنازير في الأجواء. تركت براين في طنجة، ودعوت أحمد اليعقوبي ليرافقني. كان التمسماني يطفئ محرك السيارة، ويتوقف هو وأحمد بين الفينة والفينة، ويقومان بالصياح والتلويح بجنون. كان الفلاحون الإسبان مندهشين وإلى حد ما خائفين. كانت ذكرى الموريسكيين كقناصين ومغتصبين خلال احتلال فرانكو لا تزال حاضرة في الأذهان وبالتالي لم يكونون يميلون للشعور بالتعاطف معنا.

كادت المصاعب تواجهنا عند الكاتدراتية في قرطبة. حينما دخلنا، قام كل من التمسماني وأحمد بغسل وجهيهما، ثم فميهما وقاما بالمضمضة بالماء المقدس في نافورة عند الباب. بعد ذلك انسحبا وأخذا يتفلان على بعضهما البعض. دفعتهم خارج البناية قبل أن يبلغنا المحافظ الذي كان يشاهد هذه الألاعيب من الجهة الأخرى من الكاتدراتية.

كما هو معلوم، كان حرس فرانكو النخبوي يتشكل من المئات والمئات من الريفيين، الذين كانوا يقيمون جميعا، في سنة 1951 على الأقل، في قرية الباردو. لم يكن من السهل الوصول إلى إقامة فرانكو، حيث كان الحراس ينتشرون على الجياد هنا وهناك وكانت مهمتهم تتحدد في الحيلولة دون وصول أي كان إلى القصر. حينما قدنا سيارتنا بسرعة إلى القرية، حيى التمسماني الجنود باللهجة الريفية؛ كان يلقبهم إخواني ويباركهم. لم تكن السيارة مكشوفة تماما فاختبأت في الخلف. لم يلحظ الحراس سوى التمسماني ببدلته وخودته وأحمد وهو يعتمر برنوسا وجلابة. فورا أذنوا لنا بمتابعة السير صوب القصر قبل ان يلمحني أحدهم ويطلب من السائق توقيف السيارة. بعد ذلك قدموا الاعتذارات، وكتصفية للأجواء المعتكرة ألحوا علينا لتناول وجبة الكسكس معهم. تناولنا كؤوس الشاي بالنعناع مرات ومرات والكثير من الكيف. حينما عدنا إلى مدريد كنا نطفو في حالة نشوة عارمة. ارتأيت أن يرا المغربيان لوحات بوش في المتحف الوطني. بعد ذلك كلما طلب أحدهم من اليعقوبي أن يحدد رسامه المفضل، فإنه كان يرد بوش. حضرنا إحياء قداس بكاتدرائية بورغوس واكتفينا بالمشاهدة من الخلف. أحب أحمد الموسيقي؛ أما التمسماني فلم يجد ما يثير إطلاقا في كل من الموسيقى والطقوس. بعد ذلك ذهبنا إلى سانتيلا ديل مار لمشاهدة مغارات ألتاميرا. كانت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لوحات الحيوانات جميلة، غير أنه كان منزعجا بشأن ما تعرضت له من إبادة منذ ثمانية عشر ألف سنة.

بدت جين في حال أفضل حيث كان يغمرها الفرح لمغادرة باريس أخيرا. قضينا بضعة أيام في سان سيباستيان وبعد ذلك اتجهنا جنوبا دون أن نعجل من عمر الرحلة. كلما تطوعت للسياقة بدل التمسماني حتى يأخذ قسطا من الراحة، كانت جين تحتج بأنني أسوق بسرعة. تتوالى شكاويها حتى يتولى التمسماني السياقة مرة أخرى. أظن أنها كانت لا تطمئن لطريقتي في السياقة؛ تزعم بأن السبب في ذلك يرجع إلى أنها تعلم دائما ما يدور في ذهني وبالتالي تشعر تقريبا كما لو كانت هي التي تتولى السياقة فيتلاشى شعورها بالراحة والأمان. حينما وصلنا إلى أوبيدا أحببنا البلدة والتلال الجافة المغطاة بالقمح التي تحف بها من كل جهة. مرت ثلاثة أسابيع قبل أن نغادر نحو غرناطة.

في طنجة عشت أنا وجين لأول مرة بين جدران منزل. وضعتْ نظاما صارما يتعلق بالذهاب باكرا كل صباح إلى السوق. فبينما لا أزال غارقا في النوم، يصل التمسماني ويرافقها عبر المدينة إلى السوق الكبير لشراء طعام اليوم. حينما أستيقظ، أصنع القهوة وآخذها معي إلى السرير للعمل حتى حوالي منتصف اليوم. ثمة الكثير من العمل قبل أن أنتهي من الرواية. كانت تخامرني الرغبة في الذهاب إلى مدينة الشاون لكتابة الفصول القليلة الأخيرة، فقمت بذلك. كانت المدينة مكانا في غاية الجمال، كما أن الصمت الذي يعم غرفة الفندق في الليل لا تقطعه سوى الأصوات البعيدة للديك عبر السهل. أحرزت تقدما كبيرا هنا وأخذت أشعر بسعادة أكبر بخصوص الرواية ذلك أنني شرعت في كتابتها منذ سنتين خلت. وصل إلفين تالبرغ الإبن وقضى معي ثلاثة أيام. أعتقد بأنه يعلم كم كان محظوظا حينما تواجد في مقهى خلال طقوس لجيلالة. أتى جيلالي جبلي[1]، وجلس بمحاذاتنا، وبعد ذلك انتابته حالة جذبة. وهو يرقص، أحدث جروحا في جسمه بالسكين، فغطى الدم وجهه وأخذ يلعقه من بين يديه وأصابعه. كان ذلك مؤثرا جدا، وبدا أكثر تأثيرا ذلك أنه قام بذلك دون ان ينبس ولو بكلمة واحدة.

(1) جبلي: شخص ينتمي إلى جبالة، وهي مناطق شمال المغرب.

كانت جين تقوم بزيارة الشاون لقضاء نهاية الأسبوع بين الفينة والأخـــرى. كانت الرسائل تصل اتباعا من روث كوردن وكارسن كانين الذين كانــا علــى وشك إخراج *في المنــزل الصيفي*. بعد حين كان عليها الــذهاب إلى نيويــورك. باءت هذه المحاولة بالفشل، غير أنه كان هناك عرضان آخران خلال ذلك الموسم: الأول قام به جاسبر ديتر لمسرح هيدجراو، والآخر بمسرح آن آربر وتؤدي الــدور الرئيسي ميريام هوبكينـــز. قبل أن تغادر جين طنجة غادرت الشاون للإقامة معها واتمام دعه *يسقط*.

قضيت شهر كانون الأول بتطوان في فندق درسا. كان أحمــد اليعقوبـــي هناك يقوم بالرسم، كما أن روبرت روشينبورغ يعــيش في منــــزل في الجهـــة الأخرى من الشارع. خلال ليلة تختلف عن باقي الليالي قدم أحمــد صــينية مــن معجون قوي جدا إلى بوب وصديق له دون أن يشرح لهما طبيعة المــادة. نظــرا لطعمه الجيد، فقد بسطا كميات كبيرة منه على البِسكويت والحلــوى وتنــاولا الكل مع الشاي الساخن. ونظرا لأنهما يفتقران تماما للخبرة في التعامل مــع هــذه المادة فلم يتستطيعا أن يدركا ما يجري لهما. كانا في حالة شديدة الغرابــة حينمــا غادرا فندق درسا. بعد ذلك في الليل ذهبنا إلى فندق بلبـــاو للاطمئنــان علــى حالتهما. صعدنا السلالم المظلمة وتوقفنا لهنيهة خارج غرفة روشــينبورغ. كـــان صوت الأنين ينداح عبر الباب. قررنا بأنه ما دام غارقا في رحلة شقية، فإن وصولنا سيجعل الأمور فقط أكثرا سوءا، وهكذا نــــزلنا الأدراج بهـــدوء وانطلقنـــا إلى الشارع.

ذات يوم رأيتُ ملصقا في جبل طارق على إحدى نوافذ مكتب بواخر يتعلق بالعبور من الدرجة الأولى إلى بومباي مقابل ثماني جنيهات ذلك أن الباخرة باتوري كانت تابعة للخطوط الأطلسية البولندية. لم يخطر ببالي أن أذهب إلى الهند ذلــك الشتاء. غير أن الفكرة بدت فجأة جيدة واقتصادية - تقريبا أقل مــن البقــاء في المغرب. سآخذ أحمد اليعقوبـــي من مدينة فاس، وألقي به وسط الهند وأرى مـــا الذي سيحدث. استمتع أحمد بالرحلة البحرية كما فعلـــت أنـــا. كـــان الطعـــام والخدمات جيدة بشكل مدهش. في الجناح الخاص بالسياح كانت فرقة من ثلاثين راقصا، كلهم من السود الأمريكيين، يظهرون على سطح السفينة كـــل صـــباح

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ويقومون بتمرينات في بدلات السباحة. كانوا يحملون الماريجوانا من نيويورك. بعد حين أخذوا بتقديمها لربان الباخرة. دون أن يصرح بذلك مباشرة، أوضح الربان بأنه يمتعض من كل هذه العادات البرجوازية المنحطة، وقد بدا مذهولا أن يصدر ذلك عن أشخاص هم أفراد طبقة مسحوقة.

نظرا لأنه لم يكن له اعداد قبلي يهيؤه لواقع الهند، بدا أحمد أكثر اندهاشا قياسا بي إزاء منظر اللاجئين الذين يوجدون في كل مكان: كانوا ينامون، ويأكلون ويتغوطون في شوارع بومباي. بالنسبة له يبدو الهنود كائنات فقدت عقلها، حتى أنهم لا يمتون لهذا الكوكب بصلة. كما أن الهنود المسلمين، الذين لا يعلمون من العربية غير الشهادة، الإعلان المقتضب للإيمان الذين يستظهرونه له ليبرهنوا على تشبثهم بالإسلام، فبالكاد حظوا هم الآخرين برضاه. لاشك أن الهند صدمت أحمد كمكان شرير وعدواني. أكثر من مرة في منتصف الليل كنت أسمع نشيجه من الغرفة المجاورة وهو يغط في نومه، "أنا خائف."

أحببت الفندق بأورنغباد وهكذا أقمنا هناك لمدة. كانت المسيرة الإنجليزية تنتمي إلى طائفة العلماء المسيحيين وأعطتني بعض النسخ من مجلة مونيتور كما أضافت بأن شخصا أمريكيا، رجل يدعى السيد موهان، سيصل إلى الفندق خلال الأيام القليلة القادمة، ربما كنت أعرفه. أخبرتها بأن لا علم لي به. لكنها ألحت، "إنه مشهور جدا. إنه عازف كمان مشهور." أخبرتها بأنني لم أسمع عنه قط، مضيفا بأنني مادمت قد غادرت أمريكا لسنوات عديدة، فيمكنه أن يصبح مشهورا خلال غيابي عن البلد. غير أنها واصلت عنادها: "لا. لا، لقد كان مشهورا لسنوات."

بعد أيام قليلة وصل فعلا السيد موهان رفقة زوجته واستقرا في الغرفة المجاورة. لم يمر وقت طويل قبل أن يشرع في التمرن. مباشرة سحب أحمد ليرته المغربية، وهي عبارة عن ناي من القصب كذلك الذي يحمله الرعاة، وأخذ يعزف هو الآخر. توقف التمرن؛ كانت هناك همسات من جراء المفاجأة وعدم التصديق في الغرفة المجاورة. كلما شرع السيد موهان في العزف على الكمان، كان أحمد يزعق على ليرته. بعد ذلك انسحب إلى غرفة توجد على مسافة أبعد وأغلق الباب، لمواصلة عمله بعيدا عن الازعاج. آملت تجنب لقاء مباشر في الشرفة. خلال وقت القيلولة تلك العشية في مكان ما في الفندق أخذت امرأة تنادي: "يهودي!

يهودي." حينها أدركت من يكون السيد موهان. سأل أحمد: "هل تسمع ماذا تنادي تلك المرأة زوجها؟ عليه أن يضربها." في المغرب حينما يحرن بغل أو حمار، فإن صاحبه ينادي عليه "يهودي". تمعنت في الأمر جليا، وحتى لا أتسبب في مشهد رهيب، لم أشأ أن أوضح لأحمد أن يهودي هو فعلا اسم الرجل. بعد ذلك حينما التقيت مينوحين مرة أخرى في نيويورك، سألته إذا ما كان لا يزال يذكر حادثة الناي في الفندق في أورانجباد. فكان رده بالإيجاب.

أردت زيارة كهوف إلورا بينما لا أزال في المنطقة. ركبنا عربة الأجرة عبر بلد تعلوه سحابة سميكة من الغبار الموحش و لم يكن في منزل الراحة سوى شخص آخر، رجل إنجليزي يدعى كودرينغتون. كان البروفيسور كودرينغتون يقيم في إلوارا لعدة أسابيع ويعرف المعابد والكهوف معرفة جيدة. بعد الليلة الأولى عقب العشاء جلسنا في ظلام الشرفة. أخذ البروفسور يشرح لأحمد التاريخ القديم جدا للمعابد وأكد على فكرة مفادها أنه لما يفوق آلاف السنين كانت هذه المعابد قبلة لملايين الحجاج. أراد أحمد أن يعرف هوية هؤلاء الملايين وأي دين كانوا يتبعون. حينما علم أنهم كانوا كلهم إما بوذيين أو هندوس، بدا مرتاحا. لاحظ بجدية تامة: "إذا كان كل هذا العدد من المسلمين قد مات، فلن يتبقى مكان فارغ في الجنة الآن." لم يجادله البروفيسور كودرينغتون بخصوص هذا الشأن. حينما عدت إلى بومباي، وجدت في انتظاري عشر نسخ من رواية دعه *يسقط* في القنصلية الأمريكية. ومادام أننا كنا نحمل ما يفوق ألف جنيه من الأمتعة، فإن بعض الكتب الإضافية لن يشكل فرقا كبيرا. لا تزال مقصورات القطار واسعة، غير أن الرشاشات باتت تفتقر الآن إلى المياه، وغالبا ما تنعدم وجبات الطعام هي الأخرى خلال السفر. اقتصر طعامنا على قطع الحلوى والفواكه.

وجدنا فرقة الراقصين الذين كنا قد تركناهم على متن باخرة باتوري بفندق كونمارا في مادراس حيث حصلوا على مخدرات قوية المفعول اقتسموها معنا بكل كرم وسخاء. ذهبنا إلى حفل زفاف هندي أورتودكسي حيث جلسنا على الأرض لساعات نمضغ المكسرات. لم يكن الأمر مختلفا عن مناسبات مماثلة في المغرب، فندت عن أحمد الأمارات الأولى على شعوره بالراحة بين الهنود. سافرنا ببطء عبر الهند إلى البحر العربي ثم إلى الساحل. لعله بعد شهر بعد ذلك كنا في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كوشان حيث يوجد فندق جيد على جزيرة ويلينغتون وسط المرفأ. يحج كل من الأوربيين والهنود إلى هذا المكان لقضاء سحابة عطلتهم حول بحيرة السباحة. هنا كان أحمد يقضي اليوم جالسا، يرسم ويصبغ؛ مما استرعى بالضرورة انتباه عـــدد كبير من المشاهدين وبعد حين أخذ يبيع لوحاته للذين يرغبون في اقتنائها. كانت أم وابنتها من بومباي يبديان اهتماما دائما بعمله إلى اليوم الذي رسم فيه أسرابا من الطيور. ندها باندهاش: "عمل جذاب جدا. ما اسم اللوحة؟" حينما أخبرهم بأن اللوحة تسمى"سور الصمت" تصلبتا في مكانهما وابتعدتا دون إضافة كلمـــة أخرى. بعد ذلك أوضحت سيدة هندية في محاولة لتبديد هذا السلوك الغريـــب بأنهما من المجوس ووجدا الإسم مستفزا لمشاعرهن، ذلك أنــه يحيــل إلى البنـــاء المشهور على تل مالبار حيث الأموات من المجوس يتم التهامهم تقليديا من طرف النسور.

كان العام غير مناسب للتواجد في الهند إذا كان المرء يولي عنايـــة للأكـــل. فالأرز نادر، كما أن نِهرو كان قد سن قانونا يحظر بموجبه تقديم وجبات الأرز في المطاعم والفنادق، معللا ذلك بأن الذين يتناولون وجباتهم في هذه المؤسسات يمكن لهم طلب وجبات أخرى بدل ذلك، بينما لا يستطيع الفقراء تناول أي شيء آخر. غير أن البهار مع البطاطس لا يفي بالغرض. ذات يـــوم بينمـــا كنـــا في جزيـــرة ويلتنغتون، استقللنا قاربا وتم التجديف بنا إلى باخرة شحن هندية ترسو في المرفـــأ. كان طاهي الباخرة طيبا جدا وأعطانا حقيبة أرز بمقدار خمسة جنيهـــات حملناهـــا كمن أحرز نصرا إلى رئيس الطباخين بالفندق، طالبين منه تحضير بعضا منه لوجبة العشاء. أبى الرجل ذلك: لا يمكن تقديم أية وجبة أرز في غرفة الطعام. ومع ذلـــك فقد وافق على تحضيرها لنا إذا أردنا تناولها داخل غرفنا. منذ ذلك الوقت، وحيثما ذهبنا، كنا نقوم تحديدا بذلك: نحمل معنا أرزنا الخاص.

في يوم آخر عدنا إلى المرفأ واستقللنا باخرة يابانية، بحثا عن المزيد مـــن الأرز. قبل أن نحصل على الأزر، قادونا إلى الأسفل إلى الرواق حيث يتمدد أحد البحارة جثة هامدة، تحف به شموع وصحون صغيرة من الطعام. فالصبـــي صدمه مرفاع. "لقد مات،" أخذوا يكررون مبتسمين ملء وجوههم. وجـــد أحمـــد حركـــات وجوههم مزعجة جدا، وقد تساءل لاحقا إذا لم يكونوا هم الذين قاموا بقتله.

من بين خصوصيات كوشان وجود مستعمرة يهودية واسعة الأرجاء تتوزع بين المدن التي تشكل تجمعا، (تحتوي إيرناكولام على اكبر تجمع سكني، حوالي ستة آلاف نسمة)، لا يمكن تمييز اليهود عن التاميل الآخرين الذين يعيشون بين ظهرانيهم. التقينا أحدهم عند المرفأ. كان يحمل مجلة تحمل عنوان *صهيون*، وقد عرض علينا أن يعرفنا على دور العبادة اليهودية. ونحن نتمشى عبر أزقة الجناح اليهودي، خاطب أحمد، الذي لا شك أنه تذكر الملاح بفاس، دليلنا بنبرة لا تخلو من اتهام: "أنت لست يهوديا حقيقيا." اشتد حنق الرجل فصرخ: "على العكس، نحن وحدنا اليهود الحقيقيون، الخلف المباشرون للملك سليمان." ارتأيت من الحكمة ألا أترجم المقطع الأخير لأحمد ذلك أن الملك سليمان يعد من الأنبياء المسلمين الأوائل، وليس لليهود أي حق بالزعم أنه نبي يهودي.

كانت دور العبادة اليهودية بنايات عادية تغطي أرضيتها وجدرانها قطع من الآجر الهولندي القديم. بدل أن تكون التوراة على شكل لفيفة فقد كانت مطبوعة على سلسلة من الأطباق النحاسية الرقيقة التي تدار على المنضدة كما لو كانت صفحات. تتمثل فكرة أحمد عن يهود شاطئ مالبار، التي عبر لي عنها لاحقا، في أنهم من الجهل بحيث يتصورون الديانة اليهودية خطوة إلى الأمام عن الهندوسية وكانوا قد تبنوها لتحسين وضعهم الاجتماعي.

بكوشان قرأت عن أعمال العنف بطنجة وعملية تهريب الذهب إلى مونتيفيديو بعد بضعة أيام على ذلك. لا شك أن هذا سيكون ضربة قاضية لطنجة الحرة التي عرفتها خلال السنوات الماضية. ضمن إعلانات الصحافة التي واكبت *دعه يسقط* كان هناك إعلان نشرته مجلة نيويورك تايمز في ملحقها الثقافي بالرغم من أن الناقد لا يبدي إعجابه بالكتاب. هذه المرة أفردوا لي الصفحة الأولى بكاملها. خطر لي خاطر بأن أعمال العنف ربما قد حولت الرواية من عمل حول الحياة المعاصرة إلى وثيقة تعالج زمنا ولى. حتى الآن، بعد مرور عشرين سنة، فإن الصورة الشعبية لطنجة لم تتغير كثيرا. لا يزال الناس يصلون مترقبين الجو القديم المشبع بالإسراف والتبذير الذي ساد في أربعينيات القرن الماضي. أحيانا يزعمون بأنهم عثروا على ذلك الجو.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حينما غادرت جين نحو نيويورك، أخذت معها كل أعمال أحمد الأساسية. نظمت بيتي بارسونز معرضا برواقها بشارع السابع والخمسين، غير أنها بعثت لي بعد ذلك برسالة. لسوء الحظ، شرعت أتلوها على أحمد مباشرة باللهجة المغربية قبل أن أتبين محتواها. حينها لم يعد بالإمكان التوقف. باختصار زار الرواق رجل فرنسي يدعى جون دوبوفي، فأخذته بيتي إلى غرفة خلفية وأرته لوحات أحمد. أخبر السيد دوبوفي الذي كان حينها رساما مشهورا، لكنه في وقت ما درس الفن للأطفال المغاربة، بيتي بأن أحدهم قد خدعها. ليست الرسومات من إنجاز مغربي على الإطلاق، ولكنها حسب رأيه، لفنان أوربي يحرص على الاختفاء وراء اسم خيالي. وما دامت بيتي تكن احتراما كبيرا لدوبوفي كرسام، فإنها احتارت في الأمر وتضايقت، وكتبت لي تسأل عن تفاصيل إضافية. خلال تلك الأيام لم تكن هناك روح مودة بين الفرنسيين والمغاربة، كما أن كره أحمد للفرنسيين كان حادا بشكل غير طبيعي. أراد أن يسافر فورا إلى نيويورك ويرفع دعوة قضائية ضد دوبوفي. خلال المحاكمة سيقوم برسم لوحة أمام الحاضرين، حتى لا يكون هناك مجال للشك بشأن هوية صاحب اللوحات الأخرى. ارتأينا في الأخير ارسال رسالة إلى بيتي سيتم عرضها بالمعرض. بعد أيام عديدة من النقد اللاذع لفرنسا خط أحمد خطابا طويلا بعثت به إلى بيتي، مع إرسال خاص، عاجل وعبر الطائرة، من مكتب البريد بجزيرة ويلينغتون.

أخذنا قاربا عبر الممرات المائية الداخلية إلى أليبي وتريفاندروم، وبعد ذلك قمنا بزيارة مادورا. استمتعت بمشاهدة المعبد مرة أخرى. عند نهاية اللآلاف من الأميال عبر الهند تم اعتقالنا فجأة ورمينا في معتقل "عازل" تديره حكومة سايلون في ماندبام على الأراضي الهندية. إنها لتجربة مثيرة أن يسجن المرء في مكان ما إلى جوار عشرين ألف شخص آخر، العديد منهم تلاشى هناك لسنوات عديدة، وأن لا تكون له أية إشارة عما سيحدث في المستقبل. لم يعمر الشك سوى ثمانية وأربعين ساعة، بعدها تم إطلاق سراحنا. واصلنا رحلتنا إلى دانوشكودي وأخذنا الباخرة إلى سايلون. كلما ألقينا نظرة إلى الوراء، فإن الساعات التي قضيناها في المعسكر لا تبدو جزءا من الزمن على الإطلاق؛ إنها مجرد شيء سرمدي، خارج عن انسياب الزمن.

كان السيد والسيدة تريمر قد غادرا مالدينيا وذهبا إلى الأراضي الخفيضة في الجنوب، إلى مكان يدعى جينتوتا حيث كانا يترقبان قدومنا. إضافة إلى الأسبوعين التي قضيناها في الذهاب يوميا للتأكد من عدم إصابتنا بالكوليرا، فكرت بأنه علينا أن نقيم في مكان حيث ستكون زيارات الطبيب سهلة. اخترنا أنورادابورا. لا يستغرق السير من الفندق إلى مكتب الطبيب الذي تطرز جنباته أشجار ضخمة سوى خمس دقائق.

كان لدى آل ترمير منزلا رائعا جدا للإستجمام بجينتوتا. كنا نبقى أسبوعا هناك، وبعد ذلك نسافر لأسبوعين آخرين، ثم نعود لأسبوع آخر. قمنا بزيارة العديد من المعابد البوذية والهندوسية. كلما بلغنا المساجد، كنت أنتظر في الخارج بينما يصلي أحمد. بمعبد هيكادوا التقينا رجلا أخبرنا عن جزيرة دوداندوا، تل كثيف الأدغال حيث أقام ثمانية رجال دين بوذيين معبدا. كانوا كل يوم يقصدون القرى المجاورة في قارب لا يحملون معهم سوى صحون يستخدمونها لجمع ما يحصلون عليه من صدقات ليعودوا بالأرز والفواكه والخضر دون أن يحضروا النقود، التي لم يكن مسموحا لهم بتملكها أو لمسها. قررنا أن نذهب ونزور المكان. أخذنا قاربا ذا محرك عبر الجزيرة. نزلنا بشاطئ وارف الظل وأخبرنا أصحاب القارب بأن يعودوا خلال ساعتين. انطلقوا، بعد أن وجهوا لنا تحذيرا مقتضبا: "حذار من ثعابين الكوبرا." غير أن الطريق كان عريضا ونظيفا. لا يمكن لأي ثعبان كوبرا أن يرقد متواريا عن الأنظار دون أن يُلمح وسط الدائرة التي تهيئه للانقضاض على ضحيته. بعد حين عثرنا في طريقنا على رجل دين يعتمر لباسا أصفر يقلب الأوراق، فأخذنا في جولة حول الجزيرة، قائلا بأنه من الأفضل لنا أن نكون رفقة مرشد، ذلك أن الثعابين تعرف رجال الدين و لم يسبق لها أبدا أن تعرضت لأي شخص في حضورهم. ذهبت إلى ويليغاما يحذوني هدف مباشر هو العبور إلى جزيرة تابروبان الصغيرة، ذلك أن الصور في مذكرات دافيد هربرت لا تزال منحفرة في ذاكرتي. التقاني عند البوابة عند نهاية الرسيف رجل يبدو من هيئته كائنا متوحشا كما أن فمه يبدو شريطا أحمر من فرط مضع التنبول. وبعد أن تلفظ ببعض الجمل الغامضة ووضع روبيان في جيبه، فتح البوابة. يربض منزل ذو أضلاع ثمانية على مرتفع وسط هذه الجنة الصغيرة، تحف به حديقة، ثم غابة وأخيرا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأمواج المتكسرة للمحيط الهندي. يقضي صاحب المنزل، السيد جيناداسا، وهو مزارع من أعلى البلدة يشتغل بزراعة المطاط ويربي خيول السباق، أحيانا نهاية الأسبوع هنا و لم يكن معنيا ببيع المكان. غير أنني طلبت من السيد تريمر أن يراقب الوضع، وإذا ما طرأ أي تغير، أن يعلمني فورا، فالجزيرة تم شراءها وبيعها ثلاث أو أربع مرات منذ موت الكونت دوموني تالقاند. غير أن لا أحد من المشترين، بما فيهم السيد جيناداسا، قد حصل على المكان بغية الإقامة فيه. اعتبرت هذا العامل لصالحي، فالصورة العامة عن المكان كمكان للمتعة بدل مكان للإقامة جعل إمكانية بيع فجائي أكثر رجوحا.

للعودة إلى أوربا قبل سقوط الأمطار الاستوائية أخذنا تاي يانغ، وهي باخرة شحن نرويجية في طريقها من رانغون إلى أوسلو. على متن الباخرة كانت هناك مورسيا، فتاة أوروبية آسيوية جميلة من أصل إيرلندي ماليزي وكانت تنقل شحنة من العشرات من الزواحف والحيوانات ذات القوائم الأربعة إلى حديقة الحيوانات بمدينة باسل السويسرية. كان مصدر فخرها أنثى وحيد القرن ذات الإحدى عشر عاما والتي تسمى جوي والتي تم ركنها في قفص صُنع بدقة على ظهر الباخرة. أبرمت الفتاة اتفاقا مع البحارة النرويجيين سيكون عليهم بموجبه أن يوفروا الأكل وأن ينظفوا الحيوان على نحو منتظم. يطهو الطباخ إناء ضخما من طحين الشوفان كل صباح، وكنت غالبا ما أنزل الدرجات لأشاهد جوي وهي تتناول فطورها. ينزل أحد البحارة إلى الأسفل، فيمده آخر بسطل من العصيدة. يندلق الشوفان على شكل شلال من كل جانب من فم جوي وهي تأكل، وكانت تحرك ذيلها بسعادة.

حلت الأمطار الاستوائية قبل أن نكون في منتصف الطريق عبر البحر، وكان على أنثى وحيد القرن العاثرة الحظ أن تنتصب هناك لأسبوع بينما ترطمها الأمواج كلما تمادت السفينة. كانت مورسيا قلقة من أن تضر المياه المالحة بجلد الحيوان فتوسلت إلى البحارة أن يذهبوا ويرشوه بماء منعش. بالنسبة لهم، كان هذا عملا غير مجد، وبالتالي رفضوا الانصياع لتوسلاتها.

ذات صباح تم اكتشاف أن العشرات من الزواحف الضخمة على الأقل قد غادرت أقفاصها. جعل هذا البحارة ينخرطون في مطاردة مجنونة استمرت ساعات

وساعات. كانت مورسيا خائفة بحيث اعتبرت ذلك نسفا متعمدا. كان البحارة منزعجون ذلك أن البحث عن الزواحف يعد عملا شاقا، بما في ذلك تلك التي يصل طولها إلى خمسة أقدام، في أماكن مزدحمة كهذه. حينما بلغنا عرض مياه البحر الأحمر، أعلن البحارة النرويجيون فجأة بأنهم لم يعودوا معنيين بأمر جوي. حينما قصدت مورسيا القبطان العجوز الغريب الأطوار أعلن بأنه كان منذ البداية معترضا على فكرة نقل حيوان وحيد القرن على متن السفينة، مضيفا بعجالة أنها مادامت قد أدت واجب نقله، فإنه ملتزم من حيث الواجب بتسليمها في مرفأ جينوا. كما استطرد مضيفا، في نفس الوقت، أن الترتيبات التي وضعتها مع طاقم السفينة لا تعنيه بأي حال من الأحوال، كما أنه لا يأبه سواء تناولت جوي طعامها أو تضورت جوعا. عادت مورسيا من لقائها تفور غضبا ويأسا، حينها أخبرها أحمد بأنه سيتولى إطعام جوي كل صباح ورشها بالماء بعد ذلك. واصل القيام بذلك حتى وصلنا إلى حيفا. بعد ذلك انتبه النرويجيون الى تمردهم الصغير وتولوا المهمة مرة أخرى. في جينوا وجدنا في انتظارنا عند المرفأ ألبرت روتشيلد الذي قادنا بسيارته إلى منزله على ساحل لاغو دي أورتا لقضاء أسبوعين أو ثلاثة هناك. كان هناك براين جيسين يقوم برسم لوحاته، وأخو ألبرت هانس ريشتر الذي كان قد قام بإخراج فيلم *الأحلام التي يمكن للمال أن يشتريها*، وكان يصور حاليا فيلما آخرا يصفه كلعبة شطرنج. سيلقب أحد المشاهد اللعبة الوسطى، كما يرغب في أن أؤدي أنا وأحمد أحد أدوارها، فقلت بأننا سنفعل. من أورتا ذهبنا إلى مدينة البندقية للإقامة مع بيغي كوكنهايم في قصر فيني دي ليوني.

صبيحة اليوم الأول أرسلت بيغي خادمة بعد الفطور لتخبرنا بأنها توجد في السطح. ذهبت أولا فوجدتها تأخذ حمام شمس دون ملابس. حينها سألت: "أرجو ألا يضايقك الأمر؟" في تلك اللحظة بالذات ظهر أحمد عند مدخل الباب. تصلبت ملامح وجهه ذلك أن لا عهد له بهذا الوضع. همس: "من الأفضل أن ننزل، أليس كذلك؟"

فصرخت بيغي: "أوه، إنه مُحرج؟ أخبره بأن يخرج، سأضع رداء الحمام فورا." غير أن أحمد واصل غمغمته. أخبرتها، وأنا أترجم وأحذف لب ملاحظاته بأنه يعتبره من غير اللائق بالنسبة للنساء أن يجلسن دون ملابس أمام رجال غرباء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

"هذا غريب، تقصد بأنهم لا يقومون بذلك في المكان الذي هو منه؟ أنا على يقين بأنهم يقومون بذلك. أليس كذلك، أحمد؟"

نزولا عند رغبة بيغي، تولى أحمد المطبخ خلال مناسبات عديدة لإعداد أطباق مغربية. لإنجاز وصفاته كان يرسل كل طاقم المطبخ يهرولون في اتجاهات مختلفة لجلب أعشاب وتوابل على الجهة الأخرى من القناة الكبيرة. كانت بيغي تمثل حاليا في فيلم ريشتر، وتعتزم الذهاب بعد ذلك إلى الهند للقاء حاكم هناك. حين سألتها أي واحد تعتزم لقاءه، لم ترد إخباري قائلة بدل ذلك، "أي واحد. هذا لا يهم."

بعد ذلك واصلنا سفرنا إلى مدريد لترتيب معرض للوحات أحمد في رواق كلان. بيعت اللوحات بأثمنة عالية فحصل أحمد على بعض الأرباح واشترى مجموعة من اللوحات للرسام كلي فاقت المائة ووضعها تحت وسادته في الليل لالتهام محتواها تماما أكثر مما سيفعل بعينيه. كانت كل لوحاته الكبرى بنيويورك، حيث قررت بيتي بارسونز أن تعرضها بالرغم من تحذير دوبوفي.

بينما كنت في مدريد توصلت ببرقية من السيد تريمر، يخبرني فيها بأنني إذا ما تدبرت أموري بسرعة فيمكنني أن أحصل على جزيرة تابروبان. دون تردد غادرت فندق القصر وأسرعت إلى مكتب البريد للاتصال بنيويورك لإرسال المال إلى سايلون.

الآن وقد أصبحت مالك الجزيرة، أردت الذهاب ومعرفة كيف يمكنني أن أقضي الليل هناك. أينما حللت، يعد نوع النوم الذي أحظى به المعيار الحاسم لاختبار صلاحية المكان لأغراض الإقامة. غير أنني لا أستطيع الذهاب الآن إلى سايلون ذلك أن مسرحية جين، *في المنزل الصيفي*، كانت على وشك أن تعرف إنتاجا آخر، هذه المرة ببرودواي، وكانوا في حاجة لي في نيويورك لوضع الموسيقى. نظرا لأن سفن الخطوط اليوغسلافية تنطلق مباشرة من طنجة بدل أن تمر عبر المضيق، فقد قررت أن أجربها. لا تبدو هذه طريقة مرضية في عبور الأطلسي. كان هانس ريشتر الآن في نيويورك وسيكون على استعداد قريبا لتصوير مشهد من الفيلم الذي سنشارك فيه أنا وأحمد.

وضعت موسيقى *في المنزل الصيفي*، وبعد أن تركت أحمد مع ليبي، ذهبت رفقة جين إلى واشنطن حيث أقمنا عروضا تجريبية للمسرحية. كان كل من

جودي أندرسون وميلدرد دانوك متألقان، غير أن الإخراج كان فوضويا، كما أن السيناريو ذاته كانت تتخلله محطات مشوشة تحتاج إلى التوضيح. قضينا ليلة رأس السنة الجديدة، في نيويورك مع جوديت. مادام كل من أوليفر سميت وروجر ستيفنز ارتأيا ضرورة تغيير المخرج، فحينما وصلنا إلى بوسطن تم الاتصال بجوسي كوينتيرو لتولي الأمر. بصعوبة تمكن من لملمة أطراف المسرحية. في غضون الليلة شدت جين المسرحية بقوة وكتبت مشهدا جديدا لميلدرد دانوك. فوجئت حين رؤية العمل كاملا في الصباح الموالي، وأحسست بالانتشاء حينما شاهدت العرض الجميل للمسرحية.

كانت ليبي فعالة في ترتيب سلسلة من المعارض لأحمد في المدن الأمريكية الشرقية ابتداء من نيويورك وصولا إلى كليفلاند. أقمت أنا وجين عند ليبي في منزل بكونيكتيكوت بعد أن حطت المسرحية الرحال في نيويورك. في الربيع قدم هانس ريشتر وصوَّر المشاهد لما يسميه الآن *ثمانية على ثمانية*. خلال هذه الأثناء تسلم آرتر كولد وروبرت فيزدال المال لإنجاز عمل لتقديمه في سهرتهم المقبلة. طلبوا من جيمس شويلر أن يكتب نصا، ومني وضع الموسيقى. لا تزال *بيرما* في منتصف الطريق نحو نهايتها حيث لم أشتغل عليها منذ مدة، لذا فإن كتابة موسيقى جديدة يمكن أن يبعد عني الإحساس بالذنب الذي شعرت به لعدم عودتي لمنازلة بيرما. تركت جين وأحمد عند ليبي وعدت مسرعا إلى طنجة، واستأجرت جهاز بيانو.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

16

أمضيت فصل الربيع في طنجة، واضعا الموسيقى لنص شويلر ومتجولا بين مناطق مختلفة من المغرب، كما كنت أتردد على المهرجانات الدينية التي تقام في البلد. لم أبال قط بالحصول على رخصة السياقة، غير أنه خلال إقامة لمدة أسبوعين في شفشاون صرت معتادا على القيام بمفردي بجولات طويلة في السيارة إلى الريف الغربي في سيارة الجاغوار. على نحو لا يصدق، لم يعترض رجال الشرطة طريقي أبدا.

حينما توصلت ببرقية في أوائل الصيف من تينيسي ويليامز انطلقت، أيضا في سيارة الجاغوار، إلى روما. كنت أنا والتمسماني نتناوب على السياقة عبر إسبانيا وفرنسا، بينما كان أحمد، الذي عاد للتو من نيويورك، يتمدد في المقاعد الخلفية يعزف على الليرا ويغني حتى برشلونة حيث، نظرا لرفض منحه تأشيرة العبور إلى فرنسا، استقل طائرة مباشرة إلى روما. كان الدافع وراء الرحلة هو أن تينيسي كان قد رتب لي كتابة حوار لفيلم يرغب لوشينو فيسكونتي في إنجازه. ستجري أحداثه خلال الحرب النمساوية الإيطالية في منتصف القرن التاسع عشر.

كان فيسكونتي شخصا ذا سحر وأدب جمين. بعد أن تقاضيت أجري لمدة ستة أسابيع وأنهيت عملي، أخبرني بأنه غير راض عن مشاهد الحب. خلال أسبوع أعطاه تينيسي، الذي كان يأمل في الأصل في كتابة الحوار، تحديدا ما يرغب فيه. اقتسمنا أجر الفيلم، الذي لقب في الأخير *إحساس*.

كنت قد وافقت على كتابة مقال عن اسطنبول لمجلة *هوليداي*. كان هذا هو الوقت المناسب للسفر والقيام بذلك. بعد أن اقتنيت تذكرة العبور من خطوط دينيزيولاري، أبحرت إلى إسطنبول، لأعود خلال الشهر المقبل إلى نابل حيث كان التمسماني في انتظاري في المرفأ بالسيارة.

ونحن نقود السيارة المشرعة من نابل إلى روما، قام التمسماني بما دأب الأشخاص من الريف على القيام به. أخذت خياشيمه تتمدد وتتحسس الهواء. شيئا فشيئا أخذت تعابير وجهه تستحيل من حالة اللامبالاة إلى حالة الإصرار. تباطأت السيارة، وانسحبنا من الطريق وتوقفنا بالقرب من مجموعة من المزارعين. خرج التمسماني من السيارة وخطا نحوهم. دار حديث قصير بينهم، وسمعته يصرخ، "مجنون! مجنون." بعد ذلك التقط مقدار ساعده من الأغصان الجافة، حزمات كبيرة كان يتم تكديسها هناك في الحقل، وحملها ليضعها في المقعد الخلفي. قام برحلات عديدة فامتلأت السيارة بهذه العيدان. بعد ذلك واصلنا طريقنا إلى روما، ذاهبين مباشرة إلى فلورنسا. لم تزايل الحيرة التمسماني بشأن أعواده حتى وضعها بأمان كلها في الشقة. حينها أعلن بأنه سيقوم بإعداد أفضل معجون في تاريخ روما، فقد كانت الحقول، كما أخبرني، مليئة بالقنب لأميال وأميال على طول الطريق، وكان المزارعون كرماء حيث أذنوا له بأخذ كل ما يشاء. بالنسبة له كان هذا هو أهم شيء: أي أن الكيف كان دون مقابل. كون أن القنب لم يكن من النوع الصالح للتدخين فهذا غير مهم، ذلك أنه سيكون ممتازا لإعداد المعجون. وهكذا كان الأمر. انتقلت ذلك الأسبوع إلى جبل باريولي ودعيت لحفلة حيث قدم التمسماني اختراعه. كان للمعجون مذاق رائع وتأثير قوي. كانت هناك أيضا ليليان هليمان وشتيلا آدلر وهيلين، ابنة شتيلا التي تناولت المعجون كما لو أنها خبيرة.

أراد تينيسي الذهاب إلى طنجة. انطلقنا من روما في سيارتي جاغوار متماثلة، وقضينا بعض الليالي في بورتوفينو حيث كان لدى ترومان كابوت شقة في الطابق العلوي لمنزل يقع على الواجهة البحرية. كنت أتحرق شوقا لرؤية كيف سيكون حال المغرب الآن وقد شرع الإرهابيون حملتهم ضد الفرنسيين[1]. وراء فضولي يكمن الخوف بأن البلد في ظل الظروف الجديدة سيتوقف على أن يكون مكانا صالحا لإقامة الأجانب.

بدت مخاوفي معقولة حيث كانت شوارع طنجة ترشح الآن بجو من العدوانية الظاهرة. كان لدي الإحساس بأن الكل ينتظر فقط الإشارة، وحينها ستُشرع أبواب الجحيم على مصراعيها. ومع تفاقم المشكل، بات الفرنسيون أكثر عنادا

(1) يعتبر بول بولز رجال المقاومة إرهابيين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومشاكسة. كانوا تحديدا معادين للأمريكيين، لأنهم يعتقدون بأن الأسلحة التي يستخدمها المغاربة تأتي من القواعد الأمريكية. كانت المظاهرات تجوب شوارع طنجة تقريبا كل يوم، فغدا أصحاب المحلات منشغلين برفع وانزال واجهات محلاتهم المعدنية كلما تناهى صوت الشغب. وجد تينيسي الجو خانقا فلم يبق طويلا في المغرب.

سمحت لهجمات التيفويد بالخمود، معتقدا بأنني لن أصاب بالمرض مرة أخرى. كان هذا جزءا من الحمق من جهتي، ذلك أنني وجدتني على حين غرة طريح الفراش بسبب حمى شبيهة بالتيفويد. استغرق شفائي ثلاثة أسابيع من الرقود في حجرة باردة في فندق ماسيليا. حمل التمسماني مواقيد النار، وقد ساعدت على الأقل في جعل المكان أقل رطوبة. حينما عادت جين من الولايات المتحدة، استقرت في غرفة أخرى في نفس الطابق من الفندق. كانت لديها هناك خادمتان تنامان على الأرض. كانا يساعداها في تحضير طعامي، مستعملين مواقيد النار، التي كانوا يخبئونها في الخزانة حتى لا تعلم إدارة الفندق بوجودها.

خلال فترة نقاهتي جاء رجل نحيف، طويل القمة، لعيادتي، وقد كان يرافقه أحد معارفي في طنجة. كان اسمه ويليام بورروز، وقد كان قد اصدر للتو كتابا يحمل عنوان *عاشق* اقتنته منه شركة تصدر الطبعات الشعبية[1]. لم يسبق لي أن سمعت عن شيء من هذا القبيل. ثمة شيء في العقد يقض مضجعه؛ فإذا كنت أذكر جيدا، فقد كان لديه من الأسباب ما يجعله غير مطمئن لبنود العقد. كانت طريقته هادئة إلى درجة أن وجوده في الحجرة بدا مترددا. أذكر أنني كنت أشاهده، بين الحين والآخر، وهو يذرع الشارع، دون أن يلتفت إلى اليمين أو اليسار. كنا نتواجه في الطرقات بينما يسير الواحد منا في الجهة المقابلة للآخر، وكنا نومئ برأسنا لبعضنا البعض.

أردت زيارة فاس خلال فترة القلاقل السياسية. على الطريق كان علينا أن نتنحى جانبا بينما كانت الدبابات الفرنسية والعربات المصفحة تمر. ثمة دبابات رابضة خارج أسوار باب فتوح. حل تغير مفاجئ بالمدينة. كانت الجرائد اليومية تنشر كل يوم لوائح فظاعات اليوم السابق. لا أحد يعلم أين ستوجد جثة الضحية

---

(1) بيل بورروز: (1914-1997): كاتب أمريكي يعد أحد رموز جيل البيتز.

المقبلة أو من سيكون صاحبها. كانت ملامح المارة أقنعة غشاها الخوف، والشك والحقد.

لاحقا خلال ذلك الربيع عدت إلى طنجة للقاء بيغي كوكنهايم التي جاءت من فينيس رفقة شخصان إيطاليان يحملان آلتي غيتار. بقيت فقط لأسبوعين، غير أننا حظينا ببعض الوجبات الجيدة معا، وجعلناها أنا وجين تعد بأن تزورنا في تابروبان في الشتاء القادم. بعد ذلك غادرت هي وأصدقاؤها إلى إسبانيا.

بالنسبة للصيف وجدت منزلا عند حافة التل بسيدي بوقنادل واستأجرته على أساس شهري. كنت مستعدا لكتابة رواية جديدة وكنت أود استعمال المكان كورشة للكتابة. على نحو يثير الدهشة، كان المنزل قد شيد فوق نافورة، لذا فإن الماء كان ينساب على جدران الغرف في الطابق الأرضي. طليت الطابق الثاني بالصباغة ورتبته. بدا العمل طريقة جيدة لشحن الطاقة الضرورية للشروع في الكتاب. كانت فاس تستحوذ على ذهني. كيف سيكون الأمر حينما يرى المرء مدينة، المدينة الوحيدة التي يعرفها، تنهار من يوم لآخر أمام ناظريه؟

كنت أضع المنبه كل ليلة حتى أستيقظ مع طلوع الفجر. حينما أستيقظ، كنت أمد يدي وآخذ تيرموس القهوة الذي كنت قد أعددته مباشرة قبل خلودي إلى النوم. كان صوت أمواج المحيط التي تضرب التلال ينداح عبر النافذة عند رأس سريري. كنت أتمدد بهدوء وأكتب. عند منتصف النهار أكون قد أنهيت عمل اليوم.

بحلول الخريف، انتقلت إلى منزل داخل أسوار القصبة؛ كان ينتصب في مكان أعلى وكان أقل رطوبة قياسا بالمنزل السابق. جاء السيد كتيري لزيارتي هناك ذات عشية، حيث كان قد وصل للتو من فاس وكان لا يزال مضطربا ومشوش الذهن، فالصباح السابق حينما فتح باب منزله للخروج إلى الشارع عثر على جثة رجل كان قد قتل خلال الليل. سألت: "لكن من يقوم بهذه الأعمال؟" أجابني بينما كانت شفتاه ترتجفان: "الإرهابيون." وما دام قد كان متعودا على إبراز الوثائق التي توضح الروابط المتينة التي كانت تربط والده بالحكام العسكريين الفرنسيين بفاس، فقد كان لديه ما يكفي من الأسباب لجعله قلقا بشأن المنحى الذي تأخذه الأمور.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في شهر كانون الأول من تلك السنة اقتنيت تذاكر العبور لكل من جين وأحمد اليعقوبي وأنا على متن باخرة أورسوفا المتجهة إلى سايلون. كان قد تم ترتيب عرض آخر لرسومات أحمد برواق في كولمبو. كان التمسماني يرغب في أن يذهب معنا بشدة لذا فقد اقترحت جين أن يرافقنا كل المسافة إلى جبل طارق لمعرفة إذا ما كانت هنالك إمكانية الحصول على عبور في درجة سياحية. ذهب فعلا، وكانت هناك إمكانية، وهكذا انطلقنا نحن الأربعة، حيث كان التمسماني في مكان ما في الأسفل بين أحشاء الباخرة. هناك احتسى الجعة رفقة فتاة أسترالية وعاش للمرة الأولى إثارة كونه على قدم المساواة كلية مع الأوربيين. برقت عيناه ببريق جديد حينما انتهت رحلة الباخرة؛ ربما تبدى أقل احتراما في طريقة تعامله معنا. غير أنه انطلق بحماسة في مساعدتنا لتوفير أسباب الاستقرار بسايلون.

كانت ردة فعل جين الأولى حين وصولنا إلى كولمبو هي أنها ساخنة – أشد سخونة من باناما. مما يعني أنها ساخنة على نحو يهدد راحتها، لكنها أحبت الشِباك الخاصة بالحشرات التي تتدلى من الأعلى فوق الأسرة كما أحبت أيضا مروحات السقف الكبيرة. وما أن شرعنا في تلقي الدعوات لتناول الطعام في منازل الأصدقاء، حتى أخذت تبدي اهتماما بالطعام. ما أن وصلنا إلى ويليغاما ورأت جزيرة تابروبان هناك قبالتها، مجرد قطعة من غابة شتوية تنهد من البحر، حتى تأوهت. شققنا طريقنا عبر المياه وصعدنا إلى القارب. التقط مصور جريدة تايمز سايلون صورنا ونحن نصعد إلى القارب. حينما وصلنا إلى البوابة، وألقت بنظرها إلى السلسلة الطويلة من الأدراج عبر النباتات الغريبة، نحو المنزل غير المرئي، قالت جين وهي تهز منكبيها: "إنها إحدى قصص بُو. يمكنني أن أرى بوضوح لماذا يعجبك المكان." كنت قد حذرتها سابقا من الغارة الليلية للوطاويط (صناديق طائرة، يلقبونها)، غير أنها، كما أخبرتني، لم تكن تتوقع كل هذا العدد، أو أن تصل أجنحتها إلى ثلاثة أقدام وهذه الأسنان الكبيرة. ما أن يحل الظلام فلن تستطيع رؤيتها إلا إذا وجهت مصباحا هناك في الخارج إلى الأشجار. كان هذا عملا منتظما وإلزاميا من جهتنا كلنا حينما انتقلنا أول الأمر إلى المنزل. كان لكل واحد منا مصباحه الخاص، يستعمله في التنقل من حجرة إلى أخرى. لم تكن هناك محطة كهربائية في الجزيرة، وكان في المنزل فقط مصباح زيتي واحد مشع يوجد

عادة في الغرفة الرئيسية حيث كان المشكل هو حمايته من ريح البحر التي تهب دائما عبر المكان. غير أنه مادام سقف الغرفة الرئيسية بعلو ثلاثين قدما، فقد كانت هناك أيضا الكثير من الأمكنة المعتمة، أما باقي الحجر فقد كانت مضاءة بشكل خافت بواسطة الذؤابات المتأرجحة لمصابيح زيتية عتيقة وبواسطة الشموع.

ما أن حصلنا على الطباخ المناسب، حتى غدت الأمور ممتعة. ذهبنا لإحضار بيغي غوغنهايم من محطة القطار في ويليغاما في عربة تجرها ثيران سريعة. أبدت سعادتها حيال الجزيرة و لم يكن بوسعها أن تتفهم سبب امتعاض جين من المكان. وافقت جين على أن الجزيرة جميلة غير أنها زعمت بأن ذلك سيكون دون جدوى. في اليوم الموالي لوصول بيغي إلى تابروبان، توصلت بمظروف ثخين له حجم قانوني، أرسلته لها الحكومة في كولمبو. يحتوي المظروف على مجموعة من مطبوعات الضرائب عليها ملئها في ثلاث نسخ، معلنة عن دخلها الكامل. لم تنتظر بيغي. ذهبنا إلى غال لاستشارة محام. هدأ الرجل من روعها ونصحها بتجاهل الرسالة. لعل ما أثار اهتمام جين لا يكمن في طابع الحياة في سايلون الغريب بحيث لا يمكن اعتباره أكثر من تجريد، ولكن في طبيعة السكان الذين يعدون ما تبقى من الكنيسة الهولندية الجديدة. كانوا يتكلمون لغة إنجليزية عتيقة، وكانوا مؤثرين على النحو الذي يمكن فقط لمجموعة على شفا الانقراض أن تكون عليه. كان للسيدة تريمر أقارب في غال وقد غمرونا بكامل عنايتهم حينما قمنا بزيارتهم. كان المنزل يوحي على نحو غريب بمنازل أمريكا الوسطى: كانت الكراسي ذات المساند المستقيمة مرصوصة على طول جدران الرواق كما كان الفناء غاصا فوق الحد المقبول بنباتات ذات أوراق عريضة.

توزع وقت أحمد بين الرسم والسباحة. خلال الليل كان هو والتمسماني ينضمان إلى البستاني والطباخ ومساعده على الصخور على امتداد الجهة الغربية من الجزيرة لاصطياد الكركند لوجبة اليوم الموالي من البهار. كان التمسماني على علاقة جيدة بالمسلمين المحليين وكان أحيانا ينضم إليهم في الصلاة في المسجد، بالرغم من أنه يعتبرهم لا يفقهون كثيرا بخصوص الشعائر الدينية. أما أحمد فقد كان يعتبرهم سخيفين ويستحيل الحديث إليهم. وهكذا فإنه لم يسع وراء معرفتهم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت بيغي ترغب في زيارة يالا، جزء من البراري الموحشة في المنطقة الجنوبية الغربية من البلد. استأجرنا عربة. كان السائق رجلا بوذيا طيبا. وفي اليوم الثاني من رحلتنا سألنا إذا كان من الممكن التوقف قليلا بتيسيماهارانا حيث يوجد خزان ماء كبير ببحيرة اصطناعية – مليئة بسمك مقدس يريد أن يقدم له أضحية صغيرة. كنا مسرورين لفرصة النزول من العربة والتمشي على طول حافة البحيرة تحت ظلال الأشجار العملاقة. ذهب السائق والتمسماني وأحمد في الاتجاه الآخر. فجأة تبدد هدوء الصباح بسبب وقوع شيء ضخم في الماء. حينما التفتت، رأيت ما حدث. جريت إلى الوراء. كان التمسماني يضحك بانتشاء مشيرا إلى سطح الماء حيث تطفو العديد من الأسماك الضخمة على جنبها. كان السائق ينثر قطعا من الخبز على الأسماك. كانت كلها هناك، تلتهم الفتات، حينما وقعت الضربة. صرخ التمسماني: "لقد أصبت ثمانية منها بحجر واحد." كان وجه السائق يختلج بالرعب وعدم التصديق. كان أحمد يضحك في الخلف. كان السائق خادما سيلونيا عجوزا، وبالرغم من أنه حافظ على أدبه، فإنه لم يبتسم أبدا مرة أخرى وكان ينظر بارتياب إلينا لما تبقى من أيام الرحلة.

قضينا يوما في كاتاراغاما، جزيرة في بحيرة غابوية، أحد الأماكن الأكثر غرابة في سايلان. كان كل شيء يبدو كمعرض لعالم مصغر مهجور شيد حول شريط أخضر لقرية رئيسية طويلة. كانت كل ديانات سايلون ممثلة هناك؛ كل واحد يمتلك كشكا على وشك الانهيار. كان هناك كشك يحمل العلامة "ب. م. س. أ" في الجهة القصية من جدع سقطت بفعل الرياح وتستعمل كجسر للعبور إلى الجزيرة. كان هناك معبد هندوسي صغير لكنه مؤثر، وقد كان هنا حيث تجري الأحداث. كان الحجاج منشغلين بإعداد أنابيب من الأرز الأرجواني اللزج حيث يوضع في أطباق وعلى أوراق الموز كهدايا. كان المعبد دائريا، وقد فرضت العادة شكلا معينا من العبادة هي عبارة عن طوفان على طول محيطها كله، خارج الجدران، وذلك بالتمرغ المرة تلو المرة على الأرض بينما تتم تلاوة الصلوات المحددة. ولعل وجود المئات من قرود كابوشان في المشهد عقد الأمور كثيرا. كانت الحيوانات متواجدة في كل مكان في نفس الوقت، تغترف الأرز وتنشره بفوضى فوق الحجاج وهم يثبون فرحا. إن مشهد كل هذه الأجساد البشرية وهي تتمرغ

في الأرز ذي اللون الأرجواني الساطع كان أكثر مما يكمن للتمسماني أن يتحمله. هكذا فقد خطا بعيدا لينتظرنا بعيدا عن المعبد. حينما انضممنا إليه ثانية أخبرنا: "هذا يثير اشمئزازي".

لم نبلغ أبدا المحمية الطبيعية. على بعد أميال قليلة من المكان حيث يوضع المرشدون رهن إشارة الزوار، وجدنا أنفسنا في فيضان كان يغمر بسرعة السهل المفتوح كله. تمكن السائق من الانعطاف بالسيارة دون أن نغرق في الوحل، وهكذا قررنا العودة في الاتجاه الذي كنا قد أتينا منه حالا.

حين وصولها إلى آسيا كانت بيغي تروم تحقيق هدفين، أحدهما لقاء ماهارجاه، والآخر الحصول على كلاب من نوع لاسا. خلال وجبة غداء في أحد الأيام بتابروبان كادت أن تحقق أمنيتها الأولى حينما جاء بنيدكت، البستاني ذو الأسنان الحمراء، ليخبرنا بأن مجموعة كبيرة من الهنود وصلت عند البوابة على متن قارب ويطلبون الإذن لزيارة الجزيرة. أخبرته بأننا لا نتوقع زوارا، فعاد وأخبرهم بذلك، ولكن بتلك القوة (كما أخبرنا لاحقا) بحيث أن إحدى السيدات فقدت الوعي نتيجة ذلك. يبدو أن هذا الحادث تسبب في ضجة صغيرة، بحيث أن النساء كن يصرخن والرجال يتكلمون بسرعة كبيرة. وما دام أن بينديكت يوجد فوق أراضيه، فإن هذه الفوضى لم تزعجه بتاتا. صرخ في وجههم مرة أخرى ليغادروا الجزيرة. بعد ذلك أغلق البوابة وذهب إلى مكان إقامته بجانب التل. بعدها تذكر البطاقة التي كان قد أعطاها له أحد الأسياد عند البداية الأولى للمواجهة. أخرجها وأعطاها لي. إنها بطاقة الدعوة لجنابه المعظم مهاراجاه بروت. عشرة أيام بعد مغادرة بيغي، كتبت إلي من الهند، حيث كانت تقيم مع سيد له شهرة كبيرة، مهاراجان ميسور. من هناك انطلقت شمالا وحصلت على كلابها.

كنت قد وضعت نظاما صارما لا يتغير أبدا: على الساعة السادسة كل صباح كنت أتناول فنجان الشاي الأول، أتلفع برداء وأتمشى حول الجزيرة، أشاهد الشمس وهي تشرق من الجنوب. وبعد ذلك أسرع في كتابة *بيت العنكبوت*. حينما انتهى كل شيء، وضعتها في صندوق ووضعت عنوان دار النشر راندوم هاوس عليها. بينما كنت أحاول إرسالها في مكتب البريد بويليغاما، ذاع النبأ في الجوار كالنار في الهشيم بأن الشخص الأمريكي على وشك أن يؤدي أربعة مائة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

روبية (80 دولارا) مقابل الطوابع التي ستوضع على علبة من الأوراق. أخذ مكتب البريد الصغير يفيض بالمتفرجين الذين لم يكن لهم من سبب آخر للتواجد هناك سوى مشاهدة الطوابع تلصق على حزمة الأوراق. لعل ما شد إعجابهم هو أسماء الطوابع التي ترتسم في الأعلى. بدا لي أنا الآخر أن هذا ينطوي على الكثير من المال، غير أن موظف البريد أراني القوانين والتسعيرات، مطبوعة باللغة المحلية. وكان علي أن أسلم بأنني لا أؤدي أكثر مما هو واجب. كان همي الأساسي يتمثل في ما إذا كانت دار راندوم ستتوصل بالوديعة أم لا، ذلك أنني كنت قد فقدت الكثير من البريد المرسل من سايلون بحيث يمكنني توقع الأسوأ. غير أن الرسالة وصلت هذه المرة بسلام إلى مكانها.

كانت جين تشكو باستمرار من الحر. أخيرا توجهت إلي وأخبرتني بأنها كانت تتحدث مع التمسماني وقد قررا بأن أشد ما يرغبان فيه هو العودة إلى طنجة. اعترضت بأن الأوان لم يحن بعد. "سيكون الطقس هناك سيئا." لكن جين ردت بحزم: "غير أنه لن يكون حارا." وهكذا اقتنت تذاكر العبور هي والتمسماني نحو جبل طارق.

لاحقا التقيت بآرتر. س. كلارك، الكاتب الإنجليزي الذي كان يعيش آنذاك في محيط كولمبو. كان كلارك شخصا هادئا جدا يستمتع برياضة الغوص في الأعماق. كان يعتزم زيارة خليج ويليغاما. دعوته لزيارة المكان وهكذا كان يتردد علينا مرات ومرات رفقة مساعدين وأجهزة. كانوا يأتون ثم يختفون مباشرة تحت الماء بعيدا عن الجهة الجنوبية من الجزيرة. بعد مرور بضعة سنوات في نيويورك اشتريت كتابا كان قد كتبه كلارك، عنوانه *صخور جزيرة تابروبان*.

ذات يوم قرأت في الجريدة بأن الباخرة شوسان ستقوم برحلة من كولمبو إلى اليابان. اعتقدت بأنني إذا ما استغنيت عن خدمات الطباخ ومساعده، إضافة إلى الشخص الذي يقوم بالتنظيف، واحتفظت فقط بالبستاني والخادمة، الذين يشكلان الخدم الرئيسي، فإن تكلفة قضاء ستة أسابيع على متن سفينة لن تكلف كثيرا مقابل الإقامة في تابروبان. شعرت بأن هذه هي الفرصة المواتية لزيارة أماكن مثل سنغفورة، هونغ كونغ وكيوتو.

كانت الرحلة عادية. على متن باخرة شوسان التقى أحمد بامرأة رتبت معرضا له في هونغ كونغ. جرى الحدث خلال الأسبوعين الذين كنا خلالها في اليابان، وأخذ الرسومات التي لم تبع خلال عودتنا إلى هونغ كونغ. المكان الذي أحببته فعلا هو جزيرة بينانغ، بعيدا عن الساحل الغربي لماليزيا. عزمت العودة ذات يوم والبقاء هناك لمدة أطول.

حينما عدت إلى تابروبان، كان المنزل دون جين موحشا. ففصل الأمطار الاستوائية سيحل قريبا، على أي حال. ودعت بنيدكت وليلي الذين ضما أياديهما على النحو التقليدي الذي يوافق العبادة لدى البوذيين. كان هذا مفاجئا، ذلك أن كلاهما ينتميان إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، غير أنني لم أتمكن أبدا من فهم طرائق تفكيرهم.

خلال رحلة العودة إلى طنجة توقفنا بالقاهرة، لزيارة المتحف القومي ومنطقة الجيزة. هناك تدحرج سرج جملي، وبقيت رجلي معلقة في الآلة التي تستعمل كركاب بينما كان الجمل يواصل طريقه ويجرجر رأسي. المغزى من هذه الحكاية بأن سائس الجمل لم يُسمح له بتقديم يد العون لي حتى استجوبه الشرطي وسجل اسمه ورقم رخصته. بعد ذلك عاد مسرعا ليوقف الجمل.

كانت طنجة ذلك الصيف أكثر توترا من أي وقت مضى. كان الرجال يضعون عوارض حديدية خارج أبواب محلاتهم على امتداد المدينة. عند بداية الاضطرابات كان ممنوعا منعا كليا الهتاف علنا بعودة محمد الخامس، غير أن التظاهر اليومي لخمسين ألف من الأشخاص، في الضاحية العليا والسفلى من المدينة جعل رجال الشرطة القليلين عاجزين عن القيام بأي شيء آخر غير الحفاظ على النظام. كان الجو مشحونا بأعمال العنف كل يوم لكنها نادرا ما تنزلق إلى العنف. حينما قام رجال الشرطة فعلا بإلقاء القنابل المسيلة للدموع، انفجرت بقوة فانتشرت في كل أرجاء المدينة. كما أن الشظايا أصابت العشرات من الأشخاص بجروح، غير أنه لم يتم تسجيل أي ضحايا نتيجة الأعمال العدائية التي نشبت بين فرنسا والمغرب في طنجة.

خلال الصيف توصلت برسالة من ناشر بزيوريخ يتساءل عما إذا كنت أرغب في الاطلاع على مجموعة من الصور الفوتغرافية الاستثنائية لإفريقيا بهدف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تأليف كتاب حولها. كانت الصور فعلا رائعة جدا؛ بالامكان التعرف على بعضها عن طريق اسم المكان الذي يوجد خلف الصورة، أما الصور الأخرى فلم تحمل أية علامات. كان بيتر هابريلين، الشاب السويسري الذي التقطها، قد قضى مؤخرا في حادث في الأنديز، و لم يكن هناك دليل إضافي على رحلته في إفريقيا حيث أنه لم يضع أية ملاحظات. كان العمل بما يتضمنه من تعقب مهما بالنسبة لي. استمتعت باكتشاف طريقة ووضع الكتاب على شكل رحلة عبر الصحراء والسودان. ظهر الكتاب *يا الله* أولا بالألمانية، ثم بعد ذلك قام ماكدويل وأوبلينسكي بنشره في نيويورك.

مع تصاعد موجة المشاعر المعادية للأوربيين في طنجة، لم يعد منزلنا في أمراح (ناحية يقطن فيها المسلمون أساسا باستثناء الجناح الخاص ببربارا هوتون) ممكنا. بدا الابتعاد عن الزنابير حينما تكون في مزاج سيء أمرا معقولا. أخذت أنا وجين شقتين في الطابق العلوي لبناية جديدة عالية في ضواحي طنجة. كانت البيوت تتوفر على سطوح واسعة ومناظر رائعة تطل على المدينة والبحر والجبال. بعد أن استقر بنا المقام لمدة قصيرة غادرت جين لزيارة أوليفر سميت في بيفرلي هيلز. ذات ليلة عاصفة جدا في الشتاء جاء كريستوفر ايشروود لزيارتي. كانت هذه أول مرة ألتقي به منذ فترة ما قبل الحرب. لاحظت أن كلامه أصبح يحمل لكنه أمريكية قوية. أعطاه أحمد بعض المعجون الذي قذف به في خضم العاصفة في حالة من الإرتباك. كتب لي لاحقا من إيطاليا يصف الصعوبات (الذاتية بشكل كبير) التي واجهها قبل أن يتمكن من الوصول إلى فندق المنزه.

كان فرنسيس بايكون زائرا منتظما للشقة ذلك الفصل. فقد كنت معجبا بلوحاته، وحينما تعرفت عليه أخيرا، توسعت دائرة الإعجاب والتقدير لتشمل الرجل أيضا. كان شخصا على وشك الانفجار جراء ضغوطات داخلية. بالرغم من الوصف الوافي الذي أعطاه لي بشأن طريقته في العمل، فقد كنت عاجزا عن تصور تحديدا ما الذي يجري وهو يرسم. لاحقا سمح لأحمد بزيارته في مرسمه في القصبة ومشاهدته وهو يرسم. وافق على ذلك لأن أحمد كان يجابه صعوبات جمة في تعلم كيفية تدبر صباغة الزيت، فلشهور عديدة كان يحاول ابتكار تقنية ممكنة. تتمثل الصعوبة الأخرى في غياب المواد التي يحتاج إليها الفنان في طنجة،

فذهب فرانسيس إلى لندن وحمل معه كمية جيدة من صباغات وينسور ونيوتون.

حينما جاء بيل بورروز للزيارة (ذلك أننا أخيرا صرنا أصدقاء)، كنا نتحدث في كل المواضيع ماعدا الكتابة. قدمته لبراين جيسين لأنني اعتقدت بأنهما لن يجدا صعوبة في التفاهم. كنت على صواب، ذلك أنهما في الأخير أصبحا لا ينفصلان. وصل كيرواك إلى طنجة لزيارة بيل غير أنني لم ألتقه، ذلك أنني كنت قد سافرت إلى البرتغال مع مايكل فورديس. كان لدى مايكل سيارة من نوع آستون-مارتين وكان يسوق عادة بسرعة كبيرة عبر شوارع طنجة. لذا فإنه كان لا يطيق السرعة العادية للتمسماني وكان يرغب في تولي القيادة بنفسه، غير أنه كان من المستحيل أن يتنازل له التمسماني عن مقود السيارة.

حينما كنت في لشبونة، توصلت برسالة من أمي تخبرني فيها بأنها ستصل رفقة أبي إلى المغرب في الشهر القادم. عدت إلى طنجة في الوقت المناسب لوضع الترتيبات اللازمة لاستقبالهم، كما أن جين بعثت ببرقية تفيد أن عودتها من كاليفورنيا باتت وشيكة. حينما عادت، كانت برفقة العديد من الأشخاص، بما فيهم تينيسي وجون غودوين الذي كان قد قام بزيارة المغرب في العديد من المناسبات و لم يكن معجبا به كثيرا.

بالرغم من أن طنجة كانت بلدة جذابة بشكل معقول خلال ذلك الوقت، وليست حيا واسعا للفقراء كما غدت منذ ذلك الحين، فإنها لم تكن من طبيعة تلك الأماكن التي كنت أتوقع من والدي أن يستمتعا بها. ولكن نظرا لعناية التمسماني التي لا تنقطع، فقد تآلفا مع المكان. كانا يدخنان الكيف كلما كان متوفرا (بالرغم من أنهما بطبيعة الحال كانا يفضلان شرب الوسيكي) وعلى العموم عزما على الاستمتاع بكل التفاصيل الدقيقة للحياة المغربية التي عادة ما يتجاهلها الزوار أو ينتقدونها. كان هنالك مكان يدعى النادي الأمريكي الذي انضموا إليه مباشرة. حينما لا أكون في الجوار لأخذهم في السيارة عبر جبال الريف، فإنهم يقضون وقتهم عند حمام الساحة هناك بالنادي. كان أبي حينها في الثامنة والسبعين من عمره. حينما كنا بمدينة بالشاون، بأزقتها المائلة وأرضيتها المنزلقة الرطبة لاحظت لأولا مرة أنه يعاني من صعوبات في المشي. بعد بضعة نزهات مؤلمة،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اقتصرت خرجاتنا على الأحياء المجاورة للفندق. غير أن أمي هي التي تعرضت للسقوط. عند نهاية الصيف تعثرت في الظلام في حفرة وكسرت كاحلها وهكذا عادت إلى نيويورك وهي تستند إلى عكازات.

حل شخص لا نعرفه من أمريكا وقام بزيارتنا. عرف نفسه عند الباب بأنه الدكتور فايس. كان قد قرأ رواية جين *سيدتان حازمتان* وقد بعثت في نفسه نفورا شديدا. بعد أن غادر طنجة أرسل هديتان، الهدية الأولى عبارة عن غطاء أوبرا أسود من كازا سيسانا بمدريد، والأخرى هي كتاب، *رحيق في الغربال*، لكمالا ماركاندارا، كما أنه ألحق ملاحظة في الورقة الختامية تقول: "هذه فكرتي عن رواية جيدة." تبرز على ظهر الكتاب صورة الكاتبة وهي فتاة هندية جميلة بشكل مدهش. اعتبرت جين الغطاء سخيفا و لم تقرأ الرواية. شرعت في قراءة الرواية، وجدتها مهمة، وهكذا أكملت قراءتها.

كنت قد نقلت آلة بيانو إلى الشقة وكنت أقضي أغلب الوقت في تأليف ونظم ييرما. وما دامت الأغنية هي الترجمة الحرفية للعمارة في المغرب، فقد كونت الكثير من الأفكار الموسيقية من خلال الأماكن المختلفة التي كنت أزورها في التلال المحيطة بطنجة خلال السنوات التي كنت منشغلا فيها بوضع العمل.

عموما كنت منشغلا بوضع مقال لمجلة هوليداي. تبدى المقال عسيرا، بالرغم من الموقف المثالي للجنة التحرير الذي يتمثل في كون العمل يتشكل تدريجيا، حيث سيغدو المخطط واضحا بعد مرور زمن على ذلك.

أخبرت جين بأنني أفكر في بيع تابروبان، مادامت لا تطيقها. غير أنها قالت: "لكنك تحبها."لا زلت أذكر ملاحظة تلفظت بها بيغي غوغنهايم بكل براءة خلال زيارتها لنا، "أعتقد أنه لأمر رائع أن يكون لديك مكان كهذا. لكنك بالطبع لن تستطيع تحمل مصاريفه." لقد اتخذت قراري فجأة على أي حال نظرا لما ستكلفه أجور العاملين وأعمال الصيانة كل سنة دون أن يكون هناك مقابل معنوي، ولا أحد يستطيع أن يتحمل ذلك. غير أنه يستحيل بيع الجزيرة قبل الحصول على إذن من المراقبة المالية بكولمبو. لتحويل أرباح البيع من الروبيات إلى الدولار، قررت أن أتوجه إلى سايلون كلما سنحت الفرصة بذلك.

فجأة غدا العالم معقدا. اندلعت الحرب في مصر، فتعرقلت الملاحة بالقناة كما أن السفن لم تعد تتوقف بجبل طارق في طريقها إلى آسيا. كان هذا يعني ضرورة الذهاب إلى لندن عن طريق القطار والمراهنة على الحظ للعثور على سفينة على وشك الإبحار حوالي إفريقيا للتوجه إلى كولمبو. انطلقت مرة أخرى مرفوقا بأحمد. فقد بات وجوده ضروريا في الرحلات بحيث لم أعد أفكر في الذهاب لوحدي والاهتمام بكل شيء لمفردي.

لم يكد يمر أسبوع أو ما يزيد في لندن حتى اكتشفت أن سفينة البخار للشركة البريطانية الهندية تسمى شاكدارا على وشك التوجه إلى سايلون. لابد أنني كنت على استعداد لاستقلال تقريبا أي شيء يبعدني عن الطقس اللندني الكئيب، وكنت فرحا حينما صرت على متن السفينة. كان هناك طباخ ومضيفو السفينة من جوان إضافة إلى ثمانية مسافرين آخرين.

قُدمت لنا وجبتنا الأولى على متن السفينة ونحن نتحرك على نهر التايمز. تجمع الركاب في غرفة الطعام وتم تحديد أماكنهم على الطاولة. إلى جانبي جلست فتاة آسيوية كنت على يقين بأنني التقيتها في مكان ما. هكذا لم أفاجأ كثيرا حينما استدارت في منتصف الغداء وسألتني إذا كنت مؤلف *السماء الواقية*. مباشرة حينها أدركت أنني كنت قد رأيت وجهها، على ظهر غلاف رواية *رحيق في الغربال*. انبثق اسمها كاملا، وتمكنت من مفاجأتها هي الأخرى حينما سألتها بدوري إن لم تكن هي الأخرى *كمالا ماركاندارا*.

باستثناء كمالا وأحمد وأنا، كل واحد منا يشكل صورة مختلفة لمفهوم الأجنبي، كان المسافرون الآخرون بريطانيين. كانوا ذلك النوع من البشر الذين يبدو أنهم يشعرون بأن مجرد تواجدهم معا على وجبة طعام يدعو إلى الضحك المستمر. وما دام أن حبورهم ناتج بكل وضوح عن فقدان الراحة في وجود الآخرين، فلم يكن هناك ما يدعو للمشاركة فيه. ناهيك على أن لا واحد منا يلعب لعبة الجسر، الشيء الذي عزلنا عما يسمونه ب"روتين السفينة." بكايب تاون، علمنا مباشرة بوجود نظام التمييز العنصري. كان علينا استعمال مداخل متفرقة إلى مكتب البريد المركزي، ذلك أن كامالا تعتبر غير بيضاء. كنا عاجزين عن تناول الشاي أو القهوة معا، باستثناء أخيرا في الطابق السفلي لمطعم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حين وضعوا لنا طاولة إلى جانب الغسيل. أخذنا رونالد سيغال، محرر المجلة المناوئة لحكومة إفريقيا الجنوبية، حوالي المدينة خلال الأيام القليلة التي قضيناها هناك. ذكرتني كايب تاون بنيويورك خلال ثلاثينيات القرن الماضي؛ كانت تعج بلقاءات سرية وحفلات للدعم تقدم في منازل الليبراليين لمواساة الشهداء السياسيين المحليين.

خلال الرحلة البحرية التي دامت خمسة أسابيع كتبت نصا لمجلة هوليداي وقصة قصيرة، *"الحقول المجمدة،"* أرسلتها إلى هاربرز بازار في اليوم الذي وصلت فيه إلى كولمبو. بعد حوالي الشهر في تابروبان، قضيت خمسة أسابيع في كولمبو، ذاهبا كل صباح خانق إلى البنايات الحكومية في القلعة من أجل إعداد تسع وثائق منفصلة تعد ضرورية إذا كنت أتوقع أن أسحب دولاراتي من سيلون. حينما تم الانتهاء من كل هذه الأوراق وتم تكديس هذه الوثائق في دُرج مكتب المحامي، وجهت اهتمامي إلى محمية الحياة البرية في يالا حيث ردّنا الفيضان على أعقابنا سنتان قبل ذلك. بدت هذه الرحلة ناجحة ذلك أنني وصلت إلى محيط هذه المحمية. ذهبنا مع هيوغ جيب الذي كان يقوم بإنجاز فيلم وثائقي في شمال بورنيو. تمكننا من تصوير الفيلة في ثلاث مناسبات مختلفة–و حتى تلك التي تنعزل منها عن القطيع (على بعد ما يفوق الميل وكانت الريح تهب لصالحنا) حيث تصدر أصواتا غريبة وهي تذرع السهل الواسع جيئة وذهابا، تنتابها أفكار إجرامية خاصة. تصير أحاسيس هذه الحيوانات مدمرة اللحظة التي يتم فيها إقصاؤها من طرف القطيع، غير أنه نظرا لعجزها عن تفريغ هذه المشاعر في أبناء جلدتها، فإنها تهاجم الناس، أعمدة التلغراف، لوحات العلامات والسيارات التي تمر بالجوار.

غادرت سايلون يعتريني شعور بأنني قمت بكل ما يمكن القيام به لإخراج مالي من البلد في حال إذا ما بعت الجزيرة. كانت السفينة تحمل هذه المرة اسما عبثيا إيسيبنجو. لم تتجاوز مومبوزا واستغرقت تسعة أيام للوصول إلى هناك.

بينما كنت أنا وأحمد في نايروبي، توصلت بخطاب من مايكل فورديس الذي كان في زانزيبار رفقة زوجته وأطفاله، يعيشون، كما يزعم، في منزل يفيض بالوطاويط. وافقت على لقائهم بزانزيبار خلال الأسابيع الثلاثة القادمة. خلال ذلك الوقت كنت أعد نصا مناسبا لمجلة النايشن وكنت أرى بأنه علي

التحرك حسب المستطاع بينما أنا في شرق إفريقيا. كان هدفي المركزي في نايروبي هو إجراء لقاء مع توم مبويا ذلك أن رونالد سيغال من كاب تاون كان قد منحني خطابا إليه (كان سيغال قد قام بعد فترة قصيرة بهروب مسرحي مشهور من جنوب إفريقيا، حيث قام إضافة إلى صديق بعبور بحيرة ليمبوبو إلى روديسيا سباحة بينما كانت الشرطة تمطرهم بالرصاص.)

كان مبويا شخصا مؤثرا، مليئا بالسحر غير أنه كان حازما تماما مع كل الأشخاص. سهل لي مسألة زيارة العديد من مقرات النقابات وبالتالي جعلني أدعى إلى أماكن سكنى بعض المندوبين. كان السود يعيشون في مناطق مغلقة مع وجود الحراس العسكريين عند المداخل فذكريات الماو ماو لا تزال ماثلة في الأذهان، كما أن العوارض الحديدية عند الأبواب والنوافذ في البنايات حيث يعيش البيض لم يتم إزالتها. في الفندق كان علي أن أفك قفل السياج بنفسي كل صباح والسماح للشخص الذي ينظف الحجرة بالدخول. في سايلون كان إيرا موريس قد منحني رسالة لأحد أصدقائه، لكنني حين استفسرت عن الرجل، علمت أنه يوجد بمخيم الاعتقال ببحيرة آتي وكان هناك لسنوات عديدة.

تعد محمية الحيوانات بالقرب من نايروبي فضاءا واسعا مفتوحا للزوار. كان لدي الانطباع المتكرر بأن هذا السيناريو قد تم إعداده سلفا، وبأن الفهود قد تم تدريبها لتعقب الحمير الوحشي بينما أنا أشاهدها، وأن الأسود ترقص دونما اهتمام في العشب حتى ألتقط صورا لها. كان أحمد متأثرا."من الأفضل أن تكون حيوانا على أن تكون إنسانا في كينيا." قال لدليلنا الذي لم ينبس بكلمة نظرا لسواد بشرته.

أذكر أنني انتظرت في مومباسا لما يبدو مدة من الزمن لا تنتهي، بينما كان الجو يشتد حرارة إلى أن بدأت أولى الأمطار الاستوائية بالسقوط. بعد ذلك انهمر المطر وملأ الشوارع. خامرنا الشك بأننا سنتمكن من الحصول على مكان لنا في السفينة. في الأخير تمكننا من حجز قمرة، وأبحرت السفينة إلى زانزيبار. لم نلتق آل فورديس، غير أن مجموعة من الطلبة المسلمين الثوريين تكفلوا بنا وقادونا عبر أرجاء المدينة. قادونا إلى مقرهم حيث أعطونا منشورات تتعلق بحركتهم وحرصوا على نأكل جيدا خلال إقامتنا هناك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت السفينة تتحرك ببطء على امتداد الساحل الإفريقي، وكانت تتوقف تقريبا كل يوم في مرفأ مختلف. كان آل فورديس على متن السفينة. خلال اليومين في كاب تاون زرت مكاتب درام التي يديرها مُلونو كاب للأفارقة. (بعد ذلك في لندن تناولت الغداء مع توم هوبكنسون الذي كان على وشك الرحيل إلى كاب تاون ليصبح محرر المجلة.) عند نهاية الشهر نزلنا في لاس بالماس بجزر الكناري. حينما غادرت السفينة، تسلمت برقية. كانت موقعة من طرف غوردون ساغر وفيها علمت أن جين تعرضت لنوبة صغيرة منذ أسابيع كثيرة وأنها تتعافى حاليا. نظرا لسذاجتي عجزت أن أدرك أن هذه الرسالة ما هي إلا المقدمة لموضوع سيغدو مركزيا في حياتنا. لم أعلم ذلك حينها، غير أن السنوات الجيدة كانت قد ولت إلى الأبد.

17

كان شهر نيسان شهرا عاصفا في طنجة. كانت جين تقيم مع صديق في منزل عتيق ينتصب عاليا على الربى فوق المضيق. لم تكن تبدو مريضة، كما أنها بدت في حال جيدة، بالرغم من أنها كانت تعاني من نوع غريب من داء فقدان الكلام تسبب لها بانتظام في اللجوء إلى نقيض الكلمة التي تقصد استعمالها. بدا الأمر مسليا للجميع - مجرد طابع غريب جميل يضاف إلى شخصية جين الغريبة الأطوار. حكت ما اعتبرته قصة مرجة، كيف أن شخصا ما اتصل بها بالهاتف وطلب الحديث إلي. حينما أخبرته بأنني أوجد في مكان ما في شرق افريقيا، قدم الرجل نفسه قائلا: "أنا آلن غينسبورغ، شاعر البوب." "شاعر ماذا؟" مر بعض الوقت قبل أن تستوعب جين معنى الكلمة. أخيرا قالت: "هكذا إذن."

"بعد ذلك،" استطردت جين، "سألني هذا المجنون إذا كنت أومن بالله." "أتومنين بالله، جين؟" "أنا يقينا لن أناقش الموضوع على الهاتف، "أجبته لكنه لا يزال هنا. إذا ما أردت اللقاء به. إنه يوجد عند بيل بورروز."

لم يمر وقت كبير قبل أن ألتقي فعلا بشاعر البوب؛ كان مع بيتر أورلوفسكي وآلن آنسن، يقيم في فيلا مونيرية، يجمع الأوراق المطبوعة لعمل قيد الإنجاز لبورروز كان مبعثرا على أرضية الغرفة السفلى لبيل خلال هذه الأشهر الماضية. كنتُ غالبا ما أشاهد هذه الأوراق الصفراء المبعثرة على الأرض، وكنت أظن بأنه يقينا يريدها هناك، وإلا لكان التقطها من على الأرض. الآن وصل هؤلاء الثلاثة إلى طنجة وكان الهدف الأساس هو التقاطها. قدرت غينسبورغ لأمانته وتفانيه، غير أن جين وجدته غير حساس ذلك أنه أشار إلى إصابة كارلوس ويليام كارلوس الأخيرة ونتائجها السيئة على قدرته على العمل. ومادام نظر جين قد تأثر بشكل كبير من جراء النزيف الدماغي، فقد كانت قلقة من أن تبرز هذه الأعراض لاحقا. بدا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ضروريا أن تزور طبيبا مختصا في الأعصاب بسرعة، لاكتشاف إذا ما كان لـديها مشكل يمكن أن تعالجه بالجراحة.

ذهبنا إلى لندن وزرنا العديد من الأطباء. تحدث أحـدهم إلى جـين قـائلا: "عزيزتي السيدة بولز عودي إلى منـزلك واعتني بنباتاتك وحاولي التأقلم." كـان ذلك في شهر آب، لكنه شهر بدا كشهر تشرين الثاني حيث يتخلله رذاذ بـارد ومستمر. اشتريت ملابس الشتاء وأخـذت جـين إلى أكسـفورد، إلى مصـحة رادكليف من أجل إجراء الفحوصات الضرورية. كانت الإصابة دقيقة، وبالتـالي فإن العملية مستحيلة. عدنا إلى طنجة وكانت جين في حالة من التـوتر والقلـق الشديدين. والآن كنتيجة لضغط شديد على قشرة الدماغ، أخـذت تعـاني مـن حالات صرع. بقينا فقط لأسبوعين في طنجة وعدنا بسرعة إلى إنجلتـرا حيـث دخلت جين مستشفى في الريف في مكان ما بضاحية الميدلاندس.

ذلك الخريف، إبان وباء لندني، أصبت بالبرد الآسيوي. خلال الأيام التسـعة التي قضيتها في السرير أصبت بحرارة مرتفعة دفعتني إلى كتابة قصـة حـول آثـار مشروب جنوب أمريكي متخيل. كان عنوان القصة "تابياما" وكانت تجربة نوعا ما بالنسبة لي، كونها النص الوحيد الذي كتبته في حياتي والذي يتمحور حول الحمى. في اليوم العاشر، حينما انتهيت من القصة وتم طبعها في نسـختين أبـان مقيـاس الحرارة عن ثمانية وتسعين درجة وستة أعشار. نهضت، لبست ثيابـي واتجهت نحو محل هارود. بعد مرور بضعة ساعات صرت أهذي. في الصباح الموالي وضـعوني على نقالة وأخذوني إلى المستشفى. هجمت الحمى وقضيت أسـبوعين سـيئين في جناحين حيث توجد خمسون حالة أخرى من داء السل، وكنت مريضا بحيـث لم أنتبه إلى خزانات الأوكسجين التي يتم دفعها إلى الداخل أو مشاهدة أولائك الذين يتم دفعهم إلى الخارج بعد أن فشل معهم هذا الإجراء. في الأخير جاءت سـونيا أورويل وأنقذتني وذلك بتخصيص حجرة لي في المستشفى الفرنسـي في شـارع شافتسبوري وأخذتني إلى هناك في سيارة أجرة.

هنا بفضل الطعام الجيد صرت في حال أفضل. حمل لي أنغوس ويلسون ذات يوم حزمة كبيرة من الكتب، وعند نهاية أسبوعين آخرين صرت في حالـة جيـدة بحيث تمكنت من المغادرة. لقد تم الاتفاق على أن نبقى أنا وجين عند سونيا حينما

أغادر المستشفى. هكذا انتقلت إلى منـــزلها في شارع بيرسي بينما كنت أنتظـــر. كنت قد حملت معي إلى إنجلترا ظرفا مليئا بالقصص القصيرة التي لم تنشر بعد على شكل كتاب في المملكة المتحدة. كان ذلك يبدو الوقت المناسب للبحث عن ناشر فسونيا كانت قد ساعدت في الإشراف على نشر كتاب *أفق* لسيريل كونولي قبـــل زواجها من جورج أورويل وكان لديها العديد من الأصدقاء. ضربت لي موعدا مع محرر بدار هاميش هاملتون للنشر. أعطتني رسالة له وأخـــبرتني كيـــف أصـــل إلى المكتب. عن طريق الخطأ ذهبت، ليس إلى دار هاملتون ولكن إلى دارِ هاينمان. لم أكتشف خطئي إلا بعد أن أريت رسالة التقديم إلى الكاتبة في الطـــابق الأرضـــي. نبهت الكاتبة أحدهم في الطابق الثاني، وتم الطلب مني الصعود إلى الأعلى. حينمـــا نـــزلت السلالم، كان الكتاب في ملكية هاينمان. بعد ذلك كان على ســـونيا أن تتصل بهاميش هاملتون وأن تشرح لهم الأمر.

حملت جين أخيرا من المستشفى وأخذنا عطلة قصيرة في منـــزل سونيا قبـــل الإبحار إلى المغرب. كانت حالتها المقلقة قد توقفت مؤقتا، غير أنهـــا اســـتمرت في المعاناة من التشنجات، بما في ذلك نوبة تعرضت لها في الباخرة في اليوم الأول حين مغادرتنا للندن. بقينا فقط شهرين في طنجة، وبعد ذلك، جزئيا لأن الشرطة كانت تقوم بعمليات اعتقال واسعة للمقيمين الأوربيين، بحيث تبعد البعض وتحشر البعض الآخر في السجون، فقد قررنا مغادرة المغرب وعدم العودة حتى يحقق النظام الجديد توازنه.

كان قد تناهى إلى علم جين وجود أطباء جيدين في لشبونة. ذهبنا إلى هنـــاك بالطائرة. كانت المدينة ممطرة ومعتمة يغشاها الزمهرير. قضينا وقتنـــا في الحانـــات الصغيرة الغريبة التي كان يوجد منها عدد كبير وكنا نرتجف كثيرا. في لحظة معينـــة استقللنا مركبة قديمة تنتمي للبريد الملكي في طريقها إلى بوينيس آيريس ونـــــزلنا بفانكال في ماديرا. قضينا حوالي الشهر هناك وكان من الممكن أن نبقى لمدة أطول بالرغم من الأمطار المتواصلة، ذلك أننا أحببنا المكان، غير أن مدة صلاحية جـــواز سفر جين قد انتهت، وأقرب مكان للقيام بالإجراءات اللازمـــة هـــو القنصـــلية الأمريكية في لشبونة. هناك تم إخبارنا بأنه يمكن إصدار جواز سفر جديـــد لجـــين فقط بموافقة المكتب الفيدرالي للتحقيقات. انتظرنا حوالي ثلاثة أسابيع للحصـــول

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على جواب، وحينما تم ذلك، كان الجواب سلبيا. تم إعلام جين بعد ذلك بأنه عليها أن تغادر فورا إلى الولايات المتحدة. كوثيقة كان كل ما لديها الوثيقة التي منحتها لها القنصلية بدل جواز سفرها. بعد أن توصلتُ عبر البرقيات إلى تفاهم مع تينيسي كي يلتقي بها في المطار بنيويورك، وضعت جين على متن الطائرة وهكذا انطلقت نحو الولايات المتحدة. بعد بضعة أسابيع كتبت لي ليبي هولمان بأن محاميها تمكن من حصولها على جواز جديد. كانت هذه بعض المشاكل الإضافية في أحبولة العبث التي تلاحقنا نحن الاثنين كنتيجة لارتباطنا بالحزب الشيوعي الأمريكي في سنة 1938-1939.

لم أبرح البرتغال كل ذلك الربيع. وصل موريس غروس للرسم، فذهبنا بالسيارة إلى ألبوفيرا، مرفأ صيد يخلو من السواح. استأجرنا منزلا لقضاء الصيف هناك. غير أنه على نحو مفاجئ تمكنت ليبي من الاتصال بي عن طريق الهاتف، لتطلب مني العودة إلى نيويورك من أجل إنتاج ييرما. لكن نظرا لأننا كنا قد دفعنا إيجار المنزل في اليوم السابق، فقد تركناه ببعض الأسى والتحسر. أخذني موريس في السيارة إلى لشبونة، إذ لا يرغب في البقاء في المنزل لمفرده. أعطيته مفاتيح شقتي في طنجة، هكذا قضى الصيف في المغرب بدل البرتغال. بامتعاض شديد ذهبت إلى نيويورك.

على الهاتف كانت ليبي قد أخبرتني بأن هناك حاجة ملحة لألحان لروز بامتون التي كانت ستقوم بدور ما، كان إلى حدود آنئذ دورا ثانويا. خلال معظم الأسبوع الذي استغرق عبور المحيط الأطلسي، قضيت وقتي في التنقيب عن وترجمة نص مناسب لغارسيا لوركا، الذي وجدته في أغنيات الغجر.

كان الإعداد للمسرحية جاريا لبعض الأسابيع قبل أن أصل إلى مكان الحدث. بعد وصولي إلى نيويورك بفترة وجيزة، التقيت صدفة بكارل فان فيشتين في الشارع. اتفقنا على اللقاء في اليوم الموالي. خلال الغداء سألني كارل إذا ما ثمة شخص أتحرق شوقا للقائه. "لقائه؟" كررت ثم تساءلت: "ماذا تقصد؟" "أقصد هل هناك شخص ما لا تعرفه وتود التعرف عليه؟" في ليشبونة كنت قد قرأت للتو وتأثرت بمجموعة من القصص القصيرة تحمل عنوان *لون الظلام* كان جيمس لافلين قد أرسلها لي. نطقت باسم الكاتب جيمس بوردي. فصاح كارل، "موعدنا يوم

الأربعاء مساء على الساعة السابعة." ذهبنا وكان بوردي بانتظارنا، رجل متحفظ ومتواضع أحببته للتو. التقط كارل صورا لنا خلال المساء. كانت هذه آخر مرة ألتقيه قبل وفاته.

وُضعت طيارة لنقل طاقم *بيرما* إلى دينفر. فضلت أنا والمخرج، أنغنا انترز، السفر بالقطار، وهكذا سافرنا برا معا. كانت الأوركسترا في دنفر تثير الأسى. بعد ذلك ذهبنا إلى إيتاكا، حيث كان العازفون أفضل حالا دون أن يكونوا في الوضع الذي أرغب فيه. كما العادة، كان الوقت المخصص للتمرن غير كاف، فما يكاد الراقصون والممثلون يسمعون الموسيقيين يشرعون في قراءة أدوارهم حتى يبدأون بالقيام بروتينهم على المنصة. مقابل الفوضى التي واكبت الإنتاج هناك التفاني الشخصي نحو ليبي من طرف الممثلين، غير أن المشروع لم يكن مهيئا تماما للنجاح.

كانت أم جين حاضرة عند افتتاحية المسرحية بايتاكا. تحدثنا عن إيجاد مكان مناسب للراحة حيث يمكن لجين أن تتعافى لبضعة أسابيع. كانت جين تعارض الفكرة تماما؛ من جهة أخرى، غدت أكثر قلقا بسبب الطبيعة الدائمة لمشاكل الكلام لديها. بمستشفى لينوكس هيل كانت تتلقى درس قراءة يومي؛ كانت تجده دون جدوى. قررت أمها في الأخير اللجوء إلى مستشفى نيويورك وهناك قضت جين الأشهر الثلاثة التالية. وكنوع من السلوى بينما أنتظر جين طلب مني جوسي فيرر عن هوليوود كتابة موسيقى إدوين بوث. كان علي السفر على متن الطائرة، ولكن على الأقل هذه المرة تم منحي سريرا فعليا إضافة إلى ملاءات وأغطية (كان هناك سرير آخر مماثل على الطائرة يتمدد فيه هاري بيلافونتي.)

خلال ذلك الشهر في هوليود لاحظت إلى أي حد تغيرت الحياة في الولايات المتحدة، فسلوك الناس لا يشبه ما عهدته على أنه السلوك الأمريكي. شعرت بأنني في خضم ثقافة غرائبية فعلا، وربما واحدة من أكثرها غرابة. وأنا أمشي على طول الشارع توقفت سيارة في جانب الطريق، فنادى الشباب الذين كانوا في داخلها: "أنت! يا رجل! هل لديك دولار للغاز." قلت: "لا متأسف." حدجوني بنظرة غريبة كما لو كنت سلة نفايات وواصلوا السياقة. ذات يوم كان لون الهواء أصفرا لا يمكن استنشاقه. حملت الجرائد عناوين رئيسية حول ظاهرة جديدة، يسمونها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ظاهرة التلوث. يعاد عزف نوتات قديمة من الجاز من العشرينات بإيقاعات مختلفة. لاشك أن الحضارة قد تحولت وراحتت تلتهم ذاتها. ذات ليلة جلست بمكتب لخمسة وأربعين دقيقة أتحدث إلى أوسكار لوفنت؛ في الليلة التالية شاهدت مقابلتنا تذاع على الهواء خلال وجبة صينية في منزل آل غورشوين. كان الحدث مرعبا ومثيرا بالمرة. كان لدي اعتقاد ضمني حينما تم إخباري المرة تلو المرة، بروح تنوس بين الجدية والهزل، بأن لوس أنجلس هي مدينة المستقبل. لم يكن هناك ما يدعو للريبة بهذا الشأن.

حينما عدت إلى نيويورك رافقت غور فيدال إلى منزل شاندلر كولز، وهناك التقيت أُودن مرة أخرى بعد مرور حوالي عقدين من الزمن. كنت عاجزا عن التخمين ما إذا كان قد نسي ظروف لقائنا الأخير حينما انطلق بعنف خارج المنزل في شارع ميداغ في ثورة غضب. كان جاك كيرواك ضمن الضيوف. خلال المساء بالغ جاك في احتساء الجعة. حينما غادرنا أعطاني نسخة ورقية من كتاب *السفالى*، حيث كتب الكلمات التالية: "إلى بول-رجل يخلو تماما من التفاهة." لاحقا حينما غادرت جين المستشفى ورأت الكتاب وما كتب عليه، قالت: "و لكن هل كلهم يمرون عبر مرحلة سيلين، أو ماذا؟"

لم أكد أنا وجين نستقر مرة أخرى في طنجة حتى وصلت برقية شيريل كروفورد الذي كان ينتج مسرحية تنيسي الأخيرة، *عصفور الشباب الحلو*، وكان يرغب في الحصول على موسيقى لها. وافقت على إعداد الموسيقى والتواجد بنيويورك خلال ستة أسابيع. بعد ذلك غرقت في الروتين القديم في طنجة والمتعلق بالبحث عن منزل ناء شيئا ما حيث يمكنني أن أضع بيانو. هذه المرة وجدت شقة صغيرة على سطح إقامة وسط الحي الأوروبي. استأجرت آلة بيانو كانت تحدث أصواتا عالية على الدوام من مخزن محلي وشرعت في العمل. أنجزت معظم الموسيقى قبل أن أستقل الباخرة؛ وما تبقى منها أنجزته في حجرة البالي بباخرة ساتورنيا خلال الليل بعد أن يكون الجميع قد خلد إلى النوم.

وصل الإعداد لمسرحية *عصفور الشباب الحلو* مراحلا متقدمة حينما وصلت إلى فيلادلفيا. كان كازان يرغب فقط في بعض المفاتيح الإضافية لبعض مشاهد بول نيومان. بعد ذاك قمنا بتسجيل الموسيقى. كنت دوما معترضا على فكرة

تسجيل الموسيقى المسرحية أو تضخيمها؛ كنت أرغب بقوة في الأصوات الفعلية التي يحدثها الموسيقيون، غير أنني هذه المرة قررت أن أخوض هذه التجربة وكنت قد أعددت الموسيقى مع الأخذ بعين الاعتبار إمكانية إضافة مكبرات صوتية. كان العرض اللأول في نيويورك خاليا، حمدا لله، من المشاكل الدائمة التي يستحيل تجنبها إذا استعمل المرء موسيقيين مباشرين.

كان كُتاب البِيتز[1] خصوصا بورروز، غينسبورغ، كورسو وكيرواك، يحظون بشعبية كبيرة خلال ذلك الحين. في نيويورك أقمت بشارع ستة وستين مع ليبي، التي ربطت مؤخرا علاقة صداقة مع ثلاثة من الموظفين السامين في القنصلية السوفياتية التي توجد في الجوار. اقترحت إقامة حفل عشاء لجمع الروسيين الثلاث والبيتز. انطلق المساء جميلا بما يكفي حيث وضع الكافيار والفودكا وطابق مليء بالسجائر المحشوة بالماريجوانا على الطاولة أمام المدفأة. (لم يتم الكشف عن حقيقة هذه الأشياء في البداية وتم اكتشافها بجبور من طرف بيتر أورلوفسكي الذي كان آلن قد اصطحبه معه إلى الحفلة.) قدم آلن الصندوق المفتوح إلى الروسيين، شارحا بوضوح محتوياته. بالرغم من أن الروسيين الثلاثة كانوا يشيعون جوا من الهيبة على نحو متساو، فقد تم توكيل أحدهم لاتخاذ القرارات بالنيابة عن الآخرين. أخذ متحدث المجموعة سيجارة وسلها إلى جيبه، قائلا بأنه سيدخنها لاحقا. بعد ذلك قطب جبينه وسأل إذا لم يكن صحيحا أن الماريخوانا غير شرعية. حاول آلن بجدية أن يجعله يفهم أنه تحديدا لهذا السبب من الضروري تدخينها وتشجيع الآخرين على القيام بنفس الشيء. حينما استوعب الرجل الفكرة تماما، تصلب وجهه من التذمر. منذ ذلك الحين، أبدى الديبلوماسيون السوفيات ميولا واضحا للتكتل حول بعضهم البعض.

خلال العشاء جلس الروس الثلاثة على جانب واحد من الطاولة، كما جلس غريغوري، وبيتر قبالتهما، بينما جلست أنا وليبي عند نهايات الطاولة. حالا تلفظ غريغوري بملاحظة عابرة بأن خروتشوف غبي. سأل الناطق الرسمي بسرعة: "لماذا تقول ذلك؟ فنحن لم نقل إن أيزنهاور غبي!" بعد ذلك صرخ آلِن:

---

(1) جيل البيتز: مجموعة من الكتاب الأمريكيين لحقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية تميزت كتاباتهم برفض القيم السائدة سواء على مستوى الإبداع أو المعيش اليومي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

"عليكم أن تقولوا ذلك، لأنه فعلا كذلك، فكلاهما غبـــي. لماذا لا يجب علينـــا أن نقول ذلك إذا كان الأمر صحيحا؟"

دون أن ينبسوا بكلمة واحدة، نهض الروس الثلاثة بهدوء وانصرفوا خـــارج الغرفة، بينما تحولت تعابير ليبـــي ببطئ من الاكتئاب إلى الخوف. بعد مرور دقيقة أو دقيقتين عادوا، ظاهريا بعد أن توصلوا إلى قرار بشأن المخطط الذي سيتبعونه في ضوء هذه الظروف العصيبة على نحو غير مسبوق. منذئذ وجه المتحـــدث عنايتـــه بشكل حصري إلى ليبـــي، في محاولة للحيلولة دون تولي الشعراء دفة الحديث. في غرفة الموسيقى بعد العشاء وقف الثلاثة يحتسون القهوة بينما كان آلن يستقصـــي الحدود القصوى لتحملهم، وذلك أولا بتلميحات صوتية واضحة يمكن اعتبارهـــا ذات طبيعة جنسية، وبعد ذلك بواسطة لمسهم فعلا. فجأة غادر الثلاثة، وكانوا في ضيق شديد. بعد مدة قصيرة تم طرد المتحدث وأحد مرافقيه من الولايات المتحـــدة كأشخاص غير مرغوب فيهم.

كانت بيغي غلانفيل هيكس لا تزال تقوم بحملة لمساعدتي على الحصول على منحة روكفيلر لتسجيل الموسيقى المغربية. منذ خمسة وعشرين سنة خلت كنت قد قدمت طلبا إلى مؤسسة غوغنهايم للحصول على منحة للقيام بنفس المشروع، لكن دون جدوى. فلا أحد كان مهتما باكتشاف أي نوع من الموسيقى يمكن ان توجد في هذا الجزء من العالم. على العكس هذه المرة كان هناك اهتمام كاف لجعل أمـــر المنحة ممكنا. ذهبت إلى واشنطن للقاء أشخاص في مصـــلحة الموســـيقى بمكتبـــة الكونغرس (ذلك أن أي مادة أحصل عليها لمؤسسة روكفيلر فإن مصيرها سيكون هو الأرشيف هناك.) كما تعلمت كيفية استعمال والعناية بآلة الآمبيكس الضخمة التي سيرسلونها لي عبر السفارة الأمريكية في الرباط.

بعد ذلك استقللت باخرة كونت بيانكامانو العتيقة التي كانت تصدر صريرا وأبحرت باتجاه لشبونة. من هناك ذهبت إلى ماديرا لفترة من الوقت ذلك أنني كنت أعد مقالا حول الجزيرة لمجلة هوليداي. حينما غادرت نيويورك، كـــان تينيســـي ويليامز رفقة كينيت تينان في هافانا. وعندما وصلت إلى طنجة، وجدته هناك مـــع جين واقفا على ظهر السفينة يلوح بيديه بينما العبارة تدخل المرفأ. بـــدت جـــين بصحة جيدة، بالرغم من أنها لا تزال تأخذ أدويتها بشكل كثيف. قضيت شـــهرا

معها قبل أن يحين موعد الانطلاق إلى الرباط للحصول على الوثائق اللازمة من المغاربة. كانت عدم رغبتهم في التعاون عائقا أمام انطلاق المشروع، فقد كانوا يعترضون على منحي أية رخصة يمكنني استعمالها للتعامل مع السلطات المحلية. المشكل هو أنه لم يكن يوجد حينها أي موقف رسمي بشأن الثقافة المغربية عموما، فلكل شخص آراؤه الخاصة، لكن لا أحد يشعر بأنه مؤهل لتقديم صياغة نهائية.

بعد عودة محمد الخامس إلى العرش، تم تكليف موسيقيي المغرب، الذين تم إدراجهم تحت رعاية وزارة الشباب والرياضة، لتأليف أغاني جديدة تحتفي باستقلال البلاد. تجلى الرد في المئات من الأعمال في العشرات من الأجناس والعديد من اللغات. لم يكن الأمر صعبا، ذلك أنهم كانوا يستعملون كلمات جديدة في قالب ألحان قديمة. كانت هناك مادة وافرة للتسجيل في كل أنحاء البلد.

أبدى كريستوفر وانكلين، كندي قضى خمسة سنوات في طنجة، موافقته للذهاب معي في رحلة ميدانية أولية ستستغرق ستة أسابيع. إذا ما مرت الأمور على خير، فإنه سيبقى معي حتى اكتمال المشروع. كان هناك شخص جبلي في طنجة يدعى محمد العربي الجيلالي ذهب في وقت ما في بعثة بريطانية عبر الصحراء والسودان. ظهر كتاب بعد تلك الرحلة حيث يظهر محمد العربي. طلبت منه أن يرافقنا في الرحلة. كان كريستوفر يتحدث لهجة مغربية جيدة غير أنه كان نصرانيا. من الأفضل دائما أن يكون مرافقك شخصا مسلما حيثما ذهبت في المغرب.

بعد أسبوعين من التعثر وحالة الركود وجدت حلا لمشاكلي. كتبت رسالة قصيرة أشرح فيها المشروع، قائلا بأن الحكومة الأمريكية تدعمه، وبأننا في حاجة لأية مساعدة ضرورية من المسؤولين المحليين. وجدت موظفا حكوميا متعاطفا مستعدا لإعادة طبع النص على ورق رسمي وتوقيعه وختمه. كما أرفقت صورتي بالوثيقة المفبركة. تم إنجاز كل هذا بمساعدة الزيارات المتكررة إلى السفارة من أجل المشورة. تبدت الوثيقة حينما تم الانتهاء من إعدادها وثيقة دقيقة ومؤثرة إلى حد ما، فألصقتها بجواز سفري.

بروح عالية انطلقنا في رحلتنا عبر الجبال والصحراء. كان الجو صيفا؛ كنا نعلم بأنها لن تمطر وأنه ستكون هناك ليال عديدة حيث النار موقظة والطبول تقرع تحت النجوم. لم نكن نعلم بأننا سنجد أماكن قليلة نسبيا حيث يمكننا أن نسجل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الموسيقى. كانت الموسيقى هناك، لكن نظرا لمجموعة من الأسباب فقد تعذر تسجيلها.

كلما وصلنا إلى بلدة شهيرة بكونها مركزا لمنطقة غنية بتراثها الموسيقي فإننا نقدم وثائقنا إلى القائد الأعلى للمنطقة. إذا أبدى شعورا بالود والتعاطف، فيمكننا الاعتماد على تعاونه وكنا نجد أماكنا للإقامة. عادة بعد أن نكون قد استقررنا نباشر التقصي حول الإمكانيات الكهربائية للمكان إذ يلزم تشغيل آلة الآمبيكس 110 فولت AC و لم تكن تتوفر على أية بطاريات. غالبا كنا نكتشف أن إما التيار أو درجة الكهرباء غير مناسبة، وهكذا يكون علينا مواصلة الرحلة في اليوم الموالي دون تسجيل أي شيء. في منطقة تامنار كان المولد الوحيد الذي يوفر ما نحتاجه في ملكية رجل فرنسي لم يكن وديا وهكذا رفض حتى السماح لنا باستعماله. كان علينا العودة إلى الصويرة والانتظار لثلاثة أيام تحميل الموسيقيين إلينا بواسطة شاحنة. أحيانا نُجابَه بالرفض من الموظف حينما نقدم وثائقنا فلا يكون من سبيل أمامنا سوى مغادرة المنطقة. يبدو أن هؤلاء الأشخاص يعتبروننا جزءا من مؤامرة تهدف إلى تقديم المغرب كبلد متخلف، بلد من المتوحشين. فهم من استعمل عبارة موسيقى المتوحشين، وما دام شعورهم كذلك، فكان متوقعا أن يعتبروا أن من واجبهم الوطني أن يحرصوا حتى لا تصل الأصوات المخجلة التي يصنعها أبناء بلدهم إلى آذان الغرباء. الاستثناء الوحيد لهذا الموقف العام هو الموسيقى الأندلسية. كلما كان الموقف كذلك، كنا نغادر المنطقة بسرعة ونذهب إلى مكان آخر.

غادرنا محمد العربي خلال الرحلة الميدانية الثالثة وأسرع إلى طنجة للقاء زوجته. يبدو أنها لم تعد تتحمل غيابه لفترات طويلة من الزمن، غير أن كريستوفر بقي معي حتى النهاية. وبعد ذلك كنا نقوم لسنوات عديدة برحلات معا إلى أعماق الجنوب، حاملين معنا تجهيزات يمكننا تدبرها أكثر (التي غدت معروضة في الأسواق منذئذ) لتسجيل بعض الموسيقى التي لم نتمكن من تسجيلها بواسطة أمبيكس في السابق. في الأخير أنتجت مجموعة من هذه الشرائط، ولكن بالرغم من أن مكتبة الكونغرس كانت تعتزم منذ سنة 1959 إصدار بعض ما سجلته، فإن ميزانية ضعيفة أحالت تلك الموسيقى جزءا من الأرشيف.

قضيت أنا وجين معظم السنة التالية في طنجة ونحن نشاهد المدينة تفقد تدريجيا طابعها الأوربي. بالرغم من أنها صارت تحت الرقابة السياسية المباشرة للرباط بعد عودة السلطان، فقد سمح لها أن تحافظ على طابعها إلى نيسان من سنة 1960. أتاح هذا التأخير للأوربين المحليين الوقت لإنهاء أعمالهم ومغادرة البلاد دون خسائر كبيرة. حينما تنتهي المذكرة، فإن ميزانية طنجة ستخضع لنفس المراقبة شأنها شأن أي مدينة مغربية أخرى. كان هنالك الكثير من التخمين الفج والقلق المجاني وسط الأوربيين بشأن مستقبلهم. أغلبنا وافق على أنه في الأخير سيتم إجبارنا على المغادرة، لكن السؤال الذي بقي عالقا هو الوقت المتبقي لنا.

حينما صدرت *السماء الواقية* لأول مرة، تناهى إلى سمعي، بشكل موارب، بأن باربارا هوتن وجدتها حقيرة و"لا تريدها في الدار." بدا هذا رد فعل غريب من امراة تزوجت لخمس مرات وكانت على وشك أن تصير زوجة بورفيريو روبيروزا. حينما التقيتها، فهمت كل شيء. كانت ترغب في أن يتضمن كل شيء من حولها عنصرا من اللاواقعي، وقد جاهدت كثيرا لتحويل الواقع إلى فانطازيا متواصلة تبدو بالنسبة لها أخاذة كفاية لكي يتم التعامل معها بجدية. ذات صيف حينما قدمت حفلا استقدمت ثلاثين من سائسي جمال ركْيبات مع جمالهم المخصصة للسباق من الصحراء لمسافة ألف ميل، فقط ليشكلوا حرس الشرف للضيوف الذين سيمرون عبر مدخل المنزل. أقام الرجال خيامهم وعقلوا جمالهم في ساحة سيدي حسني لأيام عديدة بعد انتهاء الحفل. يبدو أنهم لا يستعجلون العودة إلى الصحراء.

تلك السنة كنت منشغلا بكتابة المقالات، وخلال الليل، بعد أن تكون جين والخادمات قد خلدن إلى النوم، كنت أجد متعة في كتابة قصص حول المغاربة. تكمن المتعة في ابتكار عقدة جديدة وإيجاد طريق لحلها. المشكل الذي أضعه لنفسي لايبدو مختلفا عن المشكل الذي يصفه رايموند روسل في مؤلفه *كيف كتبت بعضا من كتبي*. دعونا نقول بأنني أبدأ بأربعة أجزاء مختلفة – حكايات، استشهادات، أو جمل بسيطة مقتطفة من سياقها – مأخوذة من مصادر منفصلة وتتضمن، ضمن أشياء أخرى، مجموعة مختلفة تماما من الشخصيات تتحدد المهمة بابتكار لحمة سردية رابطة بينها ستجعل من كل العناصر الأصلية الأربعة مدعمة بشكل متساو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

للبناء الناتج. بدا لي أن موضوع تدخين الكيف، بعيدا تماما عن الحد المرغوب فيه للامكانيات التي يتيحها، سيوفر لحمة فعالة سيتم بواسطتها ربط الأجزاء المختلفة. باستعمال محفزات يتم اثارتها بالكيف، يمكن جعل الاعتباطي عاديا، العناصر المختلفة يمكن صبها في قالب، ويمكن للعديد من الشخوص أن تغدو آليا شخصا واحدا. أنجزت أربعا من هذه الحكايات، وبعد ذلك نفذت المادة. أصدرها لورنس فيرلينغيتي، الذي كان هنا في طنجة لمدة وجيزة بينما كنت منشغلا بكتابتها، بسدار سيتي لايتس تحت عنوان *مائة جمل في الباحة*. كان قد وضع غلافا للكتاب، غير أنني رغبت كثيرا في وضع صورة فوتغرافية بدل لوحة للغلاف. أخذت سلسلة من الصور لغليون الكيف مع مجموعة متنوعة من الخلفيات وأرسلتها إليه فورا، آملا أن يقتنع بإحداث التعديل المأمول. كان جوابه: "صور السوق" (لعب على كلمات عنواني: أسواق طنجة.) استعمل صورة لغليون من مراكش، وآخر من تطوان، وحصير نخيل من الريصاني.

حوالي الميل أسفل التل حيث أعيش كان هناك شاطئ صغير تحده حواف عالية عند كل جهة، يعرف باسم مركالا. خلال تلك السنة كنت غالبا ما أتمشى خلال ساعات الزوال عبر قرية عَين حياني إلى الساحل، أسير على طول الشريط الرملي المهجور من جانب لآخر، أتشمس قليلا وأعب هواء البحر لساعة قبل الشروع في العودة. كان هنالك مطعم يطل على الشاطئ، غير أن الشخص المغربي الذي يمتلك المكان كان قد أغلقه. يعيش حارس هناك؛ أحيانا خلال الغسق كنت أرى قدر الفحم يشع خارج المدخل. ذات يوم نادى علي الحارس، هكذا بدأنا علاقة أضافت في الأخير بعدا جديدا تماما لتجربتي الإبداعية. كان الحارس قد غادر السجن مؤخرا، ونظر لكونه ذي طبيعة انطوائية، فإنه يعتبر نفسه نموذجا ما للشخص المنبوذ اجتماعيا. لاشك أن هذا هو السبب الذي جعله قانعا بعمل يعزله شهرا بعد شهر على ذلك الشريط المعزول من الشاطئ فتآلف مع وحدته وصاغها محارة. كانت بعض الحكايات التي يرويها عن حياته ذات تأثير عميق علي، ليس بسبب محتواها غير العادي، ولكن بسبب طريقته في الحكي. كان حسه الخطابي فوق العادة، فقد كان يعرف أية دقائق أو تفاصيل يضمنها حكاياته لبلوغ حكاية كاملة مقنعة.

خلال فصل الربيع استأجرت أنا وكريستوفر وانكلين منزلا في مراكش ووضعنا فيه ما يلزم من أثاث مغربي أساسي. كان البيت عبارة عن علية واسعة إلى حد ما تشرف على أسواق المدينة، غير أنها كانت تنقسم إلى ست أو سبع غرف. كان هنالك سطح واسع حيث كان ممتعا بسط حصائر من القصب الكبيرة إضافة إلى وسائد والتمدد هناك لتأمل النجوم. بدأت المغامرة كنزق متبادل، غير أن كريستوفر قرر دون تردد بأنه يفضل العيش هنا على الإقامة في طنجة، وهكذا صارت منزله الخاص.

حينما أطل الصيف، أعلن بيل بورزر أن آلان غينسيوزغ وغريغوري كورسو سيصلان قريبا إلى طنجة. في العشية التي وصلا فيها كان هناك اجتماع مطول في الحديقة الصغيرة لفيلا مونيرية تم تخليده بالتقاط العديد من الصور. بعد ذلك، ولأن الإقامة في المونيرية تكلف الكثير من المال، فإنهم انتقلوا أسفل الشارع إلى فندق أصغر يسمى الأرمور ووجدوا شقة شاعرية جدا تطل على المرفأ.

وصل تيموتي ليري إلى طنجة. كان لا يزال يدرس بهارفارد، وبينما كان هنالك، جعل بيل بورروز يوافق على البقاء معه بكامبريدج لاحقا ومساعدته بتجاربه الخاصة. التقيت به في ورشة أحمد اليعقوبي بين الأقنعة والنارجيلات. حينما غادر، أعطاني زجاجة هي عبارة عن كابسولات من صنع ساندوز لم أحاول أبدا تجريبها. بعد ذلك غادر بيل نحو ماساشوسيتس، غير أن إقامته في منزل ليري لم تدم أكثر من شهر. بعد حين عاد إلى طنجة، وقد لاحظ مرة بأن ليري كان أكثر الأشخاص "لاعلمية" الذين صادفهم في حياته.

خلال السنة أو السنتين التي عاشها بيل في باريس فيما يحال إليه على أنه فندق البيتز بالشارع التاسع بحي لوكور (حيث كان براين جيسين يقيم أيضا،) صار يعتقد اعتقادا تاما بنصيحة براين بأن النثر يجب تقطيعه ثم إعادة ترتيبه بطريقة اعتباطية. كانا قد بلورا معا طرقا متعددة للقيام بذلك، وكانت إحدى طرق بيل المفضلة تتمثل في تسجيل نفسه وهو يقرأ باعتباط من مجلات وجرائد وكتب، ثم يقوم بإرجاع الشريط إلى الخلف والأمام، واضعا مواد جديدة حيث يتوقف الشريط ويواصل عمله حتى يتم "تقطيع" كل الجمل. ذات ليلة جاء وقدم استعراضا أمامي، مستعملا مادة القراءة الموجودة في الغرفة. في النهاية حينما قام بتشغيل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشريط مرة أخرى، بدا أن الشريط لا يزال يحمل بصمات نثر ويليام بوروز دون سواه. (حينما أعربت عن شكوكي إزاء صلاحية استعمال طريقة التقطيع في الكتابة الإبداعية كان جوابه بأنها تصير "بين يدي معلم" تقنية صالحة.)

بعد ان عاد من مدة إقامته مع تيم ليري، أخذ شقة في سطح ما كان سابقا مركز البورصة بطنجة، التي استخدمت منذ الاستقلال كمركز لليانصيب. كانت الجدران غالبا من الزجاج تماما، غير أنه كان للمكان قدر محدد من الخصوصية الحميمية حيث لا يوجد بالجوار أي شيء يمكن أن يحجب الرؤية. طور بيل طرقه الشخصية في الكتابة. على الجدران كان يعلق رفوفا عريضة على طول مناسب للكتابة في وضع وقوف؛ على هذه الرفوف بسط مجموعة من مذكراته، مملوءة بالقصاصات، الرسائل، الصور، مقاطع مكتوبة بخط عادي وبطائق بريدية. كانت هذه الأشتات تشكل مادة كتابته، وكان ينتقل من مذكرة إلى أخرى، يلتقط جملة من هنا وجملة من هناك، ثم يستعملها حرفيا أو بعد أن يخضعها إلى إحدى طرقه التقطيعية.

خلال هذه الأثناء توصلت بمراسلة من مجلة تسمى *المجئ الثاني* يطلب أصحابها مادة للنشر. فكرت أن أستعمل إحدى الحكايات التي رواها لي العربي، الحارس بميركالا، وأن أترجمها لهم. طلبت من العربي أن يسجل ذكرياته عن السجن. حينما تمت ترجمة النص إلى الإنجليزية، أرسلته إلى المجلة. فورا وصل شيك المكافأة المالية. أظن أن العربي لم يكن يومن فعلا أنه من الممكن أن تكون هناك مكافأة مالية مقابل ذلك "العمل،" لكن حينما أمسك المال بين يديه، صار يرغب بشدة في مواصلة التسجيل. هكذا عاد إلى مراحل صباه المبكرة، وروى جزءا منها، أصدرته لاحقا مجلة إيفر غرين ريفيو. بعد حين كنا نعمل تقريبا كل يوم. على أساس الأجزاء التي قرأوها، تعاقدت معنا دار غروف بريس لنشر كتاب. عند لحظة ما فكر ريتشارد سيفر بتقديم الجزء على أنه رواية بدل حكاية واقعية حتى يكون مقبولا للجائزة التي تمنح كل سنة من طرف مجموعة دولية من الناشرين، تعد غروف أحد أعضائها. خلال الاقتراع لم يتراجع كتاب العربي سوى أمام كتاب جورج سيمبرون *السفر الطويل*، غير أنها حينما طبعت، حققت مبيعات في العديد من اللغات وصدرت بسرعة في طبعات من الورق في كل من أمريكا والمملكة

المتحدة، والنتيجة هي أن العربي كسب ما يكفي من المال ليبحث لنفسه عن زوجة.

أراد ألان غينسبورغ أن يزور مراكش. هكذا استقللنا القطار معا ذات يوم، ووصلنا في المساء. حين وصولنا إلى جامع الفناء، شد انتباهي من خلال الحركة غير العادية أن شيئا ما ليس على ما يرام. خلال اليوم كانت الجهة الجنوبية بكاملها من الأسواق تلتهمها النيران، مدمرة ما بين أربعة مائة وخمسة مائة بازار. ذهبنا إلى المنزل ووقفنا في السطح نشاهد الباعة وهم ينقلون السلع المدمرة من الدكاكين إلى الشارع. في الهواء لا تزال رائحة الصوف المحترق عالقة. هكذا لم يتمكن آلن من مشاهدة مراكش بينما كانت جميلة، وقد تخلف عن ذلك بيوم واحد فقط. حينما أعيد بناء الجزء المدمر، تم استعمال مواد بناء أوربية فمنحت للمكان أثرا حديثا أثار اعجاب المغاربة، فهم دائما سعداء إذا ما كان هنالك شيء عتيق يمكن جعله يبدو كما لو دشن فقط البارحة.

بُعيد عودتي إلى طنجة وصل تينيسي. بالإمكان مشاهدته رفقة جين كل يوم بفندق سان بيتش في جو من الكراسي والمناشيف وكؤوس الخمر. غير أن صحة جين تعرضت لانتكاسة أخرى. هكذا كان لزاما أن تخضع لعمليتين جراحيتين خلال بضعة أشهر، حيث كانت العملية الثانية لاستئصال فتق تطور كنتيجة للعملية الأولى. غدت نحيفة جدا وكانت عرضة لنوبات من الأرق. كانت عوالمنا المشتركة تتمحور حول موضوع حالة صحتها السيئة، فكل أسبوع كان يشهد تطور عرض جديد يضاف إلى الأعراض القديمة. بات أفق مرضها يتسع رويدا رويدا. كان يلزم الكثير من الوقت لاستنتاج بأن حياتي تعرضت لتغير كبير؛ ففعل العيش الذي كان ممتعا، تحول خلال لحظة معينة وفي غفلة مني إلى نوع مختلف من التجارب، تجارب أصبحت معتادا على كآبتها بحيث أخذها الآن مأخذ المسلمات.

ذات مساء اتصل بي رجل إنجليزي يدعي بيتر أووين رفقة زوجته. كانا يبحثان، كما قالا، عن مخطوط قابل للنشر. كانت المادة الوحيدة التي توجد رهن يدي كتاب عن الرحلات التي قمت بها. كان أووين متحمسا للفكرة ووافق على نشر الكتاب، بما فيه الصور التي كنت قد التقطتها في الصحراء وفي المغرب وسايلان. كانت المقالات قد نشرت في مجلات، غير أنني أعدت صياغتها وأضفت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وصفا لعملية جمع الموسيقى في الريف بالمغرب. حينما أرسلت المجموعة إلى أووين، أرسلت نسخة إلى دار راندوم للنشر، مضمنا ذلك مجموعة مختلفة من الصور، صدرت الطبعتان من *رؤوسهم خضراء* في نيويورك ولندن تقريبا في نفس الوقت.

يعد الفصل الجاف في المغرب من الروعة بحيث أنني أكره دائما أن أقضيه بين جدران شقة في المدينة. كنت أريد الذهاب إلى حيث يمكنني سماع صوت الزيز والريح وهي تخترق الأشجار. في سنة 1962 كان عدد المستأجرين قليلا في طنجة. يمكنك متى شئت أن تستأجر منزلا للصيف. كل سنة حينما يحل شهر أيار، أشرع في البحث عن المكان المثالي لقضاء الأشهر القليلة القادمة. في تلك السنة عثرت على منزل متداع على الجبل القديم، على مسافة قليلة من الطريق، بين قمة هضبة وبعض أشجار السرو العتيقة. كانت بعض الغرف فارغة، بينما الغرف الأخرى مملوءة ببعض قطع الأثاث العتيقة تكلست لعقود من الزمن. كانت مكانا جيدا في أيام الصيف حيث يمكنني أن أستلقي وأصغي لسقسقة الطيور والجناذيب. كانت الغرفة واسعة؛ وضعت حصائر القصب على الأرض وراكمت الوسائد على طول الجدران. غير أن المكان لم يكن مناسبا للنوم؛ كنا نأتي في نزهات لتناول الغداء هناك، وقد صارت هذه النزهات مطولة حينما استنتجت الخادمات بأن المنزل القديم يحتوي على مطبخ وفرن. تحب النساء المغربيات أن يكن جزءا من النزهة، خصوصا إذا تضمنت إشعال نار والقيام بإعداد الوجبات. أما النزهة حيث تقدم فقط وجبات خفيفة فتفاجئهم كعملية عادية جدا يمكن تفسيرها بالكسل المسيحي.

توصلت برسالة من تينيسي يطلب مني فيها أن أجد له منزلا في حدود مسافة مشي إلى الشاطئ وأن أستأجره لثلاثة أشهر باسمه. جاء لكنه لم يكن في وضع يسمح له بالبقاء. بعد ذلك انطلق إلى سبوليتو لتجريب مسرحيته الحالية *لم يعد قطار الحليب يتوقف هنا*. بعد ذلك عاد مرة أخرى ليمكث مرة أخرى لفترة وجيزة. ولعل نزاعا مع صاحب المنزل حول فاتورة الكهرباء ألقى بظلاله على هذه الرحلة فاضطر إلى العدول عن البقاء للفترة المقررة. أدى الواجب في الأخير ثم حزم حقائبه وغادر نحو نيويورك.

بالرغم من أن أم جين كانت قد زارتها في أكثر من مناسبة في طنجة، فإنها بين الحين والآخر تقوم بحملة قوية لكي تقوم جين برد الزيارة. كما أن والدي كانا

يلمحان باستمرار إلى رحلة أمريكية يفترض بي أن أقوم بها وشيكا. تحت وطأة كل هذه الدعاية، قمنا بتقصي كل مواعيد رحلات البواخر وبعد ذلك اقتنينا تذاكر السفر. في أوائل أيلول ذهبنا إلى إسبانيا لبضعة أيام للمكوث مع أحد معارف جين، وبعد ذلك أبحرنا نحو نيويورك. بدا والدي أصغر سنا مما كنت أذكر؛ كانوا سعداء خصوصا بالعدد الكبير من الطيور في المنطقة. في الصباح الباكر كانت أصوات الطيور فوق العادة. مستلقيا هناك في السرير، كنت أشعر بأنني عدت إلى سايلان بدل فلوريدا.

بلغت الأزمة حول الصواريخ الروسية في كوبا ذروتها خلال الأسبوعين التي قضيتها معهم. قالت أمي: "سنكون أولى الضحايا." وبعد ذلك أعادت على أسماعنا ما كانت غالبا تقوله حينما تكون الظروف العامة سيئة: "كل ما يمكنني أن أقوله، هو أنني أشعر بالأسى والحسرة على شباب اليوم. أي فرص لديهم؟ إنهم يهزمون قبل أن يبدأوا حياتهم."

دأبت على اعتبار والدي معينا لا ينضب إلى حد ما من المعلومات والحكايات بخصوص السنوات الأولى من حياتهم، وتقاليد العائلة، والتقاليد الشعبية في نيوإنجلترا. الآن اكتشفت أنهم لم يعودوا يذكرون الكثير من هذه الأشياء. كان محزنا ومربكا حقا التفكير بأنني صرت الخزان الوحيد لذكريات كنا في وقت ما نشتركها معا. غادرت وقد بت أكثر جدية من جراء إقامتي معهم، وهكذا التزمت بأن أعود في أقرب وقت ممكن – ربما في السنة القادمة.

وضعت جين على متن سفينة متوجهة إلى جبل طارق ذلك أنني توقعت أن أكون مشغولا وخطر لي أن تركها لبرامجها الخاصة في نيويورك سيكون أمرا سيئا. كان تينيسي قد طلب مني وضع موسيقى لمسرحيته الجديدة، *لم يعد قطار الحليب يتوقف هنا*، بعد أن تم تقديم عرضها التجريبي في سبوليتو. لم يكن فرجيل تومسون متواجدا في نيويورك، وقد كنت أعد لإقامتي في شقته في فندق تشيلي، حيث وضعت أغلب الموسيقى. لشد ما تفاجأت حينما التقيت بمحض الصدفة بآرتر. س. كلارك في المصعد هناك؛ آخر مرة التقيت به كان ذلك حينما كان مرتديا آليات الغطس على القارب في توبربان. كانت لديه غرفة في الطابق الأعلى، وزودني بكل المعلومات المتعلقة بسايلون. انطلقت مسرحية *قطار الحليب* بنيوهافن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ثم تواصل عرضها ببوسطن قبل أن تأتي إلى نيويورك. ولكن ما دامت الموسيقى قد سجلت مسبقا فلم تكن هناك حاجة لذهابـــي أبعد من نيوهافن.

لم يعد ما يدعو لبقائي في نيويورك، وهكذا اقتنيت تذكرة سفر علـــى مـــتن الباخرة الأولى المتوجهة إلى طنجة. حينما عدت إلى المغرب كانت هناك فيضانات كارثية في كل مكان. كان الطقس سيئا على ضفتي المحيط الأطلسي ذلك الشـــتاء. كتبت لي أمي أن الصقيع قد أتلف حديقتها في فلوريدا و لم تسلم حتى الأشـــجار الكبيرة.

في الخريف حدثت سلسلة من المعارك على الحدود بين المغرب والجزائـــر، في نـــزاع لم ينته بعد. كان البلد برمته منتشيا حينما قامت مجموعة من الفلاحين غير المسلحين في قرية عين شواطر باعتقال أربعة موظفين عسكريين مصريين في طيارة وتسليمهم إلى الحكومة. نظرا للحادث تم سحب الموسيقى المصرية مـــن بـــرامج الإذاعة المغربية، الشيء الذي اعتبرته أمرا رائعا، ذلك أن هذا اللون الـــرديء مـــن الأغاني المصرية كان قد غمر البلد لمدة طويلة. لسوء الحظ كان المغاربة على أهبـــة الاستعداد لمواجهة الوضع، ذلك أن ما قاموا به هو مجرد مضاعفة جهودهم لتحسين منتوجهم الاستهلاكي الخاص. ولكن ما دام أن مفهـــومهم الوحيـــد للموســـيقى الشعبية يتمثل في الموسيقى الشعبية المصرية، فقد حاكوا الغناء المصري، وكان هذا أسوء حتى من النسخة الأصلية. لاحقا، حينما تم رفع الحظر، كان، على نحـــو لا يصدق، شيء من الارتياح أنني أنصت مرة أخرى إلى الموسيقى الحقيقية، لكل من عبد الوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش على وجهها الصحيح.

لعل ما يسمى بالحرب كانت تجري في أقصى شرق وجنوب المغرب. كنـــا نرغب بشدة في قضاء بعض الوقت في الجنوب، (أغلب سكان طنجـــة يشـــعرون بانتظام بضرورة الذهاب إلى الصحراء، ذلك أن الجفاف المفاجئ للهواء هو بمثابـــة بلسم.) أخذنا كريستوفر وانكلين بسيارته أنا وجين إلى تافراوت، حيث تمكنا من تسجيل أحواش، لكن دون أن نتمكن من تسجيل حيوانات ابن آوى التي كانـــت تعوي أسفل مرتفعات الأطلس الصغير كل ليلة. كان تسجيلها ســـيكون حـــدثا رائعا. حوالي الواحدة والنصف ليلا يصل قطيع قوي من ابن آوى، حوالي الثلاثين، أسفل السهل فيتجاوزون الفندق في طريقهم إلى الســـوق، حيـــث ينخرطـــون في

معركة شرسة مع الكلاب المحلية. لم يكن هنالك سبيل ما لتسجيل زياراتها الليلية، ذلك أن المولد الكهربائي كان يتوقف دائما على الساعة العاشرة والنصف ليلا.

بعد مرور أسبوعين أرادت جين العودة إلى طنجة. عدنا أولا إلى مراكش، عبر جبال الأطلس الكبير. ذات ليلة باردة بينما كان شاغلنا الأساسي الحصول على وجبة ساخنة، ذهبنا إلى منزل كريستوفر ووجدنا أن بوجمعة، استعدادا لوصولنا، أعد الغداء على الفرن. بعد قليل أتى، متحمسا للحديث، وأخبرنا أن الرئيس كيندي قد مات. نظرا لأنني أعرف شخصية بوجمعة، فقد اعتبرت أن هذا الخبر مجرد دعابة من دعاباته المركبة، خصوصا حينما حدد أن الموت كان بسبب جروح تسبب فيها اطلاق الرصاص. بدا هذا الخبر مغربيا بامتياز بحيث يمكن أن يكون أي شيء آخر ماعدا مبتكرا. بوجمعة (يعرف أيضا بصاحب الجماعة.) كان يميل إلى التنجيم، وقام بذلك تلك الليلة. بمرارة شخصية، كما لو أن لنا يدا في اغتيال كيندي، حذرنا أنه نتيجة لذلك فإن الأمريكيين سيشاهدون أمريكا تتداعى وتتغير معالمها إلى أن تغدو أمنيتهم الوحيدة أن يكونوا مواطنين في أي بلد آخر في العالم. من جهتنا كنا نلح: "و لكن لماذا؟" فيخبرنا: "ذلك لأنهم سيرغبون في مواصلة العيش. وفي الولايات المتحدة سيكون هناك فقط الموت." لم نبتهج لسماع هذه الكلمات، غير أننا كنا نهز رؤوسنا علامة الموافقة ونقول: "ممكن، ممكن." منذ ذلك الحين كان بوجمعة كلما التقانا، إلا ويذكرنا بذلك المساء، "و كلماتي حول بدلكم، هل هي صحيحة؟"

خلال الشتاء شرعت في كتابة رواية عزمت على جعل كتابتها مصدرا ممتعا تماما لقضاء الوقت. حاولت إعادة الإمساك بالحالة الذهنية التي أنتجت الحكايات المشوقة التي كنت قد قرأتها على طلبة الصف السابع في المدرسة الابتدائية، لاكتشاف أي نتيجة يمكن الآن أن تحدثها نقطة الانطلاق تلك. نجحت الخطة. انخرطت في بلورة الحكاية بسرعة إلى حد ما وعلمت بأنني سأنهي الكتاب. تفجر الربيع في الأرض، أردت أن أنأى بنفسي عن البشر، وعن ضوضائهم، وأن أتجول بحرية في الريف المنبسط والانشغال بالكتابة.

وجدت المنزل المناسب على حافة تل يطل على البحر، على علو أربعة مائة قدم، وعلى امتداد خمسة وعشرين هكتارا من الأراضي الغابوية. لمدة ستة أشهر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كنت أتجول على طول الطرق أحمل كتاب ملاحظات، أكتب وأنا أمشي. كانت جين تصل منتصف النهار مصحوبة بالخادمات اللواتي ينصرفن إلى المطبخ لإعداد الغداء. غالبا ما كان براين جيسين يصل في الليل، حاملا معه طباخيه الاثنين، صلاح والترغيستي. بعد ذلك كنا نشهد وليمة مغربية حيث الأطباق تتشكل من الشوربة، والقطبان والطاجين. لم يكن هناك العديد من الزوار ذلك الصيف. قامت سوزان سونتاغ بزيارة خاطفة. وصل تينيسي، غير أنه كان يشعر بكآبة حتى أن طنجة نفسها لم تخلف لديه أثرا طيبا وغادر مرة أخرى قبل انقضاء أسبوعين. مرة أخرى كان العربي معي في المنزل كخادم. صار متوترا بشكل متزايد بشأن ردود الفعل الرسمية الممكنة إزاء الطبعة الفرنسية لكتابه التي ستنشره دار غاليمار قريبا. كان قلقه الذي يتم التعبير عنه باستمرار يجد طريقه إلي أنا الآخر فشرعت أفكر بأنه سيكون من الأفضل لو غادر المكان. حصلت له على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة؛ غادر مع بيل بورروز على متن الإندبندنت، ولم يعد أبدا إلى المغرب. في منتصف تشرين الثاني حينما عدت إلى طنجة كنت قد أنهيت عاليا *هناك فوق العالم*.

في الربيع ذهبت أنا وجين إلى الولايات المتحدة. خلال لحظة معينة أقمت مع جون غودوين في سانتافي. مرت خمسة وعشرون سنة على آخر زيارة لي للبلدة، غير أن التغيرات التي طالت المدينة لا تزال ظاهرية. ما تبقى من البلد يبدو الآن يميل نحو التلف، سانتافي هي المدينة الوحيدة في الولايات المتحدة التي تثير أقل درجة من الإشمئزاز. ذهبت إلى فلوريدا. تقلصت حركات أبي بشكل كبير حيث بات يجد صعوبة في التحرك، ولو بواسطة عكاز. كنت آخذه في جولات على الأقدام كل يوم. قام بترتيبات لحرق جثته بعد مماته. سألته لماذا يثير الموضوع معي، فغض الطرف عن ذلك.

حينما عدنا إلى طنجة في حزيران، أخذت أفكر بجدية في عرض ليتل براون لتأليف كتاب حول القاهرة ككتاب ضمن مشروع سلسلة من الكتب حول المدن. لم تكن إمكانية الذهاب إلى القاهرة للعيش هناك لمدة سنة أمرا مثيرا، وكلما فكرت في الموضوع بجدية أكبر، كلما تناقص حماسي. بعثت بسلسلة من الرسائل أقترح بعض المدن التي سيكون من الأسهل الإقامة فيها كمراكش وهونغ كونغ ولشبونة،

ولكن لأسباب متنوعة لا واحدة من هذه المدن حظيت بموافقتهم. كأمل أخير، أمل كنت واعيا بعبثيته، اقترحت بانكوك التي لا عهد لي بها والتي لا أعرف عنها شيئا. حينما وافق هاري ساينـــز على اقتراحي، كان شعوري مزيجا من الفرح والدهشة. فأنا لم أكن أتوقع موافقتهم، و لم أكن مستعدا لمواجهة اتخاذ قـــرار. كـــان مـــن المستحيل ترك جين بمفردها في المغرب في وضعيتها العصبية، غير أننا وضعنا برنامجا. سنذهب معا إلى نيويورك في الصيف القادم، هناك سأضعها في قطار متوجـــه إلى فلوريدا وأواصل رحلتي عبر الباخرة إلى التايلاند. بالنسبة لي، تعد الطائرة وســـيلة خاصة برجال الأعمال؛ أما أولائك الذين يجدون متعة في السفر فعادة ما يتمكنون من إيجاد بدائل أخرى للتنقل.

وأخيرا تمت إعادة نشر رواية جين *سيدتان حازمتان*، بعد أن صارت مفقودة لأكثر من عشرين سنة. لاقت طبعة لندن لصاحبها بيتر أووين نجاحا نقديا معتبرا، ومنذئذ تم نشر الرواية في خمس لغات أخرى. الآن طلب منها أووين مجموعة مـــن قصصها. أعلنت جين، التي كانت دوما مترددة جدا بشأن الرغبة في النشر علـــى الإطلاق، برضا بأنها لا تمتلك نسخا لقصصها. غير أنني حافظت على نسخ كنـــت قد وضعتها جانبا فقط تحديدا لمثل هذا الاحتمال. بعد ذلك زعمت بأنها لا تكفي لتكون كتابا. بحثت بين أكداس الأوراق وعثرت على الأوراق المقطعة لمقال قـــديم نشر بمجلة مادموزيل كانت قد أنجزته منذ سنين كثيرة، مصرا على أن تعيد كتابته في قالب ابداعي. في الأخير ملأت المادة كتابا صغيرا تم نشره تحت عنوان *متع بسيطة*.

كانت الحياة اليومية في طنجة على ضـــنها بالوحـــدة والفـــراغ اللامحـــدود الضروريين للكتابة الإبداعية تترك لي ما يكفي من فترات العمل لمدة قصيرة بحيـــث يمكنني أن أشغل نفسي بالترجمة. كنت أشتغل خلال الشتاء على ترجمـــة إنجليزيـــة لقصة مطولة كنت قد سجلتها بالدارجة المغربية، وهي من ابداع محمد لمرابط.

كان الزمن حينها شهر أيار، وأوائل الصيف على الأبواب وكنت على وشك الانطلاق للعيش وحيدا في بانكوك. انتظرت لأشعر بوميض المتعة الذي اعتقـــدت أنه سيرافق الإمكانية، غير أن ذلك لم يحدث أبدا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

18

خلال السنوات التسع التي كان لي خلالها مقر في إقامة إيتيزة صرت عاشقا للمكان. لم يكن هناك سبب معين لذلك، ماعدا أن المكان كان محايدا على المستوى الرؤيوي، كما أن غرف النوم تتوفر على منظر فسيح للأحياء المورقة أكثر من أي مكان آخر في طنجة، ناهيك عن آلاف المنازل والشريط البحري الذي يظهر في الأفق. غير أنني أحببت أيضا الليالي. أحيانا كانت هناك نقنقة الضفادع وصوت البوم القريب، وأحيانا كان هناك فقط صوت الجناديب والنباح البعيد المتقطع للكلاب. يصلني صوت المنادي في الصباح الباكر وهو ينادي للصلاة من سلسلة من المساجد البعيدة وأنا ممدد في سريري ساعة قبل الفجر. حينما يكون كل شيء في أقصى درجات الهدوء، يمكنني من نوافذي القيام بتسجيلات جيدة لطبول الأعراس والغيطة المنبعثة من قرية عين الحياني في الأسفل.

بعد سنوات من التمرين الصبور تمكنت جين من جعل كل من الشريفة وعائشة طباختين ماهرتين. بالرغم من أنها لم تعد تستطيع العمل في المطبخ كدأبها في الماضي، فإننا واصلنا تناول وجبات عشاء رائعة. أحيانا خلال هذه الفترة كانت متعة جين الوحيدة هي الأكل، غير أن فورات الأكل هذه كان يعقبها دائما صيام تفرضه على ذاتها على حين غرة. بعد ذلك تصير نحيفة جدا وبسرعة كبيرة، فيُصر حينها أصدقاؤها على أن تشرع في الأكل مجددا. لاحظت بأنني سأفتقد وجبات المساء بجوار المدفأة وساعة التمدد على الملاءات بعد ذلك. الآن وقد حان وقت الرحيل، بات واضحا فجأة أن هذه الأشياء كانت ذات أهمية عظيمة بالنسبة لي، وأنه بالرغم من أي نوع من الحياة سأحظى به في بانكوك فإنني سأكون حزينا لمغادرة طنجة.

في حزيران توصلت ببرقية تحمل خبر تعرض أمي لصدمة قلبية وأنها في غيبوبة. لم تسترجع أبدا وعيها. في الأسبوع الموالي توصلت بنبأ وفاة أبي. كنت أنا

وجين قد حجزنا قمرة على متن سفينة الاندبندننت لليوم الأول من تموز. لا حاجة لتغيير موعد الرحيل.

لسبب ما جعل موت والدي رغبتي في مغادرة طنجة تتناقص. من المحتمل جدا أن الصدمة كانت ملموسة بحيث بقيت في حالة من اللامبالاة؛ يمكن أن أستخلص فقط بأنني شعرت بذنب عميق لكوني اجتثت والدي من حياتي.

بعد أن كنت قد استعملت خط ويلهلمسن مرة وترك ذلك لـــدي انطباعـــا حسنا، فإنني اقتنيت تذكرة على متن باخرة تارنتيل المقرر لها مغادرة نيويـــورك في تموز. كان فرار وشتراوس وجيغو على وشك إصدار مجلد يحوي الأعمال الكاملـــة لجين، مع تقديم لترومان كابوت. حين وصولنا إلى نيويورك، تكفلوا بجين حيـــث نظموا برنامجها الاجتماعي وحرصوا على ان تحظى باحتياطات السفر عبر القطـــار إلى فلوريدا.

في اليوم الأخير قبل أن استقل باخرة تارنتيل قمت بزيارة لناشـــري بســـايمن وشوستر، فكان أن أتقلوني بكتب من أجل الرحلة. لحسن الحظ كانت الســـفينة جيدة، ذلك أنه كان علي أن أقضي أكثر من سبعة أسابيع على متنها، بما في ذلك توقفات ليومين أو ثلاثة بلوس إنجلس، وسان فرانسيسكو وهونغ كونغ، إضافة إلى انتظار عبثي لثمانية أيام بمرفأ مانيلا خلال إعصار.

لم تكن بانغكوك المدينة الخضراء والهادئة التي تتخللها القنوات والمعابد كمـــا كنت أتوقع. خلال السنوات الأخيرة فقدت الكثير من ألق التاي الأصلي حـــتى أن القليل المتبقي يبدو فاسدا وعبثيا ضمن الكثير من الغربنة المصممة. كان القـــاطنون الأجانب يجمعون بأنها ظلت كمكان قابل للعيش حتى وصول البارجة الأمريكيـــة. وبعد ذلك انهارت. حينما وصلتُ في صيف 1966 كانت تعج بالسكان على نحو لا أمل فيه كما أن طرقاتها تختنق بحركة مرور العربات. حيثمـــا ذهبـــت كانـــت الممرات المائية مليئة، أما تلك التي بقيت على حالها فقد صارت متعفنـــة ومليئـــة بالضجيج، فتواثرت العملية بسرعة متزايدة. كان شعوري بالإحباط القاســـي رد فعلي الأولي نحو المدينة.

كنت قد توصلت برسالة من جين في هونغ كونغ، غير أنني في بـــانكوك لم أتوصل منها بأي شيء إطلاقا. واصلت كتابة الرسائل إليها على عنـــوان أمهـــا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت قد توسلت إلي لكي ترافقني، غير أنني رفضت رفضا تاما، لمعرفتي بأن الطقس لن يكون مناسبا بالنسبة لها كما أن وجودها معي سيخلق وضعا سيعقد العمل. ظننت أنها الآن توجد في مزاج سيء وتعاقبني لأنني غادرت بمفردي. فجأة توصلت برسالة منها، بعثت بها من طنجة. كانت قد شعرت برغبة ملحة للعودة وبالتالي فقد أوجزت إقامتها في الولايات المتحدة لعدة أشهر غير أنها وهي الآن في طنجة، لم تستطع فهم، كما قالت، لماذا قد اتخذت القرار أصلا. فقد أوقعت نفسها في الوضعية تحديدا التي كنا نحرص بشدة على تجنبها. لم تصلني أية رسائل أخرى منها. واصلت الكتابة كل أسبوع لأخبرها عن حياتي ومحاولا إقناعها بالرد. في الأخير شرعت في إرسال رسائل إلى أصدقاء في طنجة، لأستفسر عن مكانها. كانت الإجابة قاطعة بشأن وجودها في طنجة، لكنها غامضة جدا إزاء سبب عدم ردها على رسائلي.

تبدو أغلب أحياء بانكوك شبيهة بالشوارع الخلفية للبرونكس الأسفل وقد تمت إعادة موضعتها في مستنقع فلوريدا. لم يكن الانتقال من مكان بالمدينة إلى مكان آخر عملا سهلا؛ فالتعقيدات والمخاطر المرتبطة بقطع الشوارع، المدة الزمنية التي يستغرقها إيجاد عربة أجرة، المسافات الكبيرة داخل المدينة حيث يتعذر على المرء الذهاب على الأقدام، الحر الشديد ودخان المحركات في الهواء- كل هذه الأشياء كانت عوامل مقنعة لعدم مغادرة الغرفة إلا نادرا. كنت أبقى في غرفة الفندق أطالع الكتب، أكتب أو أسجل موسيقى التاي من المذياع. على نحو غريب، كانت تذاع الكثير الكثير من موسيقى التاي التقليدية كل يوم.

كان أوليفر إيفانس، الذي كنت قد قابلته أول مرة في طنجة، ببانكوك يدرس بجامعة شولالونغ كورن. حينما وصلت كان قد عقد صداقات متينة مع الكثير من الرهبان البوذيين، وهكذا كنا نذهب معا لزيارتهم في معابدهم. أدركت فورا لماذا كان أوليفر يستمتع برفقتهم، بالرغم من العائق اللغوي الخطير ذلك أن أوليفر كان قد بدأ تعلم التاي ولم أكن من جانبي أعرف أية كلمة، كما أن تمكن الرهبان من اللغة الإنجليزية كان محدودا جدا؛ ومع ذلك فقد كانوا يوفرون إمكانياتنا الوحيدة للحديث الذكي في بانكوك. يستلزم الطقس الذي يتضمنه الوجود برفقتهم في أماكن العبادة نفس الصبر الذي يستغرقه زيارة عائلة برجوازية مغربية

في منـــزلها. كما هو الشأن بالنسبة للمغاربة فإن حساباتهم الزمنية كانت تتم وفق وحدات مدتها أطول بكثير من وحداتنا، حيث لا ينجز المرء أبدا أي شيء خـــلال ساعة أو ساعتين، ولكنه يقوم بذلك خلال نصف اليوم أو ربما اليوم بكامله. يجلس الرهبان برؤوسهم وحواجبهم الحليقة على الأرض، يسحبون رداءاتهـــم الصـــفراء حول أرجلهم، يبتسمون لأنهم لم يستطيعوا فهم لماذا غادرت للوصول إلى السفارة للحصول على بريدي قبل أن تغلق أبوابها. كانوا يسألون بينما تعتريهم الدهشـــة: "أترغب في الذهاب؟" "لا، ولكن علي ذلك." ثم يبتسمون أكثر بعد ذلك، لإظهار اللياقة أمام ما هو بالنسبة لهم بشكل واضح أمر خاطىء.

ذهبت رفقة أوليفر ومجموعة من الرهبان في رحلة حج إلى أيوداي، وخـــلال العودة أخذونا فعلا في رحلة خارقة للعادة بواسطة القارب عبر غابات من الأشجار الاستوائية جنوب بانكوك إلى معبد يدعى أوباريت وسط الأدغال.

حينما وصلت إلى نقطة محددة في تصميمي للكتاب، غيرت مكان إقـــامتي إلى شينغماي، مدينة لا تزال تتوفر على اشجار تظلل شوراعها ومعابـــدها العديـــدة، سواء التي انهارت أو التي لا تزال قائمة. خلال ذلك الزمن وعلى عكـــس أمـــاكن التدليك في بانكوك، كان في شينغماي فقط إثنان. كانت هذه تعتمد في تســـييرها على بعض عناصر البارجة الأمريكية الذين أتوا للراحة ورحلات الاستجمام مـــن الحرب في فيتنام. توجد أماكن التدليك على لائحة المواقع السياحية التي ينادي بمـــا المرشدون الذين ينتظرون في طابور في الحديقة كلما غادرت الفندق. بعد هذا يأتي الأفيون الذي يخزن منه الأطنان في محلات تجارية على طـــول المدينـــة. (حســـب التقديرات فإن خمسة وسبعين في المائة من الأفيون الطري على المستوى العالمي يمـــر عبر شيغماي.)

كان لدي جهاز تسجيل ستيريو كنت أضعه باستمرار خارج المعابد حيـــث يجري الإنشاد أو الموسيقى، كما كانت هنالك ظاهرة موسيقية في شييغناي شبيهة جدا بواحدة كانت توجد في فاس أربعون سنة خلت حينما وصلت هنـــاك لأول مرة. كان هذا تقليدا بموجبه يقوم أعضاء الطبقة الميسورة بتخليد شكل موســـيقي عتيق. في فاس يجتمع الأصدقاء بعد وجبة العشاء ويقومون بعـــزف ميـــزان مـــن الموسيقى الأندلسية؛ في شينغماي يقومون بتشكيل فرق موسيقية صغيرة ويجلسون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في منازلهم، في حلقة على الأرض يعزفون موسيقى عمرها سبعة قـرون، حينمـا كانت مدينهم عاصمة التاي. بطبيعة الحال عقدت العزم على محاولة تسـجيل أي موسيقى يمكنني الحصول عليها. لم تكن لدينا لغة مشتركة، غير أنهم كانوا مضيافين ومتعاونين، وتمكنت من القيام بالكثير من التسجيلات الجيدة. أحببت شعب التاي؛ يبدون عمليين وأذكياء، وبالرغم من أنهم سرعان ما يشرعون بالإسـاءة، فـإنهم ماهرون جدا في إخفاء مشاعرهم. لم أحب على نحو خاص العـيش في تايلانـد؛ بالرغم من ذلك، كان العامل الرئيسي هو أن السلطات كانت ترفض باسـتمرار منحي تأشيرة الإقامة لأكثر من أسبوعين. هذا الوضع المؤقت جعلني أشعر بعـدم الراحة. كان علي خلال العديد من المرات استئجار سيارة والتوجه شمـالا نحـو الحدود البورمية إلى مكتب هجرة بالقرب من بان شيانغ داو حيث أريهم جـواز سفري وأحصل على تأشيرة جديدة.

خلال أوقات عيد الميلاد توصلت برسالة من جوزيف ماك فييلس في طنجـة يطلب فيها مني تحويل قصتي القصيرة "الحديقة" إلى مسرحية. أجبته بأنني في خضم كتابـي حول بانكوك ولا يمكني حتى التفكير في ذلك. بعد ذلك شرعت في تخيل كيف سيكون بإمكاني كتابة المسرحية لو كان لدي الوقت لذلك. كانـت هـذه بداية التفكير في المشروع؛ مباشرة بعد أن شرعت في كتابتها، كتبت رسالة أخرى إلى جو حيث بدأت في التأمل في استحالة صياغة تلك المسرحية وانتهيت بتخطيط المشهد الأول. على هذا النحو وجدت نفسي بعد حين أكتب المسـرحية. كنـت أرسل إلى جو رسالة أو رسالتين كل يوم، وهكذا تشكل ما يمكنه اعتبـاره نـص المسرحية. على نحو يبعث على الدهشة، وجدت كل هذه الرسائل طريقها بأمـان من شينغماي إلى طنجة.

أعلمتني رسالة من طبيبة جين في طنجة بأن جين تعاني من التصاقات معويـة، كما أنها أشارت بأن تواجدي ضرورة ملحة. ونظرا لأنني كنت غارقـا في جمـع المعلومات الضرورية لتأليف الكتاب فقد أردت أن أبقى في تايلاند بالقدر الـذي تسمح لي به السلطات، غير أن ذلك لن يكون ممكنا.

أخذت القطار الليلي إلى بانكوك لاقتناء تذكرة مرور غربا. كانت السـفينة الدانماركية سيمبا متوجهة إلى سنغفورة، ميناء سويتنهام، بينانغ وجينوة.

كم كان رائعا الإبحار عبر خليج سيام وسط النسيم العليل، تاركا ورائي تلــوث وكآبة بانكوك. اعتقدت بأنني فشلت في مشروعي، وبأنني لم أتمكن من إنهاء الكتــاب بسبب فقدان المادة التوثيقية؛ غير أنه إذا كان الفشل هو الخاتمة فلا مفر من ذلك.

بقيت السفينة فقط ليوم بيناغ. لم يطرأ أي تغيير على الجزيرة خلال الاثنتــا عشرة سنة التي مرت منذ أن شاهدتها لآخر مرة، باستثناء أن حدائق الشلال، المنتزه العام الرائع لجورج تاون فقد خضرته التي تركها عليه البريطــانيون. وصــلت إلى طنجة في شهر آذار، آملا أن تكون جين فقط في مزاج معتكر لأنني كنــت قــد رفضت اصطحابها معي. غير أن المشكل كان أكثر خطورة. كانت تغرق في حالة كآبة عميقة جعلت النوم والأكل يكادان يقتربان من المستحيل. كانت الطبيبة ترى أنه يجب نقلها إلى مستشفى. لكن على أمل أن يحدث حضوري أي أثر إيجابــي، فقد قررنا أن ننتظر حوالي الشهر. بعد مرور ستة أسابيع، وافقت بامتعاض علــى الذهاب إلى إسبانيا والبحث عن مستشفى حيث يمكن إيواؤها. وجدت مصــحة بملاغا، وبعد أن وضعت الترتيبات مع الممرضة والطبيب المسؤول، عدت إلى طنجة لاصطحاب جين. لم توافق على الحاجة إلى المستشفى، لكنها ذهبــت علــى أي حال. أعتقد أن ذلك بسبب حالة اليأس. كانت كل مرة أقوم فيها بعيادتها تتوسل إلي لأخذها إلى طنجة، غير أنني لم ألب طلبها حتى أوائل آب.

بعد وصولنا إلى طنجة بيومين وصل مصور وكاتب من مجلة لايــف لإنجــاز قصة حول حياتنا. لأسبوع ونصف أقاما معنــا كظلالنــا - في المنــزل، وفي الشارع، وعلى الشاطئ وخلال أية التزامات اجتماعية كنا نقوم بها. خلال حفلــة أقامها جون هوبكيز، كانت هناك مجموعة من موسيقيي جيلالة للتــرويح علــى الضيوف. بالنسبة للأوربيين، تعد موسيقى جيلالة لونا موسيقيا شعبيا مغربيا يعزف على أنواع من المزامير الطويلة وذات رنة منخفضة وطبول يدوية منبسطة عريضــة. أما بالنسبة لعضو من أعضاء المجموعة، فإنها سلسلة مــن التعــاليم الكوريغرافيــة الصريحة، كلها موضوعة لإحداث حالة من الجدبة أو التملك. هكذا كان أن أخذ محمد المرابط، الذي كان جون هوبكينــز قد دعاه بكل براءة إلى حفل العشاء، في الرقص إضافة إلى بعض الضيوف. لكن نظرا لانتمائه إلى الطريقة فــإن مشــاركته مرت بعد حين من حالة عادية إلى أخرى أكثر جدية، ولم يمر وقت كبير قبــل أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ينساب في غمرة هذه الشطحات. كان الموسيقيون، بدل أن يميلوا إلى التدخل، مبتهجين لأنهم وجدوا ضمن الضيوف شخصا محترفا. ومع ذلك فإن الضيوف الآخرين لم يلحظوا ما كان يجري هناك في الجهة القصوى من السطح. فجأة وقع سقوط وانفجار لجمرات ملتهبة كانت تنزل كشلال على الراقصين. انتصبتُ واقفا. كان المرابط يحمل في يده سكينا طويلا معقوفا. كان جون قد رآه أيضا، وهكذا توجه إليه هو وثلاثة رجال آخرين. في الفوضى على السطح وسط قطع الفحم المتوهجة، تمكن جون من لوي ركبته وقضى الأسبوع التالي راقدا في السرير. أما بالنسبة للمرابط، فإن الصدمة النفسية الناتجة عن مقاطعته وهو في طقسه كانت من الدرجة بحيث استغرقت عودته إلى الوعي حوالي الساعة أو أكثر من الموسيقى. ما كان ممكنا أن يعود إلى حالته الطبيعية دون مساعدة الموسيقيين الذين كانوا يعزفون على نحو متسق الموسيقى اللازمة له حتى استفاق وأصبح قادرا على الكلام. بدا مستحيلا مقاطعة شخص مسلم وهو في هذه الحالة. تذكرت ما كان قد حدث لجدة التمسماني التي أخذت تمشي وهي نائمة عبر الريف باتجاه الصوت البعيد لموسيقى جيلالة. حينما توقفت الموسيقى، وقعت حيث كانت واقفة ورقدت هناك الليلة بكاملها. حينما عثروا عليها، بدت غارقة في النوم بالرغم من أنها كانت ممدة فوق تل للنمل وتحمل لسعاته. كان على العائلة العثور على نفس المجموعة الموسيقية وأخذها إلى المنزل. لم تستعد العجوز وعيها إلا بعد أن تم عزف موسيقى خاصة. في مساء الحفلة، بعد أن استرجع المرابط وعيه، رأت جين بأن التجربة يمكن أن تجعله غير مناسب لقيادة السيارة بنا إلى المنزل. لكن شأنه شأن من عاد للتو من حالة الجذبة اكتفى بالقول: "لا جسد لوزني، يخامرني إحساس رائع." تفاجأ صحافيو مجلة لايف حينما علموا بأن ما تمت الحيلولة للتو دون مشاهدتهم، طقس جلد الذات، هو النتيجة الطبيعية، وفعلا الهدف الوحيد للموسيقى التي كانوا يستمعون إليها طوال المساء.

كنت أشتغل بجد على أمل أن أكون قادرا على تأليف الكتاب حول بانغوك من خلال المادة التي كنت قد دونتها سابقا. أخيرا، بدل أن أسمح لنفسي بالانزلاق إلى حالة من اليأس، كتبت إلى ليتل براون رسالة أعتذر فيها عن عدم قدرتي توفير المخطوط لهم. بعد مدة قصيرة كان أليك ووف في منزلي لتناول

مشروبات. خلال حديثنا وصلنا موضوع الكتاب المهجور، سألته لماذا لا يتولى هو المهمة. أثارت الفكرة اهتمامه وكنتيجة لذلك، ذهب هو أيضا إلى تايلاند لتأليف كتاب لليتل براون؛ الفرق هو أن كتابه أنجز ونشر.

كان كتاب المرابط الأول *الحب مع بعض الشعيرات* قد ظهر في نيويورك ولندن معا، حيث أنتجته البي بي سي للتلفزة. ثم تشجيعه جراء ذلك لتسجيل رواية ثانية أكبر حجما، عنوانها *الليمون*. عملت على ترجمتها خلال فصلي الشتاء والربيع التاليين. تدهورت صحة جين مرة أخرى. في كانون الثاني رافقتها إلى المستشفى في مالاغا، وهناك بقيت حتى الصيف. خلال تلك الأثناء سجل المرابط سلسلة من القصص ترجمتها حينما كان لدي متسع من الوقت، كما أن لورنس فيرلنغيتي نشر المجموعة بسيتي لايتس تحت عنوان *المحاشيش*.

خلال الستينيات توصلت برسائل كثيرة من كليات عديدة في مناطق مختلفة من الولايات المتحدة تعرض علي قضاء مدة سنة واحدة كأستاذ زائر. نظرا لخطاياي المستحيلة التي توجد محفوظة في الأرشيف، فقد بدا العرض غير جدير بالعناية، ولو أثار ذلك اهتمامي. وفعلا، حينما كتبت إلى الكلية في فلوريدا، ذلك أن المكان لم يكن بعيدا عن منزل الوالدين، وكان ذلك سيكون مصدر متعة أن أكون بجانبهم، ردت الكلية بسرعة بأن ذلك غير ممكن، على أي حال. حينما اقترح أوليفر إيفانس الكلية الحكومية بسان فرناندو فالي، على أن أشرع في التدريس في خريف 1968 لم أبال كثيرا بهذا العرض بالرغم من جاذبيته، ذلك أن طبيبة جين قالت بانها ستبقى في المستشفى لشهور عديدة إضافية. ومع ذلك لسبب غير مفهوم وافقوا على ضمي هناك وأن يسمحوا لي باتخاذ القرار عند نهاية فصل واحد إذا ما كنت أرغب في البقاء معهم لفصل آخر.

وهكذا ذهبت إلى كاليفورنيا ودرست الكتابة السردية والرواية الأوربية الحديثة. لم يكن المقام مختلفا كثيرا عما كنت أتخيله، باستثناء أن الناس كانوا في أفضل حال وظروف عيشهم أكثر سوءا. وصلت الكثير من عناصر الكابوس الذي استغرق وقتا في النمو الآن إلى حالته الكاملة في ضواحي لوس أنجلس. حينما انتهت الشهور الأربعة، عدت مسرعا إلى طنجة. توقفت في فلوريدا لبيع المنزل وكل شيء فيه ما عدا التحف الفضية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عدت بجين من إسبانيا، في حالة صحية أسوء بكثير من المرة الأخيرة، ووضعتها في الشقة السفلى مع ممرضة وخادمة، غير أن جين تعودت على العيش في المستشفى، وكانت بحاجة إلى نوع من الرعاية كانت معتادة عليها هناك. حذرني الأطباء بأن تجربتي مآلها الفشل؛ غير أنني حاولت على أي حال. حينما غدت نحيفة على نحو ينذر بالخطر، أخذتها مرة أخرى إلى إسبانيا. هناك في الجو الأليف للمستشفى استرجعت قليلا من وزنها السابق.

لم أختر العيش في طنجة على الدوام؛ لكن ذلك حدث. كان المقصود من زيارتي أن تكون لمدة وجيزة؛ بعد ذلك سأنتقل إلى مكان آخر، وسأواصل الحركة إلى الأمام دون توقف. اعتراني الكسل وأجلت الرحيل. بعد ذلك حل اليوم الذي أدركت فيه والصدمة تهزني بأن العالم لم يعد يحتوي على أعداد أكبر من البشر كما كان عليه فقط منذ مدة قصيرة قبل ذلك، ولكن أن الفنادق غدت أقل جودة وأن السفر أقل راحة، وأن الأماكن على العموم أقل جمالا. بعد ذلك كلما ذهبت إلى مكان آخر فإنني أحن فورا للعودة إلى طنجة. هكذا إذا كنت هنا الآن، فذلك يعود فقط لأنني لازلت هنا حينما استنتجت إلى أي حد ساءت أحوال العالم، وبأنني لم أعد أرغب في السفر. كدفاع عن المدينة يمكنني القول إنها إلى حد الآن ظلت أقل تعرضا لبعض الجوانب السلبية للحضارة المعاصرة قياسا بمعظم المدن في حجمها. ناهيك عن ذلك، فأنا أجد متعة خاصة في الليل حيث يحفر السحر خلال نومي قنواته غير المرئية في كل اتجاه، من آلاف المرسلين إلى آلاف المستقبلين دون أن يكونوا على علم بذلك. يلقي السحر بكلكله، بينما يجري السم في مجراه الخاص، وتجرد الأرواح من شبه الوعي الطفيلي الذي يرقد في الأماكن القصية غير المحروسة للذهن.

هناك قرع للطبول في الخارج أغلب أوقات الليل. لم أفق أبدا على قرعها؛ أسمعها فتغدو جزءا من حلمي، كما الأصوات الليلية للمؤذنين. حتى في الحلم حينما أكون في نيويورك، فإن أول صوت للمؤذن وهو يقول "الله اكبر" يغطي على وجودي الآني ويحمل أي شيء يأتي بعد ذلك إلى شمال إفريقيا ويواصل الحلم مجراه.

الآن، منذ أن شرعت في كتابة هذا الكتاب، أبقى في طنجة لشهور متتالية دون انقطاع، أختار الشذرات العديدة من الذكريات التي تفي بأغراضي. يتم استعمال الشذرات لإعادة بناء، هيكل متواصل، لبنة لبنة، مع مراعاة عدم إقحام

أي جزء لا يتناسب مع الكل. وكما أرى الأمور، فإن هذا الاحتياط يعني القيام بجهد للتحفظ في إصدار الأحكام والعزم على إعطاء أقل قدر ممكن من الأهمية للمواقف الشخصية. إن كتابة سيرة حياة ليست بالعمل المرضي في أحسن الأحوال. لعلها نوع من الكتابة الصحافية، حيث التقرير، بدل أن يكون تقرير شاهد عيان على الحدث، هو مجرد ذكرى لآخر مرة يتم فيها تذكر ذلك. يشرح بورخيس الأمر حينما يورد حكاية عن محاولة أبيه أن يوضح له كيف أن الذاكرة غير جديرة بالثقة. يضع قطعة نقدية على الطاولة ويلقبها الصورة ذاتها. ثم يضع قطعة نقدية أخرى فوق القطعة الأولى ويسميها الذكرى الأولى للصورة. القطعة النقدية الثالثة هي ذكرى الذكرى السابقة، وهكذا دواليك. وما دامت الأمور على هذا النحو، فليست كتابة سيرة ذاتية ذلك النوع من العمل الذي يُتوقع أن يرغب جل الكتاب القيام به. ناهيك عن أن حكاية ما حدث لا يصنع بالضرورة قصة جيدة. في حكايتي، مثلا، لا توجد انتصارات مؤثرة ذلك أنه لا يوجد صراع في الأساس. أتلكأ وأنتظر، يبدو لي أن هذا يجب أن يكون ما يقوم به أغلب الناس؛ المناسبات التي يمكن القيام فيها بأكثر من ذلك أصبحت نادرة فعلا.

يزعم المغاربة بأن المشاركة الكلية في الحياة يتطلب التأمل المنتظم للموت؛ أوافق على هذا الرأي دون تحفظ. لسوء الحظ أنا عاجز عن تصور موتي دون وضعه في السياق الأكثر رعبا للشيخوخة. هكذا أتصور نفسي دون أسنان، يشل العجز حركتي، معتمدا تماما على شخص أؤدي واجبه ليرعاني ويمكنه في أية لحظة أن يغادر الغرفة وألا يعود أبدا. بطبيعة الحال هذا ليس مطلقا ما يعنيه المغاربة بتأمل الموت، سينظرون إلى تخيلاتي كنوع حقير من الخوف. إن شفاء ثقافة ما هو مصدر عذاب بالنسبة لثقافة أخرى. "وداعا،" يقول الرجل الذي يحتضر وهو يحدق في المرآة التي يمسكونها أمامه."لن نرى بعضنا البعض بعد الآن." حينما استشهدت بمقولة فاليري في *السماء الواقية*، بدا ذلك جزءا حادا من الخيال. الآن، ولأنني لم أعد أتخيل نفسي مجرد مُشاهد، ولكن كبطل مركزي، فإن ذلك يبدو لي باعثا على الاشمئزاز. لإصلاح الأمر، سيكون على الرجل المحتضر أن يضيف كلمتين اثنتين إلى وداعه المقتضب، ويقول: "شكرا لله."

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بدون توقّف

سيرة ذاتية

بول بولز

جاء بول بولز (1910-1999) إلى طنجة بتحريض من الكاتبة الأمريكية المقيمة بباريس جترورد شتاين. فقد بدا لها الشاب مشوش الذهن، حائرا بين النوتات الموسيقية و مسالك الشعر و قد ظنت أن طنجة بما تجمعه من تناقضات ستتيح متسعا للتأمل و التفكير فيما قد يتخذه مستقبله من شكل أو أشكال، لا سيما أن رفيقه في الرحلة كان هو الموسيقار الأمريكي آرون كوبلاند. ومع أن بولز كان يعتبر نفسه شاعرا إذ سبق له أن نشر بعض القصائد في مجلة سوريالية باللغة الفرنسية، فإن شتاين كانت تعتبر هذه المحاولات مجرد تفاهات تثير اشمئزازها أكثر من إعجابها. و مع ذلك سيواصل كتابة الشعر و تأليف الموسيقى و ستكون طنجة المبتدأ و الخبر في سيرة حياة كان عنوانها العريض هو الارتحال بين جغرافيات طبيعية و ثقافية مختلفة. سيكتب بولز أيضا نصوصا ابداعية تتراوح ما بين الرحلة و القصة القصيرة و الرواية و سيكون المتن هنا كما هي اللحمة في توليفاته الموسيقية أحداثا و شخوصا تمتح من واقع طنجة و من مدن إنسانية أخرى شدت نظره و هو يحاول إعادة سيرة جده الذي كان في زمن ما ينتقل بين مختلف الولايات الأمريكية و نادرا ما يقضي ليلتين متتاليتين في المكان ذاته. ولعل عناوين من قبيل «السماء الواقية،» و « بيت العنكبوت،» و «دعه يسقط،» و «هناك عاليا فوق العالم،» و مجاميعه القصصية و نصوص الرحلة و ترجماته للعديد من النصوص المغربية إلى اللغة الانجليزية كنصوص محمد المرابط و محمد شكري تشير إلى هذا المنحى و تعبر عن هوسه بفضاءات ثقافية غريبة، و لعلها غرائبية، سيصيغها إبداعا و سيضفي عليها قناعاته الوجودية و الجمالية فيبدو كما لو أنه أحد شخوصها أو شخصية انبثقت على حين غرة من عالم ألبير كامو.

مكتبة بغداد

ISBN: 978-614-01-0961-2
9 786140 109612

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

دار الأمان
الرباط

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com - www.nwf.com

https://telegram.me/maktabatbaghdad